

آسني سييرستاد

بائع الكتب في كابول

«هذا هو الوصف الأكثر حميمية لحياة عائلية أفغانية الذي استطاع صحفي غربي كتابته على الإطلاق... تعتبر سييرستاد مراقبة حادة الملاحظة وشاعرية أحياناً». – نيويورك تايمز بوك ريفيو

مغتنمة فرصة نادرة، تقوم الكاتبة الشقراء البالغة الثالثة والثلاثين من عمرها بتتبُّع حياة أعضاء مختلفين من عائلة خان لمدة ثلاثة أشهر لترسم مجموعة من الصور النابضة المحيِّرة. ومن خلال برقع العباءة (البوركا) التي فرضها الإسلاميون الأصوليون، تكتب عن أرض غبراء يضربها الجفاف في الوقت الذي تتراجع فيه عنها قبضة الأصوليين الإسلاميين ويجد أهلها أنفسهم وسط أزمة هوية... ولكن على خلفية من المباني المدمَّرة بالقذائف والعابقة بالغبائر، فإن الحياة تأخذ مجراها: فالناس ينغمسون في النميمة، ويميل بعضهم إلى البعض الآخر، ويأكلون الحلوى، ويتوقون إلى حياة أفضل.



هذه الحياة اليومية لشعب أفغانستان يتم تصويرها عبر متابعة يومية لرجل شديد الإيمان بنفسه، استطاع خلال ثلاثة عقود من الزمن، وتحت الأنظمة القمعيّة المتعاقبة، أن يتحدّى الاضطهاد ببطولة كي يؤمِّن الكتب للناس في كابول، مما استدعى إعجاب العالم، وتحولت سيرته كتاباً استثنائياً بين الكتب الأكثر مبيعاً في العالم. «بائع الكتب في كابول» كتابٌ مدهش في حميميته، وفي تفاصيله - إنه كشفٌ عن مأزق الإنسان في أفغانستان، وهو نافذة على الحقائق المدهشة للحياة اليومية في أفغانستان الحديثة.

تلقّت **آسني سييرستاد** العديد من الجوائز بسبب أعمالها الصحافية، وكانت تعمل مراسلةً من مناطق تمزّقها الحروب من أمثال: الشيشان، والبلقان، وأفغانستان، والعراق. وهي تتقن خمس لغات، وتعيش في النرويج.


ISBN 978-9953-87-665-8

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

بائع الكتب في كابول

تأليف
آسني سييرستاد

تعريب
المحامي حليم نصر

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Bookseller of Kabul
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً
Published by agreement with Leonhardt & Høier Literary Agency A/S
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

This translation has been published with the financial support of NORLA

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-665-8

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions. elikhtilef@gmail. com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp. com. lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. asp. com. lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

تمهيد

كان سلطان خان أول الناس الذين التقيتهم عند وصولي إلى كابول في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2001. وكنت قد أمضيت ستة أسابيع في أفغانستان بصحبة رجال الكومندوس التابعين لقوات التحالف الشمالي؛ أمضيتها في الصحراء المحاذية لحدود طاجيكستان، كما في جبال هندو كوش، كما في وادي بانشير، كما عند العتبة الشمالية لمدينة كابول. كنت أتتبّع هجوم هذه القوات ضد قوات طالبان. وكنت قد تعوّدت النوم على الأراضي الصخرية، وفي الأكواخ المبنية من الطين، وعلى خط الجبهة. كما كنت قد اعتدت على التنقل في صناديق الشاحنات، وفي العربات العسكرية وعلى صهوات الخيول، بالإضافة إلى المشي على الأقدام.

وعندما سقطت قوات طالبان، اتخذت طريقي نحو كابول بصحبة القوات الشمالية المتحالفة. وفي دكان للكتب حدث لي أن التقيتُ رجلاً أنيقاً أشيب اللحية. ولأنه كان قد مضى عليَّ بضعة أسابيع بين الركام وتحت دخان البارود، حيث كانت الأحاديث تتركز حول تكتيكات الحرب والتقدم العسكري، فقد راقني ورفع معنوياتي قيامي أخيراً بتصفح أوراق الكتب؛ والتحدث مع شخص ما، في شؤون التاريخ والأدب.

كانت رفوف مكتبة سلطان خان مثقلة بالكتب المكتوبة في لغات عديدة: فمن المجموعات الشعرية، إلى الأساطير الأفغانية، إلى كتب التاريخ، فإلى الروايات. لقد كان سلطان بائعاً جيداً؛ إذ إنني لم أغادر دكان كتبه إثر زيارتي الأولى له إلاّ وأنا أخرج متأبطةً سبعة كتب. وهكذا صار من عادتي أن أعرّج على مكتبته كلما وجدتُ متسعاً من الوقت كي أنظر في الكتب وأتجاذب أطراف الحديث مع صاحب المكتبة اللافت، وهو أفغاني محب لبلده حتى الشغف، ومع ذلك فإنه يشعر أن بلاده تقوم بإذلاله بين كل وقت وأوان.

"في بادئ الأمر، أقدم الشيوعيون على إحراق كتبي، ثم جاء المجاهدون بعد ذلك لتخريب المكتبة ونهبها، وأخيراً أكملت جماعة طالبان إحراق ما تبقّى مرة جديدة"، كان قد أخبرني.

وهكذا أنفقت ساعات وساعات فيما أنا أستمع إلى روايات بائع الكتب هذا، عن معاركه ضد الأنظمة السياسية، وما لديها من مراقبين لحرية الفكر، كيف خاض حربه الشخصية العتيدة، منفرداً وكيف كان يقوم بإخفاء كتبه عن أعين البوليس، وكيف كان يقوم بإعارتها للآخرين بغية إخفائها؛ وأخيراً، كيف أُودع السجن بسبب كتبه هذه.

لقد كان دأبُ هذا الرجل محاولة إنقاذ آداب بلاده وفنونها في الوقت الذي تعاقبت فيه سلسلة من المستبدّين الذين لم يوفروا جهداً لتدمير هذا الأدب وذاك التراث. لقد أيقنت أن هذا البائع نفسه قطعة حيةً من تاريخ أفغانستان الثقافي. ولا أبالغ إذا قلت إنه كتاب تاريخ يسير على قدمين بشريتين.

في أحد الأيام حصل وأن دعاني الرجل إلى بيته لتناول وجبة عشاء. كان أفراد عائلته - إحدى زوجتيه، وأولاده، وبناته، وأخوه،

وأمــه وبعــض أبناء أخته - يجلسون على الأرض حول مائدة سخية. وكـان سـلطان يـروي القـصص والنوادر؛ بينما أولاده يمزحون ويتـضاحكون، وكـان الجو رخياً، غير متوتر، ولم يكن هنالك مجال لمقارنة هذه الوجبة بالوجبات البسيطة التي كنت أتناولها في رفقة رجال الكومـندوس في الجـبال. لكـنني سرعان ما لاحظتُ أن النسوة كنَّ مقتصدات في الكلام. فزوجة سلطان الجميلة التي لم تكمل العشرين من عمـرها جلست صامتة إلى جانب الباب تحمل طفلة بين ذراعيها. أما زوجـته الأولى فلـم تكـن موجودة في ذلك المساء. أما بقية النسوة الحاضـرات فقد كنَّ يكتفين بإجابة الأسئلة التي تلقى عليهن، ويتقبّلن الثناء على وجبة الطعام، لكن واحدة منهن لم تبادئ أحداً بأي حديث.

وعـندما غـادرت منـزل هذه العائلة في تلك الليلة فقد قلت لنفـسي: "هذه هي أفغانستان. وكم سيكون الأمر ممتعاً لو تيسّر لي أن أضع كتاباً عن هذه العائلة".

وفي الـيوم الـتالي زرت سلطان في مكتبه، وفاتحته بالفكرة التي خطرت في بالي.

"فكرة لا بدّ من شكرك عليها". هكذا أجابني.

"لكن هذا يعني أنه لا بدّ لي من القدوم للعيش معكم".

"أهلاً بك ومرحباً".

"كمـا لا بـدّ لي مـن التجوال في صحبتكم، ومن العيش على طريقتكم. أي معك، ومع زوجتيك وأخواتك، وأولادك".

"أهلاً وسهلاً بك". قال مرة ثانية.

* * *

وفي يـوم غـائم من أيام شهر شباط/فبراير انتقلت للعيش مع أفـراد تلـك العائلـة. وكانـت مقتنياتي تقتصر على حاسوبـي

الشخصي، وعلى بعض الأقلام والدفاتر، بالإضافة إلى هاتفي الخلوي وما كنت أضعه على بدني من ثياب. فقد كان كل شيء قد فُقِد مني على الطريق، في مكان ما في أوزبكستان. ولقد رحّب بي أفراد العائلة بالأحضان، ثم بدأت أشعر تدريجياً بالراحة في داخل الملابس الأفغانية التي أعيرت لي. كما كنت قد أعطيت فراشاً أمده على الأرض لأستلقي عليه حينما أذهب للنوم، إلى جانب فراش ليلى، الأخت الصغرى لسلطان وكانت العائلة قد أوكلت إليها مهمة رعايتي والسهر على راحتي.

"إنك طفلتي الصغيرة"، قالت لي هذه الفتاة التي لم تتعدَّ التاسعة عشرة من عمرها في الليلة الأولى. "ويطيب لي أن أكون في خدمتك". هذا ما أكدته لي منذ البداية، وكانت تثب إلى قدميها في كل مرة حالما أفيق من نومي.

وكان سلطان قد وجّه أوامره إلى العائلة كي يقدموا لي كل ما أشاء وأريد، كما أنه كان قد أخبرني في وقت لاحق أن كل من لا ينصاع إلى هذا الطلب كان لا بدّ له من أن يلقى عقابه.

وكانت تقدّم لي وجبات الطعام، وأكواب الشاي، على امتداد يومي. وهكذا، بدأت أندمج في حياة هذه العائلة شيئاً فشيئاً. وكان أفرادها يخبرونني عن الأشياء عندما يشعرون أنهم مهيأون لذلك، وليس عندما يطيب لي أن أسأل. إذ لم يكونوا بالضرورة في مزاج الكلام عندما يكون الحاسوب الشخصي جاهزاً بين يديّ، بل ربما خلال رحلة إلى البازار، أو في الحافلة، أو في وقت متأخر من الليل بينما يستلقي كلٌ على فراشه. وكانت معظم الإجابات تأتي تلقائية وفورية على شكل استجابات لأسئلة لم أكن أملك خيالاً واسعاً لطرحها.

* * *

وإذا كنت قد قمت بكتابة هذا الكتاب في حلة أدبية، فإنه رغم ذلك، مبني على أحداث حقيقية أو على أحداث أخبرني عنها أناس حقيقيون كانوا قد شاركوا فيها.

أما عندما أقوم بشرح الأفكار والمشاعر، فإن نقطة ابتعادي عن الحدث تكون هي المسافة التي أخبرني أولئك الأشخاص بأنهم قد اعتقدوا الشعور بها في كل موقف بعينه. وقد يسألني القراء، "وكيف يمكنك أن تعرفي ما الذي يدور في رأس كل فرد من أفراد العائلة؟" والجواب، ليس لي أن أعرف ذلك بالطبع، فإنني لست كاتبة أملك قدرات خارقة قادرة على اختراق الأذهان والضمائر. أما الحوار الداخلي، والمشاعر، فهي مبنية بكاملها على ما أفضاه أفراد هذه العائلة إليّ.

ولم أكن مرة قد تمكنت من إتقان اللغة المحلية التي تتخاطب بها العائلة (داري) وهي لهجة محكية من اللغة الفارسية تنطق بها عائلة خان، لكن عدة أفراد من أبناء هذه العائلة كانوا قادرين على التخاطب باللغة الإنكليزية. هو أمر غير مألوف؟ نعم ولكن حكايتي هذه الآتية من كابول هي حكاية تخص معظم العائلات الأفغانية اللااعتيادية. فعائلة صاحب مكتبة لا بدّ لها من أن تكون عائلة متميزة في بلد لا يحسن ثلاثة أرباع مواطنيه لا الكتابة ولا القراءة.

وكان سلطان قد التقط صيغة بهيجة ومطنبة في لغته الإنكليزية، وذلك من خلال قيامه بتعليم أحد الدبلوماسيين لهجته المحلية المذكورة من اللغة الفارسية. فلقد كان قادراً على الإفصاح لي عن مخاوفه، والتعبير لي عن تجاربه في الحب. لقد شرح لي كيف أنه أراد أن يلقي بكل ذاته في عملية تطهُّر دينية، فسمح لي مراراً بمرافقته في زيارته إلى

"المزار"، كرفيقة رابعة متنكرة الهوية كما جرى دبجي في رحلة عمل إلى كـــلٍّ من بيشاور، ولاهور، وفي رحلات للبحث عن أسرار "القاعدة" كما في رحلات التسوق في البازار، وإلى الحمام، وإلى حفلات الزواج ومناسبات إعداد الزواج، وذلك إلى جانب زيارات إلى المدرسة، وإلى وزارة التعليم، وإلى محطة البوليس، وإلى السجن.

وإنني لم أشارك في أي دور شخصي في مصير جميلة الدراماتيكي، ولا في قـــرارات رحـــيم الله. وكنت قد سمعت عن قيام سلطان بخطبة صـــونيا مـــن أولئك الذين تعنيهم القصة، أي: من سلطان نفسه، ومن صونيا، ومن والدة سلطان، ومن أخواته، ومن أخيه، ومن شريفة.

ولم يكن سلطان ليسمح لأي شخص آخر من خارج أفراد عائلته بأن يعيش في بيته، وهكذا فقد قام هو، ومنصور وليلى بدور المترجمين الـــشفهيين لي. وهـــذا الأمر بالطبع، قد أعطاهم تأثيراً يمكن أن يكون كبيراً في صياغة قصة عائلتهم، لكنني قمت بالاحتياط لذلك عن طريق المقارنـــة بين الروايات التي يرويها كل من المترجمين المذكورين، وكما كـــنت أطـــرح السؤال نفسه بواسطة كل منهم، وكان الثلاثة يمثلون التباين الكبير بين أفراد العائلة.

وقـــد عرفت العائلة بكاملها أن هدف وجودي بينهم هو لتأليف كتاب. لذلك فإنهم إذا وجدوا أن هنالك ما لا يريدونني أن أكتب عنه، فـــإنهم كانوا يخبرونني بذلك. ومع ذلك، فإنني اخترت أن أترك عائلة خـــان وغيرها من الأفراد الذين أستشهد بأقوالهم في حالة مغفلة ودونما ذكـــر لأسمـــائهم. ولم يكن أحد قد طلب مني اللجوء إلى هذا التدبير. وكل ما في الأمر أنني ارتئيته مناسباً.

كانت أيامي هي ذاتها أيام هذه العائلة. إذ كنت أنهض عند فجر النهار على لغط الأطفال كما على أوامر الرجال. وكنت أنتظر دوري

للدخول إلى الحمام، أو أتسلّل إليه عندما يكون كل واحد قد فرغ من شأنه فيه. وفي الأيام السعيدة كنت أجد أن هنالك بقية من الماء الساخن قد بقيت لي، لكنني سرعان ما تعلمت أن كوباً من الماء البارد يُلقى على الوجه يمكن أن يكون له تأثير منعش أيضاً. أما بشأن بقية نهاري، فإنني كنت أصرفه في البيت بين النساء، وفي زيارة أقارب العائلة، أو الذهاب إلى البازار، وإلاّ فإنني كنت أرافق سلطان وأولاده إلى المحل، أو في جولات في المدينة أو في سفرات. أما في الأمسيات، فإنني كنت أشارك العائلة وجبة العشاء، ثم أشرب الشاي الأخضر حتى يحين موعد الإيواء إلى الفراش.

لقد كنت مجرد ضيفة على العائلة، لكنني سرعان ما رأيت نفسي كأنني في بيتي. لقد عاملني الجميع معاملة حسنة لا تصدَّق. فكل العائلة كانت كريمة معي ومنفتحة. فلقد أمضينا الكثير من الأوقات الجميلة، لكنني نادراً ما شعرت بنفسي بأنني غاضبة مثلما كان حالي أثناء وجودي مع عائلة خان، فإنني نادراً ما تجادلت مع الآخرين إلى الحد الذي بلغته في منزلهم. و لم تنتابني مرة رغبة في الاشتباك بالأيدي مع أي شخص كان مثلما كانت تنتابني هذه الرغبة أثناء وجودي معهم في بعض الأحيان. فالأمر نفسه كان يستثيرني على الدوام: طريقة معاملة الرجال للنساء. فالتسليم بسيادة الذكور على الإناث كان أمراً مغروساً في أنفس الجميع بحيث إنه كان نادراً ما يتوقف أحد عنده بتساؤل أو نقاش.

وإنني لأتخيّل أنهم كانوا قد اعتبروني من المخلوقات مزدوجة الجنس. فكإنسانة آتية من الغرب كنت أستطيع أن أتمازج مع كل من الرجال والنساء. أما لو كنت رجلاً، فلم يكن ليسمح لي أبداً أن أعيش إلى هذه الدرجة من الاقتراب من نساء البيت دون أن أستثير

بـــذلك مـــوجة مـــن النميمة التي كانت لا شك سوف تطوف بها الألـــسن. وفي الوقت نفسه لم يكن هنالك أي مانع من وجود امرأة في عالم الرجال وعندما كانت تُقسم الموائد بين الرجال والنساء في غرفتين مستقلتين، فإنني كنت المخلوق الوحيد القادر على الطواف بحرية بين الجماعتين.

وقد كنت معفاة من الالتزام بالزي النسوي الأفغاني الصارم، كما كـــان باســـتطاعتي الذهاب إلى حيث أشاء. ومع ذلك فإنني كنت في العـــادة ألـــبس زي الـــ: "بوركا" لأن ذلك يسمح لي بكل بساطة أن أُتـــرك وشأني. فكل امرأة غربية تسير في شوارع كابول كان لا بدّ لها من أن تستثير اهتمامات غير مرغوب بها.

ومـــن تحت البوركا كنت أستطيع أن أحدِّق بنظراتي كما يرغب قلبـــي ويشتهي دون أن يحدِّق إليّ أحد بنظرات مقابلة. وكنت أستطيع مراقبة أفراد العائلة الآخرين عندما يكونون خارج البيت دون أن يتوجّه انتباه كل منهم نحوي. فانعدام تمييز الشخصية قد صار لي بمثابة انفكاك من الإسار في أي مكان وجدت فيه نفسي. فالأماكن الهادئة والمعزولة في كابـــول كانـــت قليلة الوجود. كما أنني كنت ألبس البوركا كي أســـتطيع أن أختبر بنفسي كيف يمكن أن يكون حال المرأة الأفغانية. كـــيف يكون شعورها مثلاً عندما تحشر في الصفوف الخلفية المكتظة، المتـــروكة للنساء بينما تكون معظم المقاعد الأمامية لحافلة ما، خالية. وكـــيف يمكـــن أن يكون شعورهن عندما تحشر الواحدة منهن داخل صـــندوق ســـيارة التاكسي لا لسبب سوى لأن رجلاً يجلس في المقعد الخلفي للسيارة. وكيف يمكن أن يكون شعور المرأة التي تحملق الأعين في عباءتها الطويلة الجذابة حيث تكون هذه النظرات هي المجاملة الأولى التي تلقاها امرأة طويلة من الرجال عندما تلتقيهم في الشارع.

كما أنني ومع مرور الوقت، بدأت أكره البوركا، أكره طريقتها في التضييق على الرأس والتسبب بالصداع، وأكره الصعوبة التي تتسبّب بها لي في رؤية أي شيء من خلال شبكة القماش المخرّم المتروكة للنظر. فكم كان هذا الحجاب شديد القيد وكم كان محصوراً مجال الرؤية، وكم كان مقدار الهواء الذي يسمح الحجاب بدخوله قليلاً، وكم كان المرء يشعر أنه قد بدأ يتعرّق بسرعة، وكيف أن على واضعة الحجاب أن تبقى دائماً في حيطة من أمرها أين يمكنها أن تمشي لأنها لا تستطيع أن ترى موطئ قدميها. وكم هي كبيرة كمية التراب التي تَحتَوِشُها العباءة، وكم أنها لا بدّ لها من أن تصبح متسخة بغبائر وأوحال الطريق. كما أنني لا أستطيع أن أنسى مقدار الشعور بالتحرر عندما تصل المرأة إلى البيت فتتحرّر من هذا الشادور.

كما أنني كنت أعمد إلى التلفع بالبوركا كتدبير من تدابير الاحتياط والتحفظ، كان ذلك يتم كلما قمت بالسفر برفقة سلطان على الطريق غير الآمن إلى جلال أباد، حيث كان علينا قضاء الليل في محطة الحدود القذرة، عندما كنا لا ندرك تلك المحطة إلاّ في آخر الليل. فالنسوة الأفغانيات لا يسافرن عادة بصحبة حزمة من أوراق الدولار وكمبيوتر شخصي، لذلك فإن قطّاع الطرقات كانوا في العادة يتركون النساء المحجبات في حالهن.

ولعله من المهم أن أؤكد للقارئ أن هذه القصة ليست سوى قصة عائلة أفغانية واحدة، وهنالك ملايين من العائلات. ولم تكن عائلتي هذه بأي حال من الأحوال لتعتبر عائلة نموذجية. فهي نوع من عائلات الطبقة الوسطى إذا كان يسوّغ للمرء أن يستعمل هذا التعبير في أفغانستان. فبعض أفراد هذه العائلة كانوا جيدي التعليم؛ والعديد منهم

كانوا ممن يحسنون القراءة والكتابة. وكان يجري بين أيديهم ما يكفيهم من المال بحيث إنهم لم يتعرضوا للجوع مرة.

ولـو كان لي أن أختار العيش مع عائلة أفغانية نموذجية، لكنت سـاعيش مع أفراد عائلة تقيم في الريف ولا بدّ لها من أن تكون عائلة كـبيرة لا يحسن أي من أفرادها لا القراءة ولا الكتابة، ولم تكن حياتها في كل يوم سوى صراع مرير من أجل الاستمرار على قيد الحياة. ولم أكـن والحال كذلك، لأختار العائلة التي أكتب الآن عنها، لأنني كنت سأفـضل عائلـة نموذجية تمثل عموم المجتمع الأفغاني إلاّ أنني كنت قد اخترت هذه العائلة بالذات، لأنها قد ألهمتني.

* * *

ولقـد قـضيت في كابول فصل الربيع الذي أعقب فرار جماعة الطالـبان منها. وفي ذلك الربيع كانت الآمال الضعيفة برحيل الطالبان قد ومضت وأورقت. ولقد قوبل سقوط طالبان بالترحاب، ولم يعد ثمة أحد يخشى من أن يلجأ البوليس الديني إلى مضايقته في الشارع. فهكذا عاد بإمكان النسوة الذهاب إلى المدينة دون مرافقة أحد لهنَّ، كما عاد بمقدورهن الذهاب للتعلم، إذ صارت البنات قادرات على الذهاب إلى المـدارس. لكـن تلك الفترة كانت أيضاً موسومة بإحباطات العقود السالفة. فما الذي يدعو كل شيء إلى التغير الآن فجأة؟

ومـع مـرور أيـام ذلـك الربيع، وفي أعقاب فترة من الهدوء النسبـي، صار بإمكان المرء أن يتبيّن وجود موجة من التفاؤل الحيوي. وهكذا وُضِعت الخطط، وبدأ عدد من النساء بترك البوركا في منازلهن. كما اتخذت بعضهن أعمالاً ووظائف، وعاد اللاجئون إلى ديارهم.

لكن الحكومة كانت في تذبذب بين التقاليد القديمة، وبين الحداثة؛ بين أمراء الحرب، وبين مشايخ القبائل المحليين. وفي وسط هذه الفوضى

العارمة حاول القائد الجديد حامد كارضاي أن يمرِّر قانوناً متوازناً. كما حاول أن يشقّ لحكومته طريقاً سياسياً. لقد كان الرجل محبوباً من الناس لكنه لم يكن لا صاحب جيش، ولا صاحب حزب؛ كل ذلك في بلد يغمره السلاح والفئات المتخاصمة.

ولقد كانت الظروف في كابول آمنة إلى درجة معقولة، كل ذلك بالرغم من اغتيال وزيرين من الحكومة، وحصول محاولة فاشلة لاغتيال وزير ثالث. ولقد استمر الناس في التعرض إلى التضييق. وقد وضع العديد من الناس ثقتهم بالجنود الأجانب الذين يسيِّرون دوريات في الشوارع. "لولا وجود هؤلاء فإنه لم يكن للحرب الأهلية بدّ من أن تشتعل من جديد". هذا ما كانوا يتداولونه.

لقد كتبتُ في هذه القصة كل ما رأيت وسمعت، كما حاولتُ أن أجمع انطباعاتي عن ذاك الربيع في كابول، كما عن انطباعات أولئك الذين حاولوا أن ينفضوا الشتاء عنهم وأن ينشدوا النماء والازدهار، وانطباعات أولئك الذين شعروا بأنه من المقدور عليهم أن يستمروا في "أكل التراب" كما قالت لي ليلى مرة.

آسني سيرستاد

أوسلو، الأول من آب/أغسطس 2002

بائع الكتب

في كابول

الخطوبة

عـــندما وجـــد ســـلطان خان أن الأوان قد آن له لاتخاذ زوجة جديـــدة، لم يكن ثمة أحد من المحيطين به يرغب في مساعدته على هذا الأمر، وكان أول الناس الذين التمس منهم المساعدة، والدته.

"عليك أن تكتفي بالزوجة التي عندك، وأن تصلح الأمور معها"، هكـــذا أجابـــته، لكنه ما لبث أن التمس مساعدة أخته الكبرى. "إنني معجبة بزوجتك الأولى"، قالت له. كما أنه لقي إجابات مماثلة من بقية أخواته، وذهبت التماساته معهن هدراً.

"إنه قرار يجلب الحرج والذل إلى شريفة"، أجابته عمته. لكن ســـلطان كان في حاجة إلى مساعدة يلقاها من شخص ما، في هذا الأمـــر. إذ إنه ليس من المألوف أن يقوم الخاطب بطلب يد خطيبته هـــو بالـــذات. فالتقاليد الأفغانية تقضي بأن تقوم إحدى قريبات الخاطـــب بالكـــشف عن نيّة الخطوبة إلى العروس وبأن تلقي نظرة ســـريعة علـــيها كي تطمئن أنها كفُؤ للعريس، وأنها حسنة التربية ولديها مواصفات الزوجة الجيدة. لكن واحدةً من النساء الوثيقات القربى مع سلطان لم تكن قد رضيت بأن يكون لها أي دور في تقديم عرض الزواج هذا.

وكان سلطان قد حصر خياراته بين ثلاث فتيات يافعات، أعتقد أن مهـر كل منهن قد يتناسب وإمكانياته على الإنفاق. وكنّ جميعهن متعافـيات، وجمـيلات، وينتسبن إلى قبيلته نفسها. ففي عائلة سلطان كـان يندر أن يتزوج أحد الرجال من خارج نساء القبيلة. فلقد كان الـزواج من الأقارب يعتبر أكثر حصافة وأماناً، حتى إن أكثر الزيجات كانت تقع بين أبناء وبنات العمومة.

وكانت المرشحة الفضلى عند سلطان كي تكون زوجته، فتاة في الـسادسة عـشرة من عمرها تدعى صونيا. وصونيا هذه ذات عينين فـاحمتي الـسواد، لوزيـتين، ولها شعر أسود مرسل لماع. وهي جميلة الشكل ممشوقة القوام، وقد قيل عنها إنها فتاة غير كسولة. أما عائلتها، فعائلـة فقيرة متماسكة العلاقات بشكل مقبول. وكانت جدتها لأمها شقيقة لجدة أم سلطان.

وبيـنما كان سلطان يتأمل في أمر تدبر مشكلته المتمثلة في كيفية الـتمكن من طلب يد الفتاة التي اختارها قلبه دون مساعدة من أيٍّ من قـريباته من النساء، فإن زوجته الأولى شريفة كانت لحسن الحظ غافلة تماماً عن تعلُّق قلب زوجها بمجرد فتاة تافهة كانت قد وُلدت في السنة نفـسها التي تمّ فيها زواجهما. ولقد كان العمر يتقدم بشريفة فعلاً فها هـي، مـثل سلطان، قد تخطّت عتبة الخمسين ببضع سنوات، بعد أن أنجـبت لزوجها ثلاثة صبيان وابنة واحدة. لكن الوقت كان قد حان لرجل في مثل حال سلطان، كي يبدأ التفتيش عن زوجة ثانية.

"عليك أن تقلّع أشواكك بيديك"، قال له أخوه في نهاية الأمر.

وبعـد تقليب الأمر في ذهنه قليلاً، أدرك سلطان أن لا بدّ له من الأخـذ بقول أخيه لأنه لم يعد أمامه أن يفعل سوى ذلك. وفي صبيحة مبكـرة مـن أحد الأيام اتخذ طريقه في اتجاه منـزل أهل فتاته البالغة

السادسة عشرة من عمرها. لاقاه أهلها بأذرع مرحّبة مفتوحة. فسلطان هذا، كان يعتبر في نظرهم رجلاً شهماً كريماً. وزيارته لهم لا بدّ لها من أن تكون موضع ترحاب في أي وقت. وانهمكت والدة صونيا بتحضير الـــشاي. وبعد أن استراح الجميع على المقاعد الوطيئة اللينة في الكوخ؛ وفـــرغوا من تبادل المجاملات، آنس سلطان أن الوقت قد حان لمفاتحة أهل العروس بأمر الخطوبة.

"لي صديق يرغب الزواج من صونيا"، قال لهم.

ولم تكـــن هذه هي المرة الأولى التي يفاتحهم أحد بخصوص طلب يد ابنتهم، فهي فتاة جميلة ودؤوبة، لكنهم كانوا يعتقدون أنها ما زالت صغيرة على الزواج قليلاً. ووالد صونيا لم يكن قادراً على العمل كأي وقـــت مضى. إذ إنه وأثناء تورطه في عراك بالسكاكين، كان قد خرج بعض الأوتار العصبية المقطوعة في ظهره. لذلك فإن ابنته الجميلة يمكن أن تستعمل كورقة مساومة في بورصة الزواج، لذلك كان هو وزوجته في انتظار دائم للعريس الذي يعرض عليهما مهراً أعلى من الذي عرضه كل الذين سبقوه.

"إنـــه رجل غني"، قال سلطان "وهو يعمل في حقل العمل نفسه، الـــذي أعمل فيه أنا. كما أنه متعلم، وله ثلاثة أطفال. لكن زوجته قد بدأت تتقدّم بها السن".

"وكـــيف هو حال أسنانه؟" سأله الأهل على الفور، ملمّحين إلى عمر هذا الصديق.

"إنه في مثل حالي"، قال سلطان "ولكما أن تحكما".

إنه كبير، هذا ما خطر في بال الزوجين. ولكن هذا الأمر لم يكن بالضرورة أمراً بالغ السوء. إذ كلما ارتقى عمر الرجل، فلا بدّ من أن يرتقـــي معه مقدار مهر ابنتهما. فسعر كل زوجة يحتسب وفقاً لفارق

العمـــر، ومعدل الجمال، إضافة إلى المهارات، وإلى الوضع الاجتماعي للعائلة.

وعـــندما أكمل سلطان إيصال رسالته، قال له الأهل، مثلما كان متوقعاً، "إن ابنتنا لا تزال في عمر صغير للزواج".

فكـــل شيء يمكن بيعه في سرعة لمثل هذا الخاطب الثري المجهول الذي ينصح به سلطان بمثل هذه الحرارة. لكن الأصول تقضي بألاّ يبدو الأهل شديدي الاستعجال. فهما يعرفان جيداً أن سلطان سوف يعود ثانية؛ فابنتهما صونيا صغيرة وجميلة.

وقد عاد سلطان فعلاً في اليوم التالي ليكرِّر عرضه الأول. ودارت المحادثـــة نفسها. وتلقى الإجابات ذاتها. لكنه في هذه المرة كان عليه أن يقابل صونيا، التي لم يكن قد رآها مرة منذ كانت لا تزال فتاة شديدة الصغر.

قامت صونيا بتقبيل يده كما تقضي تقاليد الاحترام بذلك لقريب كـــبير في الـــسن، كما قام هو بمباركة أعلى رأسها بقبلة منه. كانت صـــونيا تحـــسُّ بالجـــو المشحون، لذلك فإنها أجفلت تحت النظرات الفاحصة التي كان يلقيها عليها العم سلطان.

"لقـــد وجـــدت لك رجلاً غنياً، ما هو رأيك في ذلك؟" سألها. أطـــرقت صونيا في الأرض، ففتاة صغيرة في مثل عمرها لا يحق لها أن تعطي رأيها حول الخاطب.

وعـــاد سلطان لليوم الثالث، وفي هذه المرة كان قد أفصح عن تقدم الخطيب للخطبة رسمياً: إذ أحضر معه خاتماً وعِقداً، وقرطين، وإســـوارة، وكلها من الذهب الأحمر، كما أحضر معه من الملابس كـــل ما تريد العروس وتشتهي، إضافة إلى ستمئة رطلٍ من الأرز، وثلاثمـــئة رطـــل من زيت الطهو، وبقرة، وقطيع صغير من الأغنام،

وخمسة عشر مليون قطعة نقد أفغانية، وهي تعادل في قيمتها خمسمئة دولار أميركي تقريباً.

وكـــان والد صونيا أكثر من مكتفٍ بالمهر، وسأل أن يتمكن من مقابلة الرجل الغامض الذي هو على استعداد لدفع هذا المهر الغالي لقاء الـــزواج بابنته. فوفقاً لما كان قد ذكره عنه سلطان، فإنه كان حتى من عشيرته ذاتها، وذلك رغم عدم استطاعة الأهل تحديد هويته، أو التذكر أنهما كانا قد لقياه مرة من قبل.

"غداً"، قال سلطان. "سوف أطلعكما على صورته".

وفي الـــيوم التالي، بعد أن تمّ إغراؤها بـــ "حُلْوَيّة"، وافقت عمة ســـلطان على القيام بكشف هوية الخاطب. لقد أخذت صورة شمسية معهـــا – ولم تكـــن تلك الصورة سوى صورة سلطان نفسه – ومع الـــصورة رسالة لا تقبل التفاوض مفادها أن الأهل ليس أمامهما سوى ســـاعة واحـــدة لاتخاذ القرار ورد الجواب النهائي. فإذا كان الجواب بالإيجـــاب، فـــإن الخاطـــب سوف يكون حامداً شاكراً. أما إذا كان الجـــواب بالنفـــي، فلن يكون بين العائلتين حقد ولا ضغينة. فإن الأمر الـــذي ما كان يريده، وبأي ثمن، هو أن يبدأ مساومة لا تنتهي يكون فيها موقفه ضائعاً بين القبول وبين الرفض.

وكـــان أن وافـــق الأهل ضمن الساعة المحددة. فقد كانا متمسكين بـــسلطان خـــان، وبأمواله، وبمركزه الاجتماعي. أما صونيا فقد لبثت في العلية تنتظر. وبعدما انجلى الغموض حول شخصية الخاطب، فإن الوالدين قرّرا القبول به، وعند ذلك توجه عم العروس إلى العلية. "إن عمك سلطان هو الشخص الذي تقدم لطلب يدك"، قال لها، "فهل توافقين؟".

ولم تـــبس صـــونيا ببنت شفة. فبعينين دامعتين ورأس منخفض اختبأت وراء لفاعها الطويل.

"إن والـــديك قد قبلا بالخاطب"، قال لها عمها. "وها هي الآن فرصتك الوحيدة كي تعبِّري عن رأيك".

لقـــد كانـــت ذاهلة عن نفسها، ومشلولة في خوفها. فهي لم تكن تـــرغب في هذا الرجل، لكنها كانت تعرف أنه لا بدّ لها من إطاعة أهلها. فكـــزوجة لـــسلطان، لا بد من أن مركزها الاجتماعي في المجتمع الأفغاني ســـوف يرتفع إلى درجة مرموقة. أما نقود العريس فسوف تساعد أهلها على شراء زوجات جيدات لأبناء هذه العائلة، الذين هم إخوتها.

لذلك فقد أمسكت صونيا لسانها، وبهذا فقد خُتِم على مصيرها. فـــسكوت الفتاة في مجتمعهم يعتبر علامة الرضى. لذلك، فإن العقد قد أبرم، وتحدد موعد الزواج.

وذهب سلطان إلى منـــزله ليخبر العائلة بما بات لديه من أخبار. وكانت زوجته شريفة، وأمه، وأخواته يجلسن حول طبق كبير من الأرز والـــسبانخ وقـــد حـــسبت شـــريفة في بداية الأمر أن زوجها يمزح، فضحكت وأطلقت بعض النكات في وجهه مقابلةً.

أمـــا أمه فقد ضحكت أيضاً على نكتته. فهي لم تكن تصدق أنه قـــد تـــصل بـــه الأمور إلى درجة الإقدام على الزواج دون أن يأخذ مباركتها أولاً. أما الأخوات فقد كنَّ مذهولات عابسات. فلم تصدّقه إحـــداهن إلاّ بعـــد أن عرض عليهن المنديل والحلوى التي قدمها أهل العروس للخاطب كبرهان على قبولهم وعلى انعقاد الخطوبة.

ولقـــد انتحـــبت شريفة لعشرين يوماً "ما الذي جنيته؟ ما هذه الفضيحة؟ ما الذي يجعلك لا تشعر بالاكتفاء معي؟" لكن سلطان طلب مـــنها أن تلملم نفسها. ولم يكن واحد من أفراد العائلة قد شدَّ إزره، حتى أولاده أنفسهم. ومع كل ذلك لم يجرؤ أحد على الوقوف بوجهه؛ فهو دائماً ينفذ ما يبدو له من رأي.

لكـــن شريفة لم تكن تشعر بأي عزاء. والذي اعتمل في نفسها، وزاد في غـــضبها فعلاً، هو أن الرجل قد انتقى لنفسه زوجة ثانية أمّية. فتاة لم تكن حتى قد تخطت صفوف الحضانة. أما هي، شريفة، فكانت معلمة مؤهلة لتدريس اللغة الفارسية. "ما هو الشيء الذي تراه فيها ولا تجده عندي؟" قالت له منتحبة.

لكن سلطان ارتفع فوق دموع زوجته.

ولم يكـــن أحد يرغب في حضور حفل الزواج. لكن شريفة كان عليها أن تعضَّ على جراحها وأن تتزيّن لحضور هذه الحفلة.

"أريد أن يرى كل شخصٍ أنك توافقينني وتؤيدينني. وفي المستقبل سوف نعيش تحت سقف واحد، وعليك أن تُظهري لصونيا أنها شخص مـــرحّب بـــه"، قال لها آمراً. وكانت شريفة على الدوام قد سايرت زوجهـــا ولاطفت خواطره، وها هي الآن أيضاً، تفعل ذلك في أصعب الظـــروف الـــتي تتطلب منها إهداءه إلى واحدة سواها، لكنها أذعنت وخـــضعت. كما أنه كان قد أصرَّ على أن تقوم شريفة نفسها بوضع الخواتم في أصابع صونيا.

وبعـــد مرور عشرين يوماً على الخطوبة، أخذت مراسم الزفاف الـــرسمية طـــريقها إلى التنفـــيذ. استجمعت شريفة نفسها خلف وجه شجاع. وقامت النسوة من قريباتها بكل ما في وسعهن لاستثارة قلقها. "كـــم هو أمر رهيب بالنسبة إليك"، كنَّ يقلن لها. "يا للمعاملة السيئة التي يعاملك بها. لا بدّ من أنك تحترقين من الداخل".

وقد تمَّ الزواج بعد انقضاء شهرين على الخطوبة، كان ذلك عشية رأس الـــسنة الهجرية. ولكن في هذه المرة فقد رفضت شريفة الحضور بالمرة.

"إنني لا أستطيع ذلك"، قالت لزوجها.

وقـام كـل أفراد الأسرة من النساء بمساندتها. فلم ترضَ واحدة منهن ابتياع أي فستان جديد، أو وضع أي شيء من الحُسُون (الماكياج) الذي يقتضي وضعه في مثل مناسبات الزواج هذه. واكتفت كل واحدة منهن بتسريحة شعر بسيطة، وبحمل ابتسامة جامدة على وجهها، وذلك احتراماً للزوجة المتقاعدة التي لن تشارك بعد الآن سلطان فراشه. فقد بات هذا الفراش مقتصراً على العروس الصغيرة المرغوبة، لكن الجميع سيكونون تحت سقف واحد إلى أن يفرّق الموت بينهم.

إحراق الكتب

وفي أصـــيل يوم جليدي من تشرين الثاني/نوفمبر 1999 أُشعلت نار في الهواء الطلق فوق مستديرة المرور في شارع الصدارات في كابول. ولقد تجمـــع أطفـــال الـــشوارع يرقصون حول اللهب الذي كان يلقي ظلالاً متراقـــصة خلفهم عبر وجوههم القذرة. لقد لعب الأطفال لعبة الشجاعة؛ مَـــن الـــذي يمكنه الوصول إلى مسافة أقرب من النار؟ أما الكبار فكانوا يـــسترقون نظـــرة إلى النار ثم يسارعون في طريقهم. فلقد كانت هذه هي أســـلم الطرائق في مثل هذه المواقف؛ لقد كان من الواضح أن تلك النار لم تكن لتُوقَد على قارعة الطريق من أجل أن يصطلي الناس بنارها ويتقدمون إلى تدفئة أيديهم. لقد كانت ناراً قد تمّ إيقادها تقرباً إلى الله تعالى.

لقـــد تجعّـــد فستان الملكة ثريا والتوى تحت لهيب النار لتتحول صـــورته إلى رماد، مثلما حصل أيضاً لصورة ذراعيها ناصعتي البياض ولوجهها الجميل الرصين. كما احترقت صورة زوجها أمان الله أيضاً، واحتـــرقت صورة جميع نياشينه وميدالياته معه. لقد فرقعت صور كل الـــسلالة الملكـــية في الـــنار معاً إلى جانب صور الفتيات في الملابس الأفغانـــية، كمـــا احتـــرقت صور الجنود المجاهدين وهم يبدون على صهوات الخيل، كما احترقت صور المزارعين في بازار قندهار أيضاً.

لقد تابع البوليس الديني عمله بكل وجدان على الكتب الموجودة في مكتبة سلطان خان في ذلك الأصيل البارد من تشرين الثاني/نوفمبر. فأي كتاب يحتوي على أي صور لأشياء حية، سواء أكانت تعود لإنسان أو حيوان، كانت تنتزع عن الرفوف ليلقى بها في لهب النار. أوراق جعلها الزمان صفراء، وبطاقات بريدية بريئة، وغلافات كتب جافة تعود إلى كتب مرجعية قديمة ذهبت كلها أضحية تلحسها ألسنة النيران.

وبين الأطفال المتحلقين حول النار الموقدة، وقف الجنود المشاة التابعون للبوليس الديني، وهم يحملون الأسواط والخيزرانات الطويلة، ورشيشات الكلاشينكوف. فهؤلاء الجنود كانوا يعتبرون أن كل من أحب الصور أو الكتب، أو التماثيل والمنحوتات والموسيقى، أو الرقص، أو الأفلام، أو الفكر الحر هم مجرد أعداء للمجتمع.

أما اليوم فقد كان كل اهتمامهم منصباً على الصور فقط، أما النصوص المرطوقية، حتى تلك الماثلة على الرفوف أمام أعينهم فقد كان يُشاح النظر عنها في الوقت الحاضر. فالجنود كانوا من الأميين الذين لا يحسنون التمييز بين الكتب الحنيفة العائدة إلى عقيدة الطالبان وبين سواها من كتب القيل والقال. لكنهم كانوا بالطبع يستطيعون التمييز بين الصور وبين الأحرف، وبين صور المخلوقات الحية وصور المخلوقات الجامدة.

وفي نهاية الأمر، لم يبقَ شيء سوى الرماد، ذرات رماد التقطتها الرياح لتذروها ذرو الغبائر والأتربة في شوارع كابول ومجاريرها. أما بائع الكتب الذي بدا متحسراً على كتبه الحبيبة، فلقد أوثق وتمّ حشره في مؤخر سيارة حيث جلس جندي من طالبان إلى كل من جانبيه. وقد قام الجنود بإقفال المكتبة ووضع الأختام عليها، أما صاحب المكتبة (سلطان) فقد سيق إلى السجن بسبب سلوكه المعادي للإسلام.

"لحسن الحظ إن الجنود المسلحين من ذوي أنصاف الأدمغة لم يفتشوا لينظروا إلى الأشياء الموجودة خلف رفوف المكتبة"، قال سلطان لنفسه. بينما هو في طريقه إلى المعتقل. فإن الكتب التي هي محظورة حظراً كاملاً إنما كان قد قام بإخفائها بطريقة حاذقة بارعة. فلقد كان لا يُخرج تلك الكتب من مخابئها سوى عندما يقوم شخص ما بسؤاله عنها خصيصاً، وإلاّ بعد أن يكون قد وثق تمام الثقة أن السائل هو شخص يمكن الركون إلى طلبه.

وكان سلطان قد توقع حصول ما حصل. فلقد كان يبيع الكتب غير القانونية، والصور، والرسومات لسنوات طويلة. وكان الجنود في العادة يقومون بتهديده وينتزعون منه القليل من الكتب، ثم يتركونه لحاله. وكانت تصدر إليه التهديدات من أعلى السلطات، حتى، لقد تمّ استدعاؤه مرة إلى مقابلة وزير الثقافة، وذلك في مساعٍ من الحكومة لكسب ودّ بائع الكتب الجريء هذا، وتجنيده إلى جانب قضية طالبان.

ولقد قام سلطان خان بكل ممنونية ببيع بعض منشورات طالبان. فلقد كان رجلاً حرّ التفكير، ومن المؤيدين لمبدأ: إن كل ذي رأي يجب أن يكون قادراً على إسماع رأيه. ولكن إلى جانب المناداة على آرائهم الظلامية، فإنه أراد أن يبيع كتب التاريخ أيضاً، والمنشورات العلمية، والأعمال الإيديولوجية التي كتبت عن الإسلام، هذا عدا عن الروايات، ودواوين الشعر. لقد كانت طالبان تعتبر أن النقاش ضرب من النميمة. كما تعتبر أن الشك يساوي الخطيئة. فكل شيء يتعدى دراسة القرآن لم يكن له من ضرورة، بل كان يعتبر عملاً خطيراً. فعندما جاءت طالبان إلى السلطة في كابول في خريف العام 1996، كانت الوزارات قد أُفرغت من الاختصاصيين ليحل محلهم الملالي. فمن البنك المركزي إلى الجامعات، أصبح الملالي يسيطرون على جميع الشؤون. وكان

هـــدفهم إعادة تكوين مجتمع يشبه ذاك الذي كان سائداً أيام النبـــي الكـــريم محمد (ص)، أيام كان يعيش في شبه الجزيرة العربية في القرن الـــسابع المـــيلادي. فحـــتى عندما كانت طالبان تجلس للتفاوض مع شـــركات النفط الأجنبية، فإن الملالي الجهلة هم الذين كانوا يجلسون حول طاولات المفاوضات. أناسٌ تنقصهم أي خبرة تقنية أو عملية.

وكـــان سلطان مقتنعاً أنه وتحت حكم طالبان، فإن البلاد سوف تـــزداد فقراً على فقر، كما ستزداد غماً وكآبة، وعزلة عن الدنيا. لقد قاومت السلطات جميع أوجه الحداثة؛ ولم تكن عند مسؤوليها أي رغبة لا في فهـــم أفكار التقدم والتطوير الاقتصادي، ولا في التكيف معها. فكانـــوا ينبذون الجدل العلمي سواء أكان منشأه دول الغرب أم العالم الإســـلامي. فكـــان خطـــابهم الرسمي قبل كل شيء يتضمن مجادلات عاطفـــية مثيرة للشفقة حول كيف ينبغي للناس أن يلبسوا، وكيف أن علـــيهم أن يغطـــوا أنفسهم، وكيف أنه يتوجب على الرجال مراعاة أوقـــات الصلاة، وكيف أنه يتوجب على النساء عدم مخالطة الرجال، وكيف يفصلن أنفسهن عن المجتمع. ولم يكن رجال طالبان راسخين في التاريخ الإسلامي أو في تاريخ أفغانستان، كما لم تكن لديهم رغبة في تلـــك الأمـــور أيضاً. وهكذا قبع سلطان محشوراً بين جنديي طالبان الأمـــيين، لاعـــناً بلـــده لأنه سمح لنفسه بأن يحكمه إما المحاربون وإما المـــلالي. لقد كان سلطان مؤمناً، لكنه كان مسلماً معتدلاً في عقيدته. وكـــان يصلّي لله كل صلاة فجر، لكنه كان يتجاهل دعوات الصلاة الأربـــع التي تليها ما لم يقُده البوليس الديني إلى أقرب مسجد مع سواه من الرجال الذين يقتادهم من الشوارع. وكان لا يراعي صيام رمضان إلاّ مكرهاً، ولم يكن يأكل من مشرق الشمس حتى مغربها، أقله عندما لا يكـــون أحـــد يراقبه. ولقد كان مخلصاً لزوجتيه. وقام بتربية أطفاله

تربية صارمة. وعلّمهم أن يكونوا مسلمين جيدين تأخذهم الخشية من الله. ولم يكن ليحتقر أكثر من جماعة الطالبان، الذين كان يعتبرهم كهنة أميين جهلة؛ فلقد نشأوا في أكثر أصقاع البلد فقراً ومحافظة، وحيث كانت نسبة الأمّية على أشدها.

لقد كان قسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المعروف باسم وزارة الفضيلة، هو الجهة التي تقف وراء اعتقاله. وخلال التحقيق معه في السجن كان سلطان ينشغل بتمسيد لحيته. فلقد كان يشذّبها حسب المقتضيات الطالبانية، أي بطول قبضة الكف. كما كان ينشغل بتسوية قميصه واسع الأردان الذي يتطابق مع المواصفات الطالبانية أيضاً، كما كان يلبس إهاباً يتدلّى إلى ما تحت الركبتين، وسراويل تصل إلى مستوى الكاحلين. وقد كان يجيب عن الأسئلة بكل اعتزاز، "إن باستطاعتكم أن تحرقوا كتبي، وأن تكدِّروا حياتي، وحتى أن تقتلوني، لكنكم لن تستطيعوا محو التاريخ الأفغاني".

* * *

لقد كانت الكتب كل حياة سلطان. فمنذ أن أعطي له الكتاب الأول في المدرسة، أسرت الكتب والقصص لبُّهُ. لقد ولد في وسط عائلة فقيرة، وكبر في حقبة الخمسينيات في قرية من قرى ديه خودايداد خارج كابول. وما كانت أمه لتقرأ وتكتب ولا كان أبوه، لكنهما استطاعا توفير ما استطاعاه من النقود التي تكفي لإرساله إلى المدرسة. فكل ما أمكنهما توفيره كان ينفق عليه بصفته ابنهما البكر، أما أخته التي ولدت قبله فلم تطأ قدماها المدرسة أبداً، ولهذا فإنها لم تتعلّم لا القراءة ولا الكتابة. وهي الآن تكاد لا تستطيع أن تقرأ عقارب الساعة إلاّ بجهد جهيد. فبعد كل شيء فإن مصير البنت ليس سوى الزواج.

أما سلطان فكانت تنشئه العائلة نحو العظمة. وكانت عقبته الأولى هي طريق المدرسة. فلقد كان سلطان يرفض الذهاب إلى المدرسة لأنه لا يملك نعلين. لذلك فقد صنعت له أمه حشوتين يحشو قدميه فيهما.

"بالطبع يمكنك الذهاب، الآن، فأنت تستطيع أن ترى ما صنعته لك" قالت له بعد أن ضربته ضربة خفيفة بين كتفيه. ولكنه سرعان ما صار يجني من النقود ما يكفيه لشراء زوج من الأحذية. إذ إنه كان يعمل أيضاً أثناء دراسته. ففي الصباح قبل أن تبدأ الدروس، وكذلك في المساء بعد الانصراف من المدرسة، وقبل أن يدركه الظلام، كان يعمل في إضرام النار في أتون لصنع الفخار ليحصل على بعض المال لعائلته. وبعد ذلك حصل على وظيفة في دكان. لقد صرّح لوالديه عن نصف قيمة راتبه فقط. وكان يوفّر النصف الباقي لينفقه في شراء الكتب. ثم شرع في بيع الكتب منذ أن كان في عمر المراهقة. ثم قُبل كطالب هندسة لكنه لم يستطع أن يؤمن لنفسه الكتب الدراسية المقررة المناسبة. وخلال رحلة له مع عمه إلى طهران صادف له أن وجد كل العناوين اللازمة له في إحدى أسواق الكتب العديدة في تلك المدينة. لذلك فإنه اشترى عدة مجموعات من الكتب التي قام ببيعها لاحقاً في كابول لزملائه من الطلبة بضعف ثمنها. وهكذا ولد بائع الكتب في نفسه؛ حتى شقّ لنفسه لاحقاً طريقاً خاصاً في الحياة.

ولقد شارك سلطان في بناء مبنيين فقط في مدينة كابول قبل أن ينتزعه شغفه الجنوني بالكتب من عالم الهندسة. ومرة جديدة كانت أسواق الكتب في طهران هي من شدّه وأغراه. وهكذا فقد تحوّل الولد القادم من الريف بين الكتب في عاصمة بلاد فارس التي يحيط بها القديم والجديد، ويتداخل فيها التاريخ مع الحداثة، وكان يقع هناك على كتب لم يدرِ حتى بوجودها أصلاً. وهكذا، فقد اشترى الكرتونة بعد الأخرى

من دواوين الشعر الفارسي، وكتب الفن، وكتب التاريخ، وكذلك، ومن أجل مهنته، كان يشتري كتب الهندسة أيضاً.

وعندما رجع إلى كابول افتتح مكتبته الأولى بين تجار الأفاويه، وبين الأكشاك التي تبيع الكباب في وسط العاصمة. كان ذلك في فترة السبعينيات حيث كان المجتمع ممزقاً بين الحداثة والتقاليد، فمحاولات ظاهر شاه الملك الليبرالي الذي يميل إلى الكسل، قد كانت محاولات للتحديث ليست شديدة الاتقاد بالحماسة، إلاّ أن تلك المحاولات على ضيق هامشها قد استثارت موجة من النقد العنيف من جانب الفئات الدينية. كان ذلك عندما احتجّ عدد من الملالي ضد قيام النساء في العائلة المالكة بالتكشف في العلن وبالخروج من منازلهن دون وضع الحجاب، ولم يهدأ الأمر إلاّ بعد أن تمّ زجّ أولئك النسوة المخالفات في السجن.

ولقد ازداد عدد الجامعات ومؤسسات التعليم، مع ما أعقب ذلك من خروج التظاهرات الطلابية. وهذه التظاهرات كانت بدورها قد لقيت قمعاً وحشياً على يد السلطات، الأمر الذي تسبّب بقتل عديد من الطلبة. كما نبتت وفرة من الأحزاب والجماعات السياسية - رغم أنه لم يُدعَ الناس إلى الانتخابات ولو لمرة واحدة - وكانت هذه الأحزاب والجماعات تتوزع من الجناح اليساري الراديكالي إلى اليمين الديني الأصولي المتعصب. وقد احتربت هذه الجماعات بعضها مع البعض الآخر، فانتشر في البلاد جو عاصف غير مستقر. أما الاقتصاد فقد واجه ركوداً لثلاث سنوات متتابعة كما جاء الجفاف، وخلال مجاعة مأساوية كانت قد ضربت البلاد عام 1973، وبينما كان الملك زاهر شاه موجوداً خارج البلاد لاستشارة طبيب في إيطاليا، فإن ابن عمه داود انتزع السلطة بعد انقلاب عسكري أطاح بالحكم الملكي.

لكـــن نظام داود كان أشد قسوة وقمعاً من نظام ابن عمه. لكن مكتبة سلطان انتعشت، فلقد كان يبيع الكتب والدوريات التي تنشرها مختلف الجماعات السياسية من الماركسية حتى الأصولية الدينية. وكان يعـــيش في منـــزله في القرية مع أهله ويقود دراجته الهوائية إلى كشك الكتب العائد إليه في كابول مع كل صباح، ثم يعود أدراجه إلى بيته في المـــساء. كانت المشكلة الوحيدة التي تنغصه هي لجاجة والدته التي لا يـــنقطع لسانها عن حثه على الزواج. وكانت لا تكف عن لفت نظره إلى مرشـــحات جديدات؛ من ابنة عم هنا إلى ابنة للجيران هناك. لكن سلطان لم يكن بعد مستعداً للشروع في تأسيس عائلة، فلقد كان لديه عديـــد من المكاوي فوق النار، وهو لم يكن في عجلة من أمره. فلقد أراد أن يحـــتفظ لنفسه بحرية السفر حيث كان في العادة يقوم بزيارات إلى طهران، وطشقند، وموسكو. وفي موسكو هناك كان له حبيبة قلب روسية تدعى لودميلا.

وقـــبل أشـــهر قليلة من غزو السوفيات للبلاد عام 1979، كان قد ارتكب خطأه الأول. فلقد كان القائد الشيوعي العنيد نور محمد تَرَقي قد استطاع أن يستأثر بحكم البلاد. وهكذا فإن الأسرة الرئاسية بأكملها، كان قد حكم عليها بالموت ابتداء من داود، نـــزولاً حتى أصغر طفل في العائلة، لقـــد قـــتلوا جميعاً في انقلاب عسكري. وقد ضاقت السجون بعشرات الألوف من الأخصام السياسيين الذين تمّ اعتقالهم وتعذيبهم وإعدامهم.

لقـــد أراد الشيوعيون أن يشددوا قبضتهم على البلد بكامله، كمـــا حاولوا خنق الجماعات الإسلامية. لذلك فقد نهض المحاربون الـــتقاة، أي المجاهدون، إلى حمل السلاح ضد هذا النظام، فنشأ عن ذلـــك نـــزاع ما لبث أن تحوّل في وقت لاحق إلى حرب فدائية لا رحمة فيها ضد الاتحاد السوفياتي.

ولقـــد كـــان المجاهدون يمثلون فيضاً من الإيديولوجيات والميول الدينـــية. وهكـــذا فـــإن هذه الفئات المختلفة ما لبث أن قامت بنشر الـــدوريات الـــتي تدعم فكرة الجهاد - أي القتال ضد النظام الجهنمي الوثني الملحد - كما تدعو إلى حكم البلاد حكماً إسلامياً. ومن جهته فقد قام النظام بتشديد قبضته على كل شخص يشتبه بأنه متحالف مع المجاهـــدين، وكـــان مـــن الممـــنوع مـــنعاً باتاً القيام بطباعة نشراتهم الإيديولوجـــية أو توزيعها. وكان سلطان يقوم بنشر دوريات المجاهدين وبـــيعها جنباً إلى جنب مع النشرات الشيوعية. أكثر من ذلك، فإنه قد بـــدأ يعاني من هوس جمع المطبوعات والكتب ولم يكن يستطيع مقاومة شـــراء مجموعة قليلة من نسخ كل كتاب أو دورية تصادفه في طريقه، وكل ذلك من أجل بيعها من جديد مقابل بعض الأرباح. وكان رأي سلطان ينطوي على أنه مجبر على تدبير أي نشرة أو كتاب يطلبه منه أي كان. وكان يقوم بإخفاء المنشورات الممنوعة تحت طاولته.

ولم يقـــتضِ الأمر زمناً طويلاً حتى وشى به أحدهم. فلقد تمَّ إلقاء القـــبض على زبون كان في حيازته كتب ممنوعة اشتراها من سلطان. وقـــد كشفت مداهمة قام بها البوليس عن وجود العديد من المنشورات غـــير القانونية في حوزة سلطان. وبذلك أقيمت محرقة الكتب الأولى. كمـــا أُخذ سلطان وتعرض لصنوف من الضرب والإهانة قبل أن يدان ويحكـــم عليه بالسجن لمدة سنة. ولقد صرف سلطان ذلك الوقت كله في قسم المعتقلين السياسيين، حيث كانت الكتب ومواد الكتابة ممنوعة ومحظـــورة. فكان عليه أن يقضي الشهر تلو الآخر محدقاً إلى الجدران. لكـــنه أخـــيراً نجح في رشوة أحد الحراس بقصعة الطعام التي كانت قد أرسلتها إليه أمه، وبذلك بدأت الكتب تهرَّب إليه في كل أسبوع. وفي داخل الجدران الصخرية الباردة الرطبة نمت اهتمامات سلطان بالتاريخ

الأفغـــاني والحــضارة الأفغانية. كما كان يذهل عن نفسه في الأشعار الفارسية، وفي الماضي الدراماتيكي لبلده. وعندما سُمح له بالخروج من السجن، فإنه كان قد صار واثقاً بشكل أكيد من الأرضية الثقافية التي يقــف علــيها: لقد أراد أن يحارب من أجل ترقية المعرفة حول الثقافة الأفغانــية، وحول التاريخ الأفغاني. لذلك فإنه استمر في بيع المنشورات غــير القانونية الصادرة عن كل من الحركات الفدائية الإسلامية، ومن المعارضة الشيوعية المتعاطفة مع الصين، لكنه صار في تعامله أكثر حيطة وحذراً من ذي قبل.

وقد أبقت السلطات عيونها عليه لمدة خمس سنوات قبل أن تعتقله مرة جديدة. وخلال هذه المرة أيضاً أُعطيت له فرصة جديدة كي يتأمل في الفلسفة الفارسية داخل جدران السجن، ولكن هذه المرة كانت قد أضــيفت تهمة جديدة إلى التهمة التي كانت موجهة إليه في السابق: إذ لقــد وُســِمَ هذه المرة بأنه برجوازي صغير، من أبناء الطبقة الوسطى، وهذه في القاموس الشيوعي هي أشنع أشكال التحقير. وأما التهمة فهي السعي لكسب النقود حسب النموذج الرأسمالي.

حــدث كل هذا خلال فترة كان النظام الأفغاني الشيوعي، تحت وطأة المعاناة التي تسبّبت بها الحرب للناس، يحاول تصفية المجتمع القبلي في أفغانــستان لــتحلّ محلــه الشيوعية "السعيدة". فالمحاولات لتجميع المزارع قد قادت إلى شقاقات قاسية بين السكان. وكثير من المزارعين الفقــراء رفضوا قبول الأرض التي كان قد تمّ شراؤها قهراً من ملاكيها العقــاريين الأثــرياء، حيث إنهم كانوا يعتبرون أن الإسلام يمنعهم من الحراثة في أراضٍ منهوبة. وهكذا نهض الريف كله في حركة احتجاجية، وكــان من نتائج ذلك أن الخطط الشيوعية قلما لاقت أي نجاح. ومع الــوقت أذعــنت السلطات واستسلمت. فقد استنــزفت الحرب قوة

الجميع وبعد عشر سنوات من استمرارها كانت قد أزهقت حياة مليون ونصف المليون من أبناء الشعب الأفغاني.

وعندما أخرج هذا البرجوازي الصغير من السجن كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت الحرب ضد الاتحاد السوفياتي تخاض على وجه العموم في الأرياف، أما كابول العاصمة فكانت قد بقيت على حالها سالمة بطريقة أو بأخرى. وقد كان الكدح اليومي في سبيل الحياة هو الشغل الشاغل لأهلها. وفي هذا الوقت نجحت والدته في إقناعه بفكرة الزواج. وكانت قد قدّمت له شريفة، وهي ابنة أحد الجنرالات، إلى جانب كونها فتاة جميلة وذكية. ولقد تزوجا وأنجبا ثلاثة أبناء وابنة واحدة، بمعدل طفل واحد كل سنتين.

وانسحبت القوات السوفياتية من أفغانستان في العام 1989، وتطلع السكان نحو استتباب السلام في نهاية هذا المطاف. ولكن بما أن نظام الحكم في كابول قد استمر في الاستعانة بالسوفيات، فإن المجاهدين رفضوا إلقاء أسلحتهم. ثم إنهم ما لبثوا أن سيطروا على كابول في شهر أيار/مايو من العام 1992، وبذلك انفجر أتون الحرب الأهلية. والشقة التي كانت العائلة قد اشترتها سابقاً في مجمع للأبنية بناه السوفيات، كانت تقع على خط النار تماماً، بين الفئات المتحاربة. وهكذا اخترقت الصواريخ الجدران، وحطّم الرصاص زجاج الشبابيك، وعاثت الدبابات في أرض الحدائق. وبعد أن التجأت العائلة إلى الطوابق الأرضية لمدة أسبوع، فإن وابل القذائف كان قد هدأ مرة لبضع ساعات، الأمر الذي سمح لسلطان بأن ينقذ نفسه وينقذ أفراد أسرته بالسفر إلى باكستان.

وعندما كان في باكستان، فإن دكان كتبه تعرّض للنهب، الأمر نفسه الذي حصل للمكتبة العمومية. وهكذا ذهبت كتب بالغة القيمة

إلى بعض جامعي الكتب في مقابل أغنية. أو أنها كانت قد تمّت مبادلتها بالمدرعات والرصاص، والقذائف. حتى إن سلطان نفسه كان قد ابتاع بعضاً من هذه الكتب المسروقة من المكتبة العمومية عندما عاد من باكستان لتفقّد مكتبته. لقد تمكّن من عقد بعض الصفقات الرابحة جداً. ففي مقابل حفنة من الدولارات تمكّن من شراء مئات من الكتب القديمة وكان بينها مخطوطة يعود تاريخها إلى خمسمئة سنة مأخوذة من أوزبكستان وقد دفعت له الحكومة الأوزبكستانية مبلغاً قدره خمسة وعشرون ألف دولار أميركي ثمناً لها. كما أنه كان قد عثر على نسخة شخصية تعود إلى زاهر شاه عن كتابه المفضل الذي هو العمل الملحمي الشعري الكبير للشاعر الفردوسي تحت عنوان "شاهناما"، كما أنه كان قد اشترى العديد من الكتب بسعر التراب من سارقيها الذين لم يكونوا قادرين حتى على قراءة عناوينها.

وبعد ما يقارب الخمس سنوات من الحرب الطاحنة بين المجاهدين وبين زعماء الحرب، كانت نصف أبنية كابول قد تحوّلت إلى ركام، كما أزهقت أرواح خمسين ألف من سكانها. وعندما استفاق سكان كابول في صباح السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر 1996 كانت المدينة هادئة تماماً. ففي المساء الذي سبق ذلك الصباح كان القائد الأسطوري للمجاهدين أحمد شاه مسعود وجيشه قد هربوا من العاصمة في اتجاه وادي بانشير.

وكان هنالك جسدان مشنوقان يتدليان من عمود خارج باحة القصر الرئاسي. كانت الجثة الكبيرة ممتقعة بالدماء من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وكان صاحب الجثة قد تعرّض للإخصاء، أما أنامله فقد سُحقت وأما جذعه ووجهه فقد أصابهما التهشيم، وكان ثمة ثقب رصاصة في مقدمة الرأس. أما الجثة الأخرى فقد اكتفي بإطلاق النار

عليها وتعليقها. وأما جيوب الجثتين، فقد كانت محشوة بالنقود الأفغانية المحلية كإشارة للازدراء والاحتقار. ولم يكن الجسدان سوى جسدي الرئيس السابق محمد نجيب الله، وأخيه. لقد كان نجيب الله رجلاً مكروهاً. فلقد كان رئيساً للبوليس السرّي إبان الغزو السوفياتي، ويقال إنه كان قد أمر بإعدام ثمانية آلاف شخص من الذين كانوا قد أطلق عليهم لقب أعداء الشعب. ولقد كان رئيساً للبلاد بين العامين 1986-1992 وكان يلقى تأييد الروس أثناء حكمه. وبعد أن قام المجاهدون بانقلابهم صار مسعود وزيراً للدفاع، وصار صبغة الله مجاهدي رئيساً، وذلك خلال الثلاثة أشهر الأولى، ليحل محله برهان الدين ربّاني. وقد التمس نجيب الله اللجوء من هيئة الأمم المتحدة بعد محاولة له للهرب عبر مطار كابول، كانت قد أُحبطت فبقي هناك بعد ذلك في معتقل في مجمع تابع للأمم المتحدة في كابول.

وعندما شقّ الطالبان طريقهم خلال المناطق الشرقية من كابول وقررت حكومة المجاهدين الهرب، فإن مسعود قام بدعوة هذا الأسير البارز إلى مرافقة قوات المجاهدين وقد خاف نجيب الله على حياته خارج العاصمة وقرّر البقاء متخلفاً مع الحراس الأمنيين الذين يقومون على حراسة المبنى التابع للأمم المتحدة. إلى جانب أنه، ولكونه من قبيلة الباشتون، فقد فكّر أنه قد يستطيع التفاوض مع الطالبان الباشتون. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اختفى جميع الحراس. وخفقت الأعلام البيضاء - وهو اللون المقدس عند الطالبان - فوق المساجد.

وتجمّع سكان كابول في غير تصديق حول العمود القائم في ساحة آريانا. كانوا يحدقون إلى الرجلين المعلقين هناك ثم يعودون بهدوء إلى مساكنهم. لقد انتهت الحرب لكن حرباً جديدة سوف تبدأ؛ حرباً سوف تدوس كل بارقة للفرج تحت النعال.

لقـد فرضت قوات الطالبان القانون والنظام، لكنها في الوقت نفسه وجهت الضربة القاضية إلى الأفغان وإلى الثقافة الأفغانية. لقد أحـرق النظام الجديد كتب سلطان ثم تحوّل رجال هذا النظام إلى المتحف في كابول وهم يحملون الفؤوس ويجرون معهم كشاهد وزير ثقافتهم ذاته.

ولم يكن قد بقي الكثير من أشياء المتحف عند وصولهم إليه. فكل الأشـياء المنفـصلة كانت قد نهبت خلال الحرب الأهلية: قطعٌ خزفيةٌ تعود إلى الزمن الذي تمكن فيه الإسكندر المقدوني الكبير من قهر البلاد، سيوف قد تكون شهدت المعارك التي دارت ضد جنكيز خان وجحافله المغولـية، منمـنمات فارسـية وقطع نقود ذهبية، وكان جامعو تحف مجهولون من مختلف أقطار العالم قد تمكّنوا من ابتياع معظم هذه التحف الأثرية المنهوبة. وقليلة هي التحف التي خلّفها الإنسان كانت قد بقيت هـناك قبل أن يصبح النهب حامياً. وكانت تماثيل قليلة ضخمة للملوك والأمـراء الأفغـان لا تـزال منتصبة هناك. كما كان هنالك تماثيل وجـداريات لبوذا يرجع تاريخها إلى ألف سنة. وقد شرع جنود المشاة في عملهم مظهرين الحمية نفسها التي كانوا قد أظهروها أثناء تدميرهم لمتجر الكتب العائد إلى سلطان. لقد بكى حراس المتحف عندما شرع رجال الطالبان في تحطيم ما تبقّى هنالك من فنون.

لقد قاموا بحزّ التماثيل بالبلطات والفؤوس حتى لم يبقَ منها سوى القواعد، وذلك في وسط كومة من الغبار والطين والكتل الحجرية. لقد اسـتغرق الأمر منهم نصف نهار فقط لتدمير تاريخ يمتد إلى ألف سنة. وكل ما تبقّى بعد انتهاء موجة التخريب هذه اقتصر على لوحة شرقية تحمـل اقتباساً من القرآن الكريم، اعتقد وزير الثقافة أنه من الأفضل أن تترك وحدها دون تدمير.

وعـندما انصرف منفذو حكم الإعدام بالفن الأفغاني، من رجال طالـبان، فإن مبنى المتحف الذي رجم بالقذائف، ما لبث أن تحوّل في وقت لاحق إلى خط جبهة أثناء الحرب الأهلية. فإن الحراس قد تركوا واقفين بين الأنقاض، وقد قام هؤلاء بجهد جهيد لجمع الأجزاء وكنس الغـبار. كمـا قاموا بوضع الأجزاء في صناديق كتبوا إشارات عليها. وكانت بعض القطع الأثرية التي بقيت قابلة للتمييز عن سواها: فذراع تمـثال مـن هنا، وقطعة شعر مؤّاجة من تمثال آخر هناك. لقد أودعت تلـك الـصناديق في قبو المتحف على أمل أن هذه التماثيل يمكن أن تستعاد وأن ترمَّم في وقت لاحق.

وقبل ستة أشهر من سقوط نظام طالبان، كان قد تمّ نسف تماثيل بـوذا العملاقة في باميان. وكان عمر هذه التماثيل يقارب الألفي سنة، وهي من أعظم ميراث الثقافة الأفغانية. لقد كانت نسفية الديناميت من القوة بحيث إنه لم يبقَ هناك أي قطع حطام يمكن جمعها.

* * *

وعلى خلفية هذا النظام، حاول سلطان أن ينقذ أجزاء من الثقافة الأفغانـية. فبعد محرقة الكتب عند مستديرة المرور، قام برشوة أحدهم لإخراجه من السجن، وقام في اليوم ذاته بكسر خاتم الشمع الذي أقفل بموجبه محله التجاري لبيع الكتب. وفيما هو واقف بين أنقاض كنـزه، بكـى سلطان وقام برسم خطوط سوداء كبيرة وخربشات فوق صور المخلـوقات الحية الواردة في الكتب التي غفل عنها الجنود. كان ذلك أفضل من التسبب بترك هذه الكتب لتذهب طعماً للنيران. ثم إنه فكّر بفكـرة قد تكون أفضل من الأولى إذ إنه قام بإلصاق بطاقات الزيارة العائـدة إلـيه جاعلاً منها أغطية لتلك الصور. وبهذا تمكّن من تغطية الـصور بطريقة يسهل عليه فيها إزالة تلك الأغطية. وفي الوقت نفسه

فإنــه قام بوضع خَتمِهِ الخاص على هذه الأعمال. فقد تصبح إزالة هذه البطاقات عن وجه الصور في يوم من الأيام أمراً ممكناً.

وهكــذا تحــوّل النظام بشكل لا يلين إلى وضع أشد قساوةً مما ســلف. ومــع مــرور السنين زاد هذا النظام التصاقاً وتصلباً بالخط البيوريتاني المتشدد وهدفه الرامي إلى جعل الحياة أكثر فأكثر التصاقاً مع قــواعد الحــياة التي كانت سائدة في عصر النبــي محمد (ص). ومرة جديــدة قــام وزير الثقافة باستدعاء سلطان. "إن أحدهم موجود في الخارج لإلقاء القبض عليك"، قال له "وإنني لست قادراً على حمايتك".

كــان ذلــك عندما قرّر سلطان في صيف العام 2001 أن يغادر الــبلاد. قــام بالــتقدم للحصول على تأشيرة دخول لنفسه ولزوجتيه ولأبــنائه ولابنته، وذلك من أجل الاستقرار في كندا. وكانت زوجتاه وأطفاله في ذلك الوقت يعيشون في باكستان ويعافون الحياة كلاجئين. لكن سلطان كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتخلى عن كتبه. فهو الآن يملــك ثــلاث مكتبات في كابول. إحدى هذه المكتبات يديرها أخوه الأصغر، وأخرى يديرها ولده منصور البالغ السادسة عشرة من عمره، أما الثالثة فكان يديرها بنفسه.

ولم يكــن يعرض فوق الرفوف سوى معشار معشار الكتب التي هــي في حوزته. أما أغلبية الكتب وهي تناهز العشرة آلاف، فقد كان يخفــيها عن الأعين في العليّات في مختلف أنحاء كابول. فلم يكن بوسعه أن يــسمح لمجموعة الكتب التي أنفق ثلاثين سنة من عمره في تجميعها بــأن تذهب هدراً. وهو لا يستطيع أن يسمح لطالبان أو لسواها من الطغاة بأن يدمروا المزيد من الروح الأفغانية. ومع ذلك فقد كان لديه خطــة سرّية، بل حلم يحلم به بخصوص هذه المجموعة. فعندما رحلت حكومة الطالبان، وعادت حكومة جديدة إلى أفغانستان يمكن للمرء أن

يثق بها، فإنه وعد نفسه أن يقوم بمنح هذه المجموعة الكاملة من الكتب إلى المكتـــبة العامة في العاصمة التي كانت قد تعرّضت سابقاً للتخريب والـــنهب، حـــيث كان مرة فيها الآلاف من الكتب التي تزيّن رفوف جدرانها.

وبفـــضلٍ من تعرُّض سلطان وعائلته للتهديد بالقتل، فقد منحت لهم تأشـــيرة للدخـــول إلى كندا. لكنه لم يذهب إلى هناك أبداً. فبينما كانت زوجـــتاه تعدان الحقائب للرحيل، فإنه كان لا ينفك يخترع جميع صنوف الأعـــذار لـــتأخير السفر، فهو إما أن يكون بانتظار وصول بعض الكتب، وإمـــا أن تكون المكتبة مهدّدة بالخطر، وإما أن يموت أحد أقاربه. إذ كان دائماً يستطيع أن يجد شيئاً ما يعترض طريق هذه الهجرة.

ثم جاء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عندما بدأت القذائف تهطل فـــوق أفغانـــستان، وعندها ارتحل سلطان إلى باكستان ومن هناك أمر يـــونس، أحد إخوته الصغار غير المتزوجين بأن يتخلّف عنهم ويبقى في كابول من أجل رعاية شؤون المكتبات.

وعـــندما ســـقط نظـــام طالبان بعد شهرين من حصول الهجوم الإرهابـــي على الولايات المتحدة، فإن سلطان كان أحد أوائل الذين عادوا من جديد إلى كابول. وأخيراً لقد صار في وسعه أن يملأ رفوف مكتبـــته بجميع صنوف الكتب التي يرغب بها. فمن كتب التاريخ التي صـــار علـــيها خطوط سوداء وخربشات، والتي صار بإمكانه الآن أن يـــبيعها إلى الأجانب ككتب تثير الفضول؛ إلى الكتب التي صار الآن قـــادراً علـــى إزالـــة بطاقات الزيارة الملصقة فوق الصور التي تحملها للمخلوقات الحيّة. كما صار بإمكانه مرة أخرى أن يعرض صور الملكة ثـــريّا بمـــا تظهره من أذرع بيضاء كما يستطيع أن يعرض صور صدر الملك أمان الله، الذي تزيّنه النياشين.

وفي صباح أحد الأيام كان سلطان في مكتبته يرتشف فنجاناً من الـــشاي الـــساخن ويراقب يقظة مدينة كابول من رقادها. عندما قام بوضع خطته حول كيفية تحقيق حلمه، فكّر في مقطوعة شعرية مأخوذة من شاعره المفضل الفردوسي تقول ما معناه:

"ومن أجل أن تعيش

ينبغي عليك

أن تكون

في بعض الأحيان ذئباً

وأن تكون شاةً

في بعضها الآخر".

الجريمة والعقاب

ومــن جميع الجهات جاءت الحجارة تئزُ أزاً نحو العمود الذي أوثقت إليه المرأة، وكان معظمها موجعاً... ومع أن المرأة أبت أن تبكــي، فإن هتافاً ارتفع فجأة من الجمهور إذ إن رجلاً قوياً كــان قد وجد حجراً مناسباً بشكل خاص، حجراً كبيراً ومسنناً، ثــم قام بقذفه بقوة، مسدداً إياه بعناية إلى جسدها وارتطم ذلك الحجــر بعــنف شديد ببطنها بحيث إنه أسال أول دم في ذلك الأصــيل مــن تحــت ثوبها. ولقد كان ذلك الحجر هو الذي استدعى ابتهاج الجمهور... ثم جاء حجرٌ آخر من قياس معادل ليصطدم بكتف المرأة وهو أيضاً جلب الدم والهتاف معاً.

جايمس أ. ميشنير، القوافل

وكانت شريفة الزوجة المحالة على التقاعد، تنتظر في بيشاور. ولم تكن لتذوق طعم السلام. وهي تعرف أن سلطان سوف يعود إليها في يوم من هذه الأيام، لكنه لم يكلف نفسه مرة أمر إعلامها بالضبط متى سيغادر كابــول، وهكذا، فإن شريفة صارت تتوقع حضوره في كل ســاعة، لأيــام لا تنتهي. فكل وجبة طعام تحضَر، كانت شريفة تقوم بتحضيرها على أساس أن سلطان سيظهر فجأة ليشارك في تناولها: فمن فــروج دجــاج سمين، إلى وجبة السبانخ التي يحب الإقبال عليها، إلى

الـــشوربة الخضراء الحارة البيتية. أما السرير فلم تفارقه المفارش النظيفة المكوية حديثاً، وأما الرسائل، فمنضدة بالترتيب في صندوقها.

وتمـــرّ الساعات. ففروج الدجاج ملفوفٌ، والسبانخ يمكن إعادة تسخينها، والصلصة الحارة أعيدت إلى الدُرج. وشريفة تكنس الأرض وتـــنظف السجّاد وتشغل نفسها بنفض الغبار، تلك المهمة التي ينقضي الزمان ولا تنقضي، ثم تجلس، تتنهد وتذرف دمعات قليلات. إذ ليست المـــسألة لتقتصر على كونها تفتقده. لكنها تفتقد أيضاً تلك الحياة التي كانـــت لها كزوجة لبائع كتبٍ مشهور، له احترامه واعتباره، وهي أم أبنائه وابنته، المكرسة.

وهـــي في بعض الأحيان تكرهه لأنه قد دمر حياتها، وأبعد عنها أطفالها وتسبب لها بالخجل والخيبة في أعين العالم أجمع.

لقـــد مرّت ثماني عشرة سنة منذ أن تزوجت شريفة من سلطان، كما مرّت سنتان على زواجه من زوجته الثانية. وها هي شريفة تعيش حـــياة امـــرأة مطلّقـــة، لكن دون أن تكون لها الحرية الممنوحة للنساء المطلقـــات. فسلطان لا يزال بعلها. وهو قد قرر أن عليها المكوث في باكستان من أجل أن تراعي المنـــزل الذي يخبئ فيه أغلى ما عنده من كتب. وهنا يوجد كومبيوتر وهاتف. ومن هذا العنوان يستطيع سلطان أن يرســـل طرود الكتب إلى زبائنه، وأن يتلقى منهم الرسائل الإلكترونية؛ وكل شيء من هذه الأشياء لا يتوفر له في كابول حيث البريد والهاتف وأجهزة الكومبيوتر كلها معطلة ولا تعمل. وها هي تعيش في باكستان لأن هذا يناسب سلطان أكثر من سواه. كما أن الطلاق ليس احتمالاً مطـــروحاً. فإذا أقدمت امرأة على طلب الطلاق فإنها في الحقيقة تخسر جميع حقوقها وامتيازاتها. فالأطفال يذهبون في حصة والدهم، الذي قد يـــستطيع حـــتى مـــنعها من مشاهدتهم. وهي سوف تكون نكبةً على

عائلــتها، فهــي في العــادة تكون منبوذة منهم، كما أن جميع الثروة الزوجية تبقى مع الزوج. ويبقى على شريفة أن تنتقل للعيش في منــزل أحد إخوانها.

* * *

وخــلال الحرب الأهلية التي اشتعلت في بداية التسعينيات، ولعدة سنوات تحت حكم الطالبان، فإن العائلة بكاملها قد عاشت في بيشاور (باكستان) في مقاطعة تدعى حياة آباد، حيث تسعة من بين كل عشرة أنفــار من سكانها هم من الأفغان. لكنهم عادوا واحداً تلو الآخر إلى كابــول، فمــن الإخــوة، إلى الأخوات، إلى سلطان، إلى صونيا، إلى الأبناء: الابن منصور أولاً البالغ من العمر ستة عشر عاماً، ثم إيمال الولد البالغ الثانية عشرة من عمره. وأخيراً إقبال، الذي هو في الرابعة عشرة مــن عمره. ولم يبق سوى شريفة وأصغر أولادها، ابنتها شابنام، وهما الوحــيدتان اللــتان تخلفتا عن العائلة ببقائهما في باكستان. وقد بقيت المــرأتان تعيــشان على أمل أن يعيدهما سلطان إلى كابول، إلى العائلة والأصدقاء وهو لا ينفك عن قطع الوعود لهما، إلاّ أن طارئاً يطرأ على الــدوام ويقطــع علــيهما طريق العودة. فالبيت الآيل إلى السقوط في بيشاور، الذي كان بمثابة ملجأ مؤقت ضد الرصاص والقذائف المنهمرة في كابــول، قد استحال الآن إلى سجن لها. إذ إنها لا تستطيع مغادرته دون إذن من زوجها.

وفي الــسنة الأولى التي أعقبت زواج سلطان الثاني، كانت شريفة تعــيش معه ومع الزوجة الجديدة. وفي نظر شريفة، لم تكن صونيا مجرد فتاة غبية فقط، بل كسولة أيضاً. وربما أنها لم تكن كسولة بالفعل، لكن سـلطان لم يكن يدعها تحرك إصبعاً. فشريفة هي التي تطبخ، وهي التي تقــوم علــى خدمة العائلة، وهي التي تغسل، وهي التي تقوم بترتيب

الأسـرة»، وفي بدايـة الأمر كان سلطان يُقفِل الباب على نفسه وعلى صونيا في غرفة النوم لعدة أيام فلا يفتح الباب إلاّ لماماً لطلب الشاي أو الماء. وكانت شريفة تسمع الهمسات والضحك المتمازج مع الأصوات التي تقطع أوصالها في الصميم.

لقـد ابتلعت شريفة كبرياءها وظهرت بمظهر الزوجة النموذجية. وكـان أقاربهـا وصـديقاتها يرشحونها لنيل الجائزة الكبرى في مباراة الـزوجات الوفـيات. فلم يسمع أحد منها شكوى في أيّ يوم، ولا شاهدها أحد تقوم بمخاصمة صونيا، أو تغتابها أو تفضح عنها سراً.

وعندما انقضى شهر العسل، وغادر سلطان غرفة النوم للاهتمام برزقه، أُلقيت كل من المرأتين إلى صحبة الأخرى. وكانت صونيا تقوم بتزيين وجهها وبتجريب فساتينها الجديدة. أما شريفة فكانت تحاول أن تتصرف كالدجاجة الأم الراعية لبقية الفراخ. إذ لقد احتفظت لنفسها بأصـعب الأعمال اليومية وقامت شيئاً فشيئاً بتعليم صونيا كيف تطهو الأطـباق المفـضلة عند سلطان، كما بيّنت لها كيف يجب أن يكون تـرتيب ثـيابه، وما هي درجة حرارة الماء الذي يجب أن يغتسل به، وسوى ذلك من التفاصيل التي ينبغي للزوجة أن تعرفها عن زوجها.

ولكـن يـا للعار! فإنه ورغم أنه ليس من غير المعتاد للرجل أن يتزوج من زوجة ثانية، وأحياناً ثالثة، فإن هذا الأمر يبقى مع كل ذلك مـذلاً. فالزوجة التي تُعامَل بالإهمال لا بدّ لها من أن توصم دائماً بأنها زوجـة غير نافعة ولا تقوم بالمقام. وفي كل حال، فإن هذا الشعور هو الذي كان ينتاب شريفة لأن سلطان كان يفضل زوجته الثانية عليها في كل وضوح.

وكان من الضروري لشريفة أن تبرر ظهور هذه الزوجة الثانية في حـياة زوجها سلطان. كان عليها أن تخترع عذراً يكون من شأنه أن

يُقنع الناس أنها لم تكن هي المسؤولة عن ذلك، بل إن المسؤول هو ظروف خارجية أدت إلى خلعها عن عرشها.

فلكل من يرغب في الإصغاء إليها، كانت تتظاهر بأنها تفشي سراً بأن ورماً كان قد نما في رحمها، وأنه قد أزيل، لكن الطبيب قد قام بتحذيرها أنها إذا كانت تريد البقاء على قيد الحياة فعلاً، فإنها يجب أن تمتنع عن مضاجعة زوجها. وأنها هي شريفة، كانت قد طلبت من زوجها أن يفتش له عن زوجة جديدة، بل إنها هي التي قامت باختيار صونيا له. فبعد كل شيء إنه رجل، وله حاجاته. هذا ما كانت تقوله.

ففي تصور شريفة كان هذا المرض الوهمي أقل مدعاة للعار من الحقيقة التي تقول إنها هي، أم أولاده لم تعد تلبي حاجاته وتقوم بمقامه. فبعد كل شيء إنه لم يفعل أيَّ شيء سوى اتباع نصائح الطبيب.

وعندما كانت شريفة تريد أن تبالغ في روايتها، فإنها كانت تروي بعينين مشرقتين كم أنها تحب صونيا مثل شقيقة لها، وكيف أنها تحب طفلتها لطيفة وكأنها ابنتها هي بالذات.

وبالمقارنة مع سلطان، فإن الرجال الذين يتزوجون أكثر من امرأة واحدة كانوا في العادة يحافظون على توازن في علاقاتهم مع نسائهم، فإذا قضى الرجل ليلته مع زوجته الأولى قضى الأخرى مع زوجته الثانية، وذلك لمدة عقود من السنين. والزوجات يلدن الأطفال لينشأوا معاً كالإخوة الأشقاء تماماً. وتراقب الأمهات تعامل الأب مع أطفاله بعيني الباشق؛ بحيث تضمن ألاّ يتمّ تفضيل طفلٍ على سواه. كذلك فإن النساء يحاولن التأكد من أن الواحدة منهن تحصل على نصيبها العادل من الملبس والهدايا مثل المرأة الأخرى. والعديد من هؤلاء الزوجات تكره الواحدة منهن الأخرى كرهاً عميقاً دون أن تفصح عن ذلك. أما

نـــسوة أخريات فيقبلن الواقع القائل بأن هذا حق من حقوق الزوج في أن تكون له عدة زوجات، وبذلك يتصالحن ويكنّ صديقات على شيء مـــن الود. فبعد كل شيء غالباً ما تكون الزوجة المنافسة قد دُفعت إلى القبول بالزوج دفعاً بعد أن رتب أهلها مثل هذا الزواج بخلاف إرادتها. إذ إن قلـــيلاً من الفتيات هن اللواتي يحلمن بالاقتران من رجل متزوج أصـــلاً لتصبح الواحدة منهن زوجة ثانية لزوج متقدم في السن. فبينما تكون الزوجة الأولى قد استمتعت بشبابه، فإن الزوجة الثانية لا تحظى سوى بشيخوخته. وفي بعض الحالات يصبح وجود الرجل غير مرغوب بـــه في فراش كلٍّ من الزوجتين في كل ليلة وتكون كل واحدة منهما مسرورة إذا تُركت في حالها.

* * *

أما عينا شريفة الجميلتان العسليتان اللتان قال عنهما سلطان يوماً أنهما أجمل عينين في كابول بأسرها، فهما الآن تحدقان إلى الفراغ. لقد خـــسرتا بـــريقهما، وصارتا محاطتين بجفنين ثقيلين، وتشوبهما أخاديد خفـــيفة. وهـــي تغطي في كل حكمة جلدها المشرق المصاب ببعض البثور، بالمساحيق والمراهم. ولقد كان بياض بشرتها يعوضها دائماً عن قـــصر ساقيها. فالطول الفارع وجمال البشرة هما مقياسا الجمال الأعلى في أفغانستان.

ولقـــد كانـــت تقاتل دائماً لتحافظ على مظهرها الأنيق وعلى شـــبابها؛ وهي تخفي عن سائر الناس حقيقة أنها أكبر من زوجها ببضع سنوات. فشيب الشعر تمكن مداراته باستعمال الصباغ الذي يُعمل في البيت. لكن ملامح الوجه الحزينة هي أمر لا تستطيع أن تعمل له شيئاً.

وهـــي تقـــوم بالتنقل في أرضية البيت في تثاقل. فلا أشياء كثيرة يكـــون عليها القيام بعملها طالما أن زوجها كان قد أخذ أبناءها الثلاثة

إلى كابـــول. فالـــسجادة قد تمّ كنسها، والطعام قد تمّ تحضيره وبات جاهـــزاً. وها هي تدير مفتاح التلفاز وتشاهد فيلماً أميركياً من أفلام الرعب، فيلماً خيالياً. أبطال جميلون يقومون بمقاتلة التنانين، والوحوش، والهـــياكل العظمية، ويتغلبون على المخلوقات الشريرة. تشاهد شريفة الفـــيلم في اهـــتمام رغم عدم استيعابها للغة الإنكليزية. وعندما ينتهي عـــرض الفـــيلم تقوم بالتحدث مع أخت زوجها عبر الهاتف، ثم تقوم وتمشي إلى الشباك. ومن الطابق الثاني تستطيع رؤية كل شيء يحدث في الـــباحة الخلفـــية في أسفل العمارة. وثمة تصوينات من الطابوق يصل ارتفاعهـــا إلى علـــو قامة الإنسان وهي تسوّر الدور. وهذه الدور مثل دارها هي، كلها مليئة بالثياب المعلقة من أجل تجفيفها.

ولكن في حياة أباد ليس من الضروري لك أن ترى بعينيك حتى تعـــرف مـــا الذي يدور حولك. ففي داخل غرفة جلوسك، حتى وإن أنـــت أغمضت عينيك يمكنك أن تعرف أن جارك يستمع إلى موسيقى بـــوب على الطريقة الباكستانية القارسة، وأن الأطفال يصيحون ويلعبون، وأن المرأة هناك تصيح صيحات طويلة، وأن امرأة أخرى تقوم بتنظيف الـــسجاد عن طريق خبطه، وأن أخرى تقوم بالاغتسال تحت الشمس، وأن طبخة أحد الجيران تحترق، وأن جاراً آخر يقوم بتقطيع الثوم.

أما ما لا تستطيع الأصوات والروائح إفشاءه فتتكفل به إمدادات القـــيل والقـــال التي لا تنضب. فالنميمة تنتشر انتشار النار المجنونة في الهـــشيم في جميع أرجاء الجوار، حيث يكون الشغل الشاغل لكل أحد هو السهر على حسن أخلاق جيرانه.

وشـــريفة تـــشترك في سكنى هذه العمارة القديمة المبنية من حجر الطابوق، والتي هي آيلة إلى السقوط، مع ما يتبعها من دار خارجية، مع ثـــلاث عـــائلات أخرى. وعندما يبدو لها أن سلطان ليس بقادم، فإنها

تهبط إلى جيرانها حيث تكون سيدة البيت وبعض النسوة القليلات المتجانسات الآتيات من الجوار مجتمعات معاً. وفي أصيل كل يوم خميس كنَّ يجتمعن على "النازار"؛ وهذا يعني مأدبة دينية تخصص للثرثرة كما للصلاة.

تقوم كل واحدة منهن بلفٍّ شالها بشدة حول رأسها، وتفرد سجادة خاصة بها لإقامة الصلاة، وتكون جميعهنّ متجهات في وجوههن شطر مكة المكرمة، ثم ينحنين، ويصلين، ويرفعن رؤوسهن ثم يخفضنها من جديد بين ركوع وسجود أربع مرات كاملة. ويقام هذا الابتهال في صمت وهدوء، بحيث لا تتحرك سوى الشفاه. وعندما تصبح السجاجيد فارغة تتقدم إليها جماعة أخرى من النساء.

*﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.*

فلا تكاد النسوة يفرغن من صلاتهن، حتى يُلحقنها بأصوات عالية متشظية. فهن يقمن بالجلوس على فُرش وثيرة على طول الجدار، ثم تُمدُّ سفرة من القماش المشمَّع على الأرض توضع فوقها الفناجين والصحاف، ويقدم الشاي الطازج المنكّه بحبِّ الهال، وتقدم معه حلوى مصنوعة من فتات البسكويت والسكر. وترفع كل واحدة منهن يدها إلى وجهها وتتلو صلاتها من جديد قبل أن تتقدم إلى الجوق المهمهم حول السفرة "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله".

وعند الانتهاء من الصلاة، تمرّر كل واحدة منهن يدها فوق وجهها. من الأنف حتى أعلى الجبهة، ثم تتجه بها نحو الأسفل إلى الخدين ثم إلى الذقن حتى تستقر الأصابع على الشفتين. كما لو أن

الـــواحدة منهن تقوم بالتهام الصلاة. فمن الأمهات حتى البنات، يجري تلقيـــنهن أنهـــن إذا قمـــن بأداء الصلاة على هذه الشاكلة في حفلات "الـــنازار"، فـــإن صـــلواتهن ستكون مقبولة، إذا كانت الواحدة منهن تـــستحق ذلك. وهذه الصلوات لا يحجبها عن الله حجاب، وهو الذي يقرر قبولها أو ردَّها.

أمـــا صلاة شريفة فتكون بأن سلطان سيقوم بردها وردّ ابنتهما شابنام إلى كابول حيث سيكون جميع أولادها مجتمعين حولها.

وعـــندما تكون كل واحدة قد فرغت من سؤال الله إجابة صلاتها، فـــإن شـــعائر الخميس الحقيقية يمكن لها أن تبدأ: فمن تناول المربيات، إلى شرب الشاي المنكَّه بالهال، إلى التداول في آخر الأخبار. هنا ترطن شريفة بـــبعض الكلمـــات التي مفادها أنها تتوقع قدوم سلطان في أي لحظة، لكن أحـــداً لا يهـــتم بذلك. فأخبارها مع زوجها وضرَّتها لم تعد هي الحديث الحامـــي في الـــشارع 103 في مدينة حياة أباد. إذ إن الفتاة سليقة البالغة السادسة عشرة من عمرها هي الآن نجمة القيل والقال. أما الفتاة موضوع هذا اللغط، فهي محجورة الآن في غرفة خلفية في أعقاب ارتكابها لجريمة لا تقـــبل المغفرة كانت قد ارتكبتها قبل بضعة أيام. وهي تستلقي الآن على حصيرتها مرضوضة مهانة، بوجه نازف، وظهر مخدَّد بخطوط حمراء وارمة.

وأولـــئك اللواتي لا يعرفن الرواية بتفاصيلها يصغين الآن في جذلٍ وطرب.

كانت جريمة سليقة قد ابتدأت فصولاً منذ ستة أشهر خلت. ففي أحـــد الأيام بعد الظهر، قامت شابنام، ابنة شريفة بتمرير قصاصة من الورق إلى سليقة.

"لقـــد عاهدتُ على عدم الإفصاح عن مرسل هذه الورقة لكنها آتية من صبـــي". قالت وهي تمشي على رؤوس أصابع قدميها انفعالاً

وفرحاً لفكرة نجاحها في مهمتها الكبيرة. "إنه لا يجرؤ على الكشف عن نفسه. لكنني أعرف من يكون".

وبقيت شابنام تداوم على إحضار الرسائل من الصبي، وكلها قصاصات من الورق عليها رسومات قلوب مخروقة بالسهام وكلمات من نوع "إنني أحبك" مكتوبة بأحرف مرتبكة، وكلمات أخرى من قبيل إخبارها كم هي جميلة. وهكذا، صارت سليقة ترى صورة كاتب هذه الرسائل المجهول في عيني كل صبي تصادفه. لقد باتت تزداد اهتماماً بهندامها، وبجعل شعرها لامعاً ومنسرحاً، وصارت تلعن عمها سراً لإرغامه إياها على وضع الحجاب.

وفي أحد الأيام كتب إليها الصبي أنه سيكون واقفاً إلى جانب عمود النور الذي يبعد مسافة بضعة بيوت عن بيتها، وأنه سوف يكون مرتدياً كنزة حمراء. ارتجفت سليقة من شدة الحماس والانفعال عندما غادرت منزلها. وكانت هي ترتدي لباساً مخملياً أزرق باهتاً، وتضع عليها حليّها المفضلة، وهي عبارة عن أساور بلون الذهب، وسلاسل عريضة الحلقات. لقد كانت مع صديقة لها وكادت ألاّ تستطيع المرور بالفتى النحيل الذي يرتدي كنزة حمراء. وكان هو يشيح بوجهه ولم يتحرك عن وضع وقوفه.

أما الآن فقد أخذت هي المبادرة في كتابة الرسائل. "غداً عليك أن تستدير لأراك"، كتبت له دافعة الرسالة إلى شابنام، المحسنة الخيِّرة المستعدة دائماً للمساعدة كمبعوث بين الحبيبين. لكنه ولمرة جديدة لم يتحرك عن وضعه. ولكن في اليوم الثالث استدار نحوها. عند ذلك شعرت سليقة أن قلبها يهبط إلى معدتها، لكنها تابعت المسير. وعند هذه المرحلة حل الحب الجارف محلّ القلق والترقُّب. و لم يكن الولد وسيماً على نحو ملفت، لكنه في النهاية كان هو، الحبيب الذي يكتب

الرسـائل. ولمـدة أشـهر بقـي الحبيبان يتبادلان قصاصات الأوراق والنظرات المختلسة.

والآن أضـيفت جرائم جديدة إلى الجرائم القديمة، جرائم تُظهر بأنها قد قبلت تسلُّم رسائل مرسلة إليها من شاب، وأنها، ليسامحها الله، قـد قامت بالإجابة عليها. والآن ها هي قد وقعت في غرام شخص لم يختـره لهـا أهلها. وهي قد علمت أنهم قد لا يوافقون عليه، فهو غير متعلم، ولا مال لديه، وينتمي إلى عائلة وضيعة. ففي حياة أباد لا يعوَّل سـوى علـى إرادة الأهل. وكانت شقيقة سليقة لم تتزوج سوى بعد خمـس سنوات من العراك مع والدها. فقد وقعت في غرام شخص هو سـوى الذي اختاره لها أهلها. وقد رفضت التخلي عمَّن أحبه قلبها. ولقد انتهت المعركة عندما أفرغ كل من الحبيبين قارورة من الحبوب في جـوفه، وتمَّ نقـل كل منهما على جناح السرعة إلى المستشفى لغسل معدته. وعند ذلك فقط، أعطى أهل العروس موافقتهم.

وفي أحد الأيام جمعت الظروف بين سليقة ونديم في مكان واحد. لقد كانت والدتها تمضي نهاية الأسبوع عند أقارب لهم في إسلام أباد، كما كان العم غائباً عن المنـزل طيلة النهار. ولم يكن في البيت سوى زوجته. وهكذا، قالت لها سليقة بأنها ذاهبة لزيارة بعض الصديقات.

"وهـل حصلتِ على إذن بالخروج؟" سألتها زوجة عمها. كان عمهـا هـو رئـيس العائلة ما دام أن والدها يعيش في مخيم لاستقبال اللاجـئين في هولندة. كان في انتظار صدور إذنٍ له بالإقامة يسمح له بالحصول على عمل، وبالتالي إرسال بعض النقود إلى أهله؛ أو في أفضل الأحوال استقدام عائلته بكاملها إليه.

"لقـد قالـت أمي إنه يمكنني الخروج بعد الانتهاء من واجباتي"، قالت سليقة كاذبة.

لكنها لم تذهب لزيارة صديقتها، بل للقاء ندم وجهاً لوجه.

"لا يمكننا أن نتحدث هنا"، قالت له في سرعة عندما بدا أنهما قد التقيا صدفة عند منعطف الشارع. لذلك فهو يقوم بإيقاف سيارة تاكسي ويدفع بها إلى داخلها. ولم تكن سليقة قد ركبت من قبل في سيارة تاكسي بصحبة ولد من غير أهلها، وها هو قلبها الآن يقفز إلى حلقها. توقفا بالقرب من حديقة عامة، حديقة في مدينة بيشاور يمكن للرجال والنساء تبادل الحديث فيها.

جلسا على مقعد في المنتزه، وتكلما لمدة نصف ساعة سريعة من الزمن. ندم يضع خططاً كبيرة لمستقبلهما، إنه يريد أن يشتري دكاناً يبيع فيه السجاد. أما سليقة فتعيش لحظات رعب خيفة أن يصادفهما أحد ويشي بهما. وبعد أقل من نصف ساعة على مغادرتها لمنزلها تعود إليه. لكن جهنم كانت قد فتحت أبوابها على مصراعيها. فلقد رأتهما شابنام في سيارة التاكسي فذهبت وأخبرت والدتها شريفة بذلك، وشريفة لم تبطئ في نقل الخبر إلى زوجة العم.

قامت زوجة العم بلطم سليقة على فمها فور عودتها، ثم أقفلت باب الغرفة عليها، واتصلت بوالدة الفتاة هاتفياً إلى إسلام أباد. وعندما عاد العم إلى منزله دخلت العائلة بكاملها إلى الغرفة طالبة معرفة كل الذي جرى مع الفتاة. انتفض العم في غضب عندما سمع برواية التاكسي، والمنتزه، والمقعد. التقط سلكاً كهربائياً وقام بضرب الفتاة تكراراً على ظهرها بينما كانت امرأة عمها تتمسك بها ثم قام بلطم وجهها حتى نزفت من أنفها وفمها.

"ما الذي فعلته؟ ما الذي فعلته؟ أيتها السافلة"، صاح العم. "إنك عار على هذه العائلة. إنك لطخة عار في شرفنا. إنك فرع عفن متسوس".

كـــان صوته يدوّي في أرجاء البيت ليصل إلى مسامع الجيران عبر شبابيكهم المفتوحة. وسرعان ما يعرف الجميع عن جريمة سليقة. الجريمة التي تسببت لها بالرقاد مقفلاً عليها في غرفتها، وهي تتضرع إلى الله أن يقـــوم نديم بالتقدم إلى خطبتها، وأن يسمح لها أهلها بالزواج منه، وأن يتمكن نديم من فتح دكان لبيع السجاد، وأن تستطيع هي وإياه الخروج مما هما فيه.

"إذا كانـــت تجـــرؤ على الخروج مع شاب في سيارة تاكسي، فإنني علـــى ثقة أنها تجرؤ على عمل أشياء أخرى"، تقول نسرين، صديقة العمة، بيـــنما هي تنظر في عتوٍّ نحو أم سليقة. تغترف نسرين بعض المربى إلى فمها بملعقة كبيرة منتظرة الجواب على حكمها القضائي الذي أصدرته.

"إنها لم تذهب إلى غير الحديقة العامة، ولم يكن هنالك من حاجة إلى ضـــربها إلى درجة كادت أن تذهب بحياتها"، تقول شيرين، التي هي طبيبة.

"لو لم نردعه عنها، لكان علينا بعد ذلك أن نضطر إلى نقلها إلى المستـــشفى"، قالت شريفة. "لقد أمضت كل ليلتها في فناء الدار وهي تـــصلي"، تابعت قولها. ففي حالتها التي يهجرها فيها النوم، كانت قد لمحـــت الفـــتاة المسكينة. "بقيت في الفناء تصلي حتى نادى المؤذن على صلاة الفجر"، قالت مضيفة.

تنهدت النسوة، وتمتمت إحداهن بالصلاة. ووافق الجميع على أن سـليقة قـد اقترفت خطأ كبيراً بمقابلتها نديم في الحديقة العامة، لكن آراءهـــنّ لم تـــتفق حول ما إذا كانت مجرد خارجة عن الطاعة أم أنها تعدّت ذلك إلى ارتكاب جريمة نكراء.

"يـــا لهـــذا الذل والعار... يا للذل والعار"، تندب والدة سليقة حظها. "كيف يمكن لابنة من بناتي أن تعمل مثل هذه العَملة؟".

وتنتقل النسوة إلى مناقشة الموضوع من وجهة مستقبلية. إذا تقدم الولد لطلب يدها، فإن العار يمكن أن يُنتسى. لكن والدة سليقة ليست شديدة الحرص على أن يصبح نديم صهراً لها. فعائلته فقيرة، وهو غير متعلم، وهو يقضي معظم أوقاته متجولاً في الشوارع. فالوظيفة الوحيدة التي نالها، ثم ما لبث أن فقدها، هي العمل في معمل للسجاد. فإذا تزوجت سليقة منه فلا بدّ لها من الانتقال للعيش مع عائلته التي لا تكاد تستطيع تأمين مسكن لها.

"إن أمه ليست سيدة بيت جيدة"، تصرح إحدى النسوة. "فمنزلها يبقى وسخاً وغير مرتب على الدوام، كما أنها كسولة ولا تكاد تستقر في بيتها".

وتقوم إحدى النسوة باستذكار جدة نديم. "عندما كانوا يعيشون في كابول كانوا لا يتورعون عن استضافة أيٍّ كان"، تقول قبل أن تضيف بمكر: "لقد كان الرجال يدخلون بيتها حتى عندما تكون فيه بمفردها، رغم أنهم لم يكونوا من أقربائها".

"مع كل احترامي"، تقول إحدى النسوة موجهة الكلام إلى والدة سليقة، "عليَّ أن أعترف أنني كنت أعتقد أن سليقة كانت دائماً تحب إبراز نفسها، فهي شديدة الحرص على هندامها. ولا ترتدي ثيابها سوى على آخر طراز. وكان عليك أن تنتبهي إلى أنها تخفي أفكاراً قذرة".

وللحظة، لا تقول إحداهن شيئاً، مع أن الموافقة تبدو على وجوه الجميع، وإن كن لا يصرّحن باعتقادهن هذا تعاطفاً مع خواطر والدة سليقة. تمسح إحدى النسوة فمها؛ لقد آن الأوان للتفكير بأمر العشاء. فتنهض النساء الأخريات واحدة تلو أخرى. وترتقي شريفة الدرج إلى شقتها المؤلفة من غرف ثلاث. تمر قرب الغرفة الخلفية التي هي مغلقة

على سليقة. فهي ستبقى محجوبة هناك إلى أن تقرر العائلة ماذا عليها أن تفعل في شأنها.

تتـــنهد شريفة. تفكر في العقوبة التي نالتها جارتها جميلة. وجميلة هـــذه، كانت قد تحدَّرت من عائلة ذات نفوذ. وكانت غنية وطاهرة وجمـــيلة كالأزهار. وكان قريب لها قد وفَّر نقوداً اكتسبها من العمل خـــارج الـــبلاد، وهكذا صار باستطاعته التقدم لطلب يد هذه الفتاة الجمـــيلة الـــبالغة الثامنة عشرة من عمرها. ولقد كانت حفلة الزفاف اســـتثنائية، إذ حـــضرها خمـــسمئة من المدعوين، وكان الطعام سخياً ومتـــرفاً، والعـــروس مشعة بجمالها. وكانت جميلة لم يقع نظرها على الرجل الذي كانت ستتزوج منه، قبل الزواج، فلقد قام الأهل بترتيب جميع الأمور. والعريس رجل طويل نحيل في العقد الرابع من عمره، عاد مـــن بـــلاد غربته البعيدة كي يتزوج على الطريقة الأفغانية. كان قد صـــرف مع جميلة أسبوعين معاً كزوجين حديثي العهد بالزواج قبل أن يعـــود الـــزوج أدراجه من أجل ترتيب الأوراق المتعلقة بتأشيرة سفر زوجـــته عليها تلتحق به. وفي الوقت عينه، فإن جميلة بقيت تعيش مع أخوي زوجها ومع زوجتيهما.

وقـــد أمسكوا بها بعد ثلاثة أشهر. لقد كان البوليس قد وشى بهـــا. فلقـــد تجسس البوليس على شخص شوهد يتسلل من خلال نافذتها.

ولم يـــتمكن أحد من الإمساك بالرجل، لكن أخ زوجها كان قد عثـــر علـــى بعض أشيائه في غرفة جميلة. أشياء استعملت كدليل على علاقتهما. قامت أسرة العريس على الفور بفسخ الزواج وأرسلوا إليها جهازهـــا. أُقفـــل الباب عليها مدة يومين كان خلالها مجلس العائلة في حالة انعقاد.

وبعد ثلاثة أيام أشاع شقيق جميلة أمام الجيران أن أخته قد توفيت نتيجة لحادث صدمة بالتيار الكهربائي تسبب به عطل في مروحة كهربائية.

ثم أقيم لها مأتم في اليوم التالي: أحضرت فيه الكثير من الورود، وكانت الوجوه خلاله حزينة متجهمة. وكانت والدتها وشقيقاتها خارج نطاق أي تعزية. لقد كان الجميع يتفجعون بسبب العمر القصير المقدَّر لجميلة.

"ومثلما قالوا عن يوم زواجها"، قالوا أيضاً، "لقد كان مأتمها رائعاً".

أما شرف العائلة فقد تمَّ استنقاذه.

وكانت شريفة تحتفظ بشريط فيديو عن يوم الزفاف، لكن شقيق جميلة جاء يوماً لاستعارته منها. ولم يرجعه إليها أبداً. ولم يبقَ شيء مما يشير إلى أن هنالك حفلة زفاف قد جرت قط. لكن شريفة لا تزال تحتفظ بصور فوتوغرافية قليلة. يبدو فيها العروسان رسميان وجدِّيان بينما هما يقومان بقطع كعكة العرس، لم يكن وجه جميلة ليشي بشيء، وهي تبدو لطيفة في ثوب زفافها البريء الأبيض وفي طرحة العرس والشعر الأسود والشفتين الحمراوين.

تتنهدت شريفة. لقد ارتكبت جميلة جريمة لا تغتفر، لكن بسبب الجهل أكثر مما هو بسبب خبث السريرة.

"لم تكن لتستحق الموت. لكن الله يحكم"، تتمتم بصلاة متقطعة الأنفاس.

ومع ذلك، فإن شيئاً ما، يثير انزعاجها: مؤتمر العائلة الذي استمر لمدة يومين إلى أن قامت والدة جميلة، والدتها بالذات، بالموافقة على قتلها. فلقد كانت هي، أمها، من أرسل الابنين لقتل الابنة. لقد

دخـــل الأخـــوان الغرفة معاً، ومعاً أطبقا بالوسادة على وجه أختهما جمـــيلة، ومعاً قاما بالضغط على الوسادة أكثر فأكثر، حتى أزهقا روح الفتاة.

ثم عادا أدراجهما إلى والدهما.

الانتحار والأغنية

يعتبر توق النساء إلى الحب في أفغانستان أمراً محظوراً. فهو ممنوع بسبب مفهوم العائلات والقبائل للشرف كما أنه أمر يحرمه الملالي. ولا يحق للشباب والشابات أن يجمعهم أي لقاء خلوة، مثلما لا يحق لهم أن يحبوا، ولا أن يختاروا، فالحب لا علاقة له لا بالرومانسية ولا بالغرام؛ بل على العكس فإن الحب قد يجري تفسيره على أساس أنه ارتكاب لجريمة خطيرة، يكون عقابها الموت. ومن لا يردع نفسه يُقتل بكل قسوة. وإذا كان لا بدّ من قتل أحد الفريقين المذنبين، فلا خلاف على وجوب قتل المرأة.

فالنساء الشابات هن قبل كل شيء أشياء لا بدّ من المقايضة عليهن أو بيعهن، فالزواج عقد يجري بين العائلات أو في داخل العائلات. فالقرارات تتخذ وفقاً للمنفعة التي يجلبها الزواج للعشيرة، أما المشاعر فنادراً ما تؤخذ في الحسبان. خلال مرور القرون كان على النسوة الأفغانيات أن يصبرن على هذه المظالم التي ترتكب في حقوقهن. ولكن الأغاني والأشعار النسائية كانت تشهد على حياتهن. وتلك الأغاني لم يكن المقصود بها الذيوع والاشتهار، ولكن رجع الصوت يتلبَّثُ على الجبال وتردده الصحراء.

"فهـــنَّ كنَّ يقدّمن احتجاجاتهن بالانتحار والأغاني" هذا ما كتبه الـــشاعر الأفغـــاني زياد بهاء الدين مجروح في ديوانٍ عن أشعار النساء الباشتونيات. وكان قد قام بجمع تلك الأشعار بمساعدة أخت زوجته. وكـــان مجروح نفسه قد اغتيل على يد الأصوليين في مدينة بيشاور عام 1988.

والقـــصائد والأشـــعار تعـــيش في الأقوال الشعبية ويجري تبادلها والتداول بها قرب البئر، أو على الطريق إلى الحقول، أو إلى جانب تنور الخبـــز. وهي تتحدث عن الحب الممنوع، وهي وبدون استثناء يكون فيها الحبيب شخصاً ما يختلف عن الشخص الذي تمّ تزويج المرأة منه؛ كمـــا تتحدث هذه القصائد والأشعار عن العزوف عن الزوج (الذي يكون في العادة أكبر سناً بكثير من الزوجة). لكن هذا التراث أيضاً فيه تعـــبير عـــن الكرامة والشجاعة. وتلك الأشعار يطلق عليها محلياً لقب "لانـــدي"، الكلمة التي تعني القصير والمجزوء. فهي تقتصر على أسطر قلـــيلة وتكون قصيرة وإيقاعية، "مثل صرخةٍ أو طعنة سكين"، يكتب مجروح:

"أيها الناس القساة
إنكم ترون ذلك الرجل العجوز
وهو يدبُّ إلى فراشي
وتسألونني بعد ذلك لماذا
أقوم بالبكاء وتقطيع شَعْري"

* * *

"آه يا إلهي
ها أنت تفرّد عليّ من جديد
ليلة سوداء قاسية وها أنا مرة جديدة أرتجف
من قمة رأسي

إلى أخمص قدميّ
إذ عليّ بالمبيت
في فراش أمقته ولا أحبه".

* * *

لكن النساء في أشعارهن متمردات أيضاً، فهن يجازفن بحياتهن على مذبح الحب، في مجتمع يُمنع فيه الشغف وتكون العقوبة لا رحمة فيها.

* * *

"هات يدك يا حبيبي
وسوف نختبئ بين أحضان المروج
فإما أن نعيش حبيبين
وإما أن نموت تحت طعن السكاكين".

* * *

"رميت نفسي في النهر
لكن تياره لم يأخذني معه
يا لحسن حظ زوجي
فإنني أعود إليه كل مرة
بعد أن يلقي التيار بي
إلى الشاطئ من جديد".

* * *

"غداً صباحاً
سيقتلونني من أجلك
فلا تقلْ
إنك لم تكن حبيبي".

* * *

فهذه "الصرخات" تفصح كلها عن الخيبة، وعن الحياة الضائعة التي لم تعشها المرأة. وليس بين تلك القصائد قصيدة واحدة عن الأمل؛

بل على العكس، إن القنوط يسودها. فالنساء لم يعشن عيشاً كافياً، و لم يتذوّقن ثمار جمالهن، ولا شبابهن، ولا لذائذ الحب.

* * *

"لقد كنت جميلة كأنني وردة
فتحولت تحتك إلى
شيء أصفر كأنه البرتقال
وإنني لم أعرف العذاب مرة
وعليه، فقد تَمَوّتُ عالياً
كأنني شجرة شربين".

رحلة عمل

كــان الهواء لا يزال بارداً. إذ لم تكن الشمس قد أتمّت إشراقتها على الجرف الصخري للجبل شديد الانحدار. أما المنظر الطبيعي فملوّن بالغبار البني الضارب إلى الرمادي. ومنحدرات الجبال كلها من صخر؛ والجلامــيد الصخرية تنذر دائماً بالانفكاك عن أمهاتها لتبدأ سلسلة من الانهــيارات؛ بينما الحصى وقطع الصلصال تفرقع تحت حوافر الخيول، والأشــواك النابــتة بــين الصخور تخدش أرجل المهربين، واللاجئين، والمحــاربين الهــاربين. ومتاهات متشابكة من الممرات تتقاطع وتتخفّى وراء الصخور وخلف التلال.

تلــك هــي الطريق التي اعتاد سلوكه مهربو السلاح، والأفيون، والــسجائر، وعلــب الكوكا كولا بين أفغانستان وباكستان، وتلك الممرات ما فتئت مطروقةً عبر التاريخ وعلى امتداد القرون. فعلى هذه المسالك كانت قد مرّت عناصر الطالبان والمقاتلون العرب المنتسبون إلى القاعدة عندما أيقن الجميع أن معركة أفغانستان باتت خاسرة فانكفأوا جمــيعاً إلى مــناطق القبائل في باكستان. وتلك هي الممرات ذاتها التي ســيقومون باســتعمالها عندما يرجعون لإيقاع الهزائم بالجنود الأميركيين الكافــرين الذين قاموا باحتلال تراب المسلمين المقدس. فلا السلطات

الأفغانية، ولا الباكستانية، قادرة على السيطرة على تلك المساحة التي تحيط بالحدود بين البلدين. فقبائل الباشتون تستأثر بالإمرة على مقاطعاتها الخاصة بها على كل من جانبي الحدود.

والقوات غير الشرعية، المتمردة على كل قانون قد أوجدت لنفسها بشكل منافٍ للطبيعة طريقاً إلى القانون الباكستاني. فعلى الجانب الباكستاني يحق للسلطات أن تعمل على الطرقات المعبّدة، وما يليها، بعشرين ياردة إلى الجانبين فقط. أما في ما يتعدّى العشرين ياردة. فإن السلطة والسيادة تصبحان لقانون القبائل. وفي هذا الصباح يشق بائع الكتب سلطان خان طريقه عبر حراس الحدود الباكستانيين. وعلى مبعدة ما يقل عن مئة ياردة تقف قوات الشرطة الباكستانية. وما دام الأشخاص - والخيول والبغال المحملة - يحفظون مسافتهم، فليس باستطاعة البوليس أن يتعاطى معهم أو أن يفعل لهم شيئاً.

ولكن إذا كانت السلطات تعجز عن السيطرة على هذا السّيل، فإن العديد من المسافرين يتم إيقافهم رغم كل ذلك لكي يجري "تغريمهم" وأخذ المكوس منهم على يد رجال مسلحين، لا يكونون في أحيان كثيرة سوى قرويين عاديين. وكان سلطان قد أعدَّ لمثل هذا الأمر عدّته؛ فقد كانت صونيا قد خيّطت أوراق العملة في داخل كمي قميصه، وهو يحمل ممتلكاته في شوال سكر شديد الاتساخ. كما أنه يرتدي أقدم قمصانه وسراويله محلية الطراز.

ومثلما هو الحال مع معظم الأفغانيين، فإن الحدود الباكستانية يجب أن تكون مقفلة في وجه سلطان. ولا يقدّم في الأمر شيئاً أو يؤخر، أن تكون له عائلة، ومنزل، وتجارة في تلك البلاد، ولا أن تكون له ابنة تذهب إلى المدارس فيها؛ فهو غير مرحّب به. ففي أعقاب الضغوط التي مارستها الأسرة الدولية، أقفلت باكستان حدودها منعاً

لمرور الإرهابيين والطالبان من أجل الاختباء في داخل البلاد. ولم تكن تلك سوى بادرة عاطفية عديمة الجدوى. فبعد كل شيء فإن الإرهابيين والمحـــاربين لا يتقدمون إلى نقاط الحدود فيما يحمل الواحد منهم جواز ســفره في يده: فهم يستعملون الممرات نفسها التي يستعملها سلطان عــندما يسافر في رحلاته التجارية. وهناك ألوف من الأشخاص الذين يعبرون الحدود الباكستانية في كل يوم بهذه الطريقة.

وتكــافح الخيول لشقّ طريقها فوق المنحدرات القاسية. ويجلس ســلطان باتــساع صدر، وثبات عزم، وهو منفرج الساقين فوق ظهر حــصان ليس عليه بردعة. فحتى في أرثّ ملابسه، كان لا يزال يبدو جيد الهندام. ومثلما هو حاله دائماً، فإن لحيته كانت حديثة التشذيب، ويرسو طربوشه القصير بكفاءة وثبات فوق رأسه. فها هو يبدو كرجل بــارز يتخذ له رحلة للتنــزه فوق الجبال والاستمتاع بمناظرها؛ وحتى عــندما يكون جَزِعاً خائفاً، فإنه يمسك بيده أعنّة الحصان بثبات، وهو يشعر بالتقلقل. فخطوة عاثرة واحدة كفيلة بالذهاب به وبالحصان إلى قــاع الهاويــة. لكــن الحصان يتسلّق الدرب إلى الأعلى بهدوء منتقياً المسالك التي هي مطروقة أكثر من سواها، وذلك دون جهد منه ودون تأثــر بثقل الرجل الذي يحمله فوق ظهره. أما كيس السكر الثمين فهو يلــتفّ التفافاً محكماً حول ذراع سلطان. فهو يحتوي على الكتب التي يــرغب سلطان في طباعتها لمصلحة مكتبته، كما يحتوي على مسودة الورقة التي يأمل أن تصبح مشروع عمله الكبير في هذه الحياة.

وهــا هو محاط بالرجال المشاة الأفغانيين، وكلهم يريدون العبور إلى البلد الممنوع عليهم العبور إليه. كما كانت هنالك النسوة المتلفعات بعباءات البوركا واللواتي يركبن على جانبــي سروج الدواب وهنّ في طــريقهن إلى زيارة الأقارب. ولا يخلو الجمع هذا من طلبة عائدين إلى

الجامعة في بيشاور بعد أن أمضوا احتفالات العيد الدينية مع عائلاتهم في أفغانستان. وقد يكون بين أفراد هذا الرعيل جماعة من المهربين، أو ربما من رجال الأعمال. لكن سلطان لا يسأل، فهو شديد التركيز على مهمته كما على لجام حصانه، وهو يلعن السلطات الباكستانية. فاليوم الأول يقضيه مستعملاً السيارة من كابول إلى الحدود، ثم يمضي ليلته في محطة اختباء عند الحدود، ثم يمضي نهاراً كاملاً على سرج الحصان وسيراً على القدمين ثم في سيارة بيك آب. والرحلة عبر الطريق الرئيسي من نقطة الحدود إلى بيشاور لا تكاد تستغرق ساعة واحدة. فسلطان يشعر بالإهانة عندما يجد نفسه مضطراً إلى الدخول خلسة عبر الحدود إلى باكستان. فهو يشعر أنه يعامل مثل كلب من كلاب الطرقات. فباكستان كانت قد ساعدت نظام الطالبان سياسياً، كما أمدّته بالمال والسلاح، وهو يعتقد أن السلطات الباكستانية تلبس الآن وجهين مختلفين، إذ هي تذعن للأميركيين فجأة وتقفل الحدود في وجه الأفغانيين.

فباكستان كانت هي الدولة الوحيدة، إلى جانب المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، التي أقدمت على الاعتراف رسمياً بنظام طالبان. فالسلطات الباكستانية أرادت أن يقوم رجال قبيلة الباشتون بالسيطرة على أفغانستان. والباشتون هؤلاء يعيشون على جانبي الحدود وهم يتأثرون إلى درجة معينة بمواقف باكستان. وفي حقيقة الأمر، فإن جميع رجال طالبان كانوا من الباشتون. فهم يشكلون الجماعة الإثنية الكبرى في أفغانستان، وتصل نسبة عديدهم إلى أربعين بالمئة من مجموع سكانها. أما الطاجيك فإنهم أكبر المجموعات الإثنية في مناطق الشمال. ويتكوّن حوالى ربع الشعب الأفغاني من الطاجيك. وهؤلاء هم الذين يتشكل منهم تحالف الشمال الذي لقي بعد أحداث

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دعماً من الأميركيين، أي أن جميع قوات تحالف الشمال كانت تنتسب إلى قبيلة الطاجيك. أما الباكستانيون فينظرون إلى قبائل الطاجيك بدرجة معينة من الشك والحذر. وحيث إن الطالبان قد سقطت، وأن الطاجيك قد أصبحوا القوة التي تراعيها الحكومة وتحسب لها حساباً، فإن العديد من الباكستانيين باتوا الآن يشعرون أنهم قد أصبحوا محاطين بالأعداء: الهند من الشرق، وأفغانستان من الغرب.

ولكن، وعلى وجه العموم، فإن هنالك القليل من الأحقاد القبلية بين الجماعات الأفغانية المختلفة. أما منشأ النزاعات فيعود إلى الصراع على السلطة بين زعماء الحرب المتعددين الذين كان دأبهم دائماً تشجيع الجماعات الإثنية على الاحتراب فيما بينها. فالطاجيك في خشية من أمرهم في أنه إذا زادت قوة الباشتون عن حدّها فإنهم قد يتعرضون لمذابح لو نشبت يوماً حرب أخرى. أما الباشتون فيخشون ازدياد قوة الطاجيك للسبب نفسه. والأمر ذاته يمكن أن يُقال عن قبيلتي الأوزبك والهازار اللتين تقطنان المناطق الشمالية الغربية من البلاد. كما أن الحرب قد أُشعلت أيضاً بين زعماء العشائر في داخل كل جماعة إثنية بحدِّ ذاتها.

ولم يكن سلطان بشديد الاهتمام حول نوع الدم الذي يجري في عروقه، أو حتى في عروق أي شخص آخر. فهو، مثله في ذلك مثل الكثير من الأفغانيين، يحمل نسباً خليطاً: فأمه من قبيلة الباشتون، ووالده من الطاجيك، وزوجته الأولى من الباشتون. أما زوجته الثانية من الطاجيك. وهو ينتسب رسمياً إلى الطاجيك لأن العرقية يجري توارثها من جانب الأب. وهو يتكلم اللغتين، الـ: باشتو، والـ: داري؛ والأخيرة هي لهجة من اللغة الفارسية المحكية، التي يستعملها الطاجيك.

ويتجه رأي سلطان إلى أن الوقت الذهبي للأفغانيين قد حان لكي يطرحوا كل الحروب وراء ظهورهم ويشرعوا في إعادة إعمار بلادهم. ومفاد الحلم هو أنهم قد يستطيعون يوماً أن يعوّضوا عمّا خسروه بالتناسب مع جيرانهم. لكن الأوضاع لا تبدو جيدة. وسلطان يشعر أن أبناء وطنه يخيّبون آماله.

* * *

شخر ومسح العرق عن جبينه. فالشمس الآن في ذروة وهجها. أخيراً يتجه الطريق أمامه نحو الانحدار نزولاً. وعن طريق العربات في واد صغير ثمة العديد من سيارات البيك آب التي تنتظر. هذه هي تكاسي "خيبر بّاس" أما مالكو هذه السيارات فقد حققوا أرباحاً كبيرة عن طريق تسهيل دخول الضيوف غير المرحب بهم، إلى البلاد.

وهذا الطريق كان يوماً جزءاً من طريق الحرير، وهو طريق تجاري كان يقوم بين الحضارات الكبيرة الشديدة القِدم؛ طريق بين بلاد الصين وبين روما. كان الحرير يُحمل غرباً ليجري استبداله بالذهب والفضة والصوف.

وكان ممر خيبر ممراً يجتازه كل مَن هو غير مرغوب به منذ أكثر من ألفي سنة. لقد مرَّ عليه الفرس، والإغريق، والمغول، والمنغول، والأفغان، والبريطانيون الذين حاولوا الاستيلاء على الهند عن طريق الوصول إليها عبر هذا المسلك. وفي القرن السادس قبل الميلاد تمكن الملك الفارسي داريوس من قهر أجزاء كبيرة من أفغانستان ثم زحف عبر ممر خيبر إلى الهند. وبعد ذلك بقرنين من الزمان، زحف جنرالات الإسكندر المقدوني الكبير بجنودهم عبر هذا الممر. وعند أضيق نقاط هذا المعبر فإنه لا يتسع سوى لمرور جمل واحد محمّل، أو لمرور حصانين في وقت واحد. وكان جنكيز خان قد رمى أنقاضاً عند بعض جوانب

طـريق الحريـر، بينما اكتفى بعض المسافرين المسالمين سواه من أمثال ماركو بولو بمجرد اقتفاء آثار القوافل، والعبور إلى الشرق.

ومنذ أيام الملك داريوس حتى تاريخ الغزو البريطاني لممر خيبر في العقد الأول من القرن التاسع عشر، فإن قبائل الباشتون الآتية من الجبال المحـيطة قـد قاومت بحماسة، وبشكل لا يلين، جميع الجيوش الغازية. ومـنذ الانسحاب البريطاني في العام 1947، فإن هذه القبائل شدّدت قبضتها وانتشارها حول هذا الممر وعلى كل أراضي بيشاور. وكانت أقـوى هذه الجماعات شكيمة هي قبيلة الأفريدي التي كانت تُخشى مهابة من مقاتليها الشرسين.

فـلا تـزال الأسلحة هي أول ما يلفت النظر بعد عبور الحدود. فعلـى امـتداد الجانب الباكستاني من الطريق الرئيسي، وعند مراحل منـتظمة نُقِشت على جنبات صخور الجبل، أو طُليت، إشارات فوق علامات الطرقات الوسخة، اسم: "كتائب خَيبَر". وكتائب خيبر هذه، هـي عبارة تعود في الأساس للدلالة على اسم شركة لتصنيع البنادق، فـصارت الآن اسمـاً يطلق على جماعة الميليشيا التي تأخذ على عاتقها تأمين الأمن في هذه المنطقة. وهذه الميليشيا تحافظ على ثروة لا يستهان بهـا. فالقرية التي تقع مباشرة بعد عبور الحدود إلى باكستان مشهورة ببازارها الشهير المليء بالبضائع المهربة، والحشيش، والأسلحة التي يجري تمريـرها في مقابـل أغنـية. فلا أحد هنا يسأل عن رخصة، بينما أي شـخص يحمـل أسلحة داخل باكستان يعرِّض نفسه لمحكومية طويلة يمضيها في السجن.

وبين الأكواخ الطينية تنتصب قصور ضخمة لافتة شُيِّدت بأموال الـسوق السوداء. كما يوجد بعض الاستحكامات الصخرية الصغيرة وبعـض البـيوت الباشتونية التقليدية التي تسوِّرها جدران عالية وهي

تـتوزع مرصّـعة سـفح الجبل. ومن وقت لآخر، تلوح جدران من الكونكـريت في المنظـر العام؛ وهذه يُطلق عليها تسمية أسنان التنين، وكـان قد شيّدها البريطانيون الذين خشوا من هجوم للدبابات الألمانية خـلال الحـرب العالمية الثانية. وفي مناسبات عديدة تعرّض الأجانب لعملـيات خطفٍ في هذه المناطق القبلية النائية، ولذلك فإن السلطات اتخذت احتياطاتٍ صارمة جداً، فحتى على الطريق الدولي إلى بيشاور، الـتي تُـسيِّر عليه دوريات من القوات الباكستانية، فإن الأجانب غير مسموح لهم بقيادة سياراتهم دون أن يكونوا مصحوبين بحراس أمنيين، كمـا لا يحـق لهم مغادرة بيشاور إلى الحدود الأفغانية دون أن تكون معهـم الأوراق الثبوتية الصحيحة، ودون أن يكونوا مصحوبين بحراس مسلحين.

* * *

وبعد أن كان سلطان قد امتطى صهوة حصانه لمدة ساعتين على الطـرقات الضيقة حيث يقف الجبل إلى أحد جانبـي الطريق، وتقف الهاويـة إلى الجانـب الآخـر منه، وهو لا تزال أمامه بعض الساعات الأخـرى مـن امتطاء صهوة الحصان إلى أن يبدأ بالانحدار أخيراً إلى السهل ويصبح في إمكانه التطلع في اتجاه بيشاور. ومن هناك فإنه يأخذ سيارة أجرة إلى المدينة، وإلى الشارع 103 في منطقة حياة آباد.

وكـان الظـلام قد بدأ يخيِّم عندما سمعت شريفة طَرقاتٍ على البوابة. لقد عاد أخيراً. هرع نـزولاً على الدرج لتفتح الباب. وهنالك تجـده تعباً وعليه وعثاء السفر. يلقي إليها بشوال السكر، الذي تقوم بحمله على الدرج وهي تتقدّمه.

"هل كانت رحلتك على ما يرام؟".

"مناظر جميلة"، يجيبها سلطان "وغروب شمس رائع".

وبينما هو يغتسل تقوم هي بإعداد العشاء، وتفرش المُشمَّع على الأرض. وبين الفُرش اللينة يدسّ سلطان نفسه بعد خروجه من الحمام نظيفاً وهو يلبس ثيابه المكوية حديثاً. يلقي نظرة ممتعضة على الصحون الزجاجية التي أحضرتها شريفة.

"لا أحب هذه الصحون الزجاجية، إنها تبدو تافهة ورخيصة"، يقول لها. "وتبدو كأنكِ قد قمتِ بشرائها من بازار وسخ".

وتقوم شريفة بتبديل صحونٍ من البورسلان بالصحون الزجاجية.

"هذه أفضل من سواها. فالطّعام صار له طعم أطيب الآن"، يقول لها.

ويروي عليها سلطان آخر أخبار كابول، بينما تروي عليه شريفة آخر أخبار حياة آباد. فلم يكونا قد التقيا منذ عدة أشهر. وها هما يتحدثان عن الأولاد، وعن الأقارب، وعن برنامج الأيام القليلة القادمة. ففي كل مرة يقوم فيها سلطان بزيارة باكستان فإنه يحمِّل نفسه عناء بذل زيارات مجاملة إلى أولئك الأقارب الذين لم يرجعوا بعد إلى أفغانستان. والأفضلية الأولى تعود إلى تلك العائلات التي شهدت وفيّات في أفرادها. تليها نوبة الأقارب المقربين، وهكذا دواليك، وبقدر استطاعته، وذلك يعتمد على عدد الأيام الباقية أمامه.

ويخالط سلطان شعور بالقلق عندما يتعلق الأمر بزيارة أقارب شريفة، من أخواتها، إلى إخوانها، إلى أبناء عمها. إذ من المستحيل له أن يبقي زياراته إلى باكستان سراً؛ فكل أهل هذه المدينة يعرفون عن كل شيء فيها. وذلك إلى جانب أن هذه الزيارات المجاملة هي كل ما تبقّى في حياة شريفة الزوجية. فكل ما تستطيع أن تَطلبه منه الآن هو أن يكون ودوداً تجاه أقاربها، وأن يعاملها كزوجته خلال زياراته لهم.

وبعدما يتم ترتيب الزيارات التي تُعمل بدافع الواجب، تروي شريفة لزوجها آخر الأخبار الآتية من الطابق السفلي؛ أي مغامرات سليقة.

"يا لها من فاجرة"، يقول سلطان متراجعاً إلى وسادته وكأنه إمبراطور روماني. "هذا ما يمكن أن يُقال عنها بالضبط إنها مومس فاجرة".

لكن شريفة تحتجّ. "إن سليقة لم تختلِ حتى مرة واحدة مع الولد".

"إنه أسلوبها، إنه أسلوبها"، يقول سلطان. "فإذا كانت لم تصبح مومساً حتى الآن، فإنها قد تصير مومساً لأنها قد اختارت هذا الولد التافه الذي لن يستطيع أن يجد عملاً في حياته، فكيف سيكون عليها الحصول على النقود الكافية لتنفق على أشيائها وحاجاتها، من أمثال الحليّ وأدوات الزينة والملابس؟ وعندما تغلي القِدر بدون غطاء، فكل شيء لا يستبعد أن يسقط فيها، أوساخ، تراب، غبائر، حشرات، وأوراق عفنة ساقطة"، ويستمر في كلامه. "هكذا عاش أهل سليقة. عاشوا دون غطاء، وكل أنواع القذارات قد سقطت فوقهم. فالأب غائب، وحتى عندما كان يعيش مع عائلته فلم يكن مرة ليبقى في البيت. وها هو الآن يعيش عيش اللاجئين في بلجيكا منذ ثلاث سنوات، ولم يستطع حتى الآن أن يرتب معاملات وأوراق استقدام أفراد عائلته ليأخذهم إليه". يقول سلطان شاخراً في ازدراء. "إنه فاشل. ومنذ صارت سليقة قادرة على المشي وهي تبحث عن شخص تتزوجه. ويأتي الحظ ليكون هذا الشخص هو الفقير المعدم التافه نديم. لقد حاولت أولاً أن تلعب على منصور، أتتذكرين؟" يسألها سلطان. هنا صار بائع الكتب خاضعاً لمزاج القيل والقال، تماماً.

"إن لوالدته دخلٌ في جميع ذلك"، تتذكر شريفة. "إنها لم تكفّ عن سؤالي ما إذا كان قد آن الأوان لإيجاد زوجة لمنصور. ولقد كنت

أجيبها على الدوام، إن الوقت لم يحن بعد؛ فالولد لا بدّ له من إكمال دراسته أولاً. فإن آخر ما كنت أرغب به هو الحصول لولدي على زوجة مغرورة ومثيرة للشفقة مثل سليقة. وعندما جاء أخوك يونس إلى بيشاور فإنه قد أمطر بالأسئلة نفسها، ولكنه لم يكن ليرضى بأن يأخذ لنفسه بنتاً رخيصة مثل سليقة لتكون زوجة له".

وهكذا تمّ تقليب الأمر في جريمة سليقة حتى لم يبقَ عليه ذرة من الغبار. ولكن هذين الزوجين يبقى لديهما الكثير من الأقارب الذين يمكنهم التداول في شأنهم.

"وكيف هي ابنة عمك؟" يسألها سلطان متضاحكاً.

فقد كانت إحدى بنات عم شريفة قد قضت حياتها وهي تهتم بشأن والديها. وعندما اختارهما الله، قام إخوتها بتزويجها من رجل عجوز يحتاج إلى أم لأطفاله. وسلطان لا يتعب من سماع هذه الرواية.

"ولقد تغيّرت هذه المرأة تغيراً كاملاً بعد الزواج. ففي آخر الأمر صارت امرأة لكنها لم تنجب أي أطفال، وهكذا من الواضح أنه كان عليها أن تفكر في أمر تغيير حياتها قبل حصول هذا الزواج. إذ لا راحة للمتعوس، وهو لا بدّ له من أن يعيش تعاسته في كل ليلة" يقول لها متضاحكاً من جديد.

ربما تجازف شريفة بالقول: "أتذكر كم كانت تبدو نحيلة وعاقلة قبل الزواج لقد تغيّرت الآن تغيراً كاملاً، تقول مقوقئةً. إلاّ أن شريفة تضع يدها على فمها وتطلق ضحكة خافتة بعد أن أفلتت منها هذه التهمة الطائشة. وبدا كما لو أن الحميمية قد عادت لتتسرب بين الزوجين فيما هما يضطجعان على الفُرش الوثيرة الممدودة حول بقايا المائدة.

فالآن، وحيث إن هذين الزوجين يعيشان منفصلين، فقلما تتهيأ لهما فرصة اللقاء، بحيث يكونان بمفردهما، وذلك من أجل التذكر،

والحديث والدعابة. وهكذا صارت كل رواية تستدعي رواية أخرى. وشريفة وسلطان المضطجعين على الأرض مثل طفلين صغيرين يهدران بالمرح والضحك.

ليس في المظاهر الخارجية ما يدلّ على أن ثمة أي حياة جنسية في أفغانستان. فالنسوة يختبئن وراء البوركا، كما أنهنَّ يلبسن تحت البوركا ملابس كبيرة فضفاضة. فتحت تنانيرهن تلبس النسوة سراويل طويلة. وحتى بين جدران البيت الأربعة، فإن ارتداء العباءات الواسعة فتحة الرقبة، نادراً ما تُلبس. والرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى العائلة نفسها عليهم ألاّ يجلسوا معاً في غرفة واحدة. كما أن عليهم ألاّ يتخاطبوا معاً، ولا أن يتناولوا الطعام معاً. وفي الأرياف، فإنه حتى حفلات الزواج تشهد أيضاً الفصل بين الذكور والإناث؛ فالنساء يرقصن ويفرحن كما يفعل الرجال، ولكن في قاعات منفصلة. ولكن تحت هذا الغشاء المطمئن. وبالرغم من المجازفة بتجرُّع عقوبة الموت، فإن الناس لهم عشاق وعشيقات في أفغانستان أيضاً. كما أن هنالك المومسات في المدن، مومسات يلجأ إليهن الشبان الصغار والرجال في الفترة التي يكونون فيها في مرحلة بحثٍ عن زوجة.

كما أن الحياة الجنسية لها قصصها وأساطيرها وخرافاتها في التراث الأفغاني. وسلطان يهوى القصص الواردة في المأثورة الأدبية التي عنوانها "ماسنافي" التي كان قد كتبها الشاعر جلال الدين الرومي منذ حوالى ثمانمئة سنة. وهو يستعمل الكلام عن الجنس كأسلوب للتحذير من الاقتفاء الأعمى لخطوات الآخرين.

وبعد أن يكون سلطان قد شبع دعابة وضحكاً، فإنه ينهض من بين الوسائد، ويسوّي ثوبه الفضفاض ويذهب لقراءة بريده الإلكتروني. فالجامعات الأميركية تطلب منه دوريات تعود إلى السبعينيات، وثمة

باحثون يسألون عن مخطوطات قديمة، وأصحاب المطابع الذين يتعامل معهم في لاهور أرسلوا إليه تقديراً للتكلفة التي سترقى إليها طباعة البطاقات البريدية وفقاً لأسعار الورق الجديدة، فأفضل مصدر لرزق سلطان هو البطاقات البريدية. فطباعة كل ستين بطاقة تكلفه دولاراً واحداً. وهو يقوم ببيع كل ثلاث بطاقات مقابل دولار واحد. كل شيء يذهب الآن في مصلحة سلطان. فالآن، وحيث إن طالبان قد رحلت: فإنه يستطيع أن يعمل كل ما يحلو له.

وفي اليوم التالي يقرأ أيضاً بريده الإلكتروني. ويقوم بزيارة المكتبات. ويذهب إلى مركز البريد، حيث يرسل بعض الطرود ويستقبل البعض الآخر، ثم يشرع في تنفيذ سلسلة زياراته الاجتماعية المجاملة التي لا يعرف كيف ينتهي منها. فزيارة تعزية إلى ابنة عمٍّ له كانت قد خسرت زوجها بعد إصابته بمرض السرطان، تلاها زيارة سارَّة لابن عم آخر كان قد رجع من تجارة تسليم فطائر البيتزا في ألمانيا، فابن عم سلطان، هذا الذي يدعى سعيداً، كان في يوم من الأيام مهندس طيران في شركة الطيران الأفغانية التي تدعى آريانا والتي كانت يوماً شركة طيران تفخر بنفسها. أما الآن، فإن سعيداً يفكر في العودة إلى كابول مع عائلته، ومحاولة التقدم هناك من جديد إلى وظيفته السالفة. لكنه في حاجة إلى توفير بعض المال. فتوزيع شطائر البيتزا في ألمانيا هو أكثر ربحاً من العمل كمهندس طيران في الوطن. وهو لم يجد بعد حلاً للمشكلة التي تنتظره هنا. فإن له زوجة وأطفال في بيشاور. كما أنه يعيش مع زوجته الثانية في ألمانيا. فإذا كان لا بدّ له من العودة إلى كابول، فإن زوجتيه ستلتقيان تحت سقف واحد. إلاّ أنه يرتعب من هذه الفكرة. فالزوجة الأولى تريد ألاّ تعرف شيئاً عن الزوجة الثانية. وهما لم تلتقيا مرة، ويقوم هو بإرسال الأموال لها كزوج يقوم بواجبه.

ولكــن ماذا سيحصل إذا انتقل الجميع معاً إلى كابول؟ فهو لا يستطيع حتى أن يتصور مثل هذه الفكرة. والأيام في بيشاور تفرض على سلطان واجـبات مـرهقة. فأحد أقربائه قد طُرد من مأجوره، والآخر يطلب معونة للبدء في عمل جديد، وثالث يطلب منه قرضاً. وسلطان نادراً ما يمـنح المـال لأقاربه. فلأنه هو شخصياً ناجح جداً، فإنه كان كثيراً ما يُطلــب منه مساعدة الآخرين بينما هو يقوم بأداء زيارات المجاملة لهم. وعلــى وجــه العموم فإنه يعتذر، فهو يعتقد أن معظمهم كسالى وأنه ينبغي عليهم أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم. وفي أي حال، فإن عليهم أن يثبتوا أنفسهم قبل أن يطرح هو عليهم دراهمه. وفي نظره، فإن قليلاً منهم تمكّنوا من إقناعه ومن إثبات أنفسهم.

وعندما يكون الزوجان يؤدّيان زيارة اجتماعية، فإن شريفة هي التي تــتكفّل بإبقاء الحديث الدائر جارياً. فهي تقوم برواية القصص، وبتوزيع الــضحكات والابتــسامات. أمــا ســلطان فيفضّل الاكتفاء بالجلوس والاســتماع، ولكــنه مــن وقــت لآخر يتدخل بالحديث ليعطي بعض التعلــيقات حــول أخلاقيات العمل، أو حول أشغاله. ولكن عندما ينطق ســلطان بكلمــة واحدة تعني أن الوقت قد حان للمغادرة، فإن الزوجان ينهــضان للعودة إلى منــزلهما فوراً، تتبعهما ابنتهما شابنام. وتسير العائلة بأمــان وسط الشوارع السوداء الوسخة المظلمة في حياة آباد وهم يطأون على قاذورات تملأ الصدر بالروائح الزنخة القادمة من الزواريب الخلفية.

* * *

وفي إحــدى الأمــسيات تتبرّج شريفة استعداداً لزيارة الأقرباء اللامباشرين. وفي العادة، فإن تلك العائلة لا ترتقي إلى مستوى واجب الزيارة، رغم أن أفرادها لا يعيشون سوى على مبعدة قليلة من شقتها. وهكذا، تمشي شريفة على كعبين عاليين يتبعها سلطان وشابنام يداً بيد.

وتــرحّب بهــم العائلة بذراعين مفتوحتين. ويقدم المضيفون لهم الفــواكه المجففــة، والحلويات، والمكسرات، والشاي. ويبدأ الحديث بالرسميات والمجاملات حول آخر الأخبار. ويصغي الأطفال إلى الكلام الفارغ الذي يسوقه الكبار. أما شابنام، فتكسر حبات الفستق وتصغي إلى الحــديث بــضجر. إحدى الفتيات تكون غائبة عن السهرة، وهي الطفلــة بلقيسة، البالغة الثالثة عشرة من عمرها. وهي تعرف أن عليها أن تنتحي جانباً لأن الزيارة تتم بخصوصها.

وكانت شريفة قد قامت بهذه الزيارة مرة من قبل من أجل المهمة نفــسها. أما هذه المرة فإن سلطان قد وافق على مضض على مرافقتها من أجل أن يعطي للموقف مسحةً من الجدية. فالعائلة تذهب إلى هناك نــيابة عن يونس؛ وهو الأخ الأصغر لسلطان. إذ كان يونس قد أولع ببلقيــسة عندما كان يعيش لاجئاً في باكستان منذ سنوات قليلة. كان ذلــك عندما لم تكن هي سوى مجرد طفلة. وكان قد طلب من شريفة أن تــتقدم إلى خطبتها من أجله. أما هو نفسه فلم يكن قد تحدث مرة مع الفتاة.

وكان لا بدّ للجواب من أن يكون هو نفسه: إنها لا تزال صغيرة جداً على الزواج، ومن جهة أخرى، فإنهم أجابوا: إنه إذا شاءت عائلة خــان خطبة ابنتهم الكبرى التي هي في العشرين من عمرها، فإن الأمر يــصبح مختلفاً. لكن يونس لا يريد شيرين. فهي لم تكن لتُقارن بأختها في الجمــال، وفي كــل حال، فإنها كانت مفرطة في رغبتها في الزواج هكــذا اعتقد، فعندما زارهم لم تكن شيرين تفارقه. وبالإضافة إلى ذلــك، فإنها قد سمحت له بأن يمسك يدها بينما كان الجميع ينظرون، وهــذا في رأي يونس ليس إشارة جيدة. فمن الواضح أنها ليست فتاة رفيعة الأخلاق.

لكـــن الأهل تمسكوا بترشيح ابنتهم الكبرى لأن يونس كان يعتبر خطيـــباً جيداً. وعندما كان يتقدم إلى شيرين خطيب جديد فإن أهلها كانـــوا يتقربون من سلطان ويعرضون تزويجها من أخيه يونس كعرضٍ أخـير. لكن يونس لم يكن ليرضى بشيرين، فعيناه كانت على بلقيسة. وهكذا، بقي الأمر يراوح مكانه.

ورغم أن طلب شريفة كان قد قوبل بالرفض، إلاّ أنها تكرِّر الآن زياراتها لتطلب يد بلقيسة من جديد. فلم يكن مثل هذا السلوك سلوكاً غـير مألـــوف، بـــل على العكس، فإنه كان يشير إلى جدّية العرض. والتقالـــيد تقول: إن والدة العريس ينبغي عليها أن تتلف نعالها من فرط التـــردد على أهل العروس حتى تصبح هذه النعال بسماكة قشرة الثوم. وحـــيث إن والـــدة يونس: بيبـــي غول كانت في كابول، فإن شريفة زوجـــة أخـــيه، هي مَن ينبغي عليها أخذ دور هذه الوساطة. وكانت تطـــنب في الحديث عن تميُّز يونس، وكيف أنه يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقـــة، وكيف أنه يعمل في المكتبة مع سلطان، وكيف أن ابنتهم لن ينقـــصها أي شيء. لكن يونس كان يناهز الثلاثين من عمره. إنه كبير السن بالنسبة إلى بلقيسة هذا ما اعتقده أهلها.

وكانت أم بلقيسة تلقي عينها على أحد أبناء عائلة خان الآخرين الـــذين هم أصغر من يونس سناً: وبالذات فإنها كانت تلقي عينها على منـــصور ابـــن سلطان البالغ السادسة عشرة من عمره. "إذا تقدّم لها منصور، فإننا سنوافق فوراً"، قالت الأم.

ولكن الآن قد جاء دور سلطان ليضرب قدميه بالأرض. فمنصور لم يكن أكبر من بلقيسة سوى ببضع سنوات. وهو لم يُعرف عنه أنه قد ألقى يوماً نظرة واحدة في اتجاه بلقيسة. وشريفة تعتقد أن التفكير في تزويجه هو أمر سابق لأوانه. فهو لا بدّ له من السفر للدراسة ورؤية الدنيا.

"ومع كل ذلك، فإنها ليست في الثالثة عشرة من عمرها"، كانت شـــريفة قد قالت لصديقاتها في وقت لاحق. "فإنني على ثقة أن عمرها خمس عشرة سنة على الأقل".

وتدخل الآن بلقيسة إلى غرفة العائلة للحظات قليلة بحيث يتمكّن ســـلطان مـــن إلقاء نظرة عليها. فهي فتاة طويلة ونحيلة وتبدو أنها قد تخطت الثالثة عشرة. وهي تلبس زياً من المخمل الأزرق الغامق وتجلس في ارتـــباك وخجل قرب أمها. فبلقيسة تعرف تماماً كل تلك الحركات وهي تشعر بالارتباك.

"إنهـــا تبكي، إنها لا تريد الزواج"، تقول أختاها لسلطان وشريفة في حضور بلقيسة. وتطرق بلقيسة أرضاً.

لكن شريفة تتضاحك. إنها علامة جيدة عندما تكون العروس غير راغبة، فإن ذلك يشير إلى قلبها النقي.

ثم تـــنهض بلقيـــسة بعد دقائق قليلة لتتوارى. وتسمح لها والدتها بالخروج قائلة إن لديها اختبار في الرياضيات غداً. لكن الفتاة التي يقع الخـــيار علـــيها لا ينبغي عليها أن تكون حاضرة عندما تكون العائلتان تتفاوضـــان. ففي بداية الأمر يقوم الطرفان بجسّ النبض قبل أن يدخلوا في تفاصـــيل المـــبالغ. كم هو نصيب الأهل، وما هو المبلغ الذي سيتم إنفاقـــه علـــى حفلة الزواج، ومسألة الفستان، وتنسيق الأزهار. فعائلة العـــريس هي التي تدفع كل هذه النفقات. وأن يكون سلطان حاضراً هـــذا الاجـــتماع، فهذا يعني أنه يعطي للنقاش جدّية وثقلاً؛ فهو الذي يمسك بكيس العملة.

وعندما تنقضي الزيارة دون تقرير شيء، فإنهم يخرجون في المساء الـــبارد لشهر آذار/مارس. وكانت الشوارع هادئة. "إنني لم أحب هذه العائلة"، يقول سلطان. "إنهم طمّاعون".

وهو يشعر بنفور تجاه أم بلقيسة بشكل خاص. فهي الزوجة الثانية لــزوجها. إذ إنه عندما لم تحبل زوجته الأولى أبداً فإنه تزوج مرة ثانية، وقــد قامت الزوجة الثانية بتعذيب الزوجة الأولى إلى درجة جعلتها لا تتحمل المزيد من التعذيب، فقرّرت الانتقال للسكن مع أخيها. وهنالك حكايات قذرة يتم التداول بها، وهي تتناول والدة بلقيسة. فهي جشعة، انتهازية، شديدة الغيرة، وبخيلة، وكانت ابنتها الكبرى قد تزوجت من أحــد أقرباء سلطان، الذي وصف والدة زوجته بأنها كابوس مرعب. وقــد جــاء هذا التصريح أثناء حفلة الزواج. فهي لم تكفّ عن التذمر حــول قلة الطعام، وفقر الزينة. "كما تكون الأم، فلا بدّ من أن تكون الفتاة. وبلقيسة هي قطعة من الصخرة القديمة المعروفة نفسها"، هذا ما يصرّح به سلطان.

لكــنه يــضيف على مضض بأنه إذا كان يونس يرغب في هذه الفــتاة، فإنه سيبذل في هذا الأمر جهد استطاعته. "ولسوء الحظ فإنهم سينتهون في نهاية الأمر إلى الموافقة. فعائلتنا عائلة ذات سمعة جيدة بحيث لا يُردّ لها طلب".

* * *

وبعــد أن أنهى سلطان واجباته مع العائلة، فإنه أخيراً يشرع بفعل مــا كان قد قدم حقيقة من أجله إلى باكستان: فهو كان قد جاء آملاً في طــباعة الكــتب. وفي صباح مبكر من أحد الأيام يشرع في تنفيذ الخطــوة الثانــية من رحلته، حيث يأخذ طريقه إلى مدينة لاهور وهي عاصمة الطباعة والنشر والتجليد.

لــذلك فهو يحشو حقيبته بستة كتب، وبروزنامة، وببدلٍ نظيف مــن الثياب. ومثل عادته كلما سافر، فإن نقوده لا بدّ من أن تخاط إلى كمــي قميصه. ويبدو النهار كما لو أنه سوف يكون دافئاً. وموقف

الباصات في بيشاور يعجّ بالناس وشركات السفر، وأصحاب الباصات، يتـصارعون في ما بينهم لجعل كلمة كل واحد منهم مسموعة في هذا الـضجيج. "إسلام آباد، كراتشي، لاهور!" فبجانب كل حافلة كان يقـف رجـل يصيح. ولم يكن هناك جدول لانطلاق الحافلات. فهي تغادر حالما تمتلئ بالركاب. أما قبل المغادرة، فإن الرجال ينهمكون ببيع المكـسرات، وبيـع الأقمـاع الورقية المحشوة ببذور دوار الشمس، والبـسكويت، والفشار، كما يبيع الجرائد والمجلات، داخل الحافلة. أما المتسولون فكانوا يكتفون بمدّ الأيدي من خلال الشبابيك المفتوحة.

وكـان سلطان يتجاهلهم جميعاً. فهو يتبع بذلك وصية النبـي محمد (ص) فيما يختص بالزكاة وهو يفسرها كما يلي: أولاً عليك أن تهتم بشؤون نفسك، ثم بأقرب أفراد عائلتك إليك، ثم بالأقارب الذين هم أبعد من ذلك، ثم بجيرانك، وأخيراً يأتي دور الفقراء المجهولين. وقد يصدف له أن يمنح بعض النقود القليلة إلى متسول أفغاني في كابول، أما المتسولون الباكستانيون، فيأتون في أسفل اللائحة، إذ على باكستان أن تهتم بشؤون فقرائها.

ويجلس سلطان على المقعد الخلفي للحافلة، محشوراً بين مسافرين، أمـا حقيبتـه فتستريح تحت قدميه. وفي داخل الحقيبة يوجد مشروع عمـره، وهـو مكتوب في قصاصة ورق. فهو يرغب بطباعة الكتب المدرسـية الجديـدة لأفغانـستان. فعندما تفتح المدارس أبوابها في هذا الـربيع، فسوف لا يكاد يجد أحد أي كتب صالحة للتدريس. فالكتب التي قامت بطباعتها حكومة المجاهدين والطالبان لا نفع فيها. فهذه هي الطـريقة التي يبدأ فيها تعليم الأحرف الهجائية للأطفال في السنة الأولى كما يلي: "الحرف "أ" يرمز إلى إسرائيل التي هي عدوتنا؛ والحرف "ج" يرمـز إلى الجهـاد، غايتنا في هذه الحياة؛ والحرف "ك" يرمز إلى كلمة

كلاشينكوف، سبيلنا إلى الانتصار... والحرف "م" يرمز إلى المجاهدين، فخرنا وأبطالنا،... والحرف "ط" يرمز إلى حركة طالبان...".

وكانت الحرب تشكل الموضوع الأساسي لكتب الرياضيات أيضاً. فقد كان طلبة المدارس - وبسبب الكتب التي قامت طالبان بطباعتها خصيصاً من أجل الصبيان - لم تكن تحسب الأشياء بعدد التفاحات أو عدد الكعكات، بل بعدد الرصاصات والكلاشينكوفات، وأشياء من هذا القبيل: "يملك عمر الصغير بندقية كلاشينكوف لها ثلاثة مخازن. وهنالك عشرون خرطوشة في كل مخزن. وهو يستعمل ثلثي هذه الخرطوشات فيقتل بها ستين خائناً. فكم هو عدد الخونة الذين قتلهم في كل رصاصة؟".

أما الكتب التي تعود إلى العهد الشيوعي. فلا يمكن استخدامها هي الأخرى أيضاً، فالمسائل الحسابية فيها تتعاطى مع توزيع الأراضي، ومع المُثُل المتعلقة بالمساواة. كما تتعلق بالرايات الحمراء وبالمزارعين السعداء في المزارع الجماعية، وهي جميعها أمور لا بدّ من أن توجّه عقول الأطفال نحو الشيوعية.

وقد أراد سلطان أن يعود إلى الكتب التي كانت رائجة أيام زاهر شاه، الملك الذي استمر حكمه حوالى أربعين سنة سادها الهدوء والسلام، إلاّ أنه قد تمّ خلعه في العام 1973. وقد عثر سلطان على الكتب القديمة، ولذلك فإنه يستطيع إعادة طباعتها: ففيها الحكايات والخرافات حول دروس اللغة الفارسية، أما كتب الرياضيات، فلم تكن تتعدّى كلاماً من نوع واحد + واحد = اثنان. وأما كتب التاريخ، فكان مضمونها خالياً من الإيديولوجيات خلا ما يتعلق منها بالروح الوطنية غير المبالغة.

وكانت منظمة اليونسكو قد تعهدت بتمويل طباعة الكتب المدرسية في البلاد. وبصفته أحد أكبر الناشرين في كابول، فإن سلطان

عقـد اجتماعات مع مسؤولي هذه المنظمة وهو عازم على التقدم منهم بعـرض لالتـزام طباعة هذه الكتب حالما يعود من رحلته إلى لاهور. وعلـى قصاصة من الورق وضعها في جيب معطفه، كان قد دوّن على نحـوٍ أولي عـدد الـصفحات والقياسات لمئة وثلاثة عشر من الكتب المدرسية. أما الميزانية فقد احتُسبت في حدود المليوني دولار. وفي لاهور يـنوي أن يستفـسر عن أي من المطابع هي التي يمكن لها أن تقدّم له أفـضل العـروض. ثم إنه سوف يعود إلى كابول ليتبارى على تقديم العـروض حول هذا العقد الممتاز. ويتأمل سلطان بنوع من القناعة كم يمكـن أن يبلغ صافي أرباحه من هذا المبلغ الذي يناهز المليوني دولار. وهو يقرّر ألاّ يكون شديد الطمع. فإذا فاز بالعقد، فإن هذا سيضمن له استمرار العمل لعدة سنوات قادمة؛ سيعود ذلك من إعادة طباعة بعض الكتب، كما من طباعة كتب جديدة. فهو يفكر ويتأمل بينما تمر بقربه المناظر والسهوب على جانبـي الطريق مروراً سريعاً، هذا الطريق هو الطـريق الأساسي بين كابول وكالكوتا. وكلما اقترب به الطريق من لاهـور ازداد شـعوره بالحـرارة، فها هو ينضح الآن عرقاً في ثيابه المنـسوجة لتناسب المناطق الباردة من أفغانستان. ويقوم بتمسيد شعر رأسه الذي لم يبقَ منه سوى القليل، ثم يمسح العرق عن وجهه بالمنديل.

وبالإضافة إلى قصاصة الورق التي تحتوي على لائحة بمئة وثلاثة عشر كتاباً مدرسياً، فإن لدى سلطان أيضاً كتباً أخرى يريد القيام بطباعتها علـى حسابه الخاص. ففي أعقاب ذلك الشلال من رجال الصحافة، والعـاملين في مجالات الإغاثة والعون، بالإضافة إلى الدبلوماسيين الأجانب الـذين وفدوا جميعاً إلى أفغانستان، فقد تنامى هناك طلب على كتب اللغة الإنكليزية التي تتحدث عن البلد، فسلطان لا يستورد الكتب من ناشرين أجانب بل يقوم هو بطباعتها بنفسه.

فباكستان هي ملاذ قراصنة الطباعة. إذ إنه لا توجد هناك أي رقابة. وقليلون هم الذين يحترمون حقوق المؤلفين. وسلطان الذي يدفع دولاراً واحداً لطباعة نسخة من كتاب يستطيع أن يعيد بيعها مقابل عشرين أو ثلاثين دولاراً. وبخصوص الكتاب الذي كان قد حقق انتشاراً واسعاً، وهو بعنوان "طالبان" لكاتبه أحمد راشد، فإن سلطان كان قد تمكّن من إعادة طباعته في عدة إصدارات. أما الكتاب المفضل لدى الجنود الأجانب فهو بعنوان "حربي السرية"، وهو كتاب كان قد ألّفه مراسل صحافي روسي حول الاحتلال السوفياتي المدمر لأفغانستان بين العامين 1979-1989. وقد كان حقيقة مناقضة تماماً لما يصادفه جنود القوة الدولية لحفظ السلام اليوم الذين يسيِّرون دوريات في كابول، والذين يقوم بعضهم من وقت لآخر بالمرور على مكتبة سلطان لشراء البطاقات البريدية، والكتب التي تحكي عن الحرب القديمة في أفغانستان.

وتدخل الحافلة إلى داخل مرأب الباصات في لاهور. فتصدمه حرارة الجو وإذا بالمكان يموج بالناس. فمدينة لاهور هي المعقل الثقافي والفني لباكستان. وهي مدينة محيِّرة، نشيطة الحركة، شديدة التلوث. فنظراً إلى وقوعها في وسط سهل فسيح، فإن هذا الأمر قد أفقدها جميع الوسائل الدفاعية العسكرية الطبيعية، لذلك فإن هذه المدينة كانت قد قُهرت ودُمِّرت، وأُعيد بناؤها، ثم قُهرت، ودُمِّرت وأُعيد بناؤها مرة تلو أخرى. لكن بين تلك الفتوحات وما رافقها من دمار فإن العديد من الحكام كانوا قد قاموا باستضافة كبار الشعراء والكتّاب وقدموا لهم الرعاية، وبذلك أصبحت لاهور عاصمة الفن والكتب رغم أن القصور التي التجأ إليها الكتّاب والشعراء والفنانون كانت تسوّى دائماً في وقت لاحق بالأرض.

وسلطان يعشق أسواق الكتب في لاهور وكان قد نجح رغم المصاعب في تحقيق نجاحات عديدة غير متوقعة في هذا المكان. إذ لا شيء يدفئ شغاف قلب سلطان أكثر من العثور على كتاب قيّم في سوق قذرة، والقيام بشرائه لقاء ثمن زهيد جداً. ويعتقد سلطان عن نفسه أنه يملك أوسع مجموعة من الكتب حول أفغانستان، مجموعة تزيد عن ثمانية إلى تسعة آلاف مجلد. وكل شيء يشدّ انتباه سلطان: فمن القصص والخرافات القديمة، إلى الشعر القديم، إلى الروايات، إلى كتب السيرة، إلى الأدب السياسي المتأخر، إلى المعاجم والموسوعات. فإن وجهه ليشرق كلما عثر على كتاب لم يمتلكه من قبل، أو لم يره قبل ذلك.

لكنه الآن لا يملك وقتاً كافياً لاصطياد الكتب النادرة في أسواق الكتب. فهو ينهض عند طلوع الفجر، ويضع على جسده ثياباً نظيفة، ثم يرتب شأن لحيته، ويركّز طربوشه فوق رأسه. فهو أمام مسؤولية مقدسة؛ مسؤولية طباعة كتب مدرسية جديدة لأطفال أفغانستان. ويذهب سلطان مباشرة إلى المطابع التي اعتاد أن يتعامل معها أكثر من سواها. وهناك يتقابل مع طلحة. وهذا الرجل الشاب هو أحد أفراد الجيل الثالث من العاملين في صناعة المطابع وهو ليس متحمساً لمشروع سلطان إلا قليلاً. فالمشروع بكل بساطة هو بالغ الضخامة. ويدعو طلحة سلطانَ إلى فنجان شاي ممزوج بالحليب المركّز، ثم يمسح فمه وينظر في قلق.

"ليس عندي مانع من التعهد بطباعة عدد قليل من هذه الكتب، أما مئة وثلاثة عشر عنواناً؟ فإن ذلك يتطلب منا عمل سنة كاملة".

وسلطان لديه مهلة شهرين كحدٍّ أقصى. وبينما يترجّع صدى صوت آلات الطباعة من خلال الجدران الرقيقة في المكتب الصغير، يتابع سلطان محاولة إقناعه لطلحة بأن ينحّي جميع الأعمال الأخرى جانباً.

"لكن هذا أمر مستحيل"، يقول طلحة، فقد يكون سلطان زبوناً هاماً، كما قد تكون مهمة طباعة الكتب المدرسية للأطفال الأفغان مهمة ذات قداسة أيضاً، لكن له التزامات أخرى عليه أن يفي بها. ومع ذلك، فإنه يقوم بعملية حساب سريعة ويقدر أن الكتب يمكن أن تطبع بتكلفة زهيدة قد لا تزيد عن الخمسة سنتات للنسخة الواحدة، فالسعر سيعتمد على نوعية الورق ونوعية الألوان، ونوعية التجليد. ويقوم طلحة باحتساب هذا الخليط من النوعية والحجم وينتهي إلى الخروج بلائحة طويلة. وتتضيّق حدقتا سلطان. فيقوم بعمل حسابات بالروبيات، وبالدولارات وبالأيام، وبالأسابيع، ويضع تاريخاً نهائياً ليجعل طلحة يسرع بالعمل ويؤجل التعهدات الأخرى.

"عليك ألاّ تنسى، أن المهلة هي شهران فقط". يقول له: "إذا كنت لا تقدر على الانتهاء من العمل بحدود هذه المهلة، فإنك ستخرب بيتي وتدمِّر تجارتي هل تفهم؟" وعندما ينتهي الرجال من الحديث حول الكتب المدرسية، فإنهما يقومان بمناقشة الكتب التي يريد سلطان القيام بطباعتها لمصلحة مكتبته الخاصة.

ومرة جديدة يقومان بمناقشة الأسعار، والأرقام، والتواريخ، فالكتب التي جلبها سلطان معه، قد استنسخت مباشرة عن الكتب الأصلية. فالصفحات كانت قد أفردت واستنسخت. والطابعات قد قامت بختمها على ألواح معدنية. وعندما يقومون بطباعة غلافات خارجية ملونة، فإن محلول الزنك يسكب فوق الصحائف. ثم تُلقى الصحائف بالخارج تحت أشعة الشمس بحيث إن هذه الأشعة تُخرج اللون الصحيح. فإذا كانت صفحة ذات ألوان متعددة فإن تلك الألواح ينبغي أن يتم تعريضها للشمس في مرة واحدة مستقلة عند إدخال كل لون. ثم يوضع اللوح على المطبعة ويجري تشغيله. فكل شيء هنا يعمل

علـى ماكينات قديمة هي نصف أوتوماتيكية. فأحد العاملين يغذّي المطبعة بالـورق والثاني يجلس القرفصاء عند الطرف المقابل ويقوم بتلقف كل ما يخـرج مـن المطبعة حيث يقوم بترتيبه. هذا فيما جهاز الراديو يرطن في البـاحة الخلفـية عن مباراة في الكريكت بين سريلنكا وباكستان. وعلى الجـدار تتدلى الصورة التي لا بدّ منها لمكة المكرمة، وثمة مصباح كهربائي يتدلّى من السقف وتجتمع عليه بعوضات ميتة. وهنالك جداول صغيرة من الأسيد الأصفر تنساب على الأرض قبل أن تختفي في المجارير.

وبعد جولة تفتيشية يجلس طلحة وسلطان على الأرض ويفكران في أمـر غلافات الكتب. وكان سلطان قد اختار العناوين والشعارات مـن بطاقاته البريدية. وهنالك بعض الخطوط على هوامش الصفحات يحبها هو. ويقومان بتسوية شكل الصفحات، وبعد خمس دقائق يكون الرجلان قد انتهيا من الاتفاق على شكل ستة غلافات كتب.

* * *

وفي زاويـة جلـس بعض الرجال يشربون الشاي. إنهم ناشرون وأصـحاب مطابـع باكستانيون. وجميعهم يعملون في سوق القرصنة المظلمـة ذاتها مثل سلطان. يتبادلون التحية ويتداولون في الحديث عن آخـر الأنـباء القادمة من أفغانستان حيث يمشي حامد كارضاي على حـبل مـشدود بين أمراء الحرب المختلفين، بينما مجموعات من جنود القاعـدة تشنّ هجوماً في شمال البلاد، وتهب القوات الأميركية الخاصة للنجدة، فتقوم بقصف الكهوف الواقعة عند الحدود الباكستانية بقنابل الطائرات. ويقول أحد الرجال الجالسين على السجادة "يا للبؤس، فقد هزم على يد جماعة الطالبان في أفغانستان".

"إننا نحتاج إلى قليل من الطالبان في باكستان أيضاً وذلك ليقوموا ببعض التنظيفات هنا". يقول الرجل.

"هـــذا ما تقوله. لأنك لم تعرف الطالبان. فباكستان قد تنهار إذا تـــسلّم رجـــال الطالبان السلطة فيها، لا تصدّق أي شيء غير ذلك"، يقول سلطان بصوت راعد. "تصوَّر فقط: إن جميع الإعلانات التجارية ســـوف يجري إنـــزالها، وهنالك منها ما يزيد عن ألف في هذا الشارع وحـــده. وجميع الكتب التي تحتوي صفحاتها على صورٍ سوف تحرق، وسيحدث الأمر نفسه لأرشيف الأفلام الكامل عن باكستان، وكذلك أرشـــيف الموســـيقى؛ فكل الآلات الموسيقية سوف تُدمَّر. ولن يعود بوسعكم أبداً سماع الموسيقى، ولا أن ترقصوا مرة ثانية. وجميع مقاهي الإنتـــرنت ســـتغدو مغلقـــة. أما أجهزة التلفاز فسوف تُصادر وتغدو ممنوعة، أما ما ستستمعون إليه من الراديو، فلن يتعدى البرامج الدينية. وســـيتم إخـــراج جميع البنات من المدارس؛ وستسرّح جميع النساء من أعمـــالهن ووظائفهن ليذهبن جميعاً إلى البيوت. ما الذي سيحدث بعد ذلـــك لباكـــستان؟ ســـتفقد البلاد مئات الألوف من أماكن العمل ثم ســـتغرق في بـــؤرة عميقة من الركود الاقتصادي واليأس، وما الذي سوف يحدث لجميع الأناس الذين سيخسرون وظائفهم بعد أن يصبحوا عمالـــة زائدة عندما تتوقف باكستان عن أن تكون دولة حديثة؟ ربما إنهم سيتحولون إلى مقاتلين؟" صارت لهجة سلطان حادة.

هزَّ الرجل كتفيه في لامبالاة قائلاً: "حسناً، ربما إننا لا نحتاج إلى جمـــيع رجـــال الطالبان، بل إلى أنفار قلائل منهم فقط". وكان طلحة يناصـــر الطالبان عن طريق تصوير وطباعة كراريسهم. ولسنوات قليلة كـــان قـــد قام بطباعة كتبهم الدراسية الإسلامية. وفي نهاية الأمر قام بمـــساعدتهم علـــى تأســـيس مطبعتهم الخاصة في كابول فإنه كان قد استحـــصل لهـــم على مطبعة مستعملة من إيطاليا ومكّنهم من شرائها بسعر رخيص. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان يمدّهم بالورق وغير ذلك

مـــن الأجهزة التقنية. ومثل معظم الباكستانيين الآخرين، فإنه كان يجد مـــن المطمـــئن لباكـــستان أن يكـــون نظام الباشتون هو الذي يحكم أفغانستان التي تقع على تخوم بلده.

"إنــك رجل عديم الضمير والمبادئ"، يقوم سلطان بمضايقته عن طيب قلب، والآن وبعد أن نفّس عن غيظه بالهجوم على الطالبان.

ويـتلوّى طلحـــة لكنه لا يحيد عن موقفه. "إن مبادئ طالبان لا تــتعارض مع ثقافتنا. فهم يجلّون قرآننا، ونبيّنا، وتقاليدنا. وإنني لم أكن لأقوم بطباعة أي شيء يتعارض مع الإسلام".

"مثل ماذا؟" يقول سلطان ضاحكاً.

هنا يقوم الرجل الآخر الجالس على السجادة بالإدلاء بدلوه عندما يـبدأون الحديث عن كتاب "آيات شيطانية" وهو كتاب لم يكن أي منهم قد اطّلع عليه.

"لكـنه دائمـاً ينجو بجلده. وكل من يطبع كتبه أو يقدم له أي مساعدة يجب أن تخمد أنفاسه"، يقول طلحة. "وإنني لن أرضى بطباعة كلامــه حــتى لو ألقيت أموال الدنيا في أحضاني. فإنه قد داس على الإسلام".

"لقد أهاننا، وطعن بنا"، أكمل رجل آخر.

ويوافق سلطان على الكلام "إنه يحاول تدمير روحنا ويجب إيقافه عــند حــدّه قبل أن يفسد الآخرين أيضاً. فحتى الشيوعيون لم يذهبوا بعــيداً إلى هــذا الحد؟ لقد كانوا يتصرفون بحدٍّ أدنى من الاحترام ولم يحاولوا أن يلطخوا ديننا. ثم نقع على ذلك السخام الذي يطلقه شخص يُطلق على نفسه رغم ذلك، لقب مسلم".

ثم يجلس الرجال صامتين، كما لو أنهم غير قادرين على إزاحة ظل هذا الخائن رشدي، ولا شروره التي قد طرحها عليهم. "سوف

يـــضعون يدهم عليه، سوف ترى، إن شاء الله، وبمشيئة الله"، يقول طلحة.

* * *

وفي اليوم التالي يتحوّل سلطان حول لاهور ذاهباً إلى جميع أنواع المـــشتغلين بالطـــباعة، ويلتقيهم في الردهات الخلفية، وفي الأقبية، وفي الأزقة. إذ من أجل أن يتمكّن من طباعة هذا العدد الكبير من الكتب، فإن عليه أن يقوم بتوزيع طلبيته على أكثر من عشر مطابع، وهو يقوم بشرح مهمته، ويحصل على لوائح أسعار، ويضع ملاحظات وتقديرات. وتلـــتمع عيناه عندما يحصل بشكل خاص على سعر مناسب، فترتجف شفتاه قليلاً، فيلحسهما بلسانه، ويقوم ببعض الحسابات الذهنية، ويقوم بتقديـــر هـــامش الـــربح. وبعد أسبوعين كان قد أوصى على طلبياته بخـــصوص جمـــيع الكتب المدرسية، وقطع وعوداً بالعودة إلى أصحاب المطابع.

وأخـــيراً صار بإمكانه العودة إلى كابول. وهذه المرة لم يكن عليه أن يشقّ طريقه مكافحاً عبر الحدود على ظهر الحصان. فالأفغانيون غير مـــسموح لهـــم بالدخـــول إلى باكستان، لكن ليس هنالك من ضبط لجوازات السفر عند رحلة العودة، لذلك، فإن بائع الكتب هذا يستطيع أن يغادر باكستان من الباب المفتوح.

ويحشر سلطان نفسه في حافلة قديمة في الطريق الملتوي الخطر بين جـــلال أباد وكابول. وعلى أحد جانبـــي الطريق ثمة جلاميد صخرية تهـــدد بالانهـــيار عن الجبل في أي لحظة. ومرة رأى حافلتين منقلبتين بالإضـــافة إلى عـــربة مقطورة، كانت قد انحرفت عن الطريق، وكان هنالك العديد من الموتى الذين يجري انتشالهم من ذلك الحادث، وكان في جملتهم صبيّان. وهنا يصلّي سلطان لراحة أنفس الموتى كما من أجل

الوصول إلى بيته بالسلامة. فلم تكن الجلاميد الصخرية هي وحدها التي تهدِّد ذلك الطريق، بل من المعروف أنه طريق يكثر فيه قطّاع الطرقات بحيث إنه معروف بكونه أقل الطرقات أماناً في أفغانستان. فعلى هذا الطريق كان الصحافيون الأجانب، والعاملون في مجالات الإغاثة، والأفغانيون المحليون، قد فقدوا أرواحهم إما بسبب حادث ما مفاجئ، وإما بعد اصطدامهم بقطّاع الطرقات. فبعد سقوط نظام طالبان مباشرة قُتل على هذا الطريق أربعة من رجال الصحافة. أما سائقهم فقد نجا لأنه تمكّن من تسميع بعض النصوص الإسلامية. ولكن بعد ذلك تمّ توقيف حافلة مليئة بالركاب الأفغان. وكل مَن وُجد من ركاب تلك الحافلة حليق الوجه قد قُطعت أذناه وجُدع أنفه؛ وتلك إشارة من قطّاع الطرقات إلى الكيفية التي يريدون لبلادهم أن تكون محكومة بها.

ويقوم سلطان بتلاوة صلاة في البقعة التي قُتل فيها الصحافيون. ومن أجل أن يبقى على الجانب السليم، فإنه كان قد حافظ على لحيته طليقةً، ولبس الثياب التقليدية. إلا أن العمامة وحدها، كانت قد استُبدلت بطربوش قصير.

وها هو الآن يقترب من كابول. "لا بدّ من أن صونيا غاضبة منه"، يفكر في نفسه ويبتسم. فلقد كان قطع لها وعداً بالعودة بعد أسبوع واحد. وكم حاول أن يشرح لها أنه قد لا يتمكّن من إنهاء عمله في كل من بيشاور ولاهور في أسبوع واحد. لكنها لم تكن تريد الإصغاء إلى كلامه. "إذاً، سوف أمتنع عن شرب الحليب"، قالت له، وضحك سلطان. إنه يتطلع إلى لقائها. فصونيا لا تحب شرب الحليب، ولكن وبما أنها تقوم بإرضاع طفلتهما لطيفة، فإن سلطان كان قد أرغمها على شرب كأسٍ من الحليب كل صباح. وكأس الحليب هذه صارت الورقة التي تستعملها صونيا للتفاوض.

وهـي تفـتقد سلطان بشدة عندما يكون خارج البيت. فأفراد العائلـة الآخرون لا يعاملونها بالطريقة الجيدة نفسها مثلما يكون عليه الحـال في حـضور زوجها. ففي غيابه لا تعود هي سيدة البيت، بل تـصبح أشـبه بشخص ذي وجود عابر في ذلك المكان، وفجأة تنتقل السلطة في البيت لآخرين وهم يقومون بعمل ما يحلو لهم عندما يكون سلطان غائباً. ففي غيابه يطلقون عليها ألقاباً من نوع "الفتاة القروية"، أو يقولـون عـنها إنهـا "غبية كالحمار!" لكنهم لا يجرؤون أبداً على مضايقتها كثيراً، لأنهم يخافون أن تقوم بالشكوى عنهم إلى سلطان، ولا أحد في العائلة يشتهي أن يجعل سلطان عدواً له.

وسـلطان يفتقد إلى صونيا أيضاً، يفتقد إليها بطريقة لم يفتقد بها شـريفة مرة. وفي بعض الأحيان يخالجه شعور بأنها صغيرة جداً لتكون زوجـةً له، وأنها أشبه ما تكون بطفلة صغيرة، وأن عليه أن يعتني بها، ويأخذها بالحيلة والمخادعة، حتى يقنعها بشرب كأس الحليب، كما أن عليه أن يفاجئها أحياناً بالهدايا الصغيرة.

وهو يتأمل ويعجب بالفرق الكبير بين زوجتيه. فعندما يكون مع شـريفة، فإنهـا تقوم بالاهتمام بكل شيء، فتذكّره بالمواعيد، وتقوم بأعمال التنظيم والترتيب. فشريفة تضع سلطان في المقام الأول عندها، فتراعي حاجاته وطلباته. أما صونيا فإنها تفعل ما يطلب منها، لكنها لا تتخذ المبادرة أبداً.

لكن شيئاً واحداً لا يستطيع سلطان أن يتعزّى عنه، إنها الساعات المخـتلفة التي يقضيها مع كل من المرأتين. فسلطان ينهض باكراً عند السـاعة الخامسة ليؤدّي صلاة الفجر، وهي الصلاة الوحيدة التي يلتزم بها. فبينما تنهض شريفة معه وتقوم بتسخين الماء وإعداد الشاي وتقديم الثياب النظيفة إليه، فإن صونيا تكون أشبه بطفلة من المستحيل إيقاظها.

وفي أحـــيان يعتقد سلطان بأن هذا ليس عدلاً بالنسبة إلى صونيا، فهو كبير جداً بالنسبة إليها، لكنه عندئذ يقوم بتذكير نفسه أنها لم تكن لتـــستطيع أن تجد لنفسها بعلاً أفضل منه. فلو أنها تزوجت من شخص ما، في مثل عمرها، فإنه لم يكن ليتيسر لها الحصول على مستوى الحياة اللائقة التي تستمتع بها الآن. فلا بدّ ساعتئذٍ من أن تكون زوجة لشاب معدم فقير، ذلك أن جميع الشبان في قريتها هم من المعدمين الفقراء. لا يــزال أمامنا عشر إلى عشرين سنة من الحياة السعيدة، يفكر سلطان، فيستعيد وجهه تعبيراً قانعاً، ويشعر نفسه أنه شخص محظوظ وسعيد.

ويــضحك سلطان. ويرتعش قليلاً إنه يقترب الآن من مايكروورايون ومن زوجته الطفلة الشهية.

أتريدين فعلاً أن تجعليني حزيناً؟

لقـــد انتهت الوليمة. فعظام الضأن، وأرجل الدجاج، تتناثر على الأرض. وكُـــتل الأرز قـــد جرى تحريكها بلطف إلى ما فوق مفرش الطاولـــة، الـــذي بات ملطخاً بلون الصلصة الحارة ذات اللون الأحمر الغامق، بما يمازجها من بقع من اللبن الرقيق الأبيض. وكذلك فتات من الخبـــز، وقـــشر البرتقال المتناثر في الغرفة، كما لو أن هذه الأشياء قد جرى نثرها هناك في اللحظات الأخيرة بعد تناول الوجبة. وعلى الفُرشِ الممـــدودة إلى جانب الجدران يجلس ثلاثة رجال وامرأة، وعند الزاوية القريبة من الباب تجلس امرأتان القرفصاء معاً أيضاً. فإنهما لم تشاركا في الوجـــبة لكـــنهما تحدقان مباشرة تحت لفاعيهما حيث تلتقي أبصارهما معاً.

فالأربعـــة الجالـــسون إلى جانب الجدار يستمتعون بالشاي الذي يرتـــشفونه بهدوء وإنعام تفكير؛ بل بضجر وملل. فالنقاط الأساسية قد تمـــت تسويتها وجرى الاتفاق عليها. وكيل يتزوج شاكيلا، ورسول يتزوج بلبلة. ولم يبقَ سوى تحديد المهور ومواعيد الزواج. فعلى الشاي واللوز المقشّر تمّ تحديد مهر شاكيلا عند مئة دولار؛ أما بلبلة فليس لها مهـــر. ووكيل يحتفظ بالمبلغ جاهزاً؛ فهو يسحب ورقة عملة من جيبه

ويـــدفعها إلى ســـلطان. يتقبل سلطان ورقة النقد التي هي مهر أخته، بشيء من العجرفة، وبتعبير يخالطه ميل إلى عدم المبالاة؛ إنه ليس بالمهر الكـــبير الـــذي يناله عن أخته. ومن جهة أخرى، فإن رسول يستحمُّ تنهيدة تنمُّ عن الاطمئنان والراحة. فلم يكن له بدٌّ من الكدح لمدة سنة على الأقل لجمع ما يكفيه من النقود من أجل شراء زوجةٍ ودفع نفقات الزفاف.

وســـلطان مـــستاء، ممـــتعض من ناحية أختيه، إذ هو يعتقد أن مـــناكدتهما قـــد أخسرتهما كثيراً من عروض الزواج التي جاءتهما من خاطبين متلهفين. فمنذ خمس عشرة سنة خلت كان بإمكان كل منهما أن تحصل على عريس يكون أوفر مالاً وشباباً.

"لقد كانتا نكدتين مشاكستين".

* * *

ومع كل ذلك، فلم يكن سلطان هو الذي ختم على مصيرهما، بـــل هي أمه بيبـــي غول، المتوجة على مقعد الشرف. وهي تجلس متربعة، قانعة بنفسها، متمايلة من وركٍ لآخر. ومصباح زيت الكاز يلقي وهجاً أنيساً على وجهها المتغضن. أما يداها فتستلقيان بثقلٍ في حـــضنها بيـــنما هـــي تبتسم بسعادة. ويبدو أنها لم تعد تصغي إلى الحديث الجاري. فهي نفسها كان قد زوّجها أهلها وهي لا تزال في الحادية عشرة من عمرها إلى رجل يكبرها بعشرين سنة. لقد أعطيت كجـــزء لتسوية فرق عقد زواج كان قد جرى بين عائلتين. إذ قد كـــان أهلها طلبوا يد إحدى بنات عائلة مجاورة لهم لابنهم، وعليه فقـــد قبلوا الشرط بأن تُرمى ابنتهم لتكون زوجة لابن تلك العائلة الأكـــبر غـــير المتزوج. كان العريس وكأنه قد عثر عليها صدفةً في الحديقة الخلفية.

وبعـد زواج طـويل شـهد ثلاثـة حروب، وخمسة انقلابات عـسكرية، وتخلله إنجاب ثلاثة عشر طفلاً، فإن هذه الأرملة كانت في نهاية الأمر قد أعطت الوعد بابنتها الثالثة، وكذلك بابنتها التي هي أكبر مـن أصـغرهن؛ وبذلك تبقى عندها ابنة واحدة. وكانت قد تمسكت بهـاتين البنتين لوقت طويل، ولكن ها هما الآن وقد تخطت كل منهما عامهـا الثلاثين، كما أنهما ليستا بشديدتي المرغوبية في سوق الزواج. ولكـن زوجـيهما هما أيضاً كبيرين متعَبين. فالرجل الذي يخرج ذلك المـساء مـن بيتها على أساس أنه قد بات خطيباً لابنتها شاكيلا، يزيد عمره عن الخمسين سنة، وهو أرمل ذو عشرة أطفال. أما الزوج الذي انعقدت النية على تزويج بلبلة منه فهو أيضاً أرملٌ، لكنه دون أطفال.

وقد كان لـ: بيبـي غول أسبابها الخاصة لتمسّكها بابنتيها كل تلـك المـدة الطويلة، فبالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنها قد جارت علـيهما. فإنهـا تصف بلبلة بأنها ليست شديدة الذكاء، بل إنها عديمة الحـيلة والنفع. وبيبـي غول تصرّح بهذه المعلومة علناً، ودون خجلٍ حـتى في حضور ابنتها. فإحدى يدي بلبلة شلاّء وقليلة القوة، كما أنها تمشي بشيء من العرج. "إنها لن تستطيع أبداً إدارة عائلة كبيرة"، تقول عنها أمها.

وكـان قـد أصاب بلبلة مرض مفاجئ شديد عندما كانت في السادسة من عمرها، وعندما استعادت عافيتها، صار عندها صعوبة في الـتحول. ويقول أخوها إن ذلك كان شلل الأطفال، ولم يدرِ الأطباء بذلك، لكن بيبـي غول تعتقد أن الطفلة قد عانت بسبب الحزن. فكل مـا تعـرفه هو أن بلبلة قد سقطت مريضة، ملقية مسؤولية ذلك على دخـول والد الطفلة إلى السجن إذ كان قد تمّ اعتقاله واتهامه باختلاس بعـض المـال من مستودع كان يعمل فيه. وتدعي بيبـي غول بأن

زوجها كان بريئاً. ولقد جرى إخلاء سبيله بعد مرور بضعة أشهر لكنَّ بلـبلة لم تـستعد عافيتها أبداً. "لقد نالت عقاباً بجريرة والدها"، تقول بيبـي غول.

ولم تـذهب بلبلة مرة إلى المدرسة، فلقد تسلّل المرض إلى داخل رأسها، ولم تعد قادرة على التفكير بوضوح، هذا ما احتجّ به والداها. وبقـيت بلـبلة تحوم حول والدتها خلال أيام طفولتها. فلم يظهر منها الـشيء الكـثير نظراً إلى مرضها الغامض. ولكن في وقت لاحق فإن الحـياة قذفتها إلى الهامش. فلم يعد لأحد أي عمل يعمله مع بلبلة؛ فلم يلعب معها أحد، ولم يطلب أحد منها أي مساعدة.

وقلـيلون هم الناس الذين عندهم أي شيء يقولونه لبلبلة، فهذه المـرأة البالغة الثلاثين من عمرها لديها شيء من التواني والخمول الذين يحومان حولها، بينما هي تجر نفسها جراً في هذه الحياة، أو على هامش الحياة، فلها عينان واسعتان، فارغتان، وهي تجلس على وجه العموم بفم نصف مفتوح. فالشفة السفلى تتدلى قليلاً كما لو أن الفتاة على وشك الدخـول في الـنوم. وفي أحـسن الظروف تستطيع بلبلة الإصغاء إلى أحاديـث الآخرين، وإلى حياة الآخرين، ولكن دون كثير من الحماس.
وقـد صـارت بيبـي غول مقتنعة أن بلبلة سوف تتجرجر في أرجاء البيت وتنام على بساط بالقرب منها طيلة حياتها الباقية. لكن شيئاً ما، قد حصل، مما جعلها تقوم بتغيير رأيها. ففي أحد الأيام أرادت بيبـي غـول أن تزور أختها في القرية، فما كان منها سوى أن لملمت غباءتها (البوركا) وجرّت ابنتها بلبلة خلفها ثم نادت على سيارة تاكسي. وهي في العادة تذهب مشياً على الأقدام، لكنها كانت قد زاد وزنها وشعرت بتـثاقلٍ في السنتين الأخيرتين حتى صارت ركبتاها عاجزتين عن حملها كمـا يجب، كما أنها لم تعد تملك تلك الطاقة على المشي. وحيث إنها

كانـــت قد خبِرت الجوع في شبابها، كما خبرت الفقر والكدح عندما كانـــت زوجـــة شابة، فإن بيبـــي غول قد صار لديها شرهٌ كبير على الطعام، بل ولعٌ به؛ حتى صارت لا تستطيع التوقف عن الأكل إلاّ بعد أن تفرغ جميع الصحون.

أمـــا الـــسائق الذي توقف عند البوركا السمينة وابنتها فلم يكن ســـوى قريبهما البعيد رسول. وكان قد فقد زوجته منذ سنواتٍ قليلة؛ لقد ماتت أثناء الوضع.

"هل وجدت لك زوجة جديدة؟" وجهت بيبـــي غول سؤالها إلى سائق التاكسي.

"لا، ليس بعد" أجابها.

"هـــذا محـــزن. إن شـــاء الله سوف يكون لك زوجة جديدة في القـــريب العاجل"، قالت بيبـــي غول قبل أن تروي عليه آخر الأخبار عن عائلتها، وعن أبنائها، وبناتها وأحفادها.

وهنا التقط رسول إشارتها. وبعد بضعة أسابيع جاءت أخته إليهم طالبةً يد بلبلة. من المؤكد أنها تستطيع أن تهتم به كزوجةٍ جاء في ذهن بيبـــي غول.

وهكـــذا وافقت بيبـــي غول دون تردد، وكان هذا أمراً غير معتاد أبداً. فلكي تقطع وعداً فورياً بزواج ابنة، فإن هذا يعني أنها لا تساوي شيئاً، وأن أهلها سيكونون في غاية السعادة للتخلص منها. بيـــنما التـــريث والتلبث يعنيان زيادة في قيمة البنت؛ يتوجب على عائلة العريس أن يأتوا عدة مرات للترجي والإقناع وإحضار الهدايا. أما بالنسبة إلى بلبلة فلم يكن هنالك خطوات كثيرة، ولم تقدَّم أي هدايا.

* * *

وفي الوقت الذي كانت فيه بلبلة تحدق في الفضاء كما لو أن هذه المحادثـة لا تعنيها بشيء، فإن أختها شاكيلا كانت تصغي إلى الحديث بعناية. فهاتان الأختان أشبه بالطبشور والجبن. فشاكيلا سريعة وعالية النبرة، وهي في وسط انتباه العائلة. ومحبتها للحياة متطورة جيداً. وهي لطيفة وممتلئة الجسم، كما يجدر بالمرأة الأفغانية أن تكون.

وكـان قـد تقـدم إلى شاكيلا العديد من الخاطبين على امتداد الـسنوات الخمس عشرة الماضية، منذ الوقت الذي كانت فيه لا تزال مـراهقة نحيلة إلى أن صارت الآن امرأة مبهجة لنظر الرجال، فها هي تجلـس في الزاوية خلف المدفأة تصغي بصمت إلى حديث أمها وأخيها وهما يساومان.

فلقـد كانـت شاكيلا ذاتها نيِّقة. فعندما كانت أمهات خطابها يـتقدمن لطلـب يدها من والدتها بيبـي غول، فإن الأخيرة لم تكن لتسأل السؤال المعتاد حول ما إذا كان الخاطب غنياً أم لا.

"هـل ستـسمحون لها بمتابعة تعليمها؟" كان هذا سؤال بيبـي غول الأول.

لكن الجواب كان دائماً يأتي بالنفي. وبناءً على ذلك، فإن الزواج كـان يبدو خارج نطاق البحث. خاصة وأن كثيراً من الخاطبين كانوا هم أنفسهم أميين. وهكذا أكملت شاكيلا تعليمها حتى صارت أستاذة رياضـيات وعلـوم طبيعية. ومع ذلك عندما جاءت المزيد من أمهات العرسان لخطبتها لأبنائهن، فإن بيبـي غول صارت تسأل السؤال التالي "هل ستسمحون لها بالاستمرار في عملها؟".

كلا لن يسمحوا لها. وهكذا بقيت شاكيلا عانساً.

وحـصلت شـاكيلا على وظيفتها التعليمية الأولى بينما كانت الحـرب ضـد الاتحاد السوفياتي مشتعلة. وفي كل صباح كانت ترتدي

فـوق كعبها العالي وتنانيرها التي لا تتجاوز الركبة، كما كانت موضة الثمانينـيات، وتتجه إلى قرية ديه خودايداد الواقعة خارج كابول. لم يكـن هـناك لا قذائف الرصاص، ولا القنابل، قريبة من ذلك المكان. والشيء الوحيد الذي التهب كان شاكيلا ذاتها؛ لقد وقعت في الغرام.

ولسوء الحظ، فإن محمود كان متزوجاً. وكان زواجه زواجاً رتبته عائلـته ولا يقوم على حب. كان أكبر منها ببضع سنوات، وهو أب لـثلاثة أطفـال صغار. وكان حبهما حباً من النظرة الأولى فور التقاء هـذين الزميلين معاً. ولم يدرِ أحدٌ من الناس عن شعور الواحد منهما تجـاه الآخر؛ كانا يختبئان عن مرأى الآخرين، أو يتحدثان عبر الهاتف هامسين بتفاهات جميلة في سماعة التلفون. ولم يتيسر لهما أي لقاء أبداً خارج المدرسة. وخلال واحد من لقاءاتهما المختلسة قاما بوضع الخطط لمستقبلها: سيقوم محمود باتخاذ شاكيلا كزوجة ثانية له.

ولكـن محمـوداً لم يكن ليستطيع الذهاب بكل بساطة إلى أهل شـاكيلا لـيطلب يـدها. فلا بدّ له من أن يعتمد في ذلك على أمه وأخواته.

"إنهن لن يفعلن ذلك أبداً"، قال لها. "وأهلي لن يقولوا نعم أبداً"، تنهدت شاكيلا.

وكان رأي محمود أن شاكيلا وحدها تستطيع أن تقنع أمه بالتقدم إلى خطبـتها من أهلها. فلقد اقترح عليها أن تتصرف تصرف المجنون، واليائس وأن تهدد بالإقدام على الانتحار إذا لم تتزوج من محمود؛ وأن ترمـي نفـسها أمام أهلها؛ وأن تقول بأن الحب يستغرقها ويلتهمها، وعند ذلك فقط، فإن الأهل قد يرأفون بحالها، ويستنقذون حياتها.

لكـن شـاكيلا لم تكن لتمتلك الشجاعة كي تصرخ وتنادي، ومحمود لم يكن يملك الشجاعة ليسأل نساء عائلته الذهاب إلى منـزل

أهــل شــاكيلا. فهو لم يستطع حتى أن يذكر اسم شاكيلا مرة أمام زوجـتـه. وعبـثاً حاولت شاكيلا أن تفاتح أمها بالأمر. فقد اعتقدت بيبـي غول أن هذه هي مجرد نكتة؛ وعلى كل حال فهي قد اختارت أن تفسر هذه المفاتحة أنها مجرد نكتة كلما قالت لها شاكيلا إنها تحب أن تتزوج من زميل لها لديه ثلاثة أطفال.

وقد بقي محمود وشاكيلا يدور الواحد منهما حول الآخر في مدرسة القـرية لمدة أربع سنوات. ثم حصل محمود على ترقية. وتغيرت مدرسته. ولم يـستطع أن يرفض الترقية، والآن باتت الاتصالات بينهما تقتصر على المكالمـات الهاتفية. وصارت شاكيلا حزينة إلى أعمق أعماقها، ويأخذها شـوق إلى محبوبها، ولكن كان عليها ألاّ تدع أحداً يتنبه إلى حالها. ولقد كان وقوعها في غرام رجل لا تستطيع أن تحظى به، أمراً مذلاً.

ثم نـشبت الحـرب الأهلية، وأقفلت المدرسة. وهربت شاكيلا إلى باكستان. وبعد أربع سنوات وصلت قوات الطالبان، ورغم أن الصواريخ قـد هدأت، وأن الهدوء قد عاد إلى كابول، فإن مدرستها القديمة لم تُفتح مجدداً. وبقيت مدارس البنات مغلقة، ومثل جميع النساء في كابول، فقدت شـاكيلا فرصتها بين ليلة وضحاها في الحصول على وظيفة جديدة. فثُلثا معلمـي كابـول كانوا قد اختفوا معها. وعدد من مدارس الصبيان أيضاً كـان قـد أجبر على الإقفال، حيث إن عدداً كبيراً من المعلمين كان من النساء. ولم يكن يوجد عدد كافٍ من المعلمين الذكور لفتح كل المدارس.

ومـرّت الـسنوات، واتصالها السري مع محمود كان قد انقطع بانقطـاع خطوط الهاتف خلال الحرب الأهلية. هكذا جلست شاكيلا في منـزلها مع نسوة البيت، فهي لا تستطيع أن تعمل ولا أن تخرج بمفردها، وصار عليها أن تتغطى وأن تتحجب. ففقدت الحياة جميع ألوانها. وعندما بلغت الثلاثين من عمرها توقف الخاطبون عن المجيء لخطبتها.

وفي أحـــد الأيام، وبعد أن كانت طالبان قد أوصلت شاكيلا إلى الحـــضيض لمـــدة خمس سنوات تقريباً، فإن أخت قريبهم البعيد وكيل جاءت أخيراً إلى بيبـــي غول لتطلب يدها.

"فـــزوجة وكيل كانت قد توفيت فجأة. والأطفال في حاجة إلى أم. وهـــو رجـــل طـــيب. كما أن لديه بعض المال. وهو لم يكن مرة مقـــاتلاً، كمـــا أنـــه لم يقم بأي أعمال مخالفة للاستقامة، وهو مخلص وبـــصحة جـــيدة"، قالت عنه أخته. "لقد ماتت زوجته فجأة بعد أن أصيبت بشيء من العته"، قالت بصوت خفيض. "لقد بدأت تهذي، ولم تعد تميّز أياً منا. كان ذلك فظيعاً بالنسبة إلى الأطفال".

ووالـــد عـــشرة أطفال يحتاج إلى زوجة على وجه السرعة. ففي الـــوقت الحاضـــر يقوم الكبير منهم بالاهتمام بالذي يليه، بينما البيت يعـــيش حالـــة تشتت وخراب. قالت بيبـــي غول إنها ستفكر في هذا الأمـــر وقامـــت بإجراء تحريات عن الرجل من أصدقائه وأقربائه. وقد استنتجت أنه كان رجلاً جاداً وأميناً.

وفي كـــل حـــال، لقد صارت المسألة لا تقبل التأجيل خاصة إذا كانت شاكيلا ترغب بأن يكون لها أولاد تقوم هي بإنجابهم.

"لقـــد كُـــتب على جبينها أن يكون هذا هو أوان خروجها من البـــيت"، قالـــت بيبـــي غول لكل من كان يرغب بالإصغاء إليها. وحيث إن طالبان لم تكن لتسمح للنساء بالعمل أبداً، فإنها لم تجد داعياً لطرح السؤال عليه إذا كان يقبل السماح لابنتها بالعمل.

لقد طلبت بيبـــي غول أن يأتي وكيل إلى بيتهم شخصياً. وفي العادة يقـــوم الأهل بإجراء ترتيبات الخطوبة والزواج، وحيث إن هذا الزوج كان يـــشارف علـــى الخمسين، فإنها أرادت أن تنظر إليه هي مباشرةً بعينيها. وكـــان من عادة وكيل أن يقود عربة زراعية مقطورة ويخرج من بيته عدة

أيــام في كــل مــرة. وهو قد أوفد أخته مرة ثانية، ثم أخيه، ثم أخته لمرة جديدة. وهكذا فإن الإجراءات للخطوبة قد تجرجرت وقتاً طويلاً.

ثم جــاء الحــادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونقل سلطان أخواته وأطفالــه مرة جديدة إلى باكستان ليأويهم بعيداً عن القنابل التي عرف أن لا بدّ لها من أن تسقط. وكان هذا عندما وصل وكيل.

"ســوف نــتحدث في هــذه الشؤون عندما تعود الأحوال إلى طبيعتها"، قال سلطان. وبعد أن تمّ طرد الطالبان من كابول بعد شهرين مــن ذلك، فإن وكيل قد عاد من جديد. ولم تكن المدارس قد فتحت بعــد. وهكذا، ولمرة جديدة لم يخطر ببال بيبــي غول أن تسأل وكيل ما إذا كان سيسمح لشاكيلا بالعمل.

* * *

ومــن الــزاوية خلــف المدفأة تتابع شاكيلا بإمعان تقدم الأمور بخصوص مصيرها وموعد زواجها. والأشخاص الأربعة الجالسون على الوسائد يقررون كل شيء قبل أن يتيسر للخطيب والخطيبة حتى فرصة واحدة لإلقاء نظرة على الآخر.

ويخــتلس وكيل نظرة إلى شاكيلا. وهي تنظر نظرة مباشرة نحو الجدار وكأنها تحدق إلى اللاشيء.

"إنــني مسرور بالعثور عليها"، يقول موجهاً كلامه إلى سلطان، لكنه ينظر إلى خطيبته.

إن ســاعة منع التجول ستحلُّ بعد وقت قريب، وهكذا فإن الرجلين يعجلان بالخروج إلى العتمة. ويتركان وراءهما امرأتين باتتا مرتبطتين بالزواج، امرأتان تحدقان إلى الفراغ. فحتى عندما استأذن الرجلان بالخروج، فإن المرأتين لم تلتفتا إليهما. وتكوّم بلبلة نفسها وتتــنهد؛ إذ لم يــأتِ دورها بعد. سيستغرق الأمر سنوات قبل أن

يتمكن رسول من جمع ما يكفي من المال لدفع نفقات العرس وهي تبدو غير مبالية. وتقوم بوضع مزيدٍ من أعواد الحطب في المدفأة. لا أحد يضايقها بالأسئلة؛ إنها مجرد شخص حاضر كعادتها، إلى أن تجر قدميها إلى خارج الغرفة لتهتم بواجباتها البيتية، من غسل، ومن شطف.

وتحمرّ وجنتا شاكيلا عندما ترمي جميع أخواتها أنفسهن عليها.

"إنها ثلاثة أسابيع! وعليك أن تستعجلي".

"لن أستطيع أن أنجز شيئاً"، تقول بشيء من التأوّه. فمواد فستان العرس كان قد تمّ انتقاؤها فعلاً، وهي في انتظار أن يجري تسليمها إلى الخيّاطة. ولكن ماذا عن بقية الجهاز، ماذا عن الشراشف، وماذا عن الخزفيات؟ فوكيل أرمل، وعليه: فلا بدّ من أن تكون لديه معظم هذه الأشياء. ولكن رغم ذلك، إن العروس يجب أن تنتقي هي نفسها بعض الأشياء للحياة الزوجية.

وشاكيلا ساخطة قليلاً. "إنه قصير القامة، وأنا أحب أن يكون الرجل طويلاً"، تقول لأخواتها. "ثم إنه أصلع، وكان من الممكن له أن يكون أصغر من هذا العمر بقليل"، تقول متجهمة. "وماذا إذا تبيَّن أنه مستبد؟ ماذا إذا تبيَّن أنه غير لطيف؟ ماذا إذا خطر له أن يمنعني من الخروج؟" تقول متسائلة. لكن أخواتها لا يجبنها بشيء. وهن يفتكرن الأفكار المتشائمة نفسها. "وماذا إذا خطر له أن يمنعني من زيارتكم، وماذا إذا كان سيضربني؟".

وتستمر شاكيلا وأخواتها في النظر إلى هذا الزواج من منظور عابس أكثر فأكثر حتى تصرخ فيهن بيبي غول بأن عليهن إقفال أفواههن. "إنه زوج جيد بالنسبة إليك"، تقول بإصرار.

* * *

وبعـــد يومين من توقيع العقد، تقوم مريم شقيقة شاكيلا، بترتيب حفلـــة للخطيبين، ومريم هذه في التاسعة والعشرين من عمرها وكانت قـــد تزوجت مرتين، زوجها الأول قتل خلال أحداث الحرب الأهلية، وطفلها الخامس سيولد في أي لحظة.

قامـــت مريم بفرش قطعة قماش طويلة على أرضية غرفة الجلوس. فجلـــس وكيل وشاكيلا عند أحد طرفيها. ولم تكن بيبـــي غول، ولا سلطان، حاضرين. فما دام كبير العائلة يستطيع رؤيتهما فإن عليهما أن يتحاشـــيا أي اتـــصال مباشر أحدهما مع الآخر. ولكن الآن، ولأنهما محاطـــان بأقرانهم الأصغر منهما، فإنهما يتحدثان بصوت خفيض وهما يكـــادان لا يشعران بوجود الآخرين الذين هم مستميتون في محاولتهم لالتقاط أي جزء من المحادثة.

لم يكن الحديث حميماً إلى درجة ملفتة. فعلى وجه العموم كانت شـــاكيلا تـــوجه حديثها إلى الهواء، فوفقاً للتقاليد ينبغي عليها تحاشي الـــتقاء نظرها بنظر خطيبها قبل الزواج؛ أما هو فلم يكن يرفع ناظريه عنها طيلة الوقت.

"إنـــني أفـــتقدكِ. إنـــني أكاد لا أستطيع انتظار أسبوعين قبل أن تصبحي لي"، يقول لها. تتورد وجنتا شاكيلا وتتابع النظر إلى الفراغ.

"إنـــني لا أســـتطيع النوم في الليل من فرط تفكيري فيك"، يتابع قـــائلاً. ولكن شاكيلا لا تظهر أي ردة فعل. "ما رأيك في هذا الذي يجري معي؟" يسألها.

لكن شاكيلا تستمر في الأكل.

"تصوَّري، عندما نتزوج، وتقومين أنت بإعداد الطعام لي. وعندما أعود إلى البيت، ستكونين دائماً هناك بانتظاري"، يتابع وكيل أحلامه.

"لن أكون وحيداً لمرة جديدة".

وتمسك شاكيلا بلسانها لكنها تستجمع ما يكفيها من الشجاعة لتسأله عمّا إذا كان سيسمح لها بالعودة إلى العمل بعد أن يتزوجا. ويوافق وكيل، لكن شاكيلا لا تصدقه. فهو قد يبدل رأيه بعد زواجهما مباشرة. لكنه يؤكد لها بأنه إذا كان العمل يسعدها، فإنه لا يمانع في ذلك. ولكن ذلك بالطبع يأتي بعد أن تعطي الأطفال حقهم والبيت أيضاً. ثم يخلع قبعته، "الباكول" البنيّة التي يعتمرها في العادة مؤيدو قائد قوات التحالف الشمالي أحمد شاه مسعود الذي كان قد تمّ اغتياله.

"هذا يجعل منظرك قبيحاً"، تقول شاكيلا بوقاحة. "فأنت أصلع".

والآن جاء دور وكيل ليشعر بالارتباك. فهو لم يجب على إهانات خطيبته، لكنه وجّه الحديث إلى جهات أكثر سلامة. وأمضت شاكيلا يومها في أسواق كابول، تشتري الأشياء التي ستحتاج إليها للزواج، والهدايا لجميع الأقارب، أقاربها وأقارب زوجها. فوكيل سيقوم بتوزيع الهدايا كمبادرة محبة تجاه أفراد عائلتها الذين سيعطونها له، فهو يدفع وهي تشتري، فمن الأواني إلى المقالي، إلى أدوات المطبخ، إلى الشراشف، إلى المناشف، إلى الثياب الرجالية العائدة له ولرسول. فقد كانت قد وعدت رسول خطيب بلبلة أنه يستطيع أن يختار اللون الذي يعجبه، فهي تتكلم عن مشتريات، وهو يسألها عن لون القماش.

"واحد أزرق والثاني بنيّ"، تجيب شاكيلا.

"أيهما يعود لي؟" يسألها.

"لست أدري، إن رسول يستطيع الاختيار أولاً".

"ماذا؟" يقول وكيل في دهشة. "لماذا؟ يجب أن أكون أنا أول من يختار فأنا زوجك".

"حسناً، أنت تختار أولاً"، تجيبه شاكيلا. "ولكن كليهما جيدان"، تقول له بينما هي تنظر أمامها.

ويشعل وكيل سيجارة. "إنني لا أحب التدخين" تقول شاكيلا. "كما لا أحب الناس الذين يدخنون. وإذا كنت ستدخن، فإنني لن أحبك أيضاً".

رفعت شاكيلا نبرة صوتها، فسمع الجميع عبارتها المهينة.

"من الصعب عليَّ أن أتوقف عن تدخين سيجارتي"، حيث إنني قد أشعلتها، يجيبها وكيل بخنوع.

"لكن رائحتها لا تطاق"، تتابع شاكيلا.

"عليك أن تكوني أكثر أدباً"، يقول لها وكيل. ولكن شاكيلا لا ترد عليه.

"كما أن عليك ألاّ تتكشفي. فإن من واجبات المرأة أن ترتدي البوركا. ولكِ أن تفعلي ما تشائين، لكن إذا لم تقومي بارتداء البوركا، فإن ذلك سيحزنني، وهل تريدينني أن أشعر بالحزن؟" يسألها وكيل بلهجة متوعدة.

"ولكن إذا كانت كابول قد تغيرت وبدأت النساء بارتداء الملابس الحديثة، فإنني سأفعل مثل ذلك أيضاً" تقول شاكيلا.

"لن تلبسي الأزياء الحديثة، أتريدين أن تجعليني حزيناً؟".

لكن شاكيلا لم تجب بأي جواب.

يستخرج وكيل بعض الصور الشخصية التي هي بحجم صور الباسبور من محفظته، ينظر إلى تلك الصور، يعطي واحدة منها إلى شاكيلا، "هذه صورة لك، وأريد أن تجعليها بالقرب من قلبك". لكن شاكيلا تحافظ على نظرة مستقيمة وتتقبل الصورة بغير حماس.

صار على وكيل أن يغادر. فلم يعد هنالك وقت طويل قبل أن يبدأ وقت منع التجول. يسألها كم ستحتاج من النقود لإكمال مشترياتها، تجيبه. يحسب ويقدر، ويعطيها بعض أوراق البنكنوت ويعيد الباقي إلى محفظته.

"هــل هــذا يكفي؟" تخفض شاكيلا رأسها بالإيجاب. يتبادلان كلمات الوداع. يخرج وكيل؛ وتضطجع شاكيلا على الوسائد الحمراء. وتــنفّس عن تنهيدة تشير إلى شعورها بالراحة، وتتناول قطعاً قليلة من اللحم. لقد فعلتها، إذ عليها أن تبدو باردة ومتنائية عنه حتى يتزوجها. فهذا يدلُّ على أخلاق حميدة لعائلتها التي ستتركها.

"أتحبينه؟" تسألها أختها مريم.

"حسناً، نعم وكلا".

"هل أنت عاشقة؟".

"همم".

"وماذا تعني كلمة همم؟".

"إنمــا تعني همم"، تقول شاكيلا. "أي لا نعم ولا كلا. فهو كان بإمكانه أن يكون أصغر عمراً وأكثر وسامة"، تقول وتدير بأنفها. فهي تــبدو أشــبه بطفلــة خاب أملها لأنها لم تحصل على اللعبة التي تمشي وتــتكلم، كما أرادتها، بل حصلت على مجرد لعبة مصنوعة من خرق القماش بدلاً منها.

"إنــي حزينة، وهذا كل شيء"، تقول "إنني نادمة، وإنني حزينة لأنــني سأغادر عائلتي. ماذا إذا كان سيمنعني من القيام بزيارتكم؟ ماذا إذا كان سيمنعني من العمل، خاصة وأن العمل الآن قد بات مسموحاً؟ ماذا إذا كان سيقفل عليَّ الأبواب".

تــصدر بقبقة عن مصباح الزيت. وتصبح الأخوات غارقات في الأفكار السوداء. الأفكار التي يمكن للمرء أن يتأمل فيها سلفاً.

نواهي طالبان

عـــندما تـــدفقت قـــوات طالـــبان إلى داخـــل كابول في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1996، فإن ست عشرة قاعدة قانونية كانت قد أذيعت من راديو الشريعة. ذلك أن عصراً جديداً قد ابتدأ.

1. منع تكشف الحريم

يمـــنع علـــى السائقين نقل النساء اللواتي لا يلبسن البوركا تحت طائلة التعرض للتوقيف. فإذا شوهدت نساء من هذا النوع في الشوارع، فإن بـــيوتهن سوف تُدخل، وسيتعرض أزواجهن للعقاب. وإذا لبست النساء ثـــياباً مثيـــرة أو مغـــرية ولم يكن لهن قريب ذكر برفقتهن، فإن على السائق منعهن من الدخول إلى عربته.

2. تحريم الموسيقى

إن أشـــرطة الكاســـيت والموســـيقى ممنوعة في الدكاكين، والفنادق، والعربات، وفي عربات الرِكشَة. فإذا وجدت أشرطة كاسيت موسيقية، فإن صاحب الشريط سيتعرض للسجن كما أن الدكان سوف يُغلق. أما إذا وجد شريط الكاسيت في عربة، فسوف تُحجز، والسائق سيسجن.

3. تحريم الحلاقة

كـــل من يحلق لحيته أو يبالغ في تقصيرها سوف يسجن إلى أن تنمو لحيته إلى حجم قبضة اليد.

4. إلزامية الصلاة

يجب مراعاة الصلاة في أوقاتها المحددة في جميع المناطق، وسوف يعلن عن المواقيت الدقيقة بالضبط، بواسطة وزير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويجب أن تتوقف جميع أعمال المرور في الشوارع قبل خمس عشرة دقيقة من حلول موعد الصلاة. والذهاب إلى الجامع إلزامي خلال وقت الصلاة. فأي شباب يمكن العثور عليهم في المحلات التجارية في هذه الأوقات سيتعرضون للسجن الفوري.

5. تحريم تربية الحمام ومبارزات الطيور

هذه العادة يجب أن تتوقف. وطيور الحمام التي تستعمل في غرض الألعاب أو القتال سوف تذبح.

6. منع المخدرات واستعمالها

إن مسيئي استعمال المخدرات سوف يعاقبون، وستعمل تحريات من أجل تطهير المجتمع من المروجين وأصحاب المحلات. وسوف يغلق المحل ويساق المجرمون، والمتعاطي منهم، والمروّج، إلى السجن لنيل عقابهما.

7. تحريم استعمال الطيارات الورقية

إن تطيير الطيارات الورقية له عواقب وخيمة، من أمثال المقامرة. وحصول الوفيات بين الأطفال وتفشي غيابهم. فالمحلات التي تبيع الطيارات الورقية سوف تزال.

8. تحريم طباعة الصور

يجب نزع الصور من العربات والمحلات التجارية، والمنازل، والفنادق، والأماكن الأخرى، وعلى أصحاب الأملاك والمؤسسات تدمير جميع الصور في الأماكن المذكورة أعلاه وسوف يتم إيقاف جميع العربات التي تحتوي على صور لمخلوقات حية.

9. تحريم المقامرة

مراكــز المقامــرة سوف تُغلق تماماً، وسيسجن المقامرون لمدة شهر واحد.

10. تحريم قصات الشعر البريطانية والأميركية

ســيتم اعــتقال الرجال الذين يرسلون شَعْرَهم وسيُجلبون إلى وزارة الأمــر بالمعــروف والنهــي عن المنكر لجز شعرهم، وسيكون على المجرم دفع أجرة الحلاق.

11. تحريم الفائدة وفرق صرف العملة والرسوم على التعاملات المالية

إن هذه الأنواع الثلاثة من تبادل النقود محرمة في الإسلام. فإذا جرى تجاوز هذه القواعد، فإن المجرم سوف يتعرض للسجن لمدة طويلة.

12. تحريم غسل الملابس على ضفاف الأنهار

إن النــساء اللواتي يكسرن هذه القاعدة سوف يؤخذن بطريقة إسلامية محترمة إلى منازلهن إلاّ أن أزواجهن سيتعرضون إلى أشد العقاب.

13. تحريم الموسيقى والرقص في حفلات الزواج

إذا كسر هذا المنع، فإن سيد العائلة سيتعرض للاعتقال والعقاب.

14. تحريم قرع الطبول

ستقوم الهيئة الدينية بتقرير العقوبات المناسبة التي يمكن إنــزالها بمن أدرك وهو يقرع الطبول.

15. مــنع الخياطــين مــن خياطة الأثواب النسائية، ومن أخذ القياسات للنساء

إذا وجدت أي مجلات موضة في المحل، فإن الخياط سيتعرض للسجن.

16. تحريم أعمال الشعوذة

كل الكتب التي تتعاطى في هذا الموضوع وكل السحرة سيسجنون إلى أن يعلنوا توبتهم.

وبالإضافة إلى هذه القواعد القانونية الست عشرة، فإن نداء منفصلاً موجهاً إلى نساء كابول كان قد جرت إذاعته!

أيتها النساء، يجب عليكن عدم مغادرة بيوتكن. وإذا خرجتن، فإن عليكن عدم التشبه بالنساء اللواتي يلبسن الثياب المتنوقة، ويضعن الماكياج ويكشفن أنفسهن لكل رجل، كما كان الحال قبل أن يدخل الإسلام إلى هذه البلاد.

فالإسلام هو دين الحرية، وقد تقرر أن هنالك حرمة معينة تلتصق بالنساء. فعلى النساء ألاّ يجعلن استلفات اهتمام الأشرار إليهن أمراً ممكناً، أولئك الأشرار الذين ينظرون بشهوة إليهن. وإن من مسؤولية المرأة أن تجمع أفراد عائلتها معاً، وأن تهتم بطعامهم ولباسهم. فإذا احتاجت النساء مغادرة البيت، فإن عليهن تغطية أنفسهن وفقاً لقانون الشريعة. فإذا لبست النساء ثياباً أنيقة أو وضعن عليهن حلياً، أو لبسن ثياباً ضيقة، أو مُغرية للتبرج والظهور، فإنهن سيعتبرن ملعونات من الإسلام والشريعة... وسوف يجري معاقبتهن بقسوة على يد البوليس الديني، كما سيعاقَب سيد العائلة، وعلى البوليس الديني واجب ومسؤولية مكافحة هذه المشاكل العائلية حتى يتم اجتثاث هذا الشر.

والله أكبر.

تماوج، رفرفة، ودوران

هي لا تنفك تفقد أثر البوركا المرفرفة، تلك البوركا المرفرفة التي يـــصعب تمييزها على أي بوركا أخرى. فالسماء زرقاء صافية في كل مكـــان. لكن عينيها متجهتان إلى الأرض، إلى الوحل حيث يمكنها أن تميـــز الأحذية الوسخة عن سواها من الأحذية الوسخة الأخرى. وهي تـــستطيع أن تـــرى زركشة السراويل البيضاء، كما تستطيع أن تلتقط إلماحة إلى حافة الفستان البنفسجي الذي جرى ارتداؤه فوق السراويل. فهـــي تمشي في أرجاء البازار ناظرة إلى الأرض متبعة البوركا المرفرفة. وثمة بوركا أخرى حبلى حتى آخر الدرجات تأتي خلفهما لاهثة. فهي تحـــاول باســـتماتة أن تبقى على مسافة قريبة من البوركتين النشيطتين اللتين تسيران أمامها، وأن تحتفظ بسرعة تساير مشيتهما.

فأمـــا البوركا القائدة فقد توقفت بالقرب من الدكّة التي تعرض عليها شراشف الأسرّة. تتحسس القماش وتحاول أن تتأكد من لونه من خلال فتحة النظر ذات القماش المشبّك. ثم تقوم بمساومة البائع الواقف عبر الدكّة، حيث لا تمكن رؤية العينين السوداوين سوى بصعوبة خلف شبكة القماش. تحرك البوركا ذراعيها في الهواء. ويبرز الأنف من خلال طـــيات الحجـــاب كأنه منقار. وأخيراً فإنها تقرر رأيها فتمد يدها إلى

حقيبتها وتفتش عن رزمةٍ من أوراق البنكنوت الزرقاء. يقوم بائع شراشف الأسرَّة بقياس القماش الأبيض الذي تخالجه نقوش هي عبارة عن رسومات وأزهار زرقاء شاحبة، تختفي القماشة داخل كيس محمول في داخل البوركا. وتنتشر روائح الزعفران والثوم، والفلفل المجفف لتمتزج بروائح العرق والأنفاس والرائحة القوية للصابون. ومادة النايلون كثيفة بحيث إن المرء يستطيع أن يشم رائحة أنفاسه نفسها. وتقوم البوركات بالطواف على المكان الذي تباع فيه أباريق الشاي الروسية الرخيصة المصنوعة من الألومنيوم. فيتحسسن، ويساومن، ويؤشرن، ثم يقبلن. وكذلك إبريق الشاي نفسه يختفي تحت طيات البوركا ذاتها التي صارت الآن تفيض بالأوعية والقدور، والقلايات والمماسح والفراشي وهي لا تزال يكبر حجمها أكثر فأكثر. وخلف البوركا الأمامية تأتي بوركتان أقل عزماً وتصميماً. وتتوقف البوركتان التابعتان لتشمُّم الحليّ البلاستيكية وتحسُّسِها، كما لفحص الأساور الملونة بلون ذهبي، وذلك قبل التطلع إلى البوركا القائدة التي قد توقفت أمام عربة طافحة بالصداري النسائية التي يخالط بعضها بعضاً. فمنها الأبيض والأصفر الباهت، وهي لها أشكال وقصّات متشابكة. فبعضها معلّق على عمود. ويتحرك دون خجل مع الريح. وتتحسس البوركا تلك الصداري وقياساتها بيدها. وتخرُج الكفّان معاً من طيات البوركا، وتتفحصان مرونة المطاط وحجم الأكواز، وبتقدير بصري. يقرُّ قرارها على واحدة قوية من بينها تشبه مشدَّ الخصر.

ثم تتابع النساء طريقهن محركات رؤوسهن في جميع الاتجاهات من أجل رؤية أفضل. فالنساء اللابسات للبوركا، هم أشبه بالخيول التي توضع لها غماءات: فهن لا يستطعن الرؤية إلاّ في اتجاه واحد. فحيث يضيق مجال الرؤية، يتوقف القماش المشبَّك لتحل محله مادة القماش

الكثيفة بحيث تستحيل الرؤية إلى الجانبين. لذلك فلا بدّ من إدارة الرأس بكامله. وهذه حيلة جديدة للذي اخترع البوركا! فإن على الرجل أن يكون دارياً على الدوام إلى أين تتوجه زوجته بأنظارها.

وبعد قليل من التلفت، تعثر البوركتان اللتان في الخلف على البوركا القائدة في الأزقة العائدة للجزء الداخلي من البازار حيث كانت تعاين حاشية الشريط. شريط ثخينٌ مرن يشبه الطراز السوفياتي لحواف البرادي. وتستهلك وقتاً طويلاً على تقييم الشريط، فشراء هذه المادة شديد الأهمية، الأمر الذي دعاها إلى رفع قطعة الحجاب الأمامية فوق رأسها من أجل إمعان التدقيق في ما تشتريه، متحدية بذلك أوامر زوج المستقبل التي تقضي بأنه لا ينبغي عليها أن تمكّن أحداً من رؤية وجهها. إذ إنه يصعب الحكم على الشريط من وراء القماش المشبّك. ولا يرى وجهها سوى البائع الواقف خلف النضد. حتى وهي في الهواء البارد لجبال كابول، فإن وجهها كانت تغطيه حبّات العرق. وتهزّ شاكيلا رأسها ذهاباً وإياباً وتبتسم بتخابث وتضحك وتساوم، بل وتعابث أيضاً. فتحت السماء الصافية يستطيع المرء أن يتحرى عن لعبتها المغناج. فهي تقوم بهذا الأمر دائماً، والبائع يستطيع تفسير مزاج البوركا التي تحرك رأسها وتتمايل بكل سهولة. فهي تستطيع أن تعابث بإصبعها، أو بقدمها، أو بحركة يدها. فشاكيلا تربط وجهها بشريط يحوّل فحأة من شريط ستارة إلى شريط للحجاب، وهي المادة الباقية اللازمة لفستان الزفاف. وبالطبع إن الطرحة البيضاء تحتاج إلى شريط عند نهايتها. ثم عُقدت الصفقة. ويأخذ البائع القياسات، وتبتسم شاكيلا، ويغيب الشريط في الكيس الذي هو تحت البوركا، ويعود غطاء الوجه إلى النزول كما يجب عليه أن يكون. وتتلوى الأخوات الثلاث إلى درجة أكثر امتداداً في البازار حيث تصبح الزواريب أضيق فأضيق.

هنالك جلبة من الأصوات، همهمة مستمرة. وقليل جداً من البائعين ينصب اهتمامهم على بضائعهم، معظمهم منهمك في القيل والقال مع جيرانه، وبعضهم يتكاسل فوق كيس طحين أو كومة من السجاد، ويبدو الجميع متابعين حياة البازار أكثر مما هم حريصين على استلفات الأنظار إلى بضائعهم. فالزبائن يشترون ما يطيب لهم في نهاية الأمر، كائناً ما كان الجهد الذي يبذله البائع.

وقد بدا كما لو أن الزمن قد توقف في بازار كابول. فالبضاعة هي نفسها منذ أن كانت تعرض في الزمن الذي طاف فيه بها الملك داريوس الفارسي منذ العام خمسمئة قبل الميلاد. فعلى السجاجيد الكبيرة تحت السماء المفتوحة، كما في الأكشاك المركومة، فإن الفاخر واللازم يضطجعان جنباً لجنب. يقوم بتقليبه كل زبون فطن بصير، فالفستق، والمكسرات، والمشمش المجفف، والزبيب الأخضر، كلها تحفظ في أكياس كبيرة من الخيش؛ والحبوب المهجّنة الصغيرة من ثمار الليمون، ملقاة على عربات متقلقلة، وجلودها شديدة الرقة بحيث إنها تؤكل بقشرها. وأحد البائعين لديه أكياس فيها بعض الدجاجات المفرفرة المقوقِعَة. أما تاجر البهارات فلديه الفلفل الحار، والفلفل الإفرنجي، والكاري، والزنجبيل، وكلها مكوَّمة فوق عربته. كما أن تاجر البهارات يتصرف أيضاً كصيدلي أو كطبيب، فهو يصف الأعشاب المجففة، والجذور والفواكه، والشاي بدقة صيدلي، وحصافة طبيب، وهو يشرح أن وصفاته تشفي من كل الأمراض، من البسيط منها إلى الغامض المعقد.

فمن الكزبرة الطازجة، إلى الثوم، إلى الجلد، إلى الهال، كلها تتمازج مع روائح المجارير الآتية من النهر، ومجرى المياه الجاف قذر الرائحة الذي يفصل البازار إلى ضفتين. وعلى الجسر فوق النهر، تُعرض

شباشب مصنوعة من جلد الخراف الثخين. وهي معروضة للبيع إلى جانب منسوجات قطنية بعدة أنساق وألوان، إلى جانب السكاكين والمجارف والمعاول.

ومن وقت لآخر، يقع المرء على بضائع لم تكن معروفة في أيام داريوس. فمن البضائع المهربة، مثل السجائر التي تحمل أسماء غريبة من أمثال المتعة، والنسمة، والصنوبر؛ إلى الكوكا كولا المهربة من باكستان. أما الطرقات التي يستعملها المهربون فلم تتغير كثيراً خلال القرون. فإما تأتي البضائع من معبر ممر خيبر من باكستان، أو من فوق الجبال من إيران. وبعض البضائع المهربة تنقل على ظهر البغال، كما يُنقل بعضها الآخر عبر الشاحنات التي تمر عبر الممرات نفسها التي تستعمل لتهريب الأفيون، والهيرويين، والحشيشة. أما النقود التي تستعمل: فهي نقود حديثة، نقود الصرافين الذين هم أصحاب العباءات والعمائم. وهم يقفون في صف طويل، حيث يمسك كل واحد منهم برزم كبيرة من أوراق البنكنوت الأفغانية الزرقاء التي يساوي كل خمس وثلاثين ألفاً منها دولاراً واحداً.

أحد الرجال يبيع صنفاً من المكانس الكهربائية التي تحمل ماركة توسيونال (Notional) بالسعر نفسه. ولكن كلاً من الماركة الأصلية، والمقلدة، رديئتا البيع بسبب الإمداد الشحيح للكهرباء الذي تشهده كابول، فمعظم الناس يلجأون إلى مكانس القش العادية. والأحذية التي تتنقل فوق الغبائر، وكلها لا تختلف كثيراً عن أن تكون صنادل بنية، أو أحذية وسخة، أو أحذية بالية، ومن وقت لآخر يلحظ المرء زوجاً من الأحذية الجميلة، أو من الأحذية البلاستيكية زهرية اللون المزيَّنة ببعض العقد. حتى إن بعض الأحذية بيضاء، وهو لون للأحذية كانت قد حظرته طالبان ذلك لأن اللون الأبيض هو لون علمها. كما أن طالبان

قد منعت انتعال الأحذية التي لها كعاب جامدة، فطقطقة كعاب النساء يمكن أن تستلفت انتباه الرجال وتشغلهم عن شؤونهم. ولكن الزمن قد تغيّر، وإذا كان من الممكن أن تسمع طقطقة الكعاب في الأوحال، فإن البازار بكامله سيردد صدى طقطقات الـ: كليك كلاك. ومن وقت لآخر يلمح المرء أظافر قدمين مطلية من تحت البوركا، فهذه إشارة أخرى صغيرة إلى الحرية. فالطالبان كانت قد حرّمت طلاء الأظافر وفرضت حظراً على استيراد الطلاء العائد لها. وهنالك عدد قليل من النسوة غير المحظوظات اللواتي قطع جزء من أصابع أيديهن أو أقدامهن عقاباً لهن على ارتكابهن لجريمة مخالفة النظام القانوني. أما حركة تحرير النساء خلال الربيع الأول الذي تلا سقوط طالبان، فقد اقتصر على مستوى الأحذية وطلاء الأظافر ولم يصل حتى الآن إلى مستوى هو أعلى من الحافة الملطخة بالطين من البوركا التي تلبسها المرأة.

* * *

ليس لأنهن لم يحاولن، فمنذ سقوط الطالبان تشكلت كثير من الاتحادات النسائية. حتى إن بعضها كانت ذات نشاط حتى خلال فترة الطالبان، تقوم بتأمين تعليم البنات مثلاً، وتسهر على تعليم النساء حول النظافة، وتقيم دروساً لمحو الأمية، والبطلة الكبيرة منذ أيام طالبان هي وزيرة الصحة في حكومة كارضاي، سهيلة صدّيق، وهي المرأة الأفغانية الوحيدة التي تحمل رتبة جنرال، فلقد تابعت تدريس الطب للنساء، وتمكنت من إعادة فتح قسم النساء في المستشفى الذي كانت تعمل فيه بعد أن كانت طالبان قد أغلقته. لقد كانت واحدة من النساء القليلات اللواتي رفضن ارتداء البوركا حتى تحت حكم طالبان. فبكلماتها الخاصة بها: "وعندما أتى البوليس الديني بخيزراناتهم ورفعوا أذرعتهم ليضربوني، فإنني رفعت خيزرانتي لأضربهم أيضاً، ثم خفّضوا أذرعتهم، وتركوني في حالي".

ولكـــن حتى سهيلة ذاتها نادراً ما كانت تغامر بالخروج أثناء حكم الطالـــبان. فقـــد كان شخص ما، يقود سيارتها إلى المستشفى كل صباح بيـــنما هـــي متلفعة ببطانية كبيرة ثم يقود سيارتها في المساء لإعادتها. "إن النسوة الأفغانيات فقدن الثقة بأنفسهن"، قالت بمرارة بعد سقوط الطالبان.

فقـــد حاول تنظيم نسائي أن ينظم تظاهرة بعد أسبوع واحد من هروب الطالبان. فتجمّعت النساء في مايكروريون، تجمّعن وهن ينتعلن الأخفاف والمشايات، ليقمن بالزحف نحو العاصمة. وكان معظمهن قد ألقـــى الـــبوركا باستخفاف خلف الأكتاف، لكن السلطات أوقفت التظاهـــرة بحجة أنها لا تستطيع أن تضمن سلامة النساء. وفي كل مرة كن يحاولن التجمع، فإنهن كن يمنعن من ذلك.

أما الآن، فإن مدارس البنات قد أعيد فتحها وتتقاطر الشابات إلى الجامعـــات، حـــتى إن بعضهن استعدن وظائفهن القديمة. وهنالك مجلة أســـبوعية صـــارت تنـــشرها النساء من أجل النساء، ولا يترك حامد كارضاي فرصة تلوح دون أن يذكّر بحقوق النساء.

وكثير من النساء كن بارزات أثناء الجمعية التشريعية لويا جيرغا في شهر حزيران/يونيو من العام 2002 أما أشهرهن فهن أولئك اللواتي كـــان يسخر منهن الرجال المعممون في الجمعية التشريعية، لكنهن لم يستـــسلمن. فقد كانت واحدة منهن قد طالبت بإعطاء وزارة الدفاع لامـــرأة رغـــم صيحات الاستهجان والاستنكار. "فرنسا لديها وزيرة دفاع" قالت لهم.

ولكـــن قلمـــا تغيَّر شيء في أذهان الجماهير، ففي العائلات، فإن التقالـــيد هي كل شيء؛ والرجال هم الذين يقررون. وعدد قليل فقط مـــن نساء كابول كن قد نبذن البوركا خلال فصل الربيع الأول الذي أعقب سقوط الطالبان. وقليل منهن أيضاً هن اللواتي يعرفن أن جداتهن

من النساء الأفغانيات في القرن الماضي كنَّ غريبات على البوركا، فلقد كانت البوركا تستعمل منذ قرون عديدة لكن من قِبل أعداد كبيرة من السكان. ولقد أعيد إدخالها للاستعمال خلال فترة حكم حبيب الله التي استمرت من عام 1901-1919، فقد سنَّ قانوناً يقول: إن على المثني امرأة في قصر الحريم لديه أن يلبسن البوركا حتى لا يقمن بإغراء الرجال بوجوههن الجميلة عندما يكن خارج أبواب القصر. وكانت حجاباتهن منسوجة من الحرير الذي يحمل تطريزاً ناعماً دقيقاً، أما أميرات حبيب الله فقد كن يلبسن عباءات البوركا المطرزة. بخيوط من الذهب. وهكذا صارت البوركا عباءة النساء من الطبقات العليا، فهي تحجب أولئك النسوة عن عيون عامة الناس. وخلال الخمسينيات، كان استعمال البوركا واسع الانتشار، لكن استعمالها كان يقتصر على الأغنياء فقط. وتحجيب النساء كان له أيضاً معارضوه. ففي العام 1959 هزّ الأمير داود رئيس الوزراء، الشعب عندما ظهر مع زوجته في العيد الوطني، وكانت هي لا تضع البوركا على جسدها. وقد قام بإقناع أخيه بأن يجعل زوجته تقوم بالشيء نفسه. كما قام بإقناع الوزراء بجعل نسائهم يطرحن البوركا. ولم يأتِ صباح اليوم التالي حتى كانت النسوة في شوارع كابول يتجولن بمعاطف طويلة ونظارات سوداء وقبعات صغيرة، وهنَّ النسوة أنفسهن اللواتي كن في السابق يخرجن بغطاء كامل. ومثلما ابتدأ استعمال البوركا مع الطبقات العليا، فلقد بدأ طرح البوركا جانباً على أيدي علية القوم أنفسهم. فقد كانت العباءة قد أصبحت رمزاً لرفعة المقام بين الفقراء، وكثيرات من الخادمات كن قد أخذن بوركات الحرير العائدة إلى سيداتهن. وفي بداية الأمر كان الباشتون الحاكمون هم وحدهم الذين يغطون نساءهم، ولكن الآن أخذ هذه العادة عنهم جماعات إثنية أخرى. لكن الأمير

داود أراد أن يخلص بلده من البوركا بشكل كامل. وفي العام 1961 تمّ تمرير تشريع حرّم استعمال البوركا على الموظفات العاملات في الدولة. فقد كان يجري تشجيعهن على ارتداء الملابس الغربية، وقد احتاج الأمر إلى عـــدة سنوات قبل أن يوضع موضع التنفيذ، ولكن في السبعينيات كـــان يندر أن يرى المرء معلمة أو سكرتيرة في كابول دون أن تكون تلبس تنورة وبلوزة؛ بينما كان الرجال يلبسون البذلات الإفرنجية. ومع ذلـــك، فإن النسوة القصيرات الثياب كن يجازفن بأن تطلق النار على ســـيقانهن أو أن يطـــرح أو يـــرشّ الأســـيد على وجوههن على يد الأصـــوليين. وعندما انفجرت الحرب الأهلية وساد القانون الإسلامي، فـــإن المزيد والمزيد من النساء بدأن بالتغطي والتحجب، وعندما وصل الطالبان، فإن جميع الوجوه النسائية كانت قد اختفت تماماً من شوارع كابول.

* * *

وغابـــت النعال العائدة إلى البوركا القائدة بين سواها من النعال فوق واحـــد مـــن جسور المشاة الضيقة المبنية فوق ساقية، ماء جافة. ووراءها بمـــسافة بعيدة قليلاً كانت صنادل أختيها قد علقت بين الجموع. فهن لا يـــستطعن ســـوى التحرك بحسب حركة الجمهور ولم يعد من الممكن أن تـــتابع الـــواحدة مـــنهن أحذيـــة رفيقتيها فضلاً عن إمكانية التوقف أو الاســـتدارة، فقد صارت بوركتاهما مطوقتين بسواهما من البوركات، كما بالـــرجال الـــذين يحملون البضائع فوق رؤوسهم، وتحت أذرعهم، وعلى ظهورهم، فلم يعد باستطاعتهن النظر إلى الأرض.

وعلـــى الجانـــب الآخر، كانت اثنتان من البوركات تفتشان عن بـــوركا واحـــدة. إحـــدى هذه البوركات تنتعل زوج أحذية سوداء وســـراويل لها شريط أبيض وأما حاشية الفستان فهي أرجوانية؛ إحدى

البوركات الأخرى كانت تنتعل صندالاً أسود، ولها حاشية ثوب سوداء، أما البوركا الأكثر مخافة فكانت تنتعل حذاء بلاستيكياً زهري اللون وترتدي سروالاً بنفسجياً ذا شريط. لقد اهتدت البوركات بعضها إلى بعض، ورفعن أبصارهن للتشاور. وتشق البوركا القائدة طريقها إلى داخل محل تجاري، محل تجاري حقيقي، له واجهات عرض ورفوف، وهو يقع عند أطراف البازار. فهي تريد شراء لحاف وقد أعجبها واحد زهري لامع مدرّزٌ يطلق عليه اسم باريس. ويأتي مع هذا اللحاف وسائد من ريش عليها قلوب وأزهار، وهي جميعها ملفوفة معاً في حقيبة بلاستيكية مكتوب عليها "إنتاج باكستان" تحت كلمة باريس وتحت صورة برج إيفل.

وكان هذا هو اللحاف الذي تشتهي البوركا أن تشتريه من أجل سريرها الزوجي المستقبلي. وهو سرير لم تكن قد رأته، ولا حاولت - لا سمح الله - أن تراه قبل ليلة الزفاف. وها هي تماحك وتساوم. فمساعد صاحب المحل يطلب بضعة ملايين من أوراق العملة الأفغانية ثمناً للحاف والوسائد الموجودة في الحقيبة البلاستيكية.

"إنه مبلغ باهظ!".

وتستمر في المساومة لكن البائع عنيد وعندما تهمُّ بالمغادرة فإنه يبدأ بالمهادنة. فلقد تمكنت البوركا المجادلة من الحصول على اللحاف بأقل من ثلث سعره الأول، ولكنها ما إن همّت بدفع النقود له حتى غيّرت رأيها. فهي لا ترغب بأن يكون لون صورة الطفل زهرياً بل أن تكون إشارته حمراء بدلاً من ذلك، فيقوم بائع اللحف بلفّه لها ويرمي لها إصبعاً من أحمر الشفاه لأنها مُقدِمة على الزواج.

تشكره بلطف وترفع الحجاب لتتأكد من أحمر الشفاه، فبعد كل شيء قد صارت شاكيلا أليفة مع بائع اللحف وأدوات التجميل. ولم

يكـن يوجد هنالك في المحل غيرهما سوى امرأة أخرى واحدة، وتتجرأ كـل من ليلى ومريم على رفع حجابيهما، ويتغيّر اللون الباهت لشفاه النسوة الثلاث. فينظرن في المرآة ويتلعن الألق الذي انعكس على زجاج النضد. وتسأل شاكيلا عن مِرهم مبيِّض للبشرة، فالشُّقرة الباهتة علامة هامة في الجمال الأفغاني. وعلى العروس أن تبدو باهتة الشقرة.

وينـصحها البائع بمرهم يدعى "بيرفكت" وقد كتبت عليه العبارة الإنكليـزية التالية: "Aloe white Block Cream"، أما باقي البيانات فهـي مكتوبة باللغة الصينية. تجرب شاكيلا شيئاً منه وينتهي بها الأمر لتـبدو وكأن بشرتها قد جرى تبييضها بمرهم الزنك الكثيف. فبشرتها بـدت أكثر ميلاً إلى الشُّقرة الباهتة للحظة؛ فلون بشرتها الحقيقي يمكن أن يُرى من خلال طبقة المرهم؛ وتكون النتيجة بشرة بيضاء ضاربة إلى السُمرة.

ويجـري حشو المرهم العجيب في الحقيبة التي باتت مليئة أصلاً. وتتـضاحك الأخـوات الثلاث ويعدن بالرجوع إلى المحل كلما نوت إحداهن الزواج.

تـسرُّ شاكيلا وترغب الآن في العودة إلى البيت لتطلع الآخرين على مشترياتها. يجدن حافلة، ويتخذن طريقهن إلى الجزء الخلفي منها، ويجلسن على المقاعد الموجودة خلف الستائر. فالمقاعد الخلفية محجوزة من أجل البوركات، والأطفال، وأكياس التحوُّج. وتُسحب البوركات في جمـيع الاتجاهـات، بحيث تطأها بعض الأرجل. فهي تحتاج إلى أن تـرفع قليلاً عندما تقوم الأخوات بالجلوس بحيث يمكنهن التطلع حولهن دون أن يكون قماش أعلى البوركا مقلوباً إلى أسفل. ويحشرن أنفسهن على الجانب الخارجي من المقعد بينما تبقى أكياسهن في أحضانهن وبين أرجلهن. وليس هنالك كثير من المقاعد المحجوزة للنساء، وعندما تدخل

راكبات جديدات إلى الحافلة فإن البوركات تتحاشر ببوركات سواها كما مع الأجسام والأذرع والأكياس والأحذية.

وتسقط الأخوات المتعبات مع أكياسهن من الحافلة عندما تتوقف الأخـــيرة أمـــام البيت المقصوف بالقذائف. ويتدافعن إلى داخل برودة البيت، فترفع كل واحدة منهن غطاء البوركا عن وجهها، وتعلقها على أحـــد المسامير المثبتة في الجدران، وتتنفس الصعداء، إذ إن كل واحدة منهن قد عاد لها الآن وجهها.

زواج من الدرجة الثالثة

وفي المساء الذي يسبق اليوم الكبير. كان البيت يعجُّ بالنساء. فجميع مساحات أرضية البيت المتوفرة مشغولة بجسد امرأة ما، تأكل، أو ترقص، أو تثرثر. فهذه هي ليلة الحنّاء. ففي هذه الليلة يجري طلاء العروس والعريس بالحنّاء على صفحات أكفّهما كما على باطن أقدامهما، فاللون البرتقالي على أكفهما يُعتقد بأنه يضمن لهم الزواج السعيد.

ولكن العريس والعروس ليسا معاً، فالرجال يحتفلون لوحدهم مثلما تحتفل النساء لوحدهن. وحيث إنهن متروكات لوحدهن، فإن النساء يستعرضن قوة عنيفة تكاد تكون مخيفة. وترقص البنات الصغيرات، ويتلوّين عبر الأرضية بنظرات متحدية وحواجب مرتفعة. وحتى الجدّات الكبيرات في السن يختبرن المياه ولكنهن يستسلمن في منتصف الطريق قبل أن تنتهي موجة الرقص.

فالسحر القديم لا يزال موجوداً في دواخلهن، لكنهن لا يملكن قدرة الاحتمال لإكمال الرقصة. وشاكيلا تجلس على قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة، وهي عبارة عن كنبة كانت قد جُلبت خصيصاً لأجل هذه المناسبة. وهي تراقب الرقص من بعيد، وهي ممنوع عليها الابتسام والرقص. فإظهار السعادة يؤذي شعور والديها التي ستفارقها،

والحـــزن يقلق امرأة العم المستقبلية. لذلك فإن وجه العروس ينبغي ألاّ يكـــون باديـــاً عليه أي اهتمام؛ وهي لا يفترض بها أن تكثر الاستدارة برأسها أو التلفت إلى جانبيها بل عليها أن تحافظ على نظرة إلى الأمام مـــستديمة وثابتة. وتمرُّ شاكيلا بألوانها المتمايلة، كما لو أنها قضت كل حـــياتها تتدرب من أجل هذه الليلة. فتجلس بظهر مستقيم كأنها ملكة مـــن الملكات، وتتحدث بهمس مع كلْ من يجلس بقربها على الكنبة؛ وهو شرف تتناوب عليه النسوة بالدور، ولا تتحرك منها سوى شفتيها عـــندما تجـــيب عن الأسئلة، أسئلة الضيفة التي تشاركها الجلوس على الكنـــبة. أما فستانها فهو أحمر، وأخضر، وأسود، وذهبـــي، فهو يبدو أشـــبه بعلم أفغاني مرشوش بغبار الذهب. وهو فستان ينثال من حولها. وخـــط الخصر مضموم بشكل دقيق تحت الفستان كما أنها كانت قد وضعت طبقة غنية من مرهم الـــ: "بيرفكت" على وجهها، أما العينان فكـــان قد جرى تحديدهما بخط الكحل، وهي تضع الآن أحمر الشفاه القرمزي الجديد. وكانت طلتها أيضاً طلة تامة رائعة. فالعروس يجب أن تبدو اصطناعية وكأنها أشبه بدمية، فالكلمة التي تستعمل لكل من اللعبة والعروس هي نفسها في اللغة الأفغانية، إنها كلمة "عروس".

وأثـــناء المساء يدخل بوابة البيت موكب من الدفوف، والطبول، والمـــصابيح. إنـــه موكب نساء العريس القادم من عند وكيل؛ أخواته وقـــريباته، وبـــناته. وتنطلق أصواتهن بالغناء في عتمة الليل بينما يقمن بالتصفيق والرقص:

"جئنا نأخذ هذه الفتاة من بيتها إلى بيتنا
يا عروس لا تخفضي رأسك ولا تبكي
فهذه إرادة الله، وعليك أن تشكريه
يا محمد، يا رسول الله صرّف همومها
واجعل كل صعب ميسّراً".

وترقص نسوة وكيل محركات أبدانهن ووجوههن داخل الشالات والحجابات. أما الغرفة فرطبة وعابقة بروائح الأجساد الجميلة. كل الشبابيك مفتوحة على مصاريعها وجميع البرادي تخفق في النسيم، ولكن ريح الربيع المنعشة لا تستطيع أن تبرّد أولئك النسوة.

ولم تقدم أطباق الـ: "بيلاف" المملوءة، إلاّ بعد أن هدأ الرقص قليلاً، فتجلس كل واحدة من النسوة على الأرض في المكان نفسه الذي كانت تقف فيه للرقص. فالكبيرات في السن فقط هن اللواتي يجلسن على الوسائد المصفوفة إلى جانب الجدار. وتحمل ليلى، الأخت الصغرى لشاكيلا، وبنات عمها الصغيرات، الطعام إلى الداخل، طعام مطبوخ في قدور ضخمة في الردهة الخارجية خارج البيت. طناجر تحتوي على أرز، وقطع كبيرة من لحم الضأن، وباذنجان يسبح في صلصة اللبن، ومعجنات محشوة بالسبانخ والفلفل، وبطاطس بصلصة الفلفل الحلو، وكلها تصفُّ في أرض الغرفة. وتتجمع النسوة حول القصاع، فتعصر الواحدة منهن قبضة الأرز بيدها اليمنى لتجعلها على شكل كرة صغيرة قبل أن تحشوها في فمها. أما اللحم والمرق، فيلتقطان بقطع تمزّق من زغفان كبيرة، ويجب استعمال اليد اليمنى على الدوام. أما اليد اليسرى، اليد القذرة، فيجب أن تبقى ساكِنة، وصوت إقبال النساء على الطعام هو الصوت الوحيد الذي يمكن أن يُسمَعَ. وينتهي تناول الوجبة بهدوء. ولا ينكسر الصمت سوى عندما تحث الواحدة منهن الأخرى على تناول المزيد من الطعام. فمن الأخلاق الكريمة أن يدفع الآكل بأطيب اللقيمات إلى جاره الذي يتناول الطعام بقربه.

وعندما تمتلئ بطون الجميع يمكن لحفلة الحنّاء أن تبدأ. فالليلة تنقضي بمعظمها؛ دون أن يرقص أحد. حتى إن البعض قد ينام والبعض الآخر يستلقي أو يجلس في الجوار حول شاكيلا ويراقب كيف تقوم

شقيقة وكيل بوضع عجينة الطحلب الخضراء فوق كفيّ شاكيلا وفوق باطن قدميها، وكيف ينطلق لسانها بأغنية الحنّاء وعندما تصبح قبضتا يدي شاكيلا ممسوحتين، فإنه يتوجب عليها أن تغلقهما وتقوم أخت عريسها بلفّ ضمامات حول كل قبضة لتتأكد من أن الطلاء قد تكوّن ثم تمررهما على قماشة ناعمة من أجل تجنيب اتساخ الثياب وشراشف السرير. ثم تنضو عنها ثيابها بحيث لا تبقي عليها سوى ثيابها الداخلية التي هي عبارة عن سروال قطني طويل أبيض وسترة، ثم تقوم بإضجاعها على بساط في وسط الغرفة مسندة رأسها إلى وسادة. ثم تطعمها قطعاً كبيرة من اللحم، والكبدة المقلية، وشرحات من البصل النيء الذي تقوم أخوات العروس بإعداده لها بشكل خاص.

وتتابع بيبي غول الإشراف على كل شيء بدقة. فهي تراقب كل قطعة طعام تضعها الأخوات داخل فم شاكيلا. ثم تبدأ بالبكاء. ثم تبدأ كل واحدة باسترضائها، لكن كل واحدة منهن تؤكد للأخرى بأن شاكيلا ستلقى معاملة حسنة.

وبعد أن ينتهي إطعام شاكيلا، تضطجع بالقرب من أمها بيبي غول جامعة جسدها بشكل يشبه وضع الجنين. فهي لم يسبق لها مرة في حياتها أن نامت في غرفة دون وجود أمها. وهذه هي آخر ليلة لها في جانب عائلتها. أما الليلة التالية، فستصبح من حق زوجها.

* * *

بعد ذلك بساعات قليلة يجري إيقاظ العروس، وتقوم أخواتها بفك أربطة القماش المعصوبة حول قبضتي يديها ثم يقمن بقشد الحنّاء والنمط البرتقالي الذي تكوّن على باطن كفّيها، كما على باطن قدميها. هنا تغسل شاكيلا وجه الدمية الذي حافظت عليه الليلة الماضية، وتتناول إفطاراً جيداً وهو كالمعتاد: لحم محمّر، وخبز، وحلوى وشاي. وعند الساعة التاسعة

تـصبح جاهزة لتسريح الشعر، وللتبرج. وتذهب شاكيلا وأختها الصغرى ليلـى، وزوجـة سـلطان الثانية صونيا، وإحدى بنات العم، إلى شقة في مايكـروريون. وهي عبارة عن صالون للتجميل؛ صالون كان موجوداً في مكانـه حـتى في أيام طالبان. وهو أيضاً، وبالرغم من كون الأمر مخالفاً للقانـون، يراعي كون العرائس يشتهين الصخب، فهن يرغبن في الظهور علـى آخر طراز. وهنا يكون قانون طالباني قد جاء بمثابة مساعدة فعلية. فهن قد وصلن تحت البوركا وخرجن تحت البوركا أيضاً لكن بوجه تحتها جديـد ومختلف. وأخصائية التجميل لديها مرآة، كما لديها كرسي دون ظهـر، كمـا أن لديها رفٌ عامر بالقوارير وأنابيب المراهم التي يظهر من شـكلها وطـرازها أنهـا تنتمي إلى عدة عقود سلفت. أما على جدران الـصالون، فكانـت قد ألصقت صور كبيرة للنجمات السينمائيات لـ: بولـيوود. فتلك الجميلات في فساتينهن المقوَّرة الرقبة، يبتسمن بتملق في اتجاه شاكيلا التي تجلس بصمت وتحرر فوق كرسي التجميل.

وقليلات هن اللواتي يمكن لهنَّ أن يصفن شاكيلا بالجمال. فبشرتها غـير ناعمة، وجفنا عينيها وارمان، ووجهها عريض، وفكاها بارزان. لكنَّ لديها أسناناً جميلة، وشعراً لامعاً، ونظرة لعوباً، وهي الابنة الأكثر استثارة للاهتمام بين بنات بيبـي غول.

"إنـني لا أعرف سبب تعلقي بك إلى هذه الدرجة". كان وكيل قـد قـال لهـا أثناء غدائهما في منـزل مريم. "إنك لست حتى من الجمـيلات". لكنه قال ذلك متحبباً وقد تقبلت شاكيلا هذه الملاحظة منه على أساس أنها ضرب من المجاملة.

وهـا هـي الآن شديدة التوتر والإصرار على أن يكون مظهرها جميلاً إلى حدٍّ كافٍ، لذلك فإن النظرة العابثة اختفت. فالزواج مسألة جدية إلى درجة مخيفة.

وقبل كل شيء، يجري لف كتل الشعر السوداء حول قطع خشب مستديرة. ثم يجري التعامل مع الحاجبين الكثيفين اللذين هما من السماء بحيث إنهما يلتقيان في نقطة الوسط، لذلك فإن الشعيرات غير المرغوب بها تنتف. فهذه أهم إشارة إلى أن الفتاة تنوي الزواج، فالنساء غير المتزوجات لا يسمح لهن بإزالة الشعر عن حواجبهن. وتصبح شاكيلا من الألم، لكن أخصائية التجميل تستمر في نزع الشعر. ويتحول الحاجبان إلى قوسين جميلين، وتتأمل شاكيلا نفسها في المرآة، فهي ترى أن وجهها قد ارتفع بشكل أو بآخر.

"لو كنتِ قد جئتني بوقت غير متأخر لقمت بتشقير شعيرات شفتك العليا"، تقول لها المرأة، فهي تريها شيئاً ما، غامضاً. فعلى أحد الأنابيب المطوية كُتبت الكلمات التالية: 'مرهمٌ مُشَقِرٌ للشعر غير المرغوب به'. "لكن الوقت لا يتسع لنا الآن".

ثم تقوم بدلك مرهم "بيرفكت" فوق وجه شاكيلا وتضع ظلالاً لعينيها لامعة، يتراوح لونها بين الأحمر والذهبي. ثم تحدد حدود العينين بقلم كحل غامق، وتختار لها قلم أحمر شفاه ذا لون أحمر داكن ضارب إلى البني.

"مهما حاولتُ، فإنني لن أصبح جميلة مثلك"، تقول شاكيلا لأصغر زوجات إخوتها، صونيا التي هي زوجة سلطان الثانية. وتبتسم صونيا لنفسها وتبرطم ببعض الكلمات المبهمة، فهي تضع غطاء أزرق باهتاً فوق رأسها.

وحالما ينتهي العمل على تجميل شاكيلا، فإن دور صونيا سيأتي ليتم تجميلها أيضاً وتتم مساعدة شاكيلا لارتداء فستانها. وكانت ليلى قد أعارتها مشداً للخصر، وهو عبارة عن رباط مسطح مطاط يمكنه أن يجعل لشاكيلا خصراً. أما الفستان، فمصنوع من قماش أخضر مخرّم

لامـــع بلـــون النعـــناع، وله شريط من الحرير الصناعي وكشاكش، وحواف مذهبة.

وعندما انتهى إلباس الفستان للعروس، وأدخلت قدماها عنوة في داخـــل حذائها ذي الكعب العالي، والبُكَلِ المذهبة، والقلوب البيضاء: قامـــت مصففة الشعر بحلّ اللفائف. وبذلك صار الشعر متموجاً وثابتاً بعـــد أن وضعت فوق فروة الرأس مشطاً مثبتاً، بينما أبقت خصلات الشعر التي هي على دوائر الرأس، بمساعدة كميات سخية من الرُشَاشِ المثـبِّت للـــشعر، فجعـــل لها شكلاً متماوجاً، وجرى تثبيتها إلى أحد جانبـــي الوجه. والآن جاء دور الطرحة الخضراء بلون النعناع. كما يـــأتي دور وضع الكريما على الكعكة. وفي النهاية، تمّ نثر بعض النثار اللاصق فوق الشعر، نثار لجزئياته لون أزرق سماوي ذهبـــي الحواف. ولقـــد عـــولجت وجنتا شاكيلا بالطريقة نفسها حيث ألصقت ثلاث نجمات فضية صغيرة على كل وجنة. لقد بدأت الآن تبدو وكأنها نجمة من نجمات بوليوود المعلقة صورهنّ على الجدران.

"آه لا، القماشـــة، قطعة القماش"، صرخت أختها ليلى فجأة. "آه لا".

"آه لا" تقـــول صونيا بدهشة وهي تنظر إلى شاكيلا التي لم يرفّ لها جفن.

تنهض ليلى وتندفع إلى الخارج. لحسن الحظ أن البيت ليس بعيداً جداً. ولكن ماذا لو لم تخطر قطعة القماش ببالها، قطعة القماش التي هي أهم من كل شيء؟

وتـــتخلف النساء الأخريات في صالون التجميل، غير متأثرات بما أصاب ليلى من هلع. وتقوم كل واحدة منهن بوضع النثار اللاصق على شـــعرهن وعلـــى خدودهن، ثم يرتدين بوركاتهن. وتحاول شاكيلا أن

تلبس البوركا الخاصة بها ولكن دون أن تخرّب تصفيفة شعرها المعمولة خصيصاً لمناسبة الزواج. لذلك فهي تمتنع عن جذب البوركا بشدة فوق رأسها، بل تجعلها تستلقي بخفة فوق جعود الشعر. وهذا معناه أن الفتحة المخصصة للنظر، والمعمولة من القماش المشبَّك المخرم، لم تعد موجودة في الموضع المناسب الذي يسمح بالرؤيا، أي أمام عيني شاكيلا، بل إن هذه الفتحة صارت تضرب إلى الأعلى. لذلك فإنه لم يعد لشاكيلا بدٌّ من الاستعانة بابنة عم لها لتمسك بيدها وتقودها في الطريق، كما يقاد العميان، وهكذا قادتها إلى أسفل الدرج. فمن الأفضل لشاكيلا أن تتعثر وتقع من أن يراها أحد وهي تخرج دون البوركا.

ولم تتم إزالة البوركا إلاّ بعد أن صارت جعود الشعر فاسدة قليلاً؛ وهي الآن في باحة دار مريم حيث ستجري حفلة الزواج. وتأتي الضيفات لتترامى عليها فور دخولها. أما وكيل فكان لم يصل بعد. والباحة الخارجية مليئة بالناس الذين يتماوجون ويقومون بحشو أفواههم بالـ: بيلاف، والكباب، وكرات اللحم. وكانت قد تمت دعوة المئات من الأقارب. وكان ثمة طاه يقوم، بمساعدة ابنه، بعمليات التقطيع والطهو منذ الفجر الباكر حيث تمّ طبخ 330 رطلاً من الأرز، 120 رطلاً من لحم الضأن، 30 رطلاً من لحم العجل، 93 رطلاً من البطاطا، 66 رطلاً من البصل، 110 أرطال من السبانخ، 77 رطلاً من الجزر، رطلين من الثوم، 18 رطلاً من الزبيب، 4 أرطال من المكسّرات، 70 رطلاً من الزيت، 30 رطلاً من السكر، 4 أرطال من الطحين، و20 بيضة، وأنواع مختلفة من الأفاويه والمنكهات، و4 أرطال من الشاي الأخضر، و4 أرطال من الشاي الأسود، وثلاثين رطلاً من الحلويات، و6 أرطال من الكراميل.

وبعد انتهاء الوليمة يختفي أحد الرجال بالانتقال إلى بيت قريب، وفي هـــذا البـــيت المجاور، يكون وكيل قاعداً. وهنا تكون المفاوضات الأخـــيرة علـــى وشـــك أن تدور. "نقاشات تفصيلية عن النقود وعن الـــضمانات للمستقبل سوف تتبع ذلك. فوكيل مثلاً مجبرٌ على التعهد بدفع مبلغ معين من المال إذا خطر له أن يطلق شاكيلا دون سبب، كما أن علـــيه أن يقطـــع عهداً بتأمين الملابس والطعام والمسكن لها، فالأخ الأكبر سلطان يقوم بهذه المفاوضات نيابة عن شاكيلا، ويقوم رجال من العائلتين بالتوقيع على الاتفاقية".

وعـــندما يـــصلون إلى اتفـــاق، يغادرون المنـــزل المجاور، وتجلس شاكيلا في منـــزل أختها مريم تراقب كل ذلك من وراء الستائر وعندما ينتهي التفاوض بين الرجال، تغير هي فستانها لتلبس الفستان الأبيض، ثم تُلقـــي طـــرحة الحرير الروسية فوق وجهها. وها هي الآن تنتظر اقتياد وكـــيل إلـــيها بحـــيث يمكنهما التحدث معاً. ويدخل وكيل بشيء من الخجـــل؛ يلقـــي كل منهما التحية على الآخر فيما أعينهما مطرقة إلى الأرض كمـــا تطلب التقاليد منهما. ثم يخرجان معاً كتفاً إلى كتف دون أن ينظـــر أحدهما إلى الآخر. وعندما يقفان فإنه يجب على كل منهما أن يـــدعس على رجل الآخر. والرابح في هذه اللعبة يكرّس رئيساً للزواج. ويـــربح وكيل. أو أن شاكيلا تسمح له بأن يربح، كما ينبغي أن يكون علـــيه الأمر. إذ إنها وجدت أنه من غير المناسب لها أن تمتلك سلطة هي ليست من حقها. وكان هنالك كرسيّان قد أعدّا لهذه المناسبة في الباحة. وعلـــيهما أن يجلـــسا علـــى الكرسيين معاً وفي وقت واحد. فإذا جلس العـــريس أولاً فإن عروسه ستسود على جميع القرارات. فلا يريد أحدهما أن يجلس، وفي النهاية يتقدم سلطان من ورائهما ويدفعهما بيديه للجلوس معاً في الوقت ذاته تماماً. ويرتفع الهتاف من الجميع.

وتقوم فيروزة الأخت الكبرى لشاكيلا برمي دثار فوق الزوجين المتـــزوجين حديثاً وترفع مرآةً أمامهما ويجب عليهما أن ينظرا في وجه المـــرآة معـــاً. فوفقاً للتقاليد فإن هذه اللحظة، هي اللحظة الأولى التي تلتقـــي فـــيها نظراتهما. ويحدق وكيل وشاكيلا بحدة إلى المرآة مثلما يـــتوجب عليهما، وكما لو أنهما لم يتطلع أحدهما إلى الآخر من قبل. وتـــرفع فيروزة مصحفاً فوق رأسيهما ويقرأ أحد الملالي قراءة مباركة وبرأسين منحنيين يتقبلان كلمة الله.

ثم يؤتـــى بطبقٍ يحتوي على الحلوى المصنوعة من فتات الكعك، والـــسكر والزيت، وهي منكّهة بنكهة الهال. ويوضع هذا الطبق أمام العروســـين. ويطعم كل منهما الآخر ملعقة تحت هتاف الناس. كذلك يعطـــي كل منهما الآخر شربة يشربها إشارة إلى أن كل واحد منهما يـــتمنى حـــياة سعيدة للآخر. ولكن، ليس كل واحد من الناس مفتتناً بارتشاف الليموناضة.

"في قـــديم الـــزمان كنا نغمس بمشروبات أخرى". قالت إحدى العمّـــات هامسة، فهي تتذكر الأيام القديمة الأكثر حرية، عندما كانت جميع أصناف المشروبات تقدّم ضيافة في الأعراس. "لكن تلك الأيام لن تعـــود"، تقـــول بحـــسرة، إن أيام جوارب النايلون، والملابس الغربية، والأذرع العاريـــة، أو علـــى الأقل العصر الذي لم يكن قد ظهرت فيه البوركا بعد، فإن هذه الأيام لهي مجرد ذكريات قديمة.

"إنـــه زواج مـــن الدرجة الثالثة"، يهمس منصور، الابن الأكبر لـــسلطان. "طعام رديء، ملابس رخيصة، كرات لحم وأرزّ، إهابات طـــويلة، وحجابات. عندما أريد أن أتزوج سأستأجر قاعة للرقص في الإنتركونتيننتال. وعلى كل واحد أن يرتدي ملابس حديثة. ولن نقدم للـــضيوف إلاّ أفضل ما يمكن من الضيافة. من طعام مستورد"، يقول

مــوكداً. "مــع كل ذلك، فإنني سوف أتزوج خارج البلاد"، يضيف قائلاً.

فولــيمة عرس شاكيلا ووكيل تأخذ محلها في بيت مريم المصنوع من الطين، في باحة البيت حيث لا ينبت شيء. والجدران ممتلئة بثقوب الرصــاص، وعليها ما يدلُّ على احتراق شظايا القذائف لها. ويتوقف الــزوجان لأخذ الصور الفوتوغرافية وهما ينظران باحتشام إلى الأمام. ويــضفي غياب الابتسامات وثقوب الرصاص في خلفية الصورة جواً كئيباً على تلك الصور.

وصــل العروســان إلى قــرب كعكة الزفاف، فها هما يمسكان معاً بالسكين، ويركزان على قَطعِ الكعكة، ويطعم كل منهما الآخر من خلال فــم نــصف مفتوح كما لو أن كلاً منهما يبخل على صاحبه بفتح فمه بشكلٍ كامل، الأمر الذي يتسبب بسقوط فتات الكعكة على ثيابهما.

وبعــد قَطــعِ الكعكة، يأتي دور الموسيقى والرقص. وبالنسبة إلى كــثير من الضيوف، يعتبر هذا الزفاف هو الأول الذي يحتفلون به منذ مغــادرة الطالبان، وبكلمات أخرى، فإنه الزفاف الأول الذي تتخلله موســيقى ورقص. فرجال الطالبان كانوا قد حرموا الناس من نصف فــرحهم بالــزواج عندما قاموا بتحريم الموسيقى وهنا يقوم كل واحد بطــرح نفسه إلى داخل حلبة الرقص باستثناء المتزوجين الجدد، الذين يكتفون بالجلوس والمراقبة. لقد أشرف النهار على نهايته. وبسبب منع الــتجول، فإن حفلات الزواج كانت قد قُلبت مواعيدها من الأماسي إلى فتــرات النهار؛ فعلى الجميع أن يكونوا قد عادوا إلى منازلهم عند الساعة العاشرة ليلاً.

وعند الغسق، يختفي العروسان من الحفلة تحت وابل من صرخات الاســتهجان والعواء. فيستقلان سيارة مزينة بالأشرطة الملونة والأزهار

إلى منــزل وكيل. وكل من يجد لنفسه مكاناً في سيارة، فإنه ينضم إلى موكب العرس. ويحتشد ثمانية أشخاص في سيارة وكيل وشاكيلا، كما يحتــشد أشــخاص أكثر من ذلك في بقية السيارات. ويتّخذ الموكب لنفسه جولة في شوارع كابول. وفي هذا الوقت من العيد تكون الطرقات فارغة وتستطيع السيارات أن تعبر مستديرات المرور بسرعة ستين ميلاً في الــساعة، والجمــيع يتسابق لتصدر الموكب. وتصطدم سيارتان، الأمر الذي يلقي سحابة صغيرة من الغم على الاحتفال. لكن أحداً لا يصاب بــأذى كــبير. فمصابيح السيارتين تتكسر، وهيكل كل منهما ينبعج، ويكمــل الموكب طريقه إلى أن يصل إلى منــزل وكيل. فالرحلة هي استسلام رمزي. شاكيلا تغادر عائلتها لكي تتبناها عائلة زوجها.

ويُسمح لأقرب الأقرباء بدخول منــزل وكيل، حيث تكون أخواته منتظــرات مــع الشاي. وأولئك هن النسوة اللواتي ستشارك شاكيلا معهــن باحة الحوش. فهنا سوف يكون لها لقاءات معهن حول مضخّة المياه، وهنا سوف تلتقي النساء على غسل الثياب وعلى إطعام الدجاج، وينظــر الأطفال من ذوي الأنوف المليئة بالمخاط بفضول إلى المرأة التي ستــصبح أمــاً جديــدة لهم. ويقومون بالاختباء وراء تنانير عمّاتهم. وينظرون بوقار إلى الأعلى نحو العروس المتألقة. وهنا تكون الموسيقى قد توقفت وصيحات المرح تلاشت. وتخطو شاكيلا إلى داخل بيتها الجديد بــوقار واحتــرام. وهو بيت واسع إلى حدٍّ معقول، وله أسقف عالية. وهــي مــثل جمــيع أسقف البيوت الأخرى في القرية، مصنوعة من الصلــصال، ولهــا دعامات وعارضات خشبية ضخمة، أما الشبابيك فمغطــاة بالبلاســتيك. فحتى وكيل لم يجرؤ على التصديق أن تساقط القذائــف قــد توقف إلى غير رجعة، ولهذا فإنه قرر التريث في تغيير الأغطية البلاستيكية لشبابيك بيته واستبدالها بألواح من الزجاج.

ويقوم الجميع بخلع أحذيتهم، ويمشون بهدوء إلى داخل البيت. وتكون قدما شاكيلا وارمتين حمراوين بعد يوم طويل وهي تنتعل الحذاء الضيق ذا الكعب العالي. أما من تبقى من الضيوف، وهم أقرب المقربين من العائلة، فيدخلون إلى غرفة النوم. وهناك يحتل سرير مزدوج معظم مساحة الغرفة. وتتأمل شاكيلا غطاء السرير الناعم الأحمر اللامع، والوسائد التي قامت هي بشرائها، كما تتأمل الستائر الحمراء التي خاطتها بنفسها. وكانت أختها مريم قد قامت بترتيب غرفة النوم في اليوم الذي سلف، كما قامت أيضاً بتعليق الستائر، وإصلاح شأن السرير، وترتيب ديكورات الزواج. أما شاكيلا نفسها فلم تكن مرةً قد دخلت هذا البيت من قبل؛ أما من الآن فصاعداً، وحتى آخر يوم من حياتها، فإنه سيكون مسكنها ومقر نشاطها ونفوذها.

وخلال احتفال الزواج بكامله لم يكن أحد قد رأى هذين الزوجين الجديدين يتبادلان ابتسامة واحدة. أما الآن وفي داخل بيتها الجديد فلم تستطع شاكيلا سوى أن تبتسم "يا له من عمل رائع قد قمتِ بعمله" تقول مخاطبة أختها مريم. فللمرة الأولى في حياتها سيكون لها غرفة نومها الخاصة. وللمرة الأولى في حياتها سوف تنام على سرير مرتفع وليس على الأرض. هنا تجلس إلى جانب وكيل على مفرش السرير الناعم.

ويبقى هنالك الشعيرة الاحتفالية الأخيرة تأتي إحدى أخوات وكيل بمسمار طويل ومطرقة وتسلمهما إلى شاكيلا. وشاكيلا تعرف ماذا عليها أن تفعل في هذه اللحظة. لذلك فهي تمشي بهدوء إلى باب غرفة النوم وفوق الباب تقوم بدق المسمار. وعندما يستقر المسمار في مكانه ينطلق الجميع بالهتاف. أما بيبي غول فتشرق بدموعها. فالأمر الشائك هنا هو أن ابنتها قد دقّت مصيرها وقدرها في هذا البيت.

وفي اليوم التالي، وقبل الإفطار، تأتي عمة وكيل إلى بيبي غول التي هي أم شاكيلا. ويكون في يدها كيس يحتوي على قطعة القماش التي كادت ليلى أن تنساها، وهي القطعة التي هي أهم من أي شيء آخر. وتُخرِجُ المرأة المسنَّة قطعة القماش بوقار من داخل الكيس، وتسلمها إلى أم شاكيلا. وتكون قطعة القماش مغطاة بالدماء. تقوم بيبي غول بشكرها وتبتسم بينما هي تبكي والدموع تجري على خديها. وسرعان ما تقوم بتلاوة صلاة العرفان والشكر. وتأتي جميع نساء البيت لإلقاء نظرة فتقوم بيبي غول بعرض قطعة القماش على كل من يرغب بإلقاء نظرة عليها، حتى بنات مريم القاصرات يسمح لهن بإلقاء نظرة على قطعة القماش المليئة بالدم.

فلولا ظهور الدماء على هذه القطعة، فإن شاكيلا هي التي كانت ستعود إلى البيت، بدلاً من قطعة القماش.

الأم الرئيسة

الزفاف أشبه ما يكون بمأتم صغير. فعائلة العروس تعيش أيام أسى وعزاء في الأيام التي تلي حفلة الزواج كما لو أن الأمر أشبه بمأتم. فثمة ابـنة قـد فُقدت من عائلتها، وأُعطيت إلى عائلة أخرى. أما الأمهات فـيكنَّ في العادة هنَّ الأوَل بالأسى. فقد كان للواحدة منهن الإشراف الكامـل على بناهّا: إلى أين يذهبن، ومن يقابلن، وماذا يلبسن، وماذا يـأكلن. والبنات يقضين مع أمهاهّن معظم أوقات الليل والنهار، معاً يكنـسن البـيوت، ومعاً يطبخن الطعام. أما بعد الزواج فالابنة تختفي فجأة وبشكل كامل. تذهب إلى عائلة أخرى وتصبح للآخرين. فهي لا تـستطيع زيارة أهلها ساعة تشاء، بل عندما يسمح لها بذلك زوجها فقط. ولا يستطيع أهلها القيام بزيارهّا في كل حين ودون دعوة مسبقة.

وهكـذا، وفي العمـارة رقم 37 في مايكرورايون صار ثمة والدة تـتفجع علـى خسارة ابنتها، التي باتت الآن تعيش على مسافة نصف ساعة من الارتحال إليها. لكن لا فرق أبداً أن تكون شاكيلا الآن تعيش في قرية تدعى ديه خودايداد، الواقعة خارج حدود كابول مباشرة، أو أن تكـون تسكن في بلاد أجنبية تبعد عن كابول آلاف الأميال وراء الـبحار. فهي ما دامت لم تعد تجلس على البساط ذاته بقرب والدتها،

وتشرب الشاي معها، وتأكل اللوز الملبَّس بالسكر، فإن الخسارة بفقدها تكون سيّان بسيّان.

وتكسر بيبي غول لوزة جديدة، لوزة من اللوزات التي قامت بإخفائها تحت السجادة بحيث لا تنتبه إليها أصغر بناتها ليلى. فليلى هذه تتصرف معها وكأنها أشبه ما تكون بممرضة نشيطة في منتجع صحي، لقد منعتها من تناول السكر والدهنيات، وهي لذلك تنتزع الطعام من بين يدي بيبي غول كلما امتدّت يد الأخيرة إلى طعام ممنوع عليها. أما عندما تسنح الفرصة لها، فإنها تطهو لأمها طعاماً خاصاً خالياً من الدسم. لكن بيبي غول لا تتورع بعد ذلك عن إضافة الدسم إلى صحنها من صحون أفراد العائلة عندما تكون ليلى غافلة عنها. وهي تحب مذاق زيوت الطبخ، وطعم دهن الضأن الساخن، و"الباكورة" شديدة القلي، كما تحب امتصاص لبّ العظام في نهاية الوجبات. فالطعام هو حبها ولذتها. فإذا استبدت بها نزوتها إلى الطعام بعد رفع الأطباق، فهي لن تتورع عن النهوض للقيام بلعق فضلات الطناجر. وهكذا، ورغم جهود ليلى، فإن وزن بيبي غول كان لا ينفك عن الازدياد، أما حجمها الهائل فيتعاظم سنة تلو الأخرى. ففي كل حال، فإن لدى بيبي غول كثير من المخابئ السرية في أرجاء البيت، فمن الخزائن القديمة، إلى أماكن تحت السجاجيد، إلى ما وراء الصناديق والعلب الكرتونية، أو حتى في صندوقها، ففي المكان الأخير كانت تحتفظ بحبوب التوفي السكرية المطبوخة بالزبدة على مختلف أشكالها التي يؤتى بها من باكستان، ولا همَّ إذا كانت أحياناً حلويات كظيظة أو حتى فاسدة. لكنها في كل حال حبات من التوفي المطبوخة بالزبد، وثمة صور للأبقار على غلافاتها، ولا يستطيع أحد أن يسمعها وهي تمتص حلاوتها داخل حلقها بصمت.

أمــا حـبات اللوز فلا بدّ من القيام بكسرها في هدوء. وتشعر بيبـــي غول بالأسف. فهي تأسف لحالها. إنها وحيدة في الغرفة. تجلس على بساطها وتهزّ ساقها إلى الأمام والخلف بينما هي تخفي حبات اللوز في قبـضة يـدها. تحدّق إلى الفضاء وتصل إلى أسماعها أصوات تقارع الـصحون والمقالي في المطبخ. فلن يمضي وقت طويل إلاّ وتكون جميع بـناتها قد غادرن البيت وتركنها؛ فها هي بلبلة في طريقها إلى الزواج، وها هي شاكيلا قد تزوجت وذهبت عنها فعلاً. وعندما تتزوج أصغر بناتها ليلى، فإنها لا تدري ما الذي سيكون عليها القيام بعمله. لن يبقى في العائلة أحد ليهتم بشأنها.

"لـن يتـزوج أحد ليلى ما دمتُ حيّة"، تقول. فهي في التاسعة عشرة من عمرها. وكان كثيرون قد تقدموا لخطبتها. لكن بيبـــي غول كانت تجيب سؤال كل خاطب بالرفض. إذ لن يقوم أحد بالاهتمام بها بالطريقة التي تقوم بها ليلى.

إن بيبـــي غول لم تعد قادرة على عمل أي شيء في البيت أبداً. لـذلك، فـإن كـل ما تفعله هو الجلوس في الزاوية لشرب الشاي. والجلـوس جلوس الدجاجة النفساء فوق بيضها. فحياتها كامرأة قادرة علـى العمـل والحركة قد انتهت. فعندما يغدو للمرأة بنات بالغات تـتحول إلى مـا يشبه ناظرة الكلية التي تمنح النصائح، وتنصّب نفسها حارساً على الأخلاق في العائلة؛ وفي واقع الأمر على أخلاق بناتها دون سـواهن. فهي تتأكد من أنهنَّ لا يخرجن من البيت بمفردهن، وأنهنَّ لا يتكشفن، ولا يرتدين سوى الثياب المحتشمة كما يرام، وأنهنّ لا يختلين بالـرجال الأغراب، ولا يقابلن منهم أحداً خارج حضور أفراد العائلة. وأنهـن مطيعات ومهذبات. فالتأدب في اعتقاد بيبـــي غول يأتي في طليعة الفضائل. وبعد سلطان، فإنها هي الآمر الناهي الثاني في هذه العائلة.

وتـــذهب بها الأفكار إلى شاكيلا، شاكيلا التي تعيش الآن خلف جـــدران طينية عالية، جدران غير مألوفة لديها. وتتخيّل بيبـــي غول قيام شاكيلا برفع سطول ثقيلة من الماء من البئر الموجودة في فناء الباحة الخارجية لمنـــزلها، تحيط بها فراخ الدجاج مثلما يحيط بها عشرة أطفال يتامـــى الأم. وتـــسري في نفس بيبـــي غول خشية من أن تكون قد أخطأت بحق ابنتها شاكيلا. ماذا لو كان زوجها جافياً قاسياً؟ ومع كل ذلك، فإن هذا البيت يبدو فارغاً من دون شاكيلا.

أما في الحقيقة، فإن كثافة الشاغلين للبيت لم تنقص كثيراً بذهاب شـــاكيلا. فبدلاً من اثني عشر شخصاً، فهنالك الآن أحد عشر منهم فقط يعيـــشون في غرف البيت الأربع. فسلطان، وزوجته صونيا، وطفلتهما الـــتي يـــبلغ عمرها عاماً واحداً، يسكنون إحدى الغرف. وينام يونس شـــقيق ســـلطان مع الابن الأكبر لسلطان، منصور، في غرفة ثانية. أما الغـــرفة الثالـــثة فينام فيها ما تبقّى من أفراد العائلة وهم: بيبـــي غول، وابنتاها اللامتزوجتان: بلبلة، وليلى، كما ينام فيها إقبال وإيمال، وفازيل ابن مريم الذي هو ابن عمتهما وحفيد جدتهما بيبـــي غول.

أما الغرفة الرابعة، فهي مستودع للكتب والبطاقات البريدية والخبز والملابـــس الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء. فثياب العائلة تخزّن في صـــناديق كبيرة حيث إنه لا توجد خزائن في أي غرفة. وتستهلك أوقات طويلة من كل يوم في عمليات البحث والتنقيب عن الأشياء في غـــرفة المخزن، فبين وقوف وجلوس بين الصناديق تمضي نساء العائلة أوقاتـــاً في تفحُّص الجلابيب والأحذية، فمن هنا حقيبة لامتوازنة، ومن هـــنا مستوعب معطّل، وهنا شريط، أو مقص، أو مفرش طاولة. فهذه الأشياء إما أن تكون قد اعتُبرت ذات قيمة تجعلها تستحق الاحتفاظ بها أو ارتـــداءها لاحقـــاً، وإمـــا أنه يكون قد اكتُفيَ بالنظر إليها بسرعة

وأعيدت إلى الصندوق من جديد. ولا يجري التخلص من شيء من الأشياء إلاّ في ما ندر. وهكذا، فإن عدد الصناديق لا ينفكُّ يتزايد ويتنامى. ولا يعود هنالك بدٌّ من القيام ببعض أعمال البحث والتفتيش في هذه الغرفة في كل يوم؛ وهذا يقتضي أحياناً إزاحة كل شيء عن مكانه إذا ما شاء المرء البحث عن شيء يكون موجوداً في باطن صندوق من الصناديق المركونة في الأسفل.

وبالإضافة إلى الصناديق الكبيرة التي تحتوي على ثياب العائلة وضروراتها، فإن لكل عضو فيها صندوقاً صغيراً له قفله الخاص. وتحمل كل واحدة من النسوة مفتاح صندوقها تحت ثيابها، فهذا الصندوق هو الشيء الوحيد الذي يستقل كل فرد بملكيته له تعبيراً عن خصوصيته. ويستطيع كل امرئ رؤية أفراد العائلة كيف يجلس الواحد منها على الأرض لينكبّ فوق صندوقه. فإما تُستخرج قطعة من الجواهر تنظر الواحدة منهن إليها، وقد تجرِّب وضعها، ثم تعيدها إلى مكانها، أو هي تقوم بمسح بعض "الكريمات" التي كانت قد نسيت وجودها، أو تستنشق بعض العطر التي أهدي إليها يوماً. أو ربما التأمل في صورة فوتوغرافية لابن عم، والانسراح خلف حلم يقظة، أو مثلما هو الحال مع بيبي غول، تستخرج بعض حبات التوفي، أو قطعة بسكويت، كان قد تمّ إخفاؤها من قبل.

أما سلطان، فقد كان لديه خزانة كتب لها واجهة زجاجية يمكن قراءة غلافات الكتب من خلالها. وخزانة الكتب هذه تحتوي على مجموعات من كتب الشعر العائدة للشاعر حافظ، وللشاعر روحي، وكتب رحلات يعود تاريخها إلى مئة عام، وإلى كتب مصوَّرات جغرافية بالية. أما في الأماكن السرّية من صفحات كتبه هذه، فإن سلطان يقوم بتخبئة أوراقه النقدية. فالنظام المصرفي الأفغاني لا يعوَّل

علـيه، ولا تمكن الثقة به. وفي داخل خزانة الكتب هذه، يمتلك سلطان أغلـى ما عنده من أعمال ومجموعات وكتب كان قد اكتسبها، كتب من النوع الذي يرغب بالقيام بقراءته في يوم من الأيام، حيث إنه الآن يمـضي معظـم يومه في مكتبته ولا يتيسر له أي وقت للمطالعة. وهو يغـادر منـزله قبل الثامنة صباحاً فلا يرجع إليه إلاّ بعد الثامنة مساء. ولا يبقـى بعد ذلك سوى وقت يمضيه في ملاعبة طفلته لطيفة، وتناول طعام العشاء، وفي تسوية المسائل التي قد تكون حدثت بين أفراد أسرته أثناء غيابه بحسب مقتضيات العدالة وقانون العائلة ونظامها. وفي العادة لا يكـون هنالك أي إخلالات تستوجب تدخله. فالحياة السائدة بين نـساء العائلة تكون هادئة وواقعة تحت المستوى الذي لا يسمح وقار مركز سلطان له بالتدخل في تفاصيلها ومشاحناتها.

وفي أسـفل خـزانة الكتب تحتفظ صونيا بأشيائها الشخصية. بعض الأوشحة الجميلة، وبعض النقود، وبعض الدمى التي تعتقد الوالدة لسبب له خلفياته الساذجة، أن من المفيد الاحتفاظ بها لمصلحة لطيفة لتلعب بها. أما العروس المزيفة باربـي التي أُعطيت إلى لطيفة لمناسبة ذكرى ميلادها، فلا تزال تجلس في علبتها ملفوفة بورق السيليفون المجعّد.

وخزانة الكتب هي قطعة الأثاث الوحيدة في هذا البيت حيث لا يـوجد فـيه تلفـاز ولا مذياع. وأما الزينة الوحيدة فهي بسُطٌ بالية الخـيوط. وقد صفّت فوق البسط، في محاذاة الجدران مساند وطيئة غير وثـيرة. فالبُسُط تستعمل لغرض الاستلقاء والجلوس أثناء النهار، وللنوم فـوقها أثناء الليل. أما المساند فتستعمل بمثابة وسائد للنوم أثناء الليل، وأرائـك للاتكـاء عليها وإسناد الأظهُر إليها أثناء النهار. أما الطعام فيجـري تناول الوجبات منه بعد وضعه على مفرش مشمّع يبسط على الأرض، حـيث يجلس الآكلون حوله على الأرض ويتناولونه بأيديهم،

وعــند الانتهاء من الأكل ترفع الأطباق ويغسل المشمّع ويطوى ويزال عن مكانه.

وأرضـيات البـيت مـن الحجر البارد الذي تغطيه بُسطٌ كبيرة ممـدودة. أمـا الجـدران فمتشققة، وأما الأبواب، فمائلة ولامتوازنة. وبعضها يصعب إغلاقه بحيث إنه يترك في حاله مفتوحاً. وبعض الغرف لا يفـصل بيـنها سـوى غطاء فراش. أما ثقوب الشبابيك فتستدرك بالمناشف القديمة.

وفي المطبخ يوجد ثمة حوض، وموقد بريموس يعمل بزيت الكاز، ولوح تسخين على الأرض. وعلى عتبات النوافذ تُلقى فضلات الخضار وبقايا الطعام المتبقية من اليوم الذي سبق. وأما الرفوف فقد عُملت لها براد تحمي الآنية الفخارية من أن يصيبها الوسخ والسخام الذي يطلقه مـوقد الـ: بريموس. ولكن مهما بولغ في اتخاذ الحيطة لإبقائها نظيفة، فإن الأواني كانت تجمع على الدوام طبقة من الدهون التي تجتذب إليها ذرات الغبـار الـتي تدوّم أبداً في أجواء كابول حول الرفوف والمقاعد وعتبات البيوت.

أما الحمام فهو عبارة عن مقصورة ضيقة في داخل المطبخ يفصلها عنه جدار. وفي أرضيتها نقرة، لا تعدو أن تكون ثقباً مثقوباً في أرضية الكونكـريت، كما يوجد فيه صنبور. وفي إحدى زوايا الحمام موقد علـى الحطب يمكن استعماله لغلي المياه التي تستخدم للاغتسال، ولا يمكـن مـلء أسـطوانة المـاء فيه سوى عندما تكون المياه جارية في الأنابيب. وفوق أسطوانة الماء ثمة رفٌّ صغير عليه بعض فراشي الأسنان بالإضـافة إلى أنـبوب صيني من معجون الأسنان يحتوي على معجون متبلّر يصعب على المرء الحكم على حقيقة طعم مادته الكيميائية.

* * *

"كـــان هنا مرة شقة جميلة"، يقول سلطان مستغرقاً في ذكرياته. "كان لدينا مياه تجري في الصنابير".

لكن الشقة كانت قد تعرّضت إلى النهب والإحراق أثناء الحرب الأهلـــية. وعندما عادت العائلة إلى الشقة فإنها كانت في الحقيقة مدمرة وكـــان علـــيه أن يصلح ما يمكن إصلاحه. فأقدم أحياء مايكروريون حـــيث تقيم عائلة خان، تقع على خط الجبهة الأمامية بين قوات زعيم المجاهـــدين، مـــسعود، وبين أولئك المكروهين التابعين إلى أحد زعماء الحـــرب المدعـــو قلب الدين حكمتيار. وقد كان مسعود يسيطر على مـــساحات كبيرة من كابول، بينما كانت قوات حكمتيار تتركز على مـــرتفع مطلٍّ على كابول. وكان الطرفان يتبادلان إطلاق الصواريخ؛ وعـــدد كبير منها كان يقع في منطقة مايكروريون. ومع ذلك، وعلى مـــرتفع آخـــر، كان قد تمركز الزعيم الأوزبكي عبد الرشيد دوستم بقواته. أما على مرتفع ثالث فقد تمركزت قوات عبد الرسول سيّاف، وكانـــت صـــواريخهم تـــصبّ على مناطق أخرى من كابول. كانت الجـــبهات تتحوّل من شارع إلى شارع. وقد تحارب أمراء الحرب لمدة أربـــع سنوات إلى أن زحفت قوات الطالبان إلى داخل كابول فهرب أمراء الحرب حماية لهيبة كل منهم كلٌّ إلى إقطاعيته.

كانـــت المعارك قد توقفت منذ ست سنوات، لكن مايكروريون كانـــت لا تـــزال مـــثلاً نموذجياً لكل أرض معركة. فجدران المباني مرشوشـــة بـــثقوب الرصاص وشظايا القذائف. وكثير من الشبابيك كانت لا تزال تغطيها رقائق النايلون بدلاً من الزجاج. كما أن هنالك تـــشققات في الأسقف والطبقات العليا من المباني قد تعرضت للحريق، وثمـــة شـــقوق كبيرة في الأماكن التي اخترقتها الصواريخ. وإن إحدى أشـــرس المعارك كانت هي التي دارت رحاها في مايكروريون، ولذلك

فـإن معظم سكانها كانوا قد هربوا منها. وعلى مرتفعات مارانجان التي تـشرف على مايكروريون، حيث كانت قوات حكمتيار تجتمع، لم يُعمـل أي شيء لتنظيف المكان بعد الحرب الأهلية. فمنصات إطلاق الصواريخ، والعربات المدمّرة، وبقايا الدبابات، بقيت مبعثرة في الجوار، وهي تقع على مسافة ربع ساعة من المشي عن مكان شقة عائلة خان. لقـد كان ذلك المكان مرة نقطة تنـزه مشهورة. وفيها أيضاً يقع قبر نادر شاه، والد الملك زاهر شاه، الذي كان قد قضى اغتيالاً عام 1933.

وهـذه المقبرة هي الآن مجرد أنقاض، فقبة المقبرة مليئة بالثقوب، وعمـودها مكـسور. أما المقبرة الأقل جمالاً، والتي تعود إلى زوجته، والواقعة بالقرب من مقبرته، فقد كانت هي الأخرى في حالة هي حتى أسـوأ مـن الأولى. فهي تبدو وكأنها هيكل عظمي متناثر فوق نتوء يـشرف علـى المدينة. ولقد حاول أحدهم إعادة جمع القطع المتناثرة بعضها إلى بعض، بحيث يمكن إعادة قراءة الآيات القرآنية من جديد.

كانـت الـتلة بكاملها مزروعة بالألغام، ولكن بين أسطوانات الـصواريخ المنفجرة، وسواها من الخردة المعدنية، كان ثمة شيء يقف شاهداً على الحياة وعلى السلام. ففي داخل دائرة من الحجارة المستديرة، نبـتت مجمـوعة من أزاهير الآذريون برتقالية اللون. ولقد كانت هذه الأزهـار هـي وحدها التي حافظت على استمرار حياتها بعد الحرب الأهلية، والجفاف، والطالبان.

ومـن المـرتفعات، ومن مسافة بعيدة، بدت مايكروريون كأي مكان يمكن أن يصادفه المرء في الاتحاد السوفياتي السابق. فالمباني كانت هديـة مـن الشعب الروسي. وفي الخمسينيات والستينيات كان قد تم إيفـاد المهندسين الروس إلى أفغانستان كي يقوموا ببناء ما سُمّي بمباني

خروتشوف التي ما لبثت أن ملأت أرجاء الاتحاد السوفياتي أيضاً. وقد كانت هذه المباني تتخذ الشكل نفسه أينما تمّ بناؤها إن في كابول، أم في لينينغـــراد، أو في كييف: مبانٍ مؤلفة من خمس طبقات، فيها شقق ذات ثلاث غرف أو أربع.

وعـــندما يقترب المرء من هذه المباني إلى درجة قريبة، فإنه يلاحظ أن الانطباع البائس الذي تبديه إنما يمثل ليس الفساد التقليدي السوفياتي فحسب، بل قذائف الحرب الأهلية أيضاً. فحتى المقاعد الإسمنتية الواقعة أمـــام الـــبوابات الأمامية تبدو محطمة وتضطجع اضطجاع الحطام المقلـــوب رأساً على عقب فوق الأرض المحفّرة التي كانت مرة معبّدة بالإسفلت.

وفي روسيا تجلس في العادة نساء معتمرات "البابوشكا"، نساء من العجائـــز اللواتي يتوكأن على عصيّهن، وعجائز الرجال من ذوي الشنبات والقـــبعات، وهم يراقبون كل ما يدور حولهم. وفي مايكرورايون فلم يكن الرجال الكبار هم وحدهم الذين يجلسون خارج منازلهم ويتداولون أحاديـــث النميمة فيما سبّحات الصلاة تنـــزلق حباتها بين أصابعهم. وبالكـــاد أن مجموعة قليلة من الشجرات هي التي كانت لا تزال واقفة لتعطي القبرين ظلاً هزيلاً. وتمرُّ النساء بقرب المكان في سرعة حاملات أكـــياس التـــسوق تحت بوركاتهن. ونادراً ما ترى امرأة تتوقف لتفاتح جارة لها بحديث. ففي مايكرورايون تذهب النسوة للزيارة إذا رغبن في اللغـــو وفي الـــتأكد من أن أي رجال من خارج دائرة عائلتهن الخاصة يستطيعون رؤيتهن.

لقـــد تمّ تـــصميم تلك الشقق كي تساير المعايير السوفياتية حول المـــساواة، لكـــن مـــن المؤكد أن ليس ثمة مساواة يمكن أن توجد بين الجـــدران الأربعة. ففي الوقت الذي يمكن أن تكون الفكرة التي تقف

خلف بناء الشقق السكنية هي إيجاد مساكن تنمُّ عن مجتمع لا طبقية فيه، فإن الممارسة الواقعية في شقق مايكرورايون كان يُنظر إليها كما لو أنها شقق تعود إلى أبناء الطبقة الوسطى. ففي وقت القيام بتشييدها كانت تشير إلى حالة من الانتقال من أكواخ الطين في القرى المحيطة بكابول إلى شقق تجري المياه في أنابيبها. لذلك فإن المهندسين، وأصحاب الحوانيت، وسائقي الشاحنات، قد انتقلوا إلى هناك. لكن مصطلح "الطبقة الوسطى" بات الآن يعني القليل في بلد فقد فيه كثير من الناس كل شيء، وحيث هبط فيه مستوى كل شيء. فالمياه التي كانت مرة ترى وهي تنسكب من الصنابير صارت مجرد نكتة من النكات خلال السنوات العشر الأخيرة. ففي الطبقات الأولى قد يوجد بعض الماء البارد في الأنابيب لمدة بضع ساعات كل صباح. ثم لا يعود ثمة شيء. ولا تصل المياه إلى الطبقات الثانية إلاّ بين كل حين وآخر، لكن المياه لا تصل مرة إلى الطابق الثالث؛ فالضغط ضعيف إلى درجة كبيرة. لذلك فقد تمَّ احتفار الآبار في حدائق تلك الأبنية السكنية، وصار الأطفال يتقاطرون في كل يوم إلى خارج الشقق طلوعاً ونزولاً على الدرج وهم يحملون جرادل المياه والقوارير والأباريق.

ومثل ذلك هو حال إمدادات الطاقة الكهربائية، فتلك الطاقة الكهربائية التي كانت فخر هذه الشقق، قد صار السكان بعدها الآن يعيشون على وجه العموم في العتمة. فبسبب الجفاف، صارت إمدادات الطاقة الكهربائية خاضعة للتقنين. وفي كل يومين ترسل الطاقة الكهربائية إلى هذه الشقق لمدة أربع ساعات بين السادسة والعاشرة صباحاً. وعندما يكون التيار الكهربائي موفوراً في جانب من المدينة يكون الجانب الآخر معتماً. وفي بعض الأحيان يكون شطرا المدينة معاً غارقين في الظلام. والحل الوحيد يبقى بإخراج مصابيح زيت الكاز

والجلوس في نصف عتمة بينما يعلَقُ أسيد دخان القناديل في الأعين حتى يجعلها تدمع.

وعائلـــة خان تعيش في واحدة من شقق أقدم العمارات السكنية، إلى جانب نهر كابول الجاف. وتنظر بيبـــي غول إلى الجانب المظلم من الأشياء، بينما هي تجلس منكفئة في داخل هذه الصحراء الإسمنتية بعيداً عـــن القرية التي نمت فيها وترعرعت. لم تعد بيبـــي غول تعرف طعم الـــسعادة مـــنذ وفاة زوجها. ووفقاً لأقاربه فإنه كان رجلاً مجدّاً عميق الإيمان وحازماً، ولكن بإنصاف.

وعـــندما توفي والده، فإن سلطان تسلم مقاليد الأمور من بعده. فكلمة سلطان هي بمثابة القانون. وكل من يعصاه يلقى عقابه. وهو لا يطرح نفوذه على نطاق بيته فحسب، بل هو يحاول أن يفعل ذلك على أقـــرانه الذين هاجروا أيضاً. فأخوه الذي لا يصغره سوى بعامين يقبّل يديه كلما التقيا. وليكن الله في عونه إذا قام مرة بمناقضة سلطان، وأسوأ من كل ذلك، إذا حاول إشعال سيجارة في حضوره. فالاحترام واجب الإظهـــار لـــلأخ الكبير في كل يوم. وسلطان له أسبابه التي تبرِّر هذا السلوك الصارم. فهو يعتقد أنه ما لم يجرِ ضبط العائلات وتعويدها على العمل الشاق، فلن يكون هنالك انتعاش جديد في أفغانستان.

فإذا لم يأتِ التعنيف ولا الضرب بأي نتيجة، فإن العقوبة التي لا يبقى منها بدٌّ، فهي الطرد. لذلك فإن سلطان لا يتكلم مع أخيه الأصغر فـــريد ولا يـــزوره. فلقد رفض فريد العمل مع أخيه سلطان في المكتبة كمـــا أنـــه شـــرع في تأسيس مكتبته الخاصة التي تعمل أيضاً في تجليد الكـــتب. ومـــا عاد سلطان يكلّمه منذ ذلك الحين. كذلك لم يعد من المـــسموح لأيٍّ من أفراد العائلة الآخرين أيضاً الحق في أن يكلّمه. ولم يعد اسم فريد يؤتى على ذكره أبداً. فهو لم يعد شقيقاً لسلطان.

وفريد هو الآخر يعيش في إحدى الشقق المدمّرة في مايكرورايون، شقة لا تقع سوى على مبعدة دقائق قليلة من شقة عائلة خان. وعندما يكـــون سلطان في مكتبته تقوم بيبـــي غول بزيارة فريد وعائلته، دون أن تجعـــل ســـلطان يدري بذلك. والأمر نفسه يفعله إخوته وأخواته. ورغم أن زيارة فريد محظورة عليها، فإن شاكيلا قبلت دعوة أخيها هذا لها قبل الزفاف حيث أمضت عنده مساءً كاملاً مدّعية أمام سلطان أنها كانت في زيارة إلى عمتها. فقبل أن تصبح الفتاة متزوجة، فإن على كل من أفراد عائلتها أن يدعوها إلى غداء وداعي. وكان سلطان يدعى إلى الاحتفالات العائلية، أما أخوه فلم يكن يُدعى. إذ لم يكن أحد من أبناء أو بـــنات العـــم، أو من الأعمام، والعمات، براغب في إبداء العداوة لـــسلطان؛ مثل هذا الأمر لن يكون مدعاة للراحة، ولا للسرور، لكن فريد هو الشخص الذي يحبونه رغم ذلك.

ولم يعـــد أحـــد يستطيع أن يتذكر أصل الخلاف ما بين سلطان وفـــريد. لكن الجميع يتذكرون أن فريداً قد غادر أخاه بينما الأخير في حالة غضب وهياج، وبينما صاح سلطان خلفه أن أي رباط بينهما قد انقطـــع الآن إلى الأبد، فإن بيبـــي غول كانت تدعوهما إلى التصالح، لكـــن كـــلا الأخوين اكتفيا بهزّ أكتافهما في لامبالاة. وكانت حجة ســـلطان هي أن من واجب الأخ الأصغر أن يطلب الصفح؛ أما حجة فريد فكانت شعوره بأن الخطأ كله هو خطأ سلطان.

* * *

كانت بيبـــي غول قد أنجبت ثلاثة عشر طفلاً. وعندما كانت لا تـــزال في الـــرابعة عشرة من عمرها كانت قد وضعت طفلتها الأولى فـــيروزة. وفي النهاية باتت الحياة تستحق أن تعاش. لقد بكيت خلال ســـنوات عمرها الأولى التي كانت لا تزال فيها عروساً طفلة؛ أما الآن

ولأنـــه الابن الأكبر في العائلة، فقد كان على الدوام يعطَى أفضل الأشياء، رغم فقر العائلة. فالأموال التي نالتها العائلة مهراً لابنتها فيروزة كانـــت تـــستعمل مـــن أجل الإنفاق على تعليم سلطان. ومنذ نعومة أظفـــاره كان قد أُعطي مركزاً وسلطة في العائلة، وكان من الأشخاص الذين يثق بهم والده، ويوكل إليهم المسؤوليات. وعندما بلغ السابعة من عمره كان قد بدأ العمل بدوام كامل، كل ذلك بالإضافة إلى الاهتمام بأمر دراسته.

وبعد بضع سنوات من ولادة سلطان أتى أخوه فريد، لكن فريداً كـــان مثيراً للمتاعب ولا ينفك يقع في خصومات. فلا يعود إلى البيت إلاّ في ثياب ممزقة وأنف دامٍ. ولقد أخذ يدخن ويتعاطى الشراب دون معـــرفة من أهله بطبيعة الحال، لكنه كان رجلاً طيباً له طبيعة أنقى من الذهب الخالص ما دام أن أحداً لم يغضبه. ولقد أوجدت بيبـــي غول زوجـــة له. وهو الآن رجل متزوج، وله ابنتان وصبـــي. لكنه كان قد حُـــرم مـــن الـــسكن في شـــقة العائلة الواقعة في العمارة رقم 37 في مايكـــروراYون. لهذا، فإن بيبـــي غول تتنهد. إذ إن قلبها ينفطر بسبب العداوة القائمة بين أكبر ولديها. ما الذي يمنعهما عن التصرف بشكل معقول ومنطقي؟

بعـــد فـــريد كانت قد جاءت شاكيلا. شاكيلا الحيوية، المرحة، القـــوية. هـــنا تذرف بيبـــي غول دمعة. فهي تتصور ابنتها وهي تجرُّ سطول الماء الثقيلة.

ثم جـــاء بعدها نـــزار أحمد. وعندما تفكّر بيبـــي غول فيه، فإن دمعاهـــا تجري على وجنتيها. فنـــزار أحمد كان هادئاً ولطيفاً ومجداً في دراســـته. تخـــرج من المدرسة الثانوية في كابول. ورغب في أن يصبح مهندســـاً مـــثل أخيه سلطان. لكنه في أحد الأيام لم يعد إلى منـــزل

العائلة. قال عنه زملاء صفه إن البوليس الحربـي قد قام بالتقاط أقوى الـشبان في صفهم وأجبروهم على الالتحاق بالجيش. كان ذلك خلال الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وكانت قوات الحكومة الأفغانية آنذاك تعمـل بمثابة قوات سوفياتية بريّة. لقد وُضعت تلك القوات على خط الـنار في مواجهة قوات المجاهدين. وكان للمجاهدين قوات أشدُّ تمرساً بالقـتال، وهم يعرفون طبيعة الأرض ومسالكها جيداً، ويتحصنون في الجـبال. ومـن هنالك كانوا يتربصون بالروس، وينتظرون وصولهم، ووصـول معاونيهم من القوات الأفغانية لكي يتقدموا إلى الممرات التي يتـيحها الجـبل. لقد اختفى نـزار أحمد في أحد ممرات ذلك الجبل. وبيبـي غول تعتقد أنه لا يزال حياً. وربما أنه قد وقع في الأسر. وربما أنـه يكون قد فقد ذاكرته وبات يعيش في مكان آخر ما، في سعادة. وهي تصلي إلى ربها في كل يوم كي يعيده إليها.

وبعد نـزار أحمد جاءت بليلة التي أسقمها الحزن بسبب تعرض والـدها إلى السِّجن، وهي الابنة التي تبقى على وجه العموم في البيت طيلة كل الأيام وهي شاخصة في الفراغ.

وكـان هنالك مزيد من الحيوية والحياة في مريم التي ولدت بعد ذلك بسنوات قليلة. لقد كانت ذكية ونبيهة ومتفوقة في مدرستها. لقد نمـت وكبرت لتصبح فتاة جميلة يأتي لطلب يدها العديد من الخاطبين. وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها تزوجت من شاب هو من أبناء القرية نفسها. كان يملك حانوتاً واعتقدت بيبـي غول أنه عريس كفؤ لابنـتها. وانتقلت مريم إلى منـزل عريسها الذي يعيش فيه أيضاً كلٌّ مـن أمه وأخيه. وكان هنالك كثيرٌ من العمل الذي ينبغي عمله، فيدا والدتـه كانتا غير نافعتين، إذ كانت قد أحرقتهما حرقاً بالغاً في موقد خبـز. فـبعض الأصـابع كانت قد فُقدت تماماً، وبعضها قد ذابت

والتصقت ببعضها. ولم يبقَ من الإبهامين سوى جذريهما، ولكنها رغم ذلـك كانـت تـستطيع إطعام نفسها، كما كان بإمكانها الاهتمام بالأطفال، وحمل بعض الأشياء ما دامت تستطيع إسنادها إلى جسدها.

وكانت مريم سعيدة في بيتها الجديد. لكن الحرب الأهلية ما لبثت أن قَـدِمَت. عندما تزوج أحد أبناء عم مريم في جلال أباد، فإن العائلة اغتـنمت المناسبة، بالرغم من عدم الاطمئنان إلى سلامة الطرقات، من أجـل السفر إلى هناك. وقد بقي زوجها كريم الله في المكان من أجل الاهـتمام بالمتجر. وفي صباح أحد الأيام، عندما وصل إلى متجره لكي يفـتحه، فقد علق في شبكة نار جبهة القتال. واخترقت رصاصة قلبه فخرَّ صريعاً على الفور.

وندبـته مـريم باكية مدة ثلاث سنوات. وفي نهاية الأمر قررت بيبـي غول ووالدة كريم الله أن على مريم أن تتزوج من حازم شقيق زوجهـا القتيل. وهكذا صار لمريم عائلة جديدة فلملمت شتات نفسها معاً، كرمى لطفليها الاثنين. والآن فإنها حامل في طفلها الخامس. وابنها الأكبر، فازيل، الثمرة الأولى لزواجها من كريم الله زوجها الأول الذي هـو الآن في العاشـرة من عمره، لديه وظيفة بدوام كامل. فهو ينقل الصناديق ويبيع الكتب في إحدى مكتبات سلطان ويعيش معه في بيته، وذلك من أجل مساعدة والدته مريم في شؤون الإنفاق.

ثم أتـى يونس، الابن المفضل عند بيبـي غول. فهو الولد الذي يقـوم بتدلـيلها، ويـشتري لها الهدايا الصغيرة، ويسألها عن حاجاتها، وينتهـي بـه الأمر في آخر المساء مسنداً رأسه إلى حضنها، بعد تناول عـشائه بيـنما يكـون بقية أفراد العائلة بين جالس ومضطجع على السجاجيد بين الصحو والمنام. وتاريخ ميلاد يونس هو التاريخ الوحيد الـذي تتذكـره هذه الوالدة على سبيل اليقين. إذ إنه كان قد ولد في

اليوم ذاته الذي أزيح فيه زاهر شاه عن السلطة إثر انقلاب عسكري كان قد أطاح بحكمه في السابع من تموز/يوليو 1973.

أما بقية الأطفال فلا يُعرف لهم لا يوم ميلاد ولا حتى سنة ميلاد. فالسنة التي ولد فيها سلطان تتراوح بين 1947 و1955، وذلك اعتماداً على الوثيقة التي تقع بين يديك. فعندما يقوم سلطان بجمع سنوات طفولته وسنوات دراسته في المدارس، وسنوات تحصيله الجامعي، وسنوات الحرب الأولى، وسنوات الحرب الثانية، وسنوات الحرب الثالثة، فإن مجموع سنوات عمره يقفز فوق الخمسين سنة. وهذه هي الطريقة التي يقوم كل واحد باعتمادها لاحتساب سنوات عمره. ولأن لا أحد يعرف، فإن بإمكانك دائماً أن تكون في العمر الذي تشتهيه. وبهذه الطريقة فإن شاكيلا قد تكون في الثلاثين من عمرها، لكنها قد تكون بكل سهولة أكبر من هذا بخمس أو ست سنوات أو أكثر.

وبعد قدوم يونس جاء ياسر. وهو يعيش في كندا بعد أن كانت والدته قد رتَّبت زواجه هناك من فتاة قريبة لهم. ولم تكن قد رأته أو تكلمت معه منذ أن سافر إلى هناك قبل سنتين. وهنا تذرف بيبي غول دمعة أخرى، فهي تكره أن تكون في منأى عن أولادها. فهم جميع ما تملكه في حياتها عدا عن حبَّات اللوز الملبَّس بالسكر التي تخفيها في أسفل صندوقها.

أما آخر الأولاد الذكور الذين ولدتهم بيبي غول، فإنه كان السبب في عاداتها المفرطة في الطعام. إذ بعد أيام قليلة من الوضع كانت قد تخلَّت عنه لمصلحة امرأة عاقر قريبة لها. لكن الحليب بقي ينسكب من صدر بيبي غول التي كانت تسكب الدموع من عينيها أيضاً. فالمرأة تكتسب الكثير من الاعتبار عندما تصبح أماً، خاصة عندما تصبح أماً لأبناء ذكور. أما المرأة العاقرُ فلا قيمة اجتماعية لها. وقريبه

بيبي غول لم تلد قط بعد مرور خمس عشرة سنة على حياتها الزوجية، وكانت قد ابتهلت إلى الله تعالى، واستماتت في محاولاتها لاستعمال كل دواء أو علاج اعتقدت أنه يسهّلُ الحمل ولكن دون نتيجة؛ وعندما كانت بيبي غول تتوقع ولادة طفلها الثاني عشر فإنها التمست إليها أن تقوم بالتخلي عنه إليها.

لكن بيبي غول رفضت. "كيف لي أن أتخلى عن ولدي".

لكن القريبة استمرت في الاستجداء، والبكاء، والتهديد. "ليكن لكِ رأفة بي؛ فإن لك عائلة كبيرة، بينما أنا ليس لي أي طفل. لا تعطيني سوى هذا الولد فقط"، قالت نائحة. "فأنا لا أستطيع العيش دون أطفال"، قالت وهي تشرق بدمعها.

وفي نهاية الأمر لان قلب بيبي غول فأذعنت لها ووعدتها بإعطائها الطفل. وعندما ولد ابنها احتفظت به مدة عشرين يوماً. حيث أرضعته، وعانقته، وبكت لأنه سينتهي بها الأمر إلى التخلي عنه. وكانت بيبي غول امرأة ذات شأن بسبب أولادها. فهي أرادت أن يكون لها من الأولاد ما شاء الله أن يعطيها. لكنها وفت بوعدها وبعد مضي العشرين يوماً المتفق عليها قامت بتسليم الصبي الذي ولدته إلى قريبتها، ومع أن ثدييها كانتا يدرّان بغزارة إلاّ أنها لم تكن قادرة على إرضاعه من جديد. فجميع العلاقات بين الأم والوليد كان يجب أن تنقطع تماماً، ومنذ تسليمها إياه صار لا بدّ لها من أن تعتبره مجرد قريب ليس إلاّ. وتعلم بيبي غول جيداً أن الولد سوف يلقى عناية حسنة، لكنها رغم ذلك فإنها لا تزال تتحسر على خسارتها له. وعندما تلتقيه فإنها تتظاهر بقلة الاهتمام، تماماً مثلما كانت قد قطعت عهداً على نفسها عندما قامت بالتخلي عنه.

أما أصغر أطفال بيبي غول، فهي ابنتها ليلى، هي ابنة ذكية ومجدّة تقوم بمعظم أعباء الأعمال المنزلية لوحدها. وهي بعد الافتكار

في عمرها تكون في سنتها التاسعة عشرة. وهي تحتل المركز السفلي في تراتبية تلقي الأوامر، فهي أصغر أولاد بيبـــي غول، وهي عزباء، وفوق كل ذلك، هي فتاة.

وعـــندما كانـــت بيبـــي غول في مثل عمرها، كانت قد أنجبت أربعـــة أطفال، اثنان منهما توفيا، واثنان بقيا على قيد الحياة. لكنها لا تفكـــر الآن في ذلك. ففنجان الشاي الذي أمامها قد برد، وهي بردت أيـــضاً. وهـــي تخبئ حبّات اللوز تحت السجادة وترغب في أن يقوم أحدهم بإحضار شالٍ من الصوف لها.

"يا ليلى"، تنادي فتنهض ليلى وتأتي إليها من بين القدور.

إغراءات

تـــصل عند شروق الشمس حزمة متماوجة من السحر تخطو إلى داخـــل عتبة الغرفة ضئيلة الإضاءة. ويصحو منصور من نصف إغفاءته بشيء من الإجفال ويعدل نظرته الناعسة حالما يلمح طيف الفتاة الذي يتسرّب إلى الداخل بمحاذاة الرفوف.

"أستطيع أن أساعدكِ؟".

إنـــه يعلم من فوره أنه خيال امرأة شابة جميلة. فهو يرى ذلك مـــن خلال مشيتها ووقوفها، من خلال يديها، ومن خلال قدميها، ومـــن خـــلال طـــريقتها في حمل حقيبة يدها. إن لها أنامل بيضاء طويلة.

"أيمكنني أن أجد عندكم كتاب 'الكيمياء المتقدمة'؟".

هـــنا يلجأ منصور إلى أقصى مهاراته كبائع كتب. فهو يعرف أن الكـــتاب المطلـــوب ليس موجوداً عنده، لكنه يسألها أن تنضمَّ إليه إلى عمق المكتبة كي تشترك معه في التفتيش عن الكتاب العتيد. يقف على مـــسافة شـــديدة القرب منها، وينظر بين الرفوف فيما رائحة عطرها تنساب إلى أنفه. يقوم بالبحث والتفتيش وإزاحة الكتب، متظاهراً بأنه يقـــوم بالتفتيش عن الكتاب. ومن وقت لآخر يستدير نحوها ويدقق في

الظـــلال المحيطة بعينيها. و لم يكن هو قد سمع باسم هذا الكتاب من قبل.

"من سوء الحظ أن هذا الكتاب نفد من عندنا، لكنني أملك بعض النــسخ القليلة منه في البيت، هل تستطيعين المرور علينا في الغد، فإنني سأجلب لك نسخة منه".

وفي اليوم التالي ينتظر رجوع جميلته طيلة النهار، و لم يكن متسلحاً بالنـــسخة المطلوبة، لكنه بدلاً من ذلك كان متسلحاً بخطة. فبينما هو جالس ينتظر، فإن عقله لا يكفّ عن نسج المزيد من أحلام اليقظة. ثم يطـــبق اللـــيل فيغلق باب المكتبة. وللمكتبة شبكات شعرية، معدنية، مشبكة تعمل على حماية الشبابيك المتشققة أثناء الليل. ولأنه محبط، فإنه يغلق تلك الشبكات بشيء من الحنق والعنف.

وفي الـــيوم الـــتالي يكون في مزاج متعكّر، فيجلس عابساً خلف كونـــتوار مكتبته. وتكون الغرفة في شبه ظلمة نظراً إلى انقطاع التيار الكهربائـــي. أما في المواضع التي يمكن لأشعة الشمس أن تتسرب من خلالهـــا، فـــإن الغـــبار كان يتراقص جاعلاً الغرفة تبدو أكثر وحشة. وعـــندما يـــدخل زبـــائن للسؤال عن كتب، فإن منصور يجيب بوجه مكفهـــر بأن الكتب المطلوبة غير موجودة عنده، وذلك رغم أن تلك الكتب موجودة على الرفّ المقابل له تماماً. وهو يلعن هذا الواقع الذي جعله مربوطاً إلى مكتبة والده وبأنه لا يستطيع أن يجد لنفسه يوم فراغ حـــتى في عطلـــة الجمعة، وأن والده لن يسمح له بالدراسة، كما لن يـــسمح له بشراء دراجة. ولن يسمح له بأن يرى أصدقاءه، وهو يكره تلـــك الكـــتب الكبيرة المليئة بالغبار، الملقاة على الرفوف. كما أنه في الحقـــيقة يكره الكتب ويكره بيعها. وأنه لم ينهِ قراءة كتاب واحد منذ أن أُخرج من المدرسة.

أيقظه الوقع الخفيف لخطوات القدمين، وحفيف قماش الملابس الكثيفة، من حالته المزاجية التي هي أشبه بالسبات. وها هي تقف كما في المرة الأولى وسط عمود من أشعة الشمس المتسرّبة إلى داخل المكتبة، عمود يجعل غبار الكتب يثور مدوّماً حولها بفرح. ويتمالك منصور نفسه كي لا يهبَّ واقفاً من الفرح، بل يصطنع ارتداء قناع الكتبي فوق وجهه.

"توقعتُ رجوعك بالأمس"، قال، بلهجة مهنية صديقة. "إن الكتاب لديّ في البيت، لكنني لا أدري أيَّ طبعة، أو أيَّ نوع من الغلاف، أو أي سعر تريدين. إذ لقد تمّ إصدار الكتاب في عديد من الطبعات التي أستطيع تأمينها لك جميعاً. لهذا، إذا شئت المجيء معي فسيكون باستطاعتك اختيار ما تشائين".

تبدو الدهشة واضحة على البوركا. وها هي تلجأ إلى العبث بحقيبتها بشيء من اللاّيقين.

"أذهب إلى بيتك معك؟".

يخيم الصمت عليهما لحظة. الصمت خير وسيلة للإقناع، يخيّل إلى منصور الذي باتت أعصابه تختلج. لقد صدرت الآن عنه دعوة بالغة الجرأة.

"إنك في حاجة إلى هذا الكتاب، أليس كذلك؟" يتابع سؤالها في نهاية الأمر.

والأعجب من العجب هو أنها توافق. تستقر الفتاة على المقعد الخلفي وتُجلِس نفسها في وضعيَّة تسمح لها بمشاهدة وجهه في المرآة. ويحاول منصور إدراك ما يمكن أن يعتقده حول نظرتها إليه بينما هما يتحدثان.

"إنها سيارة جميلة"، تقول له. "أهي لك؟".

"نعم، ولكنها ليست بالشيء كبير الأهمية"، فمثل هذه الإجابة تجعل السيارة تبدو أكثر مدعاة للإعجاب وتجعله يبدو حتى أكثر ثراء.

يقود سيارته على غير هدى مطوِّفاً في شوارع كابول ومعه بوركا تجلس في المقعد الخلفي. فالكتاب العتيد ليس في حوزته، والمنزل في أي حال ليس خالياً، إذ إن فيه جدته وعمّاته. ويشعر بالقلق والهياج لشدة قربه من إنسانة لا يعرفها. وفي لحظة استجماع لشجاعته يطلب منها أن تكشف له النقاب عن وجهها. تمكُث لحظات قليلة كأنها الصنم الجامد، ثم ترفع الغطاء الأمامي للرأس وتصمد لنظرته الفاحصة إلى وجهها في المرآة. لقد أدرك الكثير، فهي رائعة الجمال، ولها عينان كبيرتان آسرتان معالجتان بالماكياج، ويبدو أنها أكبر منه ببضع سنوات. وبفضل من أغرب سلوكياته الاستثنائية يتمكن من إقناعها بإغفال كتاب الكيمياء فتنقاد لجاذبيته الجادة وقدرته على الإقناع لتقبل دعوته لها إلى أحد المطاعم. هناك يوقف السيارة فتخرج منها لتدخل معه إلى مطعم ماركو بولو، حيث يقوم منصور بطلب كل الطعام الموجود على اللائحة تقريباً: دجاج محمّر، وكباب، ومعجّنات أفغانية محشوّة باللحم والبَّيلو، وأرزّ عليه قطع كبيرة من لحم الضأن، أما الحلوى فكانت الفستقيّة.

وخلال الغداء يحاول سلطان مضاحكتها وإشعارها أنها ذات مكانة خاصة بالنسبة إليه. تجلس قبالته والغطاء الأعلى للبوركا مرفوعاً بينما هي تدبر بظهرها للطاولات الأخرى بينما انتقيا طاولتهما في الزاوية. ومثل معظم الأفغانيين، تتجاهل أمر السكين والشوكة وتتناول طعامها بأصابعها. تتحدث معه عن حياتها، وعن عائلتها، وعن دراستها، لكن منصور قلّما كان يستوعب شيئاً من شدة هياجه.

إنـــه لقـــاؤه الغرامـــي الأول. لقاؤه الغرامي اللامشروع تماماً. يدفع بقشيـــشاً سخياً للنادل عند مغادرتهما، وتفتح الطالبة عينيها من فرط دهشتها. ويرى من ملاحظته لهندامها أنها ليست غنية، ولكنها ليست شـــديدة الفقـــر أيضاً. على منصور أن يعود مسرعاً إلى المكتبة؛ أما البوركا فتستقل سيارة أجرة. وخلال حكم الطالبان، فإن تصرفها هذا كـــان مـــن الممكن أن يقود إلى جَلدها وجلد السائق واحتجاز كل منهما في السجن. أما اللقاء في المطعم فقد كان شيئاً مستحيلاً تماماً. فالرجال والنساء غير الأقارب لا يجوز لهم حتى السير معاً في الشارع، عداك عن قيامها برفع حجابها في مكان عام. لقد تغيرت الأشياء من حـــسن حـــظ منصور. لذلك فإنه يعدها بإحضار الكتاب في اليوم التالي.

وخلال اليوم التالي لا ينفك منصور عن حث ذهنه على التفكير في ما تراه سيقول لها عندما تعود، إذ لا بدّ الآن من تغيير الخطط من بـــيع الكـــتب إلى الإغراء. والخبرة الوحيدة التي يعرفها منصور عن الحـــب هي تلك التي شاهدها في الأفلام الهندية والباكستانية، حيث تـــتجاوز كل عبارة درامية تلك التي سبقتها. وتبدأ مثل هذه الأفلام في العـــادة بصدفة عابرة، ثم مغازلة عابثة تستثير الغضب، ثم مراودة ومراوغة، ثم خيبة رجاء، ثم تنتهي الرواية بكلمات وردية عن حب أبـــدي؛ وهـــذه الأفـــلام فيها إعداد مفيد بالنسبة إلى عاشق يافع. وهكـــذا، وخلـــف الكونـــتوار، بالقـــرب من كدسة من الكتب والأوراق، يستغرق منصور في أحلامه حول ما ستسفر عنه محادثته مع هذه الطالبة.

"لم تذهبـــي لحظة عن بالي منذ أن غادرتني بالأمس. لقد أدركتُ أن شـــيئاً مـــا خاص يتعلّق بك، لقد أوجدتك الحياة لتكوني لي. فأنت

نـــصيبـــي وقـــدري!" فهـــي لا شك ستشعر بالسرور لسماعها هذه الكلمـــات، ثم فإنه سيقوم بالتحديق إلى عينيها، وقد يمدُّ يديه لالتقاط معصميها. "عليّ الاختلاء بك، وأريد أن أمتع عينيّ بجمالك كله، أريد الغـــرق في عينيـــك"، هذا ما سيقوله لها. أو لعله ينبغي أن يكون أقلّ تجـــرُّؤاً: "إنـــني لا أطلب الكثير، فقط أريد منك المرور بـــي عندما لا يكـــون لديك أيّ شاغل آخر؛ وسوف أكون متفهماً لك إذا رفضت طلبـــي، لكـــن ربمـــا تستطيعين المرور مرة واحدة كل أسبوع على الأقل؟".

وربما يمكنه أن يقطع لها بعض الوعود: "عندما أبلغ الثامنة عشرة، فإنني سأتزوج".

عندها يجب أن يكون قد صار منصور صاحب السيارة الفخمة، منـــصور صاحب المحل التجاري الممتاز، منصور الذي يدفع البقشيش الـــسخي، منـــصور الـــذي لا يلبس سوى الملابس الغربية. يجب عليه إغـــراؤها بمستوى الحياة التي ستعيشها معه. "سيكون لك منـــزل كبير له حديقة وكثير من الخدم، وسنقضي إجازاتنا في سفرات نقوم بها إلى خـــارج البلاد". كما أن عليه أن يجعلها تشعر بأنها شخص عزيز مميز، منتقـــى بعـــناية، وأن تكون دارية بمبلغ ما تعنيه بالنسبة إليه. "لا أحب سواك، وكل لحظة أمضيها بدونك ليست سوى عذاب".

فإذا لم تجاره في أمنياته، فإن عليه أن يصير أكثر دراماتيكية. "إذا قـــررت أن تنبذيني. فإن عليك أن تقومي بقتلي أولاً! وإلاّ فإنني سأقوم بإشعال العالم بأسره!".

لكن الطالبة لم تعد إليه في اليوم الذي تلا الغداء في المطعم، ولا في اليوم الذي تلاه أيضاً. ويستمر منصور في متابعة الإعداد لأحاديثه، لكنه يـــصبح مغموماً متشائماً أكثر فأكثر. أتكون لا تحبه؟ أيكون أهلها قد

اكتشفوا ما قامت بفعله؟ هل قاموا بمنعها من الخروج من البيت؟ هل رآهما أحد وقام بإفشاء سرهما؟ أيكون هذا الشخص قريباً، أو جاراً؟ هل زلّ لسانه معها بكلام سخيف؟

ويقطع عليه رجل عجوز يتوكأ على عصا، ويعتمر عمامة كبيرة، حبل أفكاره المتلاطمة. يلقي التحية على منصور بلهجة مدمدمة سائلاً عن كتاب ديني. يجد منصور الكتاب ويرميه أمام الرجل على النّضد. فهو لم يعد منصور فاتن النساء، إنه مجرد منصور ابن الكتبي، الابن الذي يحلم أحلاماً وردية.

ويطول انتظار منصور لها في كل يوم. ويغلق كل يوم باب مكتبته دون أن تكون قد جاءت لزيارته. لقد صارت الساعات التي يطويها في المكتبة ساعات رهيبة.

* * *

وفي الشارع الذي تقع فيه مكتبة سلطان يوجد العديد من المكتبات الأخرى، كما من المحالّ التي تبيع القرطاسية وتقوم بتجليد الكتب أو استنساخ الوثائق للناس. ورحيم الله يعمل في واحد من هذه المحالّ. وهو يقوم في بعض الأحيان بالمرور على منصور لشرب الشاي والنميمة. وفي هذه المرة يشكو منصور همه لصديقه رحيم الله الذي يكتفي بالاستغراق في الضحك.

"ما كان عليك أن تلتقط طالبة. فالطالبات متشددات في عفافهن. حاول أن تجد لك واحدة من اللواتي هنّ في حاجة إلى المال. والشحاذات هن أسهلهن منالاً. وبعض الشحاذات لسن بالسيئات جداً. وإلاّ فعليك بالذهاب إلى المكان الذي تقوم فيه مكاتب هيئة الأمم المتحدة بتوزيع الطحين والزيت. فستجد هنالك الكثيرات من الأرامل الصبايا".

يفتح منصور فمه من فرط الدهشة. فهو يعرف الركن الذي يجري فيه توزيع المواد الغذائية على أكثر الناس حاجة وفقراً، وفي طليعتهم النساء اللواتي رمّلتهن الحرب، والأطفال الصغار. فهنّ يحصلن على قسيمة غذائية في كل شهر. وبعضهن يبقين واقفات عند الناصية في محاولة منهن لاستبدال حصتهن العينية الغذائية ببعض النقود.

"اذهب إلى هناك وفتّش عن واحدة تبدو شابة. اشترِ منها قارورة زيت، واطلب منها المجيء إلى هنا. *إذا جئت إلى دكاني، فسوف أقوم بمساعدتكِ في المستقبل*، هذا ما أقوله لهنّ في العادة. وعندما تأتي الواحدة منهن أعرضُ عليها بعض النقود، وأُدخلها إلى الغرفة الخلفية. وهنّ في العادة يدخلن لابسات البوركا، ويخرجن وهنّ لابسات البوركا أيضاً؛ لذلك فإنهنّ لا يستثرن شكوك أحد. وهكذا، فإنني أحصل على بغيتي منهن. ويحصلن هنّ على نقود لأطفالهن".

ينظر منصور إلى رحيم الله وهو غير قادر على تصديقه. يفتح رحيم الله باباً إلى الغرفة الداخلية، وهي غرفة لا تكاد مساحتها تبلغ تسع أقدام مربعة. على الأرض فُرشت مجموعة من صناديق الكرتون الفارغة التي جرى تسطيحها، وهي صناديق متسخة تحت وطأة دوس الأقدام. وثمة لطخات سوداء هنا وهنالك على صفحة الكرتون.

"... وعندما تصل الواحدة منهن إلى هذه المرحلة فإنه يصبح من الصعب عليها الندم. ولن يكون من المفيد لها أن تلجأ إلى الصراخ، ذلك لأنه لو دخل أحد لنجدتها فإن الخطأ سوف يكون لاصقاً بها بصرف النظر عن كل اعتبار. فالفضيحة كفيلة بتدمير كل حياتها. والأمر سهل مع الأرامل. لكن مع الفتيات الصغيرات ومع العذارى،

فـإن الأمر مختلف، لذلك فإنني أتخذ لنفسي احتياطات إضافية معهن" يقول هذا التاجر.

ويحملق منصور في وجه هذا البائع في غير تصديق. إذ كيف يمكنه أن يتحدث عن مثل هذه الأمور بهذه العفوية والسهولة؟

وعـندما يقف بين حشد البوركات الزرقاء في عصر ذلك اليوم نفسه، فإنه يدرك أن الأمر ليس بالسهولة التي رواها له صديقه التاجر. ويشتري قارورة زيت من إحداهن. لكن نظرة منه إلى يدي المرأة البائعة جعلـته يتـيقن أنهما يدان خشنتان متشققتان أبلاهما الزمان. ويلتفت حـوله فـلا يرى شيئاً سوى الفقر المدقع. لذلك، فهو يلقي بقارورة الزيت عند المقعد الخلفي لسيارته وينطلق بها.

* * *

وكـان قد تخلّى عن دراسة العبارات المأخوذة من سيناريوهات أفـلام بوليوود. لكنه يعتقد بعد كل شيء، أنه سوف يحتاج إلى هذه العـبارات. وتـدخل فتاة صغيرة إلى مكتبته وتسأله عن قاموس للغة الإنكليـزية. يلـبس منـصور على وجهه أفضل سلوك ساحر مغرٍ. ويكتـشف منها أنها طالبة مسجلة في دورات اللغة الإنكليزية لصفوف المبتدئين. وهنا يعرض الابن الشهم لبائع الكتب خدماته على الفتاة.

"قليلون هم الناس الذين يدخلون إلى محلنا، لذلك فإنني أستطيع أن أسـاعدك في تصحيح الفروض التي تُعطى لك بين وقت وآخر". لكن الفتاة ذهبت ولم ترجع أبداً.

"إن قلبـي آثم"، يسرُّ إلى أخيه الأصغر. فهو يعرف أن عليه ألاّ يفكر بالفتيات.

وفي أحـد الأيام، يكون في زيارة لرحيم الله، فتدخل فتاة صغيرة إلى الـدكان. وهي قد تكون في الثانية عشرة، أو في الرابعة عشرة من عمرها.

تمدُّ إليهما يداً قذرة طالبةً منهما الصدقة. كانت تغطي رأسها بمنديل أبيض متسخ مُطبّع بورود حمراء. فهي لا تزال صغيرة على ارتداء البوركا. فاشتراط ارتداء البوركا لا يتوجب على الفتاة إلا بعد بلوغها النضج.

والمتسولون كثيراً ما يدخلون إلى الدكاكين. ومنصور لا يتأخر في العادة عن إكرامهم. لكن رحيم الله يبقى واقفاً، وهو يراقب الوجه الطفولي الذي يشبه القلب، ثم يستخرج عشر ورقات من البنكنوت من جيبه. وتنظر الفتاة المتسولة إلى رزمة النقود بعينين واسعتين مندهشتين، وتمدُّ يدها لالتقاف الأوراق في جشع. ولكن حالما تقترب أناملها من النقود، فإن رحيم الله يسحب يده في سرعة خاطفة. ثم يقوم بعمل دائرة كبيرة في الهواء حول وجه الفتاة مستعملاً الأوراق النقدية، مبقياً نظرته المسمَّرة عليها.

"لا شيء يأتي في هذه الحياة دون مقابل"، يقول لها.

تتجمّد يد الفتاة. ويقوم رحيم الله بإعطائها ورقتين منها فقط.

"اذهبي إلى الحمّام، استحمي، ثم عودي إليَّ كي أعطيك بقية النقود".

تضع النقود بسرعة في جيب فستانها ثم تخبّئ وجهها خلف شالها القذر المُطبّع بالورود الحمراء، وتنظر إليه من خلال عين واحدة. ويكون على أحد خديها آثار بثور ناتجة عن قروح قديمة. كما أن البعوض قد ترك آثار لسعاته فوق جبينها. تستدير وتخرج؛ ويختفي الجسد النحيل في شوارع كابول.

وبعد ساعات قليلة تعود الفتاة وهي نظيفة.

"آه، تباً لك"، يقول رحيم الله، رغم أنها ما زالت ترتدي الثياب المتسخة نفسها. "تعالي معي إلى الغرفة الداخلية وسوف أعطيك بقية النقود". يبتسم لها ويدخلان إلى داخل الغرفة.

ويبقى منصور في غير راحة، متروكاً لوحده في الدكان؛ وهو لا يدري ما إذا كان عليه أن يغادر ذلك المكان. وفجأةً يخرج البائع إليه.

"هي الآن لك"، يقول لمنصور.

يستجمّد منصور في مكانه. يحدّق إلى رحيم الله. يلقي نظرةً إلى الباب المؤدّي إلى الغرفة الخلفية، ثم يترك الحانوت ويخرج إلى الشارع مسرعاً.

نداءٌ من عليّ

يلازمــه شعور بالسقم والقرف والحزن لمدة أيام. إنها خطيئة "لا تغتفــر" يدور في باله. "لن يسامحني الله". يحاول أن يغتسل وأن يتطهر، ولكــن لا شــيء ينفع. يحاول الصلاة، ولكن لا شيء يجدي. يلتمس القرآن الكريم، يتأبطه ويذهب إلى الجامع، لكنه ما زال يشعر بالقذارة، إنه قذر. فالأفكار الخبيثة كانت تتنامى في داخله منذ وقت طويل بحيث إنها حوّلته إلى مسلمٍ ضالٍّ عن الإسلام. ولا بدّ من أن الله سينــزل به أشــد العقاب، "فكل أعمال المرء مردودة عليه" يجول في خاطره. "إنها طفلــة. لقد ارتكبتُ جريمة بحق طفلة. لقد سمحتُ له بالاعتداء عليها. وإنني لم أفعل شيئاً من أجلها".

ويعود إليه الغثيان، ويحمل على كتفيه وزر العالم، ولكن بعد فترة مــن الزمن، فإن ذكرياته عن الفتاة المتسوّلة تتلاشى. لقد سئم الحياة، وروتينها، وعجقتها. صار سيئ الطباع، نفوراً تجاه الجميع. بات غاضباً مــن أبيه. إنه أبوه الذي قيّده إلى دكان الكتب، بينما الحياة تجري من دونه.

"إنــني في السابعة عشرة من عمري"، يعتقد. "وحياتي قد انتهت قبل أن تبدأ".

يجلس مستغرقاً في أفكاره الكئيبة خلف النضد، واضعاً مرفقيه على ظهر الطاولة، ودافناً رأسه بين راحتيه. يرفع رأسه ناظراً حوله إلى الكتب الكثيرة عن الإسلام، وعن النبي محمد (ص)، وعن التفاسير الشهيرة للقرآن الكريم. كما يرى كتباً عن الأساطير والخرافات الأفغانية، وكتباً عن السيَر الذاتية للملوك والملكات الأفغان، ومجلدات ضخمة حول الحروب التي دارت ضد البريطانيين، وكتباً رائعة حول الأحجار الكريمة الأفغانية، كتب تدريس عن فن الزخرفة والتطريز الأفغاني، وتوليفات مجمّعة من كتب مستنسخة حول التقاليد والعادات الأفغانية. يجيل النظر بعبوس في كل هذه الكتب، ثم يضرب قبضة يده على ظهر الطاولة بعنف.

"لماذا كُتب عليّ أن أولد في أفغانستان؟ إنني أكره أن أكون أفغانياً. كل هذه التقاليد والعادات الجامدة تقتلني ببطء. عليك أن تراعي هذا، وأن تحترم ذاك؛ ليس هنالك من حرية لي. لا يحق لي أن أقرِّر أي شيء. لا همَّ لسلطان، الذي هو والدي، سوى عدّ النقود الناتجة عن مبيعات الكتب". هذا ما كان يجول في خاطره. "ليأخذ كتبه كلها ويحشوها في..." يقول متمتماً آملاً ألاّ يكون أحد قد سمعه. إذ إن الأب يأتي مباشرة بعد الله والرسول في النظام الاجتماعي الأفغاني. فمعارضة الأب شيء مستحيل، حتى بالنسبة إلى متمرِّد من أمثال منصور. ومنصور يخاصم الجدران إن لم يجد أحداً سواها يخاصمه - عماته، أخواته، والدته، إخوته - لكنه أبداً لا يخاصم والده. "إنني عبد رقيق"، يقول لنفسه. "إنني مسخَّر حتى العظام في مقابل طعامي وشرابي ومنامي وملبسي". وأكثر ما يرغب منصور به هو أن يتمكن من الدراسة. فهو يفتقد الأصدقاء، ويفتقد الحياة التي عاشها في باكستان. أما هنا فلا وقت لديه للأصدقاء. أما الصديق الوحيد لديه، رحيم الله، فهو صديق لم تعد تطيق نفسه أن يراه.

* * *

كـــان الوقت قبيل بدء السنة الأفغانية الجديدة؛ النوروز. وكانت الاستعدادات تجري للاحتفالات الكبيرة في طول البلاد وعرضها. ففي الــسنوات الخمــس الماضــية، كانـــت طالبان قد حرّمت مثل هذه الاحــتفالات. لقــد اعتبرت الطالبان أن احتفالات النوروز ضربٌ من الوثنية، وضرب من عبادة الشمس، لأن جذور هذه الاحتفالات ترجع إلى الــدين الزارادشتي - عبادة النار - التي كانت قد نشأت في الأصل في بــلاد فارس في القرن السادس قبل الميلاد. وعليه، فإنهم حرّموا أيضاً زيــارة الـــسنة الجديـــدة إلى ضـــريح الإمام علي، الذي يسمّى المزار الــشريف. ولعدة قرون خلت، كان الزوّار يتقاطرون إلى ضريح الإمام علـــي أملاً في تطهير الأنفس من الذنوب والخطايا وفي التماس الغفران، أو مـــن أجل التشافي من الأمراض. وعيد رأس السنة، الكبير الذي يبدأ وفقاً للروزنامة الأفغانية في الحادي والعشرين من شهر آذار/مارس، أي عندما يتساوى الليل والنهار في فصل الربيع.

وعليّ هو ابن عم النبـــي محمد (ص) وصهره، وهو رابع الخلفاء الراشـــدين. وكـــان هـــو سبب الجدل العنيف الديني الذي نشب بين المسلمين الشيعة، فإن عليّ بالنسبة إلى الشيعة يأتي في الدرجة الثانية بعد محمـــد؛ أمـــا بالنـــسبة إلى المسلمين السنّة، من أمثال منصور ومعظم الأفغانـــيين، فإنهم يعتبرون علياً أحد أكبر أبطال الإسلام. فهو محارب شجاع، "عليٌّ هو سيف الإسلام" كما يقول التاريخ. ولقد قضى عليٌّ قتلاً في الكوفة عام 661م، ووفقاً لمعظم الروايات التاريخية. فإنه قد دُفن في الـــنجف في العراق. لكن الأفغان يصرّون على أن أتباع عليّ، الذين خافوا أن يقوم أعداؤه بالانتقام من جثمانه والاعتداء عليه بالتشويه بعد نبشه من قبره، فإنهم ربطوا جسده فوق ظهر ناقة بيضاء، وسرّحوها في الأرض جـــاعلين إياهـــا تـــسافر قدر مستطاعها. وعندما تعبت الناقة

وتلاشـت، دفنوه في ذلك المكان. وهذا ما تقوله الأسطورة، التي تحدِّد موقـع القبر في المكان الذي يُعرف الآن بــ: "المزار الشريف". ولمدة خمسمئة سنة، لم يكن هنالك من إشارة تدل على موقع هذا القبر سوى حجـر صغير، ولكن، في القرن الثاني عشر بُني فوق القبر ضريح صغير بعـد أن زار طـيف الإمام علي أحد الملالي المحليين في المنام. ثم وصل جنكيز خان إلى موقع القبر، وقام بانتهاك حرمته. ومرة جديدة، بقي القبر هـناك من دون إشارة تدل عليه لعدة مئات أخرى من السنين. وعند بداية القـرن الخامس عشر، بُني له ضريح ضخم فوق المكان الذي اعتقدوا أن رفـات جـثمان الإمام عليّ لا تزال فيه. ويتألف الضريح من المدفن ومن الجامع الذي بُني بجانبه، وهو المكان ذاته الذي يسعى إليه الزوّار.

وكـان منصور قد عقد العزم على القيام بهذه الزيارة. لقد كان يقلّـب هذا الأمر في رأسه منذ بعض الوقت. وكل ما كان يحتاج إليه، هـو أخذ موافقة والده سلطان، وخاصة أن رحلة الزيارة ستقتضي منه غـياب بـضعة أيام عن المكتبة. وإذا كان هنالك من شيء لا يطيقه سلطان، فهو أن يكون ابنه بعيداً عن البيت.

وكانـت الصدف حتى قد أوجدت لمنصور رفيقاً يرافقه في هذا الـسفر، رفيقاً له صفة الصحفي الإيراني، وهو زبون كان قد اعتاد أن يـبتاع بعض الكتب من مكتبته. فقد حدث أنه كان يتجاذب الحديث مـع الإيراني حول احتفالات السنة الجديدة، فقال له الأخير إنه يوجد متسع له في سيارته. "إن توبتي مستجابة" يقول منصور لنفسه، "إن علياً يدعوني، ويريد أن يسامحني".

لكـن سلطان لن يلبث سوى أن يقول لا. فكيف سيتدبر الأمور مـن دونه خلال الوقت الذي تحتاج إليه الرحلة حتى وإن لم يكن هذا الـوقت طويلاً. فلا بد من أنه سوف يحتج بأن على منصور أن يشرف

على أعمال النجار الذي سيقوم بتركيب رفوف جديدة، وأن عليه أن يــضع الكاتالوغات لأعماله، كما أن عليه أن يبيع الكتب، وخاصة أنه لا يمكــنه أن يضع ثقته حتى في صهره المستقبلي، رسول. يغلي منصور غــضباً. ولأنه قد تهيّب مفاتحة والده في الأمر، فإنه أرجأ هذا الحديث حــتى اللــيلة الأخــيرة التي ستسبق الرحلة. لكن هذا لن يحدث. بقي منصور يلحّ في طلب الموافقة بينما الأب باقٍ على موقفه الرافض.

"إنــك ولــدي، ومــن الخير لك أنْ تعمل بما أقوله لك"، يقول سلطان. "وإنني في حاجة إليك في المكتبة".

"كُتب، كُتب، وفلوس، فلوس؛ هذا هو كل ما يهمك وما يشغل تفكيرك"، يقول منصور صائحاً. "عليَّ أن أبيع الكتب عن أفغانستان، وأنــا لا أعرف أي مكان من الأمكنة فيها. فأنا لا أغادر كابول أبداً"، يقول بغضب.

إن الإيــراني ســينطلق في رحلته في صباح الغد. تثور ثائرة منصور. كــيف يمكــن لوالده أن يحرمه من هذه الفرصة؟ يقود السيارة بوالده إلى مكتبته دون أن ينبس بكلمة واحدة ويرد بإجابات مقتضبة كلما توجّه إليه والده بسؤال. فالكراهية المتراكمة لديه تجاه والده تغلي في صدره. فمنصور لم يكــن قد أنهى بعد سوى دراسة عشرة صفوف دراسية عندما أخرجه والــده من المدرسة ليلقي به في المكتبة. فهو حتى لم ينهِ دراسته الثانوية. أما طلــباته جميعاً فلا تلقى سوى إجابة واحدة من والده هي: "لا". والشيء الوحــيد الذي كان والده قد وهبه إياه هو هذه السيارة التي ليس من شأنها سوى تمكين منصور من تأمين تنقلات والده، هذا خلا عن مسؤولية هذه المكتبة التي سيتحوّل هو نفسه إلى غبار بين رفوفها.

"كما تشتهي وترغب"، يقول لوالده فجأة. "إنني سوف أفعل كل ما تطلبه مني، لكن أرجوك ألا تعتقد أنني سأفعل ذلك عن قناعة وطيب

خاطر. إنك لم تسمح لي مرة بأن أفعل ما أريده أنا. بل إنك تسحقني سحقاً".

"يمكنك الذهاب في السنة القادمة"، يقول سلطان.

"كلا، لن أذهب أبداً. ولن أقوم بطلب أي طلب آخر منك أبداً".

إنه من الشائع أن أولئك الذين يستدعيهم عليٌّ هم الذين يستطيعون الذهاب إلى المزار. لِمَ لا يريده عليٌّ أن يذهب؟ هل أفكاره التي فكّر فيها هي إلى هذه الدرجة من الاستعصاء على المغفرة؟ أم أن والده لم يسمع أن علياً يناديه؟

يشعر سلطان بقشعريرة جراء النبرة العدائية التي يكلمه بها ولده. يلقي نظرة إلى المراهق المتهور الذي يكاد ينفجر، فتصيبه رهبة.

وبعد أن يقود السيارة بوالده إلى محله، ويقود أخويه إلى محليهما، يفتح منصور مكتبته ويجلس وراء طاولته التي يعلوها الغبار. يجلس جلسته الجاثمة "الغارقة في الأفكار السوداء" مسنداً مرفقيه إلى الطاولة، وشاعراً أن الحياة تعامله كسجين، وتغرقه بغبائر الكتب.

وصلت طلبية جديدة من الكتب. ومن أجل الاطلاع على هيئة مضامينها فقط، فقد شعر أن عليه أن يرى ما بداخلها. فإذا بها دواوين أشعار للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي الذي هو أحد الشعراء المفضلين عند والده، وأحد أفضل الصوفيين الأفغان والمسلمين. وكان جلال الدين هذا قد ولد في مدينة بلخ في العقد الأول من القرن الثالث عشر، بالقرب من المزار الشريف. "لا بدّ من أن هذه إشارة أخرى، يدور في خلد منصور. يقرّر أن يتفحّص الإشارات التي تأتي في سياق تأييد خطته الهادفة إلى إقامة البرهان على خطأ والده. وتكون القصائد عن تطهير الإنسان لنفسه من أجل التقرب إلى الله الذي هو الكمال بعينه. قصائد تدور حول نبذ الأنانية والتخلي عن الذات. ويقول جلال الدين في إحداها:

"ليست الأنا
سوى حجاب
يحجب الخلائق
عن خالقهم".

ويكمـــل منصور القراءة ليرى كيف يستطيع أن يدير وجهه إلى الله، وكيف أن الحياة يجب أن تتمحور حول طاعة الله، وليس حول أنانية المرء. ويشعر منصور بالقذارة من جديد. وكلما ازداد قراءة، ازداد تصميمه على الزيارة. وهو لا ينفك عن العودة إلى القصائد الأكثر بساطة.

"قالت المياه للشخص المدنّس
أن 'تعالَ إليّ'.
وقال الشخص المدنس،
'يا لخجلي وعاري. كيف لي الاقتراب منكِ؟'
وأجابته المياه:
'ولكن كيف لخجلك أن يزول دون
أن تأتي إليّ للاغتسال؟'".

* * *

لا بـــد من أن الإيراني يتوقّل في هذه الساعة بسيارته جبال هندو كـــوش التي تكلّل الثلوج قممها. ويُمضي منصور نهاره بكامله غاضباً حانقـــاً. وعندما يهبط الليل ويأتي وقت إقفال المكتبة، للسعي لالتقاط والـــده وأخويه وقيادة السيارة بهم جميعاً إلى البيت، حيث لن يكون في انـــتظارهم سوى سلطانية أخرى من الأرز، وسهرة أخرى مع العائلة المخبّلة.

وعـــندما يـــضع الأقفال على المغلاق الثقيل لباب المكتبة، يظهر "أكبر"، الصحافي الإيراني، أمامه فجأة. ويخال منصور أنه لا يرى سوى شبح للرجل.

"ألم تسافر بعد؟" يسأله بصوت مندهش.

"بـــل ذهبنا، لكن نفق سالانغ كان مغلقاً هذا اليوم، لذلك فإننا سنعيد المحاولة غداً"، يقول له. "لقد قابلتُ والدك في الطريق، وقد طلب إليّ أن أقـــوم باصطحابك معي. وسوف نغادر من مسكني عند الساعة الخامسة من صباح غد، حالما يُرفع وقت حظر التجوال".

"هل قال ذلك لك بالفعل؟" يبدو منصور مذهلاً. "لا بدّ من أن علياً يناديني؛ تخيّل إنه حقاً قد ناداني"، يقول مغمغماً.

ويقـــضي منـــصور ليلته مع أكبر من أجل التأكد من أنه سوف يـــصحو باكـــراً، ومن أجل ضمان عدم قيام والده بتعديل رأيه. وفي الصباح التالي، وقبل بزوغ الفجر، ينطلقون. ولقد اقتصر متاع منصور على حقيبة بلاستيكية مليئة بقناني الكولا، والفانتا، وبالبسكويت المحشو بحلوى الموز والكيوي. ويكون في صحبة أكبر رفيق آخر، ويبدو الجميع في معنويات عالية. ويستمعون في السيارة إلى أشرطة من أغاني الأفلام الهـــندية وينشدون الأغاني بأعلى أصواتهم. ولقد أحضر منصور ثروته الغالـــية معـــه، شريط كاسيت غربـــي، شريط من أغاني البوب التي كانـــت شائعة في الثمانينيات. "ما الحب يا حبيبـــي؟ لا تعذّبني... لا تعـــذّبني أكثر من ذلك" تنطلق الأغنية في هواء الصباح البارد. وقبل أن يقطعـــوا مسافة نصف ساعة، كان منصور قد التهم ما في العلبة الأولى مـــن البسكويت وشرب قنينتي كوكاكولا. وها هو يشعر بالحرية، ها هو يريد أن يصرخ وينادي، لذلك فهو يُخرج رأسه من الشباك منادياً. "أوووه علي ي ي ي! ها أنذا قادم!".

ويمرون بمناطق لم يكن قد رآها من قبل، فبعد شمالي كابول مباشرة، يـــأتي سهل شومالي، الذي هو منطقة من أكثر الأماكن التي مزّقتها الحـــرب في أفغانـــستان. هنا كانت القنابل التي ألقت بها المقاتلات

الأميركية من طراز B-52 قد هزّت الأرض هزاً منذ أشهر قليلة فقط. "يا لجمال الطبيعة!" يصيح منصور. فعلى المدى البعيد يبدو هذا السهل شديد الجمال على خلفية من جبال هندو كوش الضخمة المكللة بالثلوج، والتي تشمخ في أعالي السماء. وعبارة "هندو كوش" تعني قاتل الهنود. حيث كان ألوف من الجنود الهنود قد تجمّدوا حتى الموت على هذه السلسلة من الجبال خلال الغارات التي شُنَّت على كابول.

فعندما يدخل الواحد السهل، فإن آثار ميدان المعارك تصبح واضحة. وبالمقارنة مع ما جرى مع الجنود الهنود، فإن سلسلة جبال هندو كوش لم تستطع أن تصدّ غارات قاذفات القنابل من طراز B-52. فالعديد من مخيمات الطالبان التي كانت الطائرات قد أمطرتها بالقنابل، كانت إزالة أنقاضها لم تتيسّر بعد. أما ملاجئهم وتحصيناتهم فكانت قد تحوّلت إلى صناديق إسمنتية كبيرة مدمرة أو مبعثرة فوق مساحة تلك المنطقة بعد انفجارها إثر ارتطام قنابل الطائرات بها. فهنا سرير حديدي ملتوٍ على نفسه، حيث قد يكون عنصر من الطالبان قد قتل بينما هو غافٍ على هذا السرير. إذ إن ثمة ما يشبه هيكلاً عظمياً إلى جانب الطريق، إضافة إلى فراش قد نخرته الشظايا، بالقرب من الهيكل العظمي.

لكن تلك المخيمات كانت قد نُهبت في أكثرها. نُهبت بعد مرور ساعات قليلة فقط على هروب طالبان. إذ لم يتأخر السكان المحليون كثيراً عن سلب أمتعة العسكريين، من أوعية لغسيل الأوجه والأيدي، إلى قناديل الزيت، إلى السجاجيد، إلى البُسط. فالفاقة جعلت نهب ما على الجثث أمراً لا محيد عنه. فلا أحد يأسف للأجساد الميتة على جوانب الطرقات وفوق الرمال. بل على العكس، فإن السكان المحليين قاموا بالتمثيل بعدد من هذه

الجـثث: فالأعين اقتلعت، والجلد جرى سلخه، وأعضاء الأجساد جرى بترها وتقطيعها إرباً. كان كل ذلك انتقاماً من الطالبان الذين قاموا بترويع سكان سهل شومالي لعدة سنوات.

فلمـدة خمس سنوات، كان هذا السهل يشكل خط الجبهة بين الطالبان وبين رجال مسعود المنتمين إلى تحالف قوات الشمال. وقد تمّ تبادل السيطرة على السهل ست مرات. لأن الجبهة كانت على الدوام في مـدٍّ وجـزر. وكان على السكان المحليين الهرب إما شمالاً في اتجاه وادي البانـشير، وإما جنوباً في اتجاه كابول. وكان السكان المحليون في غالبيـتهم من الطاجيك. وكل من يتجرّأ على الخروج يجازف بأن يقع ضحية للتطهير القبلي العرقي الذي يمارسه الطالبان. وقبل أن تنسحب قوات الطالبان، كانت قد قامت بتسميم الآبار، وفجّرت قساطل المياه، والـسدود، وهـي من الأمور شديدة الحيوية في سهل جاف كان قبل الحرب يشكل سلة الغذاء والخبز لمدينة كابول.

ويحدّق منصور في صمت إلى القرى الكئيبة التي يمرون بها، وهي التي كانت قد دمّرتها الحرب. فمعظم تلك القرى لم تعد سوى خرائب ومـبانٍ مدمرة ترتفع في الفضاء كالهياكل العظمية. لقد كانت قوات الطالـبان قد قامت بتدمير عدد من القرى تدميراً منهجياً حيث أزالتها تماماً، كان ذلك عندما حاولت طالبان قمع آخر جزء من البلاد، العُشر المفقود: وادي البانشير، جبال الـ: هندو كوش، والمناطق الصحراوية المتاخمة لطاجيكستان. ولربما كانوا قد استطاعوا إتمام خطتهم تلك لو لم تحدث أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، عندما بدأ العالم يتوجّه بأنظاره نحو أفغانستان.

كانت الدبابات الملتوية على نفسها، والعربات العسكرية المحطمة، والقطـع المعدنية المتناثرة التي لا يكاد منصور يعرف الغرض منها سوى

بـــالظن والتخمين، كلها مبعثرة على الأرض. وكان ثمة رجل مستوحد يسير خلف المحراث. وفي وسط الأرض التي يعمل على حراثتها يربض حطـــام دبابـــة كبيرة. وها هو يمشي بمشقة حولها؛ إنها ثقيلة ويصعب تحريكها.

وتتحـــرك السيارة في سرعة فوق الطريق المخدّد. ويحاول منصور جاهـــداً تحديـــد موقع قرية أمه. فهو لم يزرها منذ أن كان لا يزال في الخامسة أو السادسة من عمره. فإصبعه لا تنفك عن الإشارة إلى المزيد من الأطلال والخرائب. أتكون هي هناك! أم هناك! لكن لا شيء يفيد لتمييـــز قرية عن سواها. فالمكان الذي زار فيه أقارب أمه عندما كان ولـــداً صغيراً يمكن أن يكون هو أيٌّ من أكوام الأنقاض هذه. وهو ما زال يتذكر كيف كان يلهو ويلعب حول الممرات والحقول. والآن ها هـــو ذا الـــسهل الذي يعتبر من أكثر الأراضي في العالم كثافة بالألغام المـــزروعة. فالطـــرقات وحدها هي المأمونة. والأطفال الذين يحملون أغمـــاراً من حطب الموقد، والنساء الحاملات لدلاء من المياه، يسيرون إلى جانـــب الطريق. وهم يحاولون اجتناب الحفر، الحفر التي قد تكون مـــزروعة بالألغام. وتمر السيارة الحاملة للزوّار بفريق من منظفي الألغام الـــذين يقومـــون بطرائق منهجية إما بتفجير الألغام أو بتعطيلها. لكن ياردات قليلة هي التي ينتهي العمل من تنظيفها في كل يوم.

وبـــين مـــصائد الموت تمتلئ الحفر بالزنابق البرية الحمراء الداكنة قـــصيرة السيقان. لكن الاستمتاع بهذه الأزهار لا يمكن سوى أن يبقى من مسافة بعيدة. فمحاولة التقاط أي زهرة قد تعني انفجار لغم ينتهي ببتر ساق أو ذراع.

ويتسلّى أكبر بكتاب كانت قد نشرته منظمة السياحة الأفغانية في العام 1967. وجاء في الكتاب:

"علـــى امتداد الطرقات يلقى السائح أطفالاً يبيعون سلاسل من الـــزنابق الحمراء الوردية". ويتابع القراءة: "وفي فصل الربيع، تستلفت أزهـــار أشجار الكرز، والخوخ، واللوز، والكمثرى، أنظار المسافرين. فـــثمة مـــشهد زاهـــر يواكب سفر المسافر على أي طريق يسلكه إلى كابول" ويتضاحكون. ففي هذا الربيع لم يكونوا قد لاحظوا بعد سوى شجرة كرز واحدة، أو شجرتين متمردتين، كانتا قد أصرتا على العيش رغـــم القصف، والقنابل، والصواريخ التي عاثت في الأرض مدة ثلاث سنوات حتى أجدبتها، وسممت آبارها. ولكن حتى شجرات الكرز التي قاومت الموت حتى الآن كان يصعب العثور على ممر إليها يكون مأموناً مـــن دون وجـــود ألغام. ويتابع: "إن الخزف المحلي هو من بين أجمل الخزف الذي تنتجه أفغانستان. وإننا ننصح السائح بالتوقف لإلقاء نظرة على ورش العمل المنتشرة على جانبـــي الطريق، حيث يقوم الخزفيون بـــصناعة الصحون والمزهريات على الطريقة التقليدية التي توارثوها منذ قرون".

"يـــبدو أن هذه الحرف والتقاليد تشهد معاناة"، يقول سعيد، صديق أكبر، الذي كان يتولى قيادة السيارة. ليس هنالك من ورشة صناعة فخار واحدة تُمكن ملاحظتها إلى جانب الطريق المؤدّي إلى ممر سالانغ. يبدأون الآن في الـــصعود. يفتح منصور قنينة الكوكاكولا الثالثة ويفرغها في جوفه ثم يـــرميها إلى خارج نافذة السيارة. لعله من الأفضل رمي النفايات فوق حقل ألغام من إبقائها في داخل السيارة. ويستمر الطريق في التلوّي صعوداً إلى أعلـــى نفـــق جبلي في العالم. هنا يضيق الطريق حيث يصبح إلى أحد جانبيه منحدر الجبل الشاهق قاسي الانحدار، وإلى جانبه الآخر مياه جارية، تـــتحول في بعض الأحيان إلى شلال ساقط، لتعود بعد ذلك لاتخاذ شكل ساقية، "إن الحكومة قد بذرت بذور سمك الترويت في الأنهار. وفي غضون

سنوات قليلة ستكون هنالك مستعمرة من الأسماك القابلة للعيش باستمرار"، تابع أكبر قراءته. وليس ثمة أسماك ترويت في هذا النهر الآن. فالحكومة كان لها مشاغل أخرى تشغلها عن تربية الأسماك منذ أن قام مؤلفو هذا الدليل السياحي بوضعه.

فالدبابات المحترقة تربض في أماكن لا يمكن للعقل تصورها: في أسفل جنبات الأودية، في النهر، على نتوء واقع فوق صخرة شاهقة، إلى جانب الطرقات، منها ما هو مقلوب رأساً على عقب، ومنها ما هو محطم إلى قطع متناثرة. ويصل منصور في سرعة إلى رقم مئة بعد قليل من شروعه بعدِّ الدبابات المحطمة. ومعظم هذه الدبابات المحطمة تعود إلى أيام الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، وكانت قد دخلت عندما زحف الجيش الأحمر من الجمهوريات السوفياتية الوسطى في الشمال، وخال قادته أنهم قد أحكموا قبضتهم على الأفغانيين. لكن الروس سرعان ما سقطوا ضحايا الخطط الحربية الذكية للمجاهدين. إذ إن هؤلاء المجاهدين قد استداروا حول الروس متسلقين سلسلة الجبال كأنهم الماعز. ومن البعيد، من المواقع الكاشفة في الجبال، بات باستطاعتهم تحدي مواقع وتحركات الدبابات الروسية التي كانت تسير في خط أشبه بسير الأفعى في بطون الأودية. فحتى بأسلحتهم المصنّعة محلياً كان الفدائيون يتمتعون بوضع حَصِين عندما يقومون بنصب الكمائن. لقد كان جنود المجاهدين في كل مكان متنكرين بألبسة الرعيان، بينما كانت بنادق الكلاشينكوف تختفي تحت بطون الماعز. وكان باستطاعتهم القيام بهجمات مباغتة كلما احتاج الأمر منهم إلى ذلك.

"تحت بطون الماعز طويلة الشعر يمكنك حتى إخفاء قاذفات الصواريخ"، يروي أكبر، الذي كان قد قرأ كل ما وقعت عليه يداه عن الحرب التي خاضها المجاهدون ضد القوات السوفياتية.

والإسكندر الكبير كان قد كابد سلوك طرقات هذه الجبال أيضاً. فبعد أن تمكّن من السيطرة على المنطقة المحيطة بكابول، تسلّق بجيشه سلسلة جبال هندو كوش شاقاً طريقه نحو آسيا الوسطى الواقعة على الجانب الآخر من نهر الأوكسوس. "لا بدّ من أن الإسكندر قد استلهم قصائد غنائية من الجبال التي 'ألهمت بالأفكار الصوفية والسكينة الأبدية'". يتابع أكبر قراءته من الكتاب.

"لقد وضعت الحكومة خططاً لإقامة مركز للتزلج هنا"، يصيح فجأة وهو ينظر إلى المنبسطات الجبلية شديدة الانحدار. "في العام 1967! حالما ينتهي العمل من تعبيد الطرقات، كما ذُكر في الكتاب!".

وكانت الطرقات قد تمّ تعبيدها كما وعدت منظمة السياحة الأفغانية، لكن لم يبقَ الكثير من الحجارة المرصوفة فيها. أما خطط إقامة مركز للتزلج، فلم تتعدَّ كونها قد بقيت حبراً على ورق.

"إن مركز التزلج قد استبدل بحفائر المتفجرات". يقول أكبر متضاحكاً. "أو لربما يمكن تسمية هذه الألغام بأنها 'سلالوم غايتس'، (بقصد فضيحة مشروع حقل التزلج)، أو 'الرّحّالة المغامرون'! أو 'الرحلات الأفغانية المثيرة' - تحت وطأة ضجر الدنيا".

ويتضاحك الجميع. فالحقيقة التراجيدية تتجلّى أحياناً بما هو أشبه بفيلم كرتون، أو ربما بفيلم رعب. فهم يتخيلون المنحدرات الثلجية بهيجة الألوان والمنظر وهي تنفجر إلى نثار متطاير في الفضاء ومتهيّل على حوافّ الجبل.

إن السياحة التي كانت تمثل مصدراً هاماً للدخل القومي في أفغانستان قد باتت الآن شيئاً من الماضي. ويتابعون القيادة على طول ما كان قد سُمّي يوماً "طريق الهيبيين". فقد كان الشباب التقدمي، أو بالأحرى اللاتقدمي بما فيه الكفاية، قد أتى إلى أفغانستان للاستمتاع

بالمناظـــر الطبيعية الجميلة، والحياة البرية البدائية، ومادة حشيشة الكيف المتوفـــرة بأســـعار رخيصة لا تضاهى في أي مكان آخر من العالم. أما بالنـــسبة إلى أولئك الذين هم أكثر توغلاً في حياة المخدرات، فهنالك الأفيون أيضاً. ففي فترة الستينيات والسبعينيات، كان الهيبيون يأتون إلى هـــذه الأرياف الجبلية في كل عام، حيث يستأجرون سيارات قديمة من طراز لادا وينطلقون بها، حتى النساء كنَّ يسافرن لوحدهن حول تلك المـــنطقة الجبلـــية. ففـــي تلك الأيام، كان من الممكن أن يقوم قطّاع الطرقات والسلابون بمهاجمة أولئك السواح، لكن كل ذلك لم يكن من شـــأنه أن يزيد الرحلة إلا إثارة. فحتى الانقلاب العسكري الذي جرى ضـــد زاهر شاه في العام 1973، فشل في وقف موجات تلك السياحة المـــثيرة. لقـــد كان الانقلاب العسكري الشيوعي في العام 1978، وما أعقبه من غزو سوفياتي بعد ذلك بعام واحد، هو ما وضع في نهاية الأمر حداً لموجة متسلقي الجبال من الهيبيين.

* * *

كـــان الـــشباب الـــثلاثة قد أمضوا ساعتين من القيادة، قبل أن يلـــتحقوا بـــذيل قافلة سيارات الزوّار لكن القافلة لا تتحرك الآن لأن الثلج قد بدأ بالتساقط. ثم تحركت جحافل الضباب، وبدأت عجلات السيارة تنـــزلق أثناء المسير. ولم يكن سعيد قد زوّد العجلات بسلاسل معدنية أو احتاط لنفسه بحمل طاقم من السلاسل في سيارته. "إنك لا تحـــتاج إلى سلاســـل مـــع سيارات الدفع الرباعي"، قال لرفاقه مؤكداً.

ويتزايد عدد السيارات التي تدور عجلاتها في مكانها لدى وقوعها في الأخاديـــد العمـــيقة المغطاة بالثلوج، والموجودة في وسط الطريق. وعـــندما تتوقف سيارة واحدة، يتوقف خلفها كل طابور السيارات.

فالطريق ضيق جداً بحيث إنه لا يُسمح بالتجاوز. واليوم يتجه السير في اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب، أي من كابول إلى المزار الشريف، أمـــا في اليوم الذي يليه فسوف يكون اتجاه السير في العكس. فالطريق الجبلي لا يستوعب إمكانية قيادة السيارات عليه في الاتجاهين المتعاكسين. والطريق الذي يبلغ طوله ثلاثمئة ميل من كابول إلى المزار يستغرق على الأقل اثنتي عشرة ساعة لإكمال السفر عليه، وأحياناً قد يستغرق الأمر ضعف هذا الوقت أو حتى أربعة أضعافه.

"كثير من السيارات التي تنحرف بها العواصف الثلجية، أو تجرفها الانهـــيارات الجليدية، لا يمكن استخراجها من الأماكن التي تستقر فيها إلاّ في فـــصل الصيف. ومعظم هذه السيارات تختفي في فصل الربيع"، يقول أكبر مناكفاً سعيداً.

يـــتجاوزون الحافلة التي تسبَّبت باحتقان السير، كانت قد دُفعت يميـــناً إلى شمـــال الطريق، بينما الركاب الذين كانوا يستقلونها يحاولون الآن متابعة طريقهم إلى المزار عن طريق التماس الركوب في السيارات الأخـــرى التي قد تتوقف لالتقاط بعضهم، يمرون في محاذاة قافلة ركاب الحافلـــة المنتـــشرين. ويبتسم منصور عندما يرى الكلام المكتوب على جانب الحافلة: "هامبورك - فرانكفورك - لاندن - كابال"، يقرأ وهو يغرق بالضحك عندما يرى طريقة تهجئة حروف العبارة المكتوبة على الزجاج الأمامي أيضاً: "Wellcam! Kaing of Road" وهي مكتوبة بخـــط أحمر حديد. "يا لها من رحلة ملكية" يصيح باستهزاء، لم يلتقطوا معهم أياً من ركاب الحافلة، حافلة ركاب إكسبرس. فسعيد، ومنصور، وأكبر غارقون في عالمهم الصغير.

يقـــودون ســـيارتهم إلى أن يصلوا إلى الرواق الأول؛ أعمدة من الكونكريت الصلب يغطيها سقف يحمي الطريق من الانهيارات الثلجية.

لكن هذه الأروقة بقيت رغم ذلك عقبات صعبة من الطريق يصعب التغلب عليها. والسبب يعود إلى أن هذه الممرات بقيت مفتوحة الجانبين أمام عناصر الطبيعة، لذلك فهي مليئة بالثلوج التي تذروها الرياح إلى داخلها ثم تتحول بعد ذلك إلى جليد. فالحفر العميقة المغطاة بالجليد تبقى تشكل تحدياً للسيارات حتى التي لها عجلات مزوّدة بسلاسل.

وتلك الأروقة التي يبلغ علو موقع بعضها ستة عشر ألف قدم فوق سطح البحر، ونفق سالانغ الذي يعلو أحد عشر ألف قدم فوق سطح البحر، عبارة عن هدية مقدمة إلى أفغانستان عندما حاول الاتحاد السوفياتي تحويل هذه البلاد إلى دولة تسير في فلكه. لقد بدأ العمل مع المهندسين السوفيات في العام 1956، وانتهى في العام 1964. كما أن الروس كانوا قد بدأوا تعبيد أولى الطرقات في البلاد في الخمسينيات خلال فترة حكم الملك زاهر شاه لأفغانستان حينما كان السوفيات يعتبرون أفغانستان دولة صديقة. لقد وجد هذا الملك الليبرالي نفسه مجبراً على التحول نحو الاتحاد السوفياتي لأنه وجد أن لا الولايات المتحدة، ولا أوروبا، مهتمتان بالاستثمار في بلاده الجبلية. وكان الملك في حاجة إلى الأموال وإلى الخبرات. لذلك فإنه اختار أن يتجاهل الحقيقة التي تقول: إن العلاقات والروابط مع الاتحاد السوفياتي تصبح صعبة الانفكاك أكثر فأكثر.

لقد كان هذا النفق ذا أهمية استراتيجية في المقاومة ضد منظمة الطالبان. وفي نهاية التسعينيات كان قد جرى نسفه على يد بطل المجاهدين مسعود، وذلك في سعي مستميت منه لوقف زحف طالبان نحو الشمال. لذلك فقد وصل رجال الطالبان إلى تلك النقطة و لم يتمكنوا من تعديها.

كـــان الطريق إما معتماً تماماً، وإما أغبش تماماً. والسيارة تنـــزلق وتغوص في الثلوج، أو تعلق عجلاتها في الحفر العميقة. وكانت الرياح تـــصفر، ولا يقـــدر المرء تمييز شيء في تلك العاصفة الثلجية. ولم يكن سـعيد ليـستطيع تتبع سوى ما يعتقد أنه أثر الطريق. فهم يقودون سيارتهم فوق الثلج والجليد الأسود.

وتنقـشع الـرؤية قليلاً. وها هم عند مدخل نفق سالانغ. وثمة ملاحظة عند المدخل تحذّر المسافرين: "نرجو الانتباه. خطر التسمم. إذا علقـت سيارتكم في الداخل، أوقفوا عمل المحرك وتوجهوا إلى أقرب مخرج". وينظر منصور نظرة متسائلة في اتجاه أكبر.

"مـنذ شـهر واحد فقط، كان خمسون شخصاً قد احتجزوا في داخـل الـنفق بسبب انهيار ثلجي"، يقول لهم رفيقهم العارف، أكبر. "كانـت الحـرارة حوالى عشرين درجة تحت الصفر وقد أبقى السائق المحرك قيد العمل أملاً في إبقائه دافئاً. وبعد عدة ساعات، وبعدما تمكنوا من جرف جميع الثلوج، كان عشرة أو عشرون من الركاب قد سقطوا في حالـة إغمـاء بسبب التسمم بغاز أول أوكسيد الكربون وماتوا"، يقول أكبر بينما هم يدخلون بعربتهم إلى داخل النفق.

تتوقف سيارة، ويتوقف تقدم رتل السيارات بكامله.

"إنـني واثـق من أنني لست في حالة تخيُّل"، يقول أكبر. "لكنني أشعر أن صداعاً ينتابني".

"أوافقـك الـرأي"، قـال منصور. "هل علينا الاتجاه نحو أقرب المنافذ؟".

"لا دعنا نأمل في أن يتحرك السير قريباً"، قال سعيد. "إنني أتخيّل أنه إذا بدأ رتل السيارات بالتحرك وكنا قد غادرنا السيارة، فإننا سوف نكون نحن سبب عرقلة سير الآخرين".

"هل يشعر هكذا من يموت بسبب التسمم بأول أوكسيد الكربون؟" يتساءل منصور. فهم يجلسون خلف شبابيك السيارة المغلقة. ويقوم سعيد بإشعال سيجارة، فيصرخ به منصور: "هل أنت مجنون؟" يصيح أكبر نازعاً السيجارة من فم سعيد، ثم يقوم بإطفائها: "هل تريد القيام بتسميمنا أكثر مما نحن متسممون؟".

وينتشر شعور خانق بالرعب. فالرتل لا يزال على حاله من توقف الحركة. ثم يحدث شيء ما، فتتحرك السيارات التي هي أمام سيارتهم إلى الأمام. ثم تقوم السيارة التي تتقدم سيارتهم مباشرة باتخاذ طريقها إلى خارج النفق ويخرجون هم منه بصداع يكاد يفلق رؤوسهم. أما عندما يصدمهم الهواء النقي، فإن كل الصداع يتبخر. لكنهم لا يزالون يعانون من عدم انقشاع الرؤية، فالضباب أشبه بدوامة من العصيدة البيضاء الرمادية المدوِّمة. لذلك فإنهم يتابعون الأنوار الذيلية للسيارة التي تتقدمهم مباشرة. ولقد كان التحول عن ذلك مستحيلاً. ويتابعون القيادة خلف هذا الموكب الذي بات قَدَرهم السير وراءه كيفما استدار. وكل زائر يتابع النزول في الحفر المغطاة بالجليد ذاتها. حتى منصور توقف عن قضم البسكويت. صارت القيادة أشبه بالتوجه نحو الهاوية، ولكن هذه الهاوية فيها ما فيها من المنحدرات الشاهقة، والانهيارات الثلجية، والألغام، وسواها من المخاطر التي قد تظهر فجأة.

وأخيراً ينقشع الضباب، لكنهم ما زالوا يقودون على طريق واقع على حافة جرف. لقد باتت الأمور الآن أسوأ بالنسبة إليهم لأنهم صاروا يستطيعون رؤية الخطر المحيق بهم. لقد بدأوا الآن بالانحدار. والسيارة تنزاح من جانب إلى جانب. وفجأة تنزلق بهم إلى جانب الطريق. يفقد سعيد سيطرته على السيارة فتنطلق شتيمة من فمه. يبقى أكبر ومنصور متمسكين بمكانيهما بشدة، كما لو أن ذلك قد

يساعدهما إذا انقلبت السيارة. ويرين صمت متوتر من جديد على جو السيارة التي لا تلبث أن تنـزلق من جديد لتصحِّح مسارها ثم لتنـزلق مـرة أخـرى من جانب لآخر، ثم لتتابع سيرها، ثم يمرون بالقرب من إشـارة تنبيه يكاد رعبها يطفئ كل أبصارهم. "انتبه! ألغام!" وتكون الإشـارة موجـودة في نقطـة تقع عند حدود المجال الذي انـزلقت سـيارتهم إلـيه؛ بل إنها تقع داخل هذا المجال. إنهم دخلوا حقل ألغام. فجميع تراكمات الثلج في العالم لا يمكنها أن تقيهم شر الألغام المضادة للـدروع. 'هـذا ضرب من الجنون'، يخيّل إلى منصور، لكنه لا يقول شـيئاً. فهـو لا يريد أن يبدو جباناً. ومع كل ذلك، فإنه الأصغر سناً بينهم. ويلقـي نظـرة إلى الدبابات المبعثرة على الثلج، حيث يغطي بعـضها، كما يغطي بعض السيارات التي لم تستطع مرة متابعة السير. ويصلي منصور. فمع أن سلوكه في بعض الأحيان كان مخالفاً للإسلام، إلاّ أنـه الآن ذاهـب من أجل تطهير نفسه، ومن أجل رمي الأفكار الفاسدة وراء ظهره وتصيير نفسه مسلماً نقياً. وفي الوصلة الأخيرة من الطريق المنحدر من الجبل يخال منصور نفسه في حالة ذهول عن النفس.

ويدخلـون السهول الخالية من الثلوج بعد فترة بدت لهم وكأنها الأبـد الذي لا يريد أن ينتهي. فالساعات الأخيرة من رحلة السفر إلى المـزار الشريف بدت لهم وكأنها لهو أطفال، بالمقارنة إلى الساعات التي سبقتها.

وعلـى الطريق المؤدّي إلى المدينة، تتجاوزهم سيارات بيك آب محمّلـة بـرجال مسلحين بكثافة. وهناك جنود ملتحون يجلسون فوق شاحنات مكشوفة وهم يحملون بنادق الكلاشينكوف المصوبة نحو كل اتجـاه. شـاحنات تتخبّط في طريقها وهي تسير بسرعة ستين ميلاً في الساعة فوق طريق مليء بالأخاديد. أما المشهد الطبيعي المحيط فمشهد

صحراوي، تتخلله سهوب متدرجة، وتلال صخرية. ومن وقت لآخر، يمرون قرب واحة خضراء صغيرة، أو بالقرب من قرى ذات بيوت من الطــين. وعند مدخل المدينة يتوقفون عند متراس يقوم رجاله بإيقافهم عنده. رجال أجلاف يقومون بتسييرهم داخل خط عبور هو عبارة عن حبال مربوطة إلى قذائف مدفعية.

ويقــودون سيارهم إلى داخل المدينة وقد أعياهم التعب والمشقة. والملفت أنهم تمكنوا من إتمام الرحلة بكاملها في اثنتي عشرة ساعة، "إذاً، هذه كانت رحلة عادية بالكامل عبر نفق سالانغ"، يقول منصور. "ماذا عن أولئك الذين تستغرق الرحلة منهم عدة أيام؟ واو!.

ويكــون الجنود المسلحون جاهزين فوق الأسطح. فالاضطرابات أمر كان متوقعاً عند بداية السنة الجديدة، ولا توجد قوات حفظ سلام دولــية في هذه المنطقة، إذ لا يوجد فيها سوى اثنين أو ثلاثة من أمراء الحــرب المتخاصــمين. أما الجنود المنتشرون فوق الأسطح فكانوا من جــنود الحــاكم الذي ينتمي إلى قبيلة هزارة. أما الجنود الذين هم في الــشاحنات، فهم من الطاجيك المنتمين إلى القائد عطا محمد. وثمة زيّ عــسكري خاص، هو الإشارة الفارقة إلى رجال القائد الأوزبكي عبد الرشــيد دوســتم. كــل الأسلحة مصوبة نحو الأرض، حيث يتجوّل الألوف من الزوّار في الجوار أو يجلسون في جماعات لتبادل الحديث: إما بجانب المسجد، أو في ساحته، أو على الطرقات المحاذية له.

والمسجد الأزرق آية في التحلي والروعة في إشراقه وسط العتمة. إنه أجمل الأبنية التي كانت قد شاهدتها عينا منصور على الإطلاق. أما الأنــوار الغامرة للمسجد فهي هدية من السفارة الأميركية، وذلك لمناسبة زيــارة الــسفير إلى هذه المدينة عشية رأس السنة. والمصابيح الحمراء تضيء الميدان المحيط بالمسجد، ذلك الميدان الذي هو حاشد بالزوّار.

هذا هو المكان الذي سيتوسّل فيه منصور الصفح والغفران والتطهر من الذنوب والخطايا. هنا سيعود طاهراً نقياً. فهو يكاد أن يغمى عليه لمجرد إلقاء نظرة على المسجد الكبير. ولأنه جائع، فإن الكوكاكولا والبسكويت المحشو بنكهة الكيوي والموز هي أشحُّ الزاد الذي يمكن أن يتوفّر للمسافر.

"المطاعم حاشدة بالحجاج"، قال منصور. وهكذا، فإن أكبر قد أوجد لهم زاوية على بساط في مطعم مظلم في شارع الكبّاب. أما الرائحة التي تخترق كل شيء، فهي روائح لحوم الضأن المشوية التي تُقدَّم مع الخبز والبصل غير المقطّع.

ويعضُّ منصور على بصلة، فيشعر وكأنه ثمل. فهو يريد أن يرسل عقيرته بالصياح طرباً. لكنه يكتفي بالجلوس في هدوء، ويملأ معدته بالطعام، مثله في ذلك مثل سواه. فهو لم يعد طفلاً قاصراً، وهو يحاول أن يحافظ على مظهر في السلوك يضارع مظهر سعيد وأكبر: مظهر الشخص البارد، الهادئ، الرصين.

* * *

وفي صباح اليوم التالي، يستيقظ منصور على صوت المؤذن، على عبارة الله أكبر، التي تصدح من مكبر الصوت. وينظر مباشرة من الشباك في اتجاه الجامع الأزرق الذي يتلألأ تحت أشعة شمس الصباح. وثمة المئات من الحمائم البيضاء تحلّق في سماء ذلك المكان. هذه الحمائم تسكن في برجين قريبين من الضريح. ويقال إن حمامة رمادية إذا انضمت إلى ذلك السرب، لا بدّ من أن يتحول لونها إلى اللون الأبيض في غضون أربعين يوماً. كما أن هنالك قولاً مفاده: إن الحمامة السابعة من كل ستّ حمامات تكون عبارة عن روح تقية.

وإلى جانب أكبر وسعيد، يدفع منصور بنفسه إلى داخل الصيوان المسوّر. وكانت الساعة حوالى السابعة والنصف صباحاً. وبفضل من بطاقة أكبر الصحافية، فإن الثلاثة يشقون طريقهم نحو المنصّة. وكان الكثيرون قد أمضوا ليلتهم في هذا المكان من أجل تأمين مكان لهم يكون قريباً إلى المكان الذي سيرفع فيه حامد كارضاي، الذي هو الآن رئيس أفغانستان، الراية. فالنسوة يجلسن إلى جانب معين، وبعضهن يتلفعن بعباءات البوركا، وبعضهن يكتفين بمنديل أبيض فقط. وعلى الجانب المقابل يجلس الرجال. وبينما تجلس النساء مصغيات صامتات على أدم الأرض، فإن جناح الرجال يشهد تدافعاً، ومداً وجزراً. والأشجار الخارجية سوداء بالأناس الذين تسلقوا أغصانها. ورجال البوليس يتجولون بين الناس ملوّحين بسياطهم، لكن المزيد والمزيد من الزوّار يتدفقون من خلال فتحة الصيوان؛ حتى إن بعضهم لا يتورّع عن القفز من فوقه متحاشياً لسع السياط. فالأمن هنا مشدّد، لأن حضور جميع وزراء الحكومة هو أمر متوقع.

ويدخل الرسميون الحكوميون، يتقدمهم حامد كارضاي، وهو يلبس عباءة حريرية مخططة بالأزرق والأخضر. لقد اختار هذا اللباس لكي يمثل فيه كل أفغانستان. فمن القبعة المصنوعة من جلد الخراف، وهي قبعة تأتي من قندهار في الجنوب، إلى العباءة الآتية من الشمال، إلى القميص الآتي من المناطق الغربية المحاذية لإيران.

يشرئب منصور بعنقه ويحاول المزيد من الاقتراب. فهو لم يسبق له أن رأى كارضاي من قبل. وكارضاي هو من الباشتون من قندهار، وكان قد قام هو شخصياً لفترة وجيزة من الزمن بمساندة طالبان. لكنه بعد ذلك استخدم مركزه كزعيم لقبيلة بوبولزاي لكسب مؤيدين له للقيام بمقاتلة الطالبان. وعندما شرع الأميركيون في حملة القصف

الجوي، غادر على متن دراجة نارية في مهمة تكاد تكون انتحارية، جال فيها على زعماء القبائل في معاقل طالبان لإقناعهم بأن طالبان قـــد انتهـــى أمـــرها. ومن الذائع أن هؤلاء الزعماء قد اقتنعوا من شـــجاعته أكثر مما اقتنعوا من حديثه. بعد ذلك كان على وشك أن يلقـــى حتفه بنيران أميركية صديقة. وفي مؤتمر الأمم المتحدة الذي انعقـــد في بون، والذي رسم خريطة مستقبل أفغانستان، تمّ اختياره كقائد جديد للبلاد.

"لقد حاولوا تدمير ثقافتنا. لقد حاولوا سحق تقاليدنا وعاداتنا. لقـــد حاولوا مسح إسلامنا"، نادى كارضاي بصوته فوق الجموع. "لقـــد حاولت الطالبان تلطيخ الإسلام، والقيام بجرّنا جميعاً إلى حمأة الأوحـــال، بمحاولة إعلان الحرب على العالم أجمع. لكننا نعرف ما الذي يدعو الإسلام إليه. فالإسلام هو السلام. والسنة التي تبدأ في هذا اليوم، هي سنة 1381، هي سنة التجديد. هذه هي السنة التي ستكون ســـنة ســـلام وحـــياة سكينة في أفغانستان. سوف نقوم بحفظ الأمن والـــسلام، وسنـــسعى إلى تطوير المجتمع. اليوم نحن نتقبّل المساعدة من العـــالم بأســـره، وفي يـــوم من الأيام سوف نكون قادرين على تقديم المـــساعدة إلى العالم بأسره"، ينادي كارضاي بصوته فتهتاج الجموع فرحاً.

"إنـــه يقـــول نحن؟" يهمس منصور. "سوف نكون قادرين على مساعدة العالم بأسره؟".

إنهـــا فكـــرة لم تخطر مرة في بال منصور لفرط غرابتها. فمنصور كان قد عاش كل حياته في ظل الحرب. ولم يعرف مرة عن أفغانستان ســـوى أنها بلد يستورد كل شيء من العالم الخارجي، بدءاً من الطعام وانتهاءً بالسلاح.

وبعد كارضاي اعتلى المنصة الرئيس السابق برهان الدين ربّاني الذي هو رجل ذو وزن كبير وسلطة قليلة. فهو منظِّر وأستاذ في جامعة كابول؛ وكـــان قـــد أسس حزب الجمعية الإسلامية، هذا الحزب الذي وحّد بين بعـــض فـــصائل المجاهدين المتفرقة. وكان قد أقنع الاستراتيجي العسكري أحمـــد شـــاه مسعود بالانضمام إليه. ومسعود الذي كان قد خرج كبطل قومي كبير بعد النضال ضد الاتحاد السوفياتي، وبعد الحرب الأهلية، وبعد انتهاء المقاومة ضد طالبان. لقد كان قائداً ذا هيبة وجلال، وعميق الإيمان، وكـــان حليفاً للغرب على الدوام. وكان يتكلم اللغة الفرنسية ويرغب في تحـــديث بـــلاده. وقد تمّ اغتياله على يد انتحاريين تونسيين قبل يومين من حادثـــة الحـــادي عـــشر من أيلول/سبتمبر، بعد أن كان قد حقّق لنفسه احتـــراماً أسطورياً. كان في حوزة التونسيين جوازا سفر بلجيكيان، وقد قامـــا بتقديم نفسيهما كصحافيين. "أيها القائد، ما الذي سوف تفعله بأســـامة بـــن لادن بعـــد أن تكـــون قد انتهيت من السيطرة على أفغانـــستان؟". كـــان هذا هو السؤال الأخير الذي من المفترض أن يكـــون قد سمعه منهما. وقد تمكّن من إطلاق ضحكة قبل أن يتمكن الإرهابـــيان مـــن الضغط على زناد قنبلة مخبوءة في داخل الكاميرا. حتى بعض الباشتون الآن يرفعون صوراً لمسعود بوصفه أسد البانشير.

ويكـــرِّس الآن ربّاني خطابه للكلام عن مسعود، لكن عصر ربّاني الذهبـــــي كـــان إبـــان الحـــرب ضد الاتحاد السوفياتي. لقد أرغمنا الـــشيوعيين علـــى الخروج من بلدنا، ونستطيع إرغام جميع الغزاة على الخروج من أفغانستان"، يقول للجماهير.

وبعـــد الانسحاب الروسي من أفغانستان عام 1989 بأشهر قليلة سـقط جـــدار برلين، وهو حدث استغلّه ربّاني، بالإضافة إلى تفكك الاتحاد السوفياتي.

"لولا الجهاد، لكان العالم بأسره لا يزال يرزح تحت قبضة الشيوعية. لقد سقط جدار برلين بسبب الهزائم التي ألحقناها بالاتحاد السوفياتي، وبسبب الإلهام الذي أعطيناه للشعوب المقهورة. لقد تسبّبنا في تفسخ الاتحاد السوفياتي إلى خمسة عشر جزءاً. لقد قمنا بتحرير العالم من الشيوعية. فالجهاد قد قاد إلى ولادة عالم أكثر حرية. لقد أنقذنا العالم بأسره لأن الشيوعية قد لاقت مقبرتها في أفغانستان".

ويتحسس منصور كاميرته. وكان قد شقّ طريقه إلى مقربة من المنصة ليصبح على مسافة قريبة من المتكلمين. وهو حريص على التقاط صورة لكارضاي. ويقوم بالتقاط اللقطة تلو الأخرى للرجل الهزيل النحيل. فهذه الصور سوف تكون شيئاً يستحق أن يعرضه على والده.

ويتكلم الخطباء واحداً تلو الآخر، كما يتقدمون بالأدعية والصلوات عن المنصة. ويقوم أحد الملالي بتقديم صلوات الشكر لله، بينما يقوم وزير الثقافة الأفغاني بتقديم تصوُّر لأفغانستان تُخلي فيه الأسلحة في المجتمع الأفغاني الساحة لمصلحة الإنترنت.

"قوموا باستبدال أجهزة الكومبيوتر بالبنادق"، ينادي في الناس. ويضيف قائلاً: إن على الأفغان أن يوقفوا التمييز العنصري ضد الأقليات الإثنية. "انظروا إلى أميركا، حيث يعيش الجميع في بلد واحد، كلهم أميركيون، والجميع يتعايشون دون أيّ مشكلة".

أما خلال فترة خطابه، فإن السياط كانت لا تتوقف عن الحركة في صفوف الجمهور. لكن لا شيء ينفع. إذ لا تزال أعداد جديدة كبيرة من الناس تحشر نفسها عند البوابة من أجل الدخول إلى الصيوان. والجمهور يصرخ وينادي. وكان من الصعب على المرء في واقع الأمر أن يستمع جيداً إلى الكلمات. فالأمر بكامله بدا أشبه باحتفال شعبي منه بمناسبة دينية شعائرية. فالجنود المسلحون يسيطرون على الأدراج

والسطوح التي تحيط بالمسجد. وهنالك ثلة من جنود القوات الأميركية الخاصة المدججين بالأسلحة الأوتوماتيكية ويضعون النظارات الشمسية متمركــزين على أحد أسطح المسجد من أجل حماية السفير الأميركي ذي البــشرة القرمــزية الباهتة. كما أن جنوداً أميركيين آخرين كانوا يحيطون به. وبالنسبة إلى كثير من الأفغانيين فإن وجود الكفار الملحدين في رحــاب المسجد هو بحدِّ ذاته عمل تدنيسي، خاصة قيامهم بالمشي فــوق أســطحه. إذ لا يجوز دخول أي شخص من غير المسلمين إلى المــسجد. ولذلك يقوم الحراس باجتثاث اللامؤمنين إلى الخارج. لكن ليس ثمة الكثير مثل هؤلاء؛ فالسواح الغربيون لا يقومون عادة بالزيارة إلى أفغانــستان في الــربيع الأول الذي يلي سقوط طالبان. فلم يختفِ سوى عامل إغاثة أو اثنين خلال احتفالات رأس السنة الجديدة.

أمــا أمــيرا الحرب الكبيران في المدينة، عطا محمد، والجنرال عبد الرشــيد دوستم، فقد كان لهما مركزان محفوظان فوق المنصة. فالقائد الطاجيكــي عطــا محمد يقوم بحكم المدينة، والقائد الأوزبكي دوستم يعتقد أنه هو الأولى بحكمها. ويجلس العدوان اللدودان جنباً إلى جنب على المنصة وهما يصغيان إلى الكلمات. فبينما يقوم عطا محمد بالتشاغل بحــبات سبّحة كأنه رجل من طالبان، فإن دوستم يجلس بهيبة مَن كان في يوم من الأيام ملاكماً. لقد تعاونا في غير حماس خلال الهجوم الأخير على الطالبان. والآن، فإن الجبهة الباردة بينهما قد انخفضت حدتها مرة جديدة، ودوستم هذا هو العضو الأقل شعبية في الحكومة، وقد تمّ ضمّه إليها لسبب بسيط هو لأن ذلك قد يردعه عن تخريب انضمام الآخرين إلــيها. فهذا الرجل الذي ينظر بعينين نصف مغمضتين الآن من فوق المنــصة اتقاء لأشعة الشمس وهو يطوي ذراعيه في أسلوب مسالم فوق جسده الهائل، إنما تلتصق باسمه قصص رهيبة أكثر من أي شخص آخر

في أفغانــستان. فكعقــوبة جــرمية جنحية، فإنه قد يأمر جنوده بربط الــشخص المعاقب إلى إحدى دباباته، ويقودها فوقه حتى لا يبقى من الجسد سوى مزق ممزقة. وفي إحدى المناسبات، اقتيد ألوف من جنود طالــبان إلى الــصحراء ثم تمّ وضعهم في حاويات. وعندما جرى فتح الحاويــات بعد عدة أيام كان السجناء قد ماتوا، وكانت جلودهم قد تحــوّلت إلى رماد بفعل الحرارة. ودوستم هذا، معروف أيضاً بأنه سيد الخداع والمراوغة. فقد قام الرجل على خدمة العديد من الأسياد، وقام بخيانــتهم الواحد تلو الآخر. فهو كان قد حارب مع الروس عندما قام الاتحــاد السوفياتي بهجومه. وكان قد قيل عنه إنه ملحد ومسرف في معاقــرة الــشراب. أما الآن، فهو يمثّل وجهة نظر محترمة لرغبات الآخرين، ويسبّح الله، وينادي بالمسالمة واللاعنف. "في العام 1381 لم يكــن لأحــد الحــق في توزيع الأسلحة التي ستقود إلى اشتعال صــراعات جديــدة. أما هذه السنة فقد آن الأوان لجمع الأسلحة وليس بالتصدق بها على الآخرين!".

ويــضحك منصور. فهو يعرف أن دوستم معروف بأنه أميٌّ من الناحية الواقعية. فهو يتلعثم بكلامه عند قراءته لنص خطابه، وهو يقرأه وكأنــه لم يــدخل مدرسة بعد. وفي بعض الأحيان يتوقف عن القراءة كلــيًّا ولكــنه يعوّض عن وقفته تلك برفع عقيرته، والدويّ بصوته إلى درجة أعلى.

وبعد ساعات من الخطابات جاء دور رفع الراية أخيراً، راية عليٍّ الخــضراء الــــ: "جندة" التي لم تكن قد رُفعت منذ خمس سنوات. وكانت قاعدة سارية العلم ملاصقة للأرض، أما ذروة السارية فتواجه المــسجد. وعلــى وقع قرع الطبول وابتهاج الحضور، يرفع كارضاي الــسارية، وترتفع الراية الدينية إلى الأعلى. وهي ستبقى ترفرف هنالك

لمدة أربعين يوماً. ثم تطلق الطلقات النارية وتفتح المعابر. ويندفع العشرة آلاف شخص من الذين كانوا لا يزالون ينتظرون في الخارج، إلى داخل حرم المسجد، صوب الضريح، وصوب الراية.

* * *

شهد منصور ما يكفيه حول الجماهير والاحتفالات وأراد الآن أن يتسوّق. فهو يفكر في أمر التسوق منذ وقت طويل. كل فرد من أفراد العائلة يجب أن تكون له هديته، فإذا كان كل واحد يناله طعم هذه الرحلة، فإن والده سيكون أكثر ليونة معه في المستقبل.

لذلك فهو يشتري سجاجيد للصلاة، ومناديل، وسبحات للذّكر، ثم يشتري حبوب السكّر نبات، حبات كبيرة من السكّر نبات يقضم الواحد منها قضمة ويمضغها مع الشاي. فهو يعرف أن جدته بيبي غول سوف تغفر له كل خطاياه السابقة واللاحقة إذا عاد إلى البيت ومعه حبات السكّر نبات الكبيرة التي لا يُصنع مثلها سوى في مزار الشريف. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يشتري فساتين وحليًا لعماته، ونظارات شمسية لأعمامه وإخوانه. فهو لم يكن قد رأى نظارات شمسية معروضة للبيع في كابول. ثم حمل كل هذه البضاعة في أكياس بلاستيكية زهرية اللون عليها إعلانات تجارية لسجائر "بْلَجَر" – السجائر الخفيفة المميزة. بعد ذلك يعود إلى ضريح الإمام علي. فهدايا السنة الجديدة لا بدّ من مباركتها.

يحمل تلك البضائع إلى الديماس الفعلي الذي يوجد فيه الضريح ويصل إلى الملالي الذين يجلسون إلى جانب جدار مطلي بماء الذهب في داخل الضريح. يقوم بوضع الهدايا أمام أحد الملالي الذي يقوم بتلاوة آيات من القرآن، ثم يقوم ببثّ أنفاسه فوق الهدايا. وعندما تنتهي صلوات التبريك على الهدايا، يعيد منصور توضيب الحوائج في الأكياس البلاستيكية ويسرع.

وإلى جانب الحائط المطلي بالذهب يمكن للزائر أن يتقدم بدعاء أو طلبة. وطبقاً للخطابات الوطنية التي كان قد سمعها، ينحني منصور برأسه نحو الجدار ويدعو طالباً: أن يرزقه الله في يوم من الأيام شعوراً بالاعتزاز لكونه أفغانيًا. وأن يكون في يوم من الأيام شاعراً بالفخر بنفسه وبوطنه، وأن تصبح أفغانستان في يوم من الأيام دولة تتمتع باحترام العالم أجمع. دعوة حتى حامد كارضاي لم يكن ليستطيع صياغتها بطريقة أفضل.

ولأنه بات مفتوناً بالمناظر والأصوات، فقد نسي منصور أن يدعو لنفسه دعاء المغفرة والتطهر من الذنوب، الدعوة التي كانت في الأصل سبب مجيئه، وسبب مجيئه إلى المزار. كما نسي الفتاة المتسولة الصغيرة وجسدها الهزيل النحيل، وعينيها الكبيرتين الذابلتين العسليتين، وشعرها الملبّد.

ويغادر منصور الضريح قاصداً راية علي. وهنا أيضاً يصادف بعض المشايخ الذين يتقبلون أكياس منصور البلاستيكية. لكنهم لا يجدون وقتاً كافياً لاستخراج الحاجات من داخل الأكياس. فقافلة الأناس الذين برغبون في مباركة السجاجيد، والسبحات، والأطعمة، والمناشف هي قافلة كبيرة وممتدة. لذلك فإن المشايخ هنا يكتفون بالتقاط أكياس منصور وتمريرها على عمود الراية والتمتمة ببعض الأدعية فوقها وإعادتها إليه. يرمي منصور ببضع أوراق البنكنوت إلى المشايخ، وبذلك تتم مباركة السجاجيد والسكريات مرة جديدة.

وها هو الآن يتطلع إلى توزيع تلك الهدايا على أصحابها، على جدته، ووالده سلطان، وعلى عماته، وأعمامه، وإخوته. ويتجوّل منصور في الجوار باسماً. فها هو كتلة تامة من السرور. ها هو بعيد عن المكتبة وعن قبضة والده. ويمشي على الرصيف الواقع خارج المسجد برفقة أكبر وسعيد.

"هذا هو أسعد يوم في حياتي! إنه أسعد يوم"، يقول منادياً. وينظر إليه كل من أكبر وسعيد بدهشة، ويصيبهما بعض الارتباك، لكنهما يسعدان لسعادته. "كم أحبُّ هذا المزار، كم أحبُّ علياً، كم أحبُّ الحرية! كم أحبكما!" ينادي ويتواثب فوق الرصيف في جذل. فهذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها لوحده، وهذا هو اليوم الأول في حياته كلها الذي لم يكن قد رأى فيه أي فرد من أفراد عائلته.

ويقرِّر الجميع مشاهدة مباراة في لعبة "البوزكاشي". فالمناطق الشمالية مشهورة بوجود أقوى لاعبي هذه اللعبة، وأسرعهم، وأشدهم مراساً. ومن مسافة بعيدة يلاحظون أن المباراة كانت قد ابتدأت بالفعل. وتثور غمامات من الغبار فوق السهل حيث يقوم مئتا فارس بالتنافس على رُمَّة عجل صغير، مقطوعة الرأس. وتقوم الخيول بالعضِّ والرفس والقفز، بينما يقوم الخيالة وهم يكظُّون على السياط بين أسنانهم، بمحاولة اختطاف الرمَّة عن الأرض. وتتنقل حيازة الرمَّة بسرعة بحيث يبدو وكأنه يجري تقاذفها بين فارس وآخر. وهدف اللعبة هو نقل الرمَّة من جهة من السهل إلى مكان آخر ووضعها في موضع يقع وسط مستديرة مرسومة على الأرض. وبعض المبارزات تكون من شدة العنف بحيث تتمزّق الرمَّة إلى نُتف وأشلاء.

وبالنسبة إلى مراقب خارجي لا يعرف اللعبة من قبل، فإن الأمر قد يبدو له أن الخيول تتسابق في السهل ليس إلاّ، بينما يكون الخيالة مكتفين بمجرد حفظ توازنهم فوق صهواتها... هذا ويلبس الخيالة معاطف مطرّزة وينتعلون أحذية جلدية مزخرفة طويلة السيقان، عالية الكعوب. كما يعتمرون قبعات خاصة بلعبة البوزكاشي، والواحدة منها عبارة عن قبعة مصنوعة من جلد الحملان تكون أشبه بقبعة البولر المحدَّدة بالفرو.

"إنـــه كارضـــاي!" يصيح منصور عندما يلمح القائد الأفغاني في السهل، "ودوستم أيضاً!".

ويقـــوم زعيم القبيلة وأمير الحرب بالاختصام لحيازة رُمَّة العجل. فلكـــي يبرز المرء كقائد قوي، عليه أن يشارك في العراك العنيف الذي يـــتخلّل مباريات لعبة البوزكاشي. لا أن يكتفي بمجرد الركوب فوق الحصان والقيام بجولات حول الملعب في وسط صخب اللاعبين. إذ من الضروري للقائد أن يلقي بنفسه في معمعان المعركة الحماسية. وبما أن لكل شيء ثمنه، فإن بعض الرجال الشجعان يدفعون في بعض الأحيان أثماناً لنصرهم.

وكارضـــاي يكتفـــي بامتطاء صهوة حصانه حول أرض المعركة دون أن يكون قادراً تماماً على مجاراة الإيقاع القاتل للفرسان الآخرين. فهـــذا الزعيم العشائري القادم من الجنوب لم يسبق له أن تمرّس بقواعد لعـــبة البوزكاشي الوحشية. وبما أن هذه اللعبة لعبة أبناء السهول، فإن الابـــن الكبير للسهل، الجنرال دوستم، هو الذي يربح، أو على الأقل، هـــو الذي يسمح له اللاعب الحقيقي الرابح بأن يربحها. فهو قد ينال لاحقاً ما يستحقه هذا الربح. عندما يجلس دوستم فوق صهوة حصانه كقائد ويقوم بتقبُّل التهليل والهتاف.

وفي بعـــض الأحيان قد يقوم فريقان على التنافس في هذه اللعبة؛ أمـــا في أحيان أخرى فيلعب كل لاعب لنفسه. والبوزكاشي لعبة من أكثر الألعاب عنفاً وضراوة في العالم. وكان المنغوليون هم الذين أتوا بها إلى أفغانـــستان عـــندما دمّروا البلاد بقيادة قائدهم جنكيز خان. وهي أيضاً لعبة لها علاقة بالمال. فالأناس النافذون من الشعب يدفعون ملايين أوراق البنكـــنوت الأفغانية كجائزة مالية لكل جولة من جولات هذه اللعبة. كما أنها لعبة لها علاقة بالنفوذ السياسي. فزعيم القبيلة المحلية إما

أن يكون هو نفسه لاعباً للبوزكاشي، أو أن يكون مالكاً لإسطبل من الخيول الصالحة لهذه اللعبة مع فرسانها. فالنصر صنو الاحترام.

ومنذ الخمسينيات، حاولت السلطات الأفغانية أن تضع صيغاً رسمية لتلك المبارزات. فالمشاركون يكتفون بمجرد الإيماء بالرؤوس إيجاباً؛ فهم يعرفون سلفاً أن القوانين في هذه اللعبة سيكون من المستحيل الحفاظ عليها وصيانتها في كل حال. فحتى بعد الغزو السوفياتي، فإن هذه المباريات قد استمرت، وذلك رغم الفوضى التي كانت تعمُّ البلاد. وكثير من المتبارين لم يكونوا يستطيعون الوصول إلى ميدان اللعبة، حيث كان عليهم عبور مناطق هي ميادين للمعارك العسكرية قبل الوصول إلى مكان المباراة. ولقد حاول الشيوعيون التخلص من معظم التقاليد الأفغانية عميقة الجذور، لكنهم لم يتجرّأوا مرة على الدنوّ من لعبة البوزكاشي. بل على العكس من ذلك، فإنهم حاولوا التقرب من القادة المحليين عن طريق تنظيم مبارزات للبوزكاشي. فلقد كان كل ديكتاتور شيوعي بعد الآخر يظهر فوق منصة مراقبة اللعبة، وذلك تبعاً لمجيئه بعد سلفه عقب انقلاب عسكري دموي. ومع كل ذلك، فإن الشيوعية قد تسبّبت بتمزيق الكثير من أساسيات لعبة البوزكاشي. إذ عندما بدأ نظام الملكية الجماعية، فإن قلة قليلة من الناس باتت تستطيع تملك إسطبل كامل من الخيول جيدة التدريب. أما خيول البوزكاشي الخاصة فقد تمّ تفريقها على الرياح الأربع ليجري استعمالها كخيول زراعية. وعندما اختفت طبقة ملاكي الأراضي، اختفى معها وجود خيول القتال وفرسانها.

أما جماعة الطالبان فقد حرّمت المبارزات وقامت بتصنيفها على أساس أنها نشاطات غير إسلامية. وهذه المباراة التي تدور الآن، هي أول مبارزة في لعبة البوزكاشي منذ سقوط طالبان.

وكـــان منصور قد أوجد لنفسه مكاناً مناسباً في المقدمة، وكان عليه في بعـــض الأحـــيان أن يقوم بالتراجع عن مكانه في سرعة خشية أن تطأه الخـــيول المـــشتركة في المبارزة. وهكذا، فهو يلتقط ما شاء له نصيبه من الـــصور لـــصدور الخيول التي تبدو وكأنها تنقضُّ فوقه؛ وكذلك لسحب العجـــاج المتصاعدة؛ ولرُمَّة العجل الممزقة، ولحامد كارضاي النحيل الذي يبدو من مسافة بعيدة، وكذلك لدوستم المنتصر. أما بعد انتهاء المباراة فإنه يطلب التقاط صور لنفسه إلى جانب بعض لاعبـــي البوزكاشي.

وتمـــيل الشمس إلى المغيب ناشرة أشعتها الحمراء فوق السهوب العابقـــة بالغـــبار. ويـــنال الـــزوّار أنفسهم كثيراً من هذا الغبار فوق أجسادهم، وفي خارج المعترك يجدون لأنفسهم مقهى. ويجلسون على بُـــسُطٍ رقـــيقة كل واحد منهم في مواجهة الآخر ويأكلون في صمت وهـــدوء. شوربة، أرزّ، لحم ضأن، وبصل نيء. ويغرف منصور الطعام غـــرفاً، ويطلب لنفسه حصة جديدة منه. ويقومون بهدوء بتحية بعض الـــرجال الـــذين يجلـــسون في دائرة أخرى قريبة من دائرتهم بينما هم يتـــبارزون في لعـــبة ليِّ الأذرع. وعـــندما يجري تقديم الشاي، يمكن للأحاديث أن تبدأ.

"أأنتم من كابول؟" يسألهم الرجال.

ويجيب منصور بإيماءة منه أن نعم "أأنتم زوّار؟".

يتردّد الرجال قبل الإجابة. "إننا في الحقيقة نسافر مع بعض طيور الـــسمّن"، يجيـــبه رجل عجوز أقرم. "إننا من حيرات. لقد قمنا بجولة كـــبيرة من قندهار إلى كابول، إلى هنا. هنا حيث تقام أفضل مبارزات ديوك السمّن".

ثم يقوم الرجل بعناية بتناول كيس صغير من جيبه. ويخرج من داخله طائر، طائر سمّن صغير أشعث الريش. "لقد ربح هذا الفرخ جميع المبارزات

الـــتي جعلـــناه يشترك فيها"، يقول. "لقد ربحنا بسببه مبالغ كبيرة من المال وهو الآن يساوي في ثمنه عدة آلاف من الدولارات"، يقول متباهياً. ويقوم الرجل العجوز بإطعام فرخ السمّن بأصابع معوجّة تدل على تقدم صاحبها في العمـــر، أصابع هي أشبه ببراثن عقاب. وينفض الطائر ريشه ويستفيق. إنـــه ضئيل الحجم بحيث يمكن تخبئته داخل قبضة رجل ضخم الجثة. إنهم عمّـــال كانوا قد نالوا إجازة من العمل. فبعد خمس سنوات من مبارزات ديـــوك السمُن السريّة خوفاً من الطالبان، فإنهم يستطيعون الآن أن يعيشوا في العلانـــية شغفهم بمراقبة طائري سمّن ينقر كل واحد منهما صاحبه حتى المـــوت. أو حـــتى إنهم باتوا يستطيعون أن يطلقوا صيحات النشوة عندما يقوم طائر سمّن صغير بنقر غريمه حتى الموت.

"تعـــالَ غداً صباحاً عند الساعة السابعة. فذلك هو الوقت الذي نبدأ فيه ألعابنا"، يقول الرجل العجوز.

* * *

يـــنهض منـــصور من فراشه في الفندق بغتة على صوت المؤذّن. وتكون الساعة قد قاربت الثانية عشرة والنصف. تبدأ الصلاة في الجامع في الخـــارج. إنها صلاة الجمعة. فيشعر فجأة أنه لا يستطيع العيش دون إتمـــام صـــلاة الجمعة. فعليه أن يذهب وأن يصل في الوقت المناسب. وكان قد نسي زيّه المحلي في كابول، الزي المؤلف من السترة العليا التي تنـــسدل فوق سروال فضفاض طويل الساقين. فهو لا يستطيع الذهاب إلى صلاة الجمعة وهو يرتدي ملابس غربية. وها هو الآن حائر في أمره من أين له أن يشتري ثياباً تكون صالحة للصلاة؟ فجميع المحالّ هي الآن مغلقة. لذلك فإنه يغضب ولا يتمالك نفسه عن السباب.

"إن الله لا يكترث لطراز الملابس التي أنت تلبسها"، يقول له أكبر بصوت متناوم كسول على أمل أن يتخلص منه ومن جلبته.

"عليَّ بالاغتسال، والمياه مقطوعة في هذا الفندق"، يتذمر منصور. لكـنه لا يجـد هنا عمته ليلى كي يلقي عليها بلاءه ولومه. وهنا يقوم أكـبر ويدفعه إلى الخارج عندما يبدأ بالتذمر. "ولكن الماء ضروري فلا تجوز صلاة المسلم قبل أن يغسل وجهه، ويديه، وقدميه". يتذمّر منصور من جديد، "إنني لن أستطيع الاشتراك في الصلاة".

"هنالك ماء إلى جانب المسجد"، يقول له أكبر قبل أن يغلق عينيه ويستسلم إلى النوم من جديد.

ويهرع منصور في ثياب السفر المتسخة التي يرتديها. كيف حصل له وأن نسي ثوبه المحلي بينما هو الآن في الزيارة؟ أو كيف له أن يصلّي دون قـبعة الـصلاة؟ يلعن النسيان ويجري نحو المسجد الأزرق ليدرك الـصلاة في حينها. وعند المدخل يصادف متسوّلاً له قدمان مشوهتان. فالـساق المتصلبة متورّمة وملتهبة وحائلة اللون وهو يستلقي مادّاً إياها في منتـصف طـريق المـارة. فيخطف منصور قبعة الصلاة عن رأس المتسوّل.

"سـوف أعيدها إليك"، يقول له وهو يجري حاملاً القبعة ذات اللـون الأسمر الفاتح. والتي لها طبقة كثيفة من العرق الأصفر الضارب إلى البني حول إطارها.

يتـرك منصور حذاءه عند مدخل المسجد ويدخل حافي القدمين وهـو يمشي فوق الأرضية الرخامية. لقد باتت الأرضية ناعمة بفضل آلاف الأقدام العارية التي خفّت فوقها. يقوم بغسل يديه وقدميه، ويضع القـبعة فوق رأسه ويمشي إلى صف المصلين المتجهين بوجوههم صوب مكـة المكـرمة؛ لقد استطاع إدراك الصلاة. وفي وسط العشرات من صـفوف المـصلين، حيث يتألف كل صف من مئة مصلٍّ على الأقل، يجلس الـزوّار رؤوسهم خفيضة في مساحة هائلة. يجلس منصور في

الصف الخلفي ويتابع شعائر الصلاة. وبعد قليل يلاحظ أنه قد صار في وسط جمع كبير من المصلين، حيث أضيفت الآن صفوف كثيرة أخرى وراءه مع قدوم المزيد من المصلين. ويكون هو الشخص الوحيد الذي يرتدي ملابس إفرنجية. لكنه يركّز انتباهه على الصلاة، فالجبهة لاصقة بالأرض، والوركان مرفوعان، خمس عشرة مرة. ويقوم بتلاوة صلاته التي يعرفها ويصغي إلى خطبة الجمعة التي يقوم ربّاني بإلقائها وهي تكرار للخطبة التي كان قد ألقاها في الأمس.

وتأخذ الصلاة مجراها وراء حاجز يحيط بالمسجد الذي يجلس خلفه المريض العاجز في انتظار الشفاء. فأمثاله من المرضى يتم إبقاؤهم خلف أسوار عالية خيفة أن يقوموا بنقل العدوى إلى الأصحاء. إنهم رجال مسنّون في رمقهم الأخير، لهم وجنات غائرة. كما يوجد بين هؤلاء المرضى أناس مصابون بإعاقات عقلية تامة. وثمة صبي مراهق يصفق بيديه في اهتياج بينما يقوم أخوه الأكبر بمحاولة تهدئته. لكن أكثرية هؤلاء المرضى يحدقون بشحوب من خلال قضبان السياج. ولم يكن منصور قد صادف مرة أخرى هذا العدد من المرضى الذين هم على شفير الموت. فرائحة المرض والسقم تفوح من هذه الجماعة كما تفوح رائحة الموت. إذ لا يسمح في العادة إلاّ للمرضى الذين يعانون من أمراض خطيرة بالجلوس في ذلك الموضع من أجل طلب الشفاء من صاحب المقام. وفي الأعلى، مقابل جدران الضريح يجلس المرضى، أحدهم في محاذاة الآخر؛ وكلما كان مكان الجلوس أشدُّ قرباً من جدار المسجد الأزرق كان المريض أقرب إلى الشفاء.

... 'إنهم سيموتون جميعاً في غضون أسبوعين'، يجول في ذهن منصور. ويقع نظره على رجل له عينان سوداوان نفّاذتان. وله ندوب عميقة حمراء. أما الذراعان الطويلتان بارزتا العظام، فقد كانتا تعرضتا

إلى الهرش حتى نزفتا، شأنهما في ذلك شأن الساقين الطويلتين البارزتين مـن تحـت السترة الطويلة. لكن كان للرجل شفتان جميلتان رقيقتان قرمزيتان، شفتان أشبه ببتلتيّ زهرة مشمش ربيعية.

يرتع منصور ويستدير إلى الوراء. وتذهب نظرته فاحصة المعسكر المقابل. هنالك كان تجمُّع المرضى من النساء والأطفال. بوركات زرقاء حائلـة تحتـضن أطفالاً. إحدى الأمهات كان قد غلبها النعاس بينما يحاول طفلها المعوّق أن يقول شيئاً ما. لكنه كان كمن يكلّم تمثالاً تحت غطـاء أزرق. لعل هذه الأم قد أمضت عدة أيام من السفر سيراً وهي حافية القدمين كي تتمكّن من الوصول إلى قبر الإمام عليّ قبيل حلول الـيوم الأول مـن السنة الجديدة. وربما تكون قد تجشمت حمل الطفل المعـوّق بين ذراعيها من أجل طلب الشفاء له. فما من طبيب يستطيع مساعدتها؟ ولعل عليٌّ يستطيع أن يقدِّم لها هذه المساعدة.

ثمة طفل آخر يقوم بضرب رأسه بطريقة منتظمة، وهنالك أطفال سواه تائهون، بعضهم عُرجٌ، وبعضهم عميان، لكن معظم النسوة كنّ قد جئن إلى هنا مع أطفالهن.

هـذه المناظر تبعث القشعريرة في جلد منصور. فبعد أن يستولي عليه هذا الموقف المؤثر، فإنه يقرِّر أن يصير إنساناً جديداً. سوف يكون إنـساناً جـيداً ومسلماً تقياً. ولسوف يقوم باحترام مواقيت الصلاة، ويعطـي الصدقات، ويصوم، ويذهب إلى المسجد، ولا ينظر إلى النساء إلاّ بعد زواجه، وأن يطلق لحيته، وأن يحجّ إلى مكة المكرمة.

وفي اللحظة التي تنقضي بها الصلاة، ويكون منصور قد أخذ على نفـسه مـا أخذه من عهود، تبدأ السماء تمطر وتكون الشمس مشرقة رغـم هطول المطر. فيلتمع المبنى المقدس، وتتلألأ الأرضيات المرصوفة بالـبلاط الـزلق. وتشعّ حبات المطر الذي ينسكب مدراراً. ويهرع

منـــصور فيجد حذاءه، ويجد المتسوِّل الذي أعطاه القبعة. يلقي ببعض أوراق البنكـــنوت إلى المتـــسوِّل، ويجري في الساحة تحت المطر البارد المنعش، "إنني الآن شخص مبارك!" ينادي بأعلى صوته. "لقد حصلت على السماح والمغفرة! لقد عدت نقياً طاهراً!".

رائحة الغبار

يـرتفع الـبخار من الأجساد الرطبة، وتتحرك الأيدي بحركات روتينـية سـريعة، وتـدخل خيوط أشعة الشمس من خلال ثقبين في الـسقف، غامرة أعضاء الأجساد بضوء فاتن مثير للصور الذهنية. ففي بدايـة الأمـر تمكن رؤية الأجساد في الغرفة بطريقة غامضة فقط من خـلال تـصاعد الـبخار، كل ذلك، إلى أن يعتاد النظر على الضوء الـسحري. ويـبدو التركيز على الوجوه. هذا ليس فعل متعة، بل هو عمل شاق.

وفي قاعتين كبيرتين تجتهد النساء على دلك أجسادهن، فهنَّ بين مضطجعات، وجالسات، وواقفات. كل واحدة منهن تدلّك جسدها، أو تـساعد سـواها من النساء على تدليك جسدها، أو تقوم بتدليك جسد أطفالها. بعضهن بدينات هائلات الأجساد بطريقة تذكّر برسومات الفنان روبن، وبعضهن نحيلات كالعود، ولهنَّ أضلاع نافرة عن مكانها. وهـنَّ يقمـن بتدلـيك أجـسادهن وبمساعدة سواهن في هذا العمل باستعمال أكفٍّ من القنّب مصنوعة محلياً. وهكذا، يجري دلكُ الأظهر، والأذرع، والأرجـل. أمـا الجلـد السميك في باطن الأقدام فتجري معالجـته وحفُّه باستعمال حجر خاص يسمّى حجر الخفّان. والأمهات

ينظّفن أجساد بناتهن اللواتي قاربن سن البلوغ ويراقبنهن بأعين فاحصة. فلم يبقَ هنالك زمن طويل قبل أن تتكوّر صدور أولئك البنات اللواتي تشبه صدورهن الآن صدور الطيور، أي أنهنَّ لن يمضي وقت طويل حتى يصبحن أمهات مُرضعات. والشابات النحيلات اللواتي لم يتخطّين بعدُ سنوات المراهقة يحملن ندوباً فوق بطونهن تسبّبت بها حوادث الحمل والوضع التي نتجت عن زواجهن في وقت لم تكن أجسادهن فيه قد اكتملت بعد. فعلى وجه التقريب، جميع بطون السيدات هناك هي متشقّقة البشرة بسبب تكرار الولادات.

ويصرخ الأطفال ويتصايحون، خوفاً أو فرحاً. فمنهم الذين قد خرجوا من الغسل والدّلك في أحواض الاستحمام. ومنهم الذين لا يزالون في الأحواض يصرخون من الألم ويتلوّون كسمكة قد علقت في الشباك. ولم يكن أحد منهم ليعطى خرقة يحمي بها عينيه من حرافة الصابون. فالأمهات يدلّكن أجساد الأطفال باللّيف الخشنة إلى أن تصبح الأجساد البنية غامقة اللون بالأوساخ، ذات لون زهري. فالاستحمام أو الغسل معركة كُتِب على الأطفال أن يكونوا هم الخاسرين فيها ما داموا تحت قبضات أمهاتهن.

وتستمر ليلى في إزالة رقائق وخيوط الجلد المتسخ عن جسدها حيث تنفصل عنه خيوط بفعل ليفة القنّب، لتتساقط إلى الأرض. لقد مرّت عدة أسابيع منذ أن حصلت ليلى على حمام جيد. كما أنها لم تَزُر الحمام العمومي منذ عدة أشهر. فالمياه لا تتوفّر بشكل دائم في البيوت، ثم إن ليلى لا تشعر بالحاجة الماسة إلى الاستحمام حيث إن جسدها لا بدّ له من أن يتسخ من جديد في كل حال.

لكنها اليوم قد صحبت أمها وبنات عمها إلى الحمام. ولأنها فتاة غير متزوجة بعد، شأنها في ذلك شأن بنات عمها، فإنهن يشعرن

بالخجل بشكل خاص، ولذلك فإنهن يبقين على سراويلهن وعلى حاملات نهودهن. ولِيف الاستحمام الخشنة تتجنّب عادة المرور فوق تلك المناطق من الجسد. لكن الأذرع والسيقان والأرجل والأظهر والأعناق، فإنها تُدلّك دلكاً جيداً. وحبات العرق والماء تمتزج فوق وجوههن بينما هنَّ يقمن بأعمال الدّلك والحفّ والفرك؛ وكلما زدن إمعاناً في ذلك، حصلن على نظافة أفضل.

ووالدة ليلى، "بيبي غول"، التي يجب أن تكون في حوالى السبعين من عمرها، تجلس عارية في بركة على الأرض. أما شعرها البني الطويل الذي يُلفّ عادة ويخبّأ تحت الشال الأزرق الباهت، فإنه ينسدل الآن فوق ظهرها. فهي لا تكاد تحلّ ربطة شعرها سوى في الحمام. وهو شعر طويل تنتهي ذؤاباته الطافية حولها فوق مياه بركة الاستحمام في صحن الحمام. وهي تجلس كما لو أنها في غيبوبة، عيناها مقفلتان، وهي تستمتع في الدفء والحرارة. ومن وقت لآخر تبذل جهوداً كسولة قليلة في المساعدة في عملية غسل جسدها. فهي تغمس قطعة قماش لدّلك الوجه في الحوض، كانت قد ناولتها إياها ابنتها ليلى. لكنها سرعان ما تتخلّى عن محاولة تنظيف نفسها. إذ إن يدها تكاد لا تقوى على الوصول إلى بطنها، فيداها ثقيلتان بحيث يصعب عليها غسلهما. أما نهداها فيندلقان بثقل فوق بطنها الكبير. وتبقى جالسة في سكونها وكأنها أشبه بتمثال ضخم أغبر.

* * *

وتُلقي ليلى نظرة نحو أمها من وقت لآخر من أجل أن تتأكد من أنها لا تزال بخير، بينما هي تستمر في أعمال الدّلك، وفي الثرثرة مع بنات عمها. فهذه الصبيّة البالغة التاسعة عشرة من عمرها، لها جسد يشبه جسد طفلة، فهي في موقع متوسط بين النساء والبنات. وجميع

نساء عائلة خان هنّ أقرب إلى البدانة، وهذا ما يلائم معايير الجمال في أفغانستان. فالدهون، وزيوت الطبخ، التي يسكبونها فوق الطعام تظهر فوق أجسادهن على شكل البدانة. فمن الزلابية شديدة القلي، إلى قطَع البطاطا التي يرشح منها الزيت أو الدهن، إلى قِطَع لحم الضأن المعالَجة بالمـرقة المثخّنة بالزيوت. أما لون بشرة النساء فيتدرّج من البياض، إلى الـشُقرة الشاحبة، إلى السُمرة الفاتحة. ولون بشرة ليلى حنطيٌّ شاحب ونقي، فبشرتها ناعمة كوجنة الأطفال. فالحياة التي تحياها تنعكس على بـشرتها الطفولـية الـتي لا تكاد تطلّ أشعة الشمس عليها، أما يداها فخـشنتان ومُجهدتان وكأنهما يدا امرأة عجوز. وقد بقيت ليلى لمدة طـويلة تـشعر بالدوار والضعف؛ وعندما ذهبت إلى الطبيب في نهاية الأمـر، فإنه قال لها إن جسدها بحاجة إلى التعرُّض لأشعة الشمس لأنها تشكو من نقص في الفيتامين "د".

والغـريب العجيب، أن مدينة كابول هي واحدة من أكثر المدن تعرّضـاً لأشعة الشمس في العالم. فالشمس تُشرق عليها تقريباً في كل يـوم مـن أيـام السنة، وهي تقع على علوٍّ يبلغ ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. فالشمس تتسبّب بتشققات في التراب، كما أنها تجفّف ما كان يوماً حدائق رطبة، كما أنها تتسبّب بحروق في جلود الأطفال. لكن ليلى لا ترى الشمس. فأشعة الشمس لا تكاد تصل إلى الطوابـق الأولى في حي مايكروريون، كما أن أشعتها لا يمكن أن تختـرق نسيج البوركا. فليس من شعاع واحد له قيمة علاجية، يمكنه التسرب من شبكة القماش المخصّصة للنظر. فهي لا تكاد تسمح لأشعة الـشمس بأن تُدفئ جسدها إلاّ أثناء زياراتها القليلة إلى منـزل أختها الكـبرى مـريم، القائم في قرية في الريف، حيث إن لهذا البيت حوش مُسوَّر في خلفيّته.

وليلى هي أول مَن ينهض من رقاده في الصباح، كما أنها آخر من يـأوي إلى الفـراش. فهي التي توقد النار في الموقد في غرفة الجلوس، وتزوِّدها بعيدان الحطب بينما تكون الأجساد النائمة لبقية أفراد العائلة تغطّ في نوم عميق. وبعد ذلك تقوم بإشعال الحطب في الموقد المخصص لغلـي المـاء في غرفة الحمام، هذا الماء الساخن الذي لا يُخصَّص فقط لغسـل الأبـدان، بل لغسل الثياب، والأواني، ولحاجات الطبخ أيضاً. فبيـنما يكون الظلام لا يزال مُخيِّماً، تقوم ليلى بملء القوارير والأواني والطناجـر بالمـاء. ولا يكون التيار الكهربائي متوفراً أبداً في مثل هذا الـوقت مـن الـيوم. ولكن ليلى قد اعتادت على العمل والتحرك في العتمة. وفي بعض الأحيان تحمل معها مصباحاً صغيراً، ثم تقوم بتحضير الـشاي. فالـشاي لا بـدّ من أن يكون جاهزاً عند الساعة السادسة والنـصف عـندما ينهض الرجال من نومهم؛ وإلاّ فإنها تجد نفسها في مـشاكل كـبيرة معهم. فما دام أن هنالك ماء، فهي تستمر في ملء الأوعية به. فالمرء لا يدري متى ينقطع الإمداد بالمياه، وربما يكون ذلك بعد ساعة أو بعد ساعتين.

فإقبال يصيح في كل صباح صيحات منكرة، حتى إنه يتسبَّب بتوتير أعصاب الجميع. فهو يستلقي في فراشه ممدداً أو متكوّماً على نفـسه رافـضاً النهوض. فهذا الولد البالغ الثانية عشرة من عمره، يختـرع كل يوم مرضاً جديداً آملاً تجنيب نفسه قضاء اثنتي عشرة سـاعة في الحانوت. ولكن لا مجال هنا للشفقة. فكل يوم عليه أن ينهض في نهاية الأمر، لكنه لا يتورّع عن إعادة تمثيل المشهد نفسه في اليوم التالي.

"أنـتِ أيتها الكلبة"، "أيتها الكسولة"، "ألا تعرفين أن جوربـيّ مـثقوبان!" يصرخ في وجه ليلى قاذفاً إياها بالجوربين. فهو يفتعل شراً

مـــع كـــل مَن يلقاه في كل صباح، أما رغبته الحقيقية فهي ترك العمل والذهاب إلى المدرسة.

"ليلـــى! إن الماء بارد! ليس هناك ما يكفي من الماء الساخن! أين هـــي ثيابـــي؟ أين الجوربان؟ أعطني شاياً! أحضري لي فطوري! لمّعي حذائي! لِمَ تأخرت في النهوض من نومك؟".

أمـــا الأبواب فتُصفَق وتُفتَح بعنف وقوة. وتصبح الغرف والممر والحمـــام جميعاً كأنها ميدان معركة. فأبناء سلطان يصرخون ويهوّلون ويتخاصـــمون، وأحياناً يبكون. وسلطان يجلس عادة لوحده مع صونيا يـــشربان الشاي ويتناولان إفطارهما. فزوجته صونيا تهتم به وحده، أما ليلى فعليها الاهتمام بكل ما هو غير ذلك. فهي تملأ الأوعية المخصصة لغـــسل الوجـــوه، وهي التي تقوم برفع الملابس إلى أمكنتها، وهي التي تسكب الشاي، وتقلي البيض، وتحضر الخبز، وتلمّع الأحذية. فالرجال الخمسة في البيت يجب أن يتجهّزوا للذهاب إلى أعمالهم.

وبكـــثير من الكره والنفور، تساعد أبناء أخيها الثلاثة: منصور، وإقبال، وإيمال كي يتجهّزوا للذهاب إلى العمل. وليس من واحد منهم يقـــول لهـــا شكراً، أو يتعاون معها بشيء. "أبناء جاهلون" تقول ليلى مُهمهمة عندما يقوم هؤلاء الأولاد الثلاثة الذين يصغرها حتى كبيرهم، بسنوات قليلة، بتوجيه الأوامر إليها.

"ألا يـــوجد لدينا أيُّ شيء من الحليب؟ ألم أقل لكِ أن تشتري بعـــض الحليب!" يقول لها منصور بلهجة معنِّفة. "أنت أيتها الطفيلية"، يقـــول لهـــا مضيفاً. فإذا ردّت على كلامه مرة استجاب إلى ذلك من جديد بالإجابة القاسية نفسها: "اخرسي أيتها الخرقة البالية". "هذا ليس منـــزلك، إنه منـــزلي أنا"، يقول لها بشراسة. وليلى أيضاً لا تحسّ أن هذا المنـــزل هو منـــزلها. فهو منـــزل سلطان وأولاده وزوجته الثانية.

أما هي، وبلبلة، وبيبي غول، ويونس، فإنهم جميعاً يشعرون بأنهم غير مرحّب بهم في هذه العائلة. لكن الانتقال منها ليس خياراً ممكناً. فانقسام العائلة أمر هو أشبه بالفضيحة. هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء جميعاً يشكلون فئة من الخدم جيدة؛ وليلى هي واحدة من هؤلاء الخدم في كل حال.

وفي بعض الأحيان تشعر ليلى بمرارة كيف أنه لم يجرِ وهبُها هي أيضاً إلى عائلة أخرى عند ولادتها، مثلما حصل مع شقيقها الذي هو أكبر منها مباشرة. "لو حصل لي هذا لكنت الآن قد ذهبت إلى الاشتراك في دورات التعلُّم على استخدام الكومبيوتر، وإلى دورات تعلُّم اللغة الإنكليزية منذ نعومة أظفاري، وكان لا بدّ لي من أن أكون قد وصلت إلى الصفوف الجامعية الآن". تخاطب نفسها حالمة، "كما أنه كان سيكون لي ملابس جيدة، وما كنتُ لأعيش عيشَ العبيد والخدم". وليلى تحبّ أمها، لكنها تشعر أن لا أحد في الحقيقة يهتمُّ لأمرها. فلقد كان مكانها دائماً في أسفل اللائحة، تتلقى الأوامر من الجميع، ولا تستطيع هي حتى أن تطلب شيئاً من أحدهم. في أسفل اللائحة كانت وفي أسفلها ستبقى. فبيبي لم تلد أي أولاد بعدها.

وبعد بَلْبَلةِ الصباح، وبعد أن يكون سلطان وأولاده قد غادروا المنزل إلى أعمالهم، تستطيع ليلى أن تستريح قليلاً، فتشرب الشاي، وتتناول إفطارها. ثم تباشر كنس الغرف للمرة الأولى في نهارها. فهي تنتقل من غرفة لأخرى منحنية على مكنستها القصيرة تكنس بها، وتكنس، وتكنس. أما معظم الغبار فيرتفع في الفضاء ويطوف حولها ليعود إلى النزول فوق الأرض وراءها. فرائحة الغبار لا تُفارق ذلك البيت. وهي لا سبيل لها للتخلُّص منه، فهو يعلق بها وبجسدها كيفما تحركت. بل هو يعلق بأفكارها أيضاً. لكنها تلتقط فتات الخبز،

وقصاصات الورق، وسوى ذلك من الفضلات والحثالة. عدة مرات في اليوم لا بدّ لها من أن تشقّ طريقها في الغرفة بينما المكنسة تمشي أمامها. فكـل شيء يقع على الأرض ويجد طريقه إليها، ولا بدّ للأرض من أن تتسخ من جديد.

وهـا هما ذا الوسخ والسخام اللذان تحاول الآن أن تنضوهما في الحمـام عن جسدها. فهما ينقشران عنها في لفافات صغيرة. وها هو الغبار الذي يلتصق بها وبكل حياتها.

"لـو كان لي منـزل فقط لا يحتاج للتنظيف سوى مرة واحدة كل يوم، فيبقى بعدها نظيفاً لآخر النهار، فلا أحتاج إلى القيام بكنسه سوى مرة واحدة في الصباح". تقول ليلى متنهدة لبنات عمها. ويوافقن معها. فهنَّ أصغر البنات في عائلاتهن ويذقن من الحياة ما تذوقه هي.

وليلـى قد أحضرت معها بعض الملابس الداخلية التي ترغب في غـسلها في الحمام. فالغسيل يجري عادة في دغشة الظلام على كرسي مـرحاض قريب من نُقرة التصريف في الحمام، وهي تستعمل من أجل الغـسيل عدداً من الأحواض، في أحدها ماء يخالطه الصابون، والآخر خالـياً منه. واحد للبياضات، وواحد للثياب الملونة. وهي تقوم بغسل المفـارش والبطانيات، والمناشف، وملابس العائلة. ويجري دَعكُ هذه الثـياب وتفويحها وعصرها قبل تعليقها. ويكون تجفيف الغسيل صعباً، خاصة في فصل الشتاء. وقد نُصبت أمراس خارج العمارة، لكن الثياب تُـسرق أحـياناً عـنها، لهذا فإنها لا ترغب في تعليق غسيلها في ذلك المكـان، ما لم تُوكل إلى أحد الأطفال حراسته إلى أن يجف. وإلاّ فإن قِطَـع الغسيل تُحشَر على حبل غسيل منصوب على الشرفة الصغيرة. ومساحة هذه الشرفة لا تزيد عن ياردات قليلة مربعة، وهي تكون عادة مليـئة بتمويـنات الطعـام وبالخردوات: كيس من البطاطا، سلة من

البصل، سلة من الثوم، كيس كبير من الأرز، صناديق كرتونية، أحذية قديمـــة، وقلـــيل من الملابس والأشياء الأخرى التي لا يجرؤ أحد على رميها، حيث إنها قد تظهر حاجة إليها في يوم من الأيام.

وفي البـــيت، تلبس ليلى كنـــزات عتيقة مهلهلة، وتنانير ملطّخة تجرجـــر أذيالها على الأرض. وتقوم تنانيرها بالتقاط الغبائر التي تعجز المكنـــسة عـــن التقاطها. وهي تنتعل صندلاً من البلاستيك يرتفع إلى مـــستوى الكاحـــل، كمـــا تضع شالاً فوق رأسها. ولا يأتي تلألؤ في جـــسمها سوى من قرطين كبيرين يتدليان من أذنيها، كما من بعض الأساور الناعمة في يديها.

* * *

"ليلى!".

يـــناديها صوت تَعِبٌ ضعيف، ينسرب بين صراخ الأطفال. ولا يكـــاد هذا الصوت يشقّ شقشقة المياه التي تنساب فوق أرض الحمام كلما قامت النسوة بسكب سطول الماء إحداهن على جسد الأخرى.

"ليلى!".

تستفيق بيبـــي غول من غفلتها. فهي تجلس حاملة قطعة القماش، شاخـــصة لا حيلة لها. تتناول ليلى ليفة القنّب التي تُستعمَل للتدليك، وتناول الصابون، والشامبو والطشت إلى أمها الضخمة العارية.

"نامـــي على ظهرك"، تقول لها. تناور بيبـــي غول بجذعها لتلقيه علـــى الأرض. تفـــرك ليلى وتُمرِّغُ الجسد المتمعِّج. فجسد أمها وعِرٌ، وهـــي تستعمل كل قواها لكي تجعله نظيفاً. وهكذا فإن الجلد الأبيض يـــصير أحمر تحت يدي ليلى. وتضحك بيبـــي غول؛ فهي أيضاً ترى الجانـــب الكوميدي لهذه المسألة. البنت الأنيقة الصغيرة إلى جانب الأم الـــضخمة العجوز. ففارِق السن بينهما يقارب الخمسين سنة. وعندما

تـضحكان تبتـسم جميع النساء الأخريات. وفجأة تنفجر عاصفة من الضحك.

"أنتِ ضخمة جداً يا أمي، وقد تموتين يوماً بسبب شدة بدانتك"، تقـول ليلى مناشدة أمها بينما هي تغسل أماكن في جسد والدتها، لا تـستطيع يدا الوالدة الوصول إليها. ثم لا تلبث أن تدير أمها لتستلقي علـى بطـنها، تساعدها في هذا الأمر بنات عمها حيث تقوم كل ابنة بمهمـة فـرك عضوٍ من أعضاء جسد بيبـي غول الهائل. ثم يتمّ غسل شـعر بيبـي غـول الناعم الطويل. فيُسكب الشامبو زهري اللون المستورد من الصين فوق فروة رأسها. وتقوم ليلى بتدليك الشعر بعناية وكأنها تخشى أن يتساقط ما بقي من شعر أمها. وتكاد قارورة الشامبو أن تـصبح فارغة. فهي من مخلفات عصر الطالبان. أما صورة السيدة المصورة على الزجاجة فكان قد جرى إخفاؤها بقلم ثخين، ريشته من لُبّاد، وحبره لا يذوب في الماء. فعندما قام عناصر البوليس الديني بتمزيق كتب سلطان، فإنهم قد تحرّوا أيضاً علب التغليف، وما عليها من صور. فـوجه كل فتاة مصوَّر على قارورة شامبو، أو وجه كل طفل مصوَّر على قطعة صابون كانت تجري إزالته.

بـدأ الماء يبرد. وكان صراخ الأطفال الذين لم يستحموا بعد يتعالى أكثـر فأكثر. وبعد قليل لم يبقَ في الحمام الذي كان عابقاً بالبخار الدافئ، سـوى الماء البارد فقط. لذلك فإن الأمهات يغادرن أحواض الاستحمام، وعندما يفعلن ذلك تبدو آثار الأوساخ خلفهن واضحة. فمن قشور البيض والتفاح المتعفن الذي يتجمع في الزوايا، إلى خيوط من الأوحال والأوساخ المتبقـية على الأرضيات؛ فالنسوة يستعملن الصنادل البلاستيكية نفسها في الحمـام، كمـا هو حالهن عندما يمشين على طرقات القرية، والأمر نفسه يجري في الحمامات الخارجية، وفي الباحات الخارجية للبيوت.

وتـدبُ بيبـــي غول إلى الخارج مع ليلى وبنات العم في صف واحـد، ثم يلبـسن ثيابهن. ولا تكون واحدة منهن قد أحضرت معها غـياراً، لذلك فإن كل واحدة منهن ترتدي الثياب ذاتها التي كانت قد وصـلت إلى الحمـام وهـي ترتديها. ثم توضع البوركات فوق جميع الملابـس وفوق الرؤوس النظيفة. ولا يدخل سوى القليل من الهواء إلى داخـل الـبوركا، وبـذلك يكون لهذه البوركات روائحها المميزة. فالـبوركا العائدة إلى بيبـي غول تفوح منها رائحة لا يمكن تمييزها، فهـي خليط من الأنفاس القديمة ورائحة الأزهار الحلوة، وشيء ما فيه حموضة. أما رائحة البوركا العائدة إلى جميع نساء عائلة خان تعبق كلها بـرائحة دخـان الطبخ، والسبب في ذلك هو أن الجميع يُعلقنها على مسامير مغروزة في حائط قرب المطبخ. فالنسوة الآن نظيفات بالكامل تحـت ملابسهن وأغطيتهن، ولكن الصابون السائل والشامبو الزهري يقـاتلان قـتالاً يائـساً ضد الأقذار الغريبة الثقيلة. لذلك فإن الرائحة الخاصة بكل امرأة سرعان ما تُستعاد. فهي إما رائحة عبدةٍ عجوز، وإما رائحة عبدةٍ صغيرة.

وتتابع بيبـي غول سيرها إلى الأمام؛ ولمرة جديدة تتخلّف عنها الفتيات الثلاث. فهنَّ يمشين معاً مقهقهات. وعندما يصلن إلى الشارع الخالي، فإنهنَّ يطرحن خمورهن خلف رؤوسهن. إذ لا يتجول هنا سوى الكلاب والفتية الصغار. وتبدو الريح الباردة منعشة فوق جلودهن التي لا تـزال تنضح بالعرق. ولكن الهواء هنا ليس نقياً. فالشوارع الخلفية والأزقـة في كابول تعبق جميعها بروائح القاذورات والمجارير. وهنالك خندق وسخ يتابع مجراه قرب الطريق الترابـي الذي يمتد بين الأكواخ الـترابية. لكـن الفتـيات لسن في دراية بالرائحة القذرة القادمة من الخندق، ولا بالغبائر التي تلتصق بجلودهن مقفلة مسامُها. وتلامس أشعة

الـــشمس جلـــودهن فيفرحن. ولكن فجأة يظهر رجل على دراجة هوائية.

"احتشمن أيتها البنات، يصيح بهنَّ فيما تئزّ دراجته بقربهن. وتنظر الواحدة منهن إلى الأخريات ويتضاحكن لمنظر وجه الرجل المضحك، ولكـــن عـــندما يـــستدير عائداً نحوهن، فإن كل واحدة منهن تغطي وجهها.

"إذا عاد الملك، فإنني لن ألبس البوركا أبداً"، تقول ليلى في لهجة جادّة فجأة. "وعند ذلك سيكون لنا بلد يعيش في سلام".

"من المؤكد أنه لن يعود أبداً"، تقول ابنة العم المتحجبة معترضة.

"يقولون إنه سيعود للحكم هذا الربيع"، تقول ليلى.

ولكـــن إلى أن يعـــود فإن الأسلم لهنَّ هو أن يُغطين وجوههن؛ فالبنات الثلاث بمفردهن في كل حال.

وليلـــى لا تسير لوحدها أبداً. فليس من المستحسن للفتاة الشابة أن تمشي وتتجوّل دون صحبة أحد. فمن ذا الذي يدري إلى أين قد يخطر لها أن تـــذهب؟ فـــربما هي تذهب لمقابلة رجل، ولربما هي ذاهبة لارتكاب معـــصية. فليلـــى لا تمشي بمفردها حتى إلى دكان الخضري الذي لا يبعد ســـوى دقائق قليلة عن شقتها. فهي في العادة تصطحب معها ابن جيرانهم الـــصغير كما تطلب منه أن يقوم أحياناً بجلب الحاجات لها. وليلى لم تبقَ مرة واحدة في الشقة بمفردها، ولم تذهب مرة إلى أي مكان لوحدها، كما لم تـــبقَ في أي مكان منفردة، وهي لم تنم مرة واحدة بحالها. فهي تنام كل لـــيلة على بساطها الصغير بالقرب من أمها، وهي لا تعرف معنى أن يكون المـــرء لـــوحده، ولا تفتقد إلى أمر الاختلاء بنفسها. فالشيء الوحيد الذي تصبو إليه هو مقدار أكبر من الهدوء والسلام، ومقدار أقل من العمل.

* * *

وعـــندما تـــصل إلى البيت تسود الفوضى؛ فالحقائب والأكياس والأمتعة منثورة في كل مكان.

"لقـــد عـــادت شـــريفة! لقد عادت شريفة!" تقول بلبلة وهي مـــسرورة لأن ليلـــى قـــد عادت وباتت تستطيع تولي شؤون البيت كمـــضيفة. وتجري شابنام، الابنة الصغيرة لسلطان وشريفة، في الجوار كأنهـــا مهرة صغيرة سعيدة. فهي تقوم بمعانقة ليلى التي تعانق بدورها شـــريفة. وفي وسط هذا كله تقف صونيا، الزوجة الثانية لسلطان وهي تبتـــسم فـــيما هي تحمل ابنتها لطيفة على ذراعها. لقد أحضر سلطان شريفة وشابنام من باكستان، على نحو مفاجئ.

"لمدة الصيف فقط"، يقول سلطان.

"بل على الدوام"، تقول شريفة هامسة.

ويـــذهب ســـلطان إلى المكتبة؛ ولا يبقى في البيت سوى النساء. ويجلسن في حلقة على الأرض. وتقوم شريفة بتوزيع الهدايا. فستان من أجـــل لطـــيفة، شـــال من أجل صونيا، حقيبة من أجل بلبلة، كنـــزة صـــوفية مـــن أجل بيبـــي غول، وثياب وحليٌّ بلاستيكية لبقية أفراد العائلة. أما لأبنائها فقد جلبت عدة أثواب خاصة، وجميعها مشتراة من الأسواق الباكستانية، فالملابس غير متوفرة في كابول. وهي قد جلبت معها أشياءها الثمينة الخاصة.

"لـــن أعـــود إلى هـــناك من جديد"، تقول شريفة. "إنني أكره باكستان".

لكـــنها تعلم أن جميع القرارات هي بين يدي سلطان. فإذا كان سلطان يريدها أن تعود، فلا بدّ لها من أن تفعل ذلك.

وتجلـــس زوجـــتا سلطان وتثرثران كصديقتين قديمتين، فتقومان بفحـــص الأقمـــشة، وتجـــرّبان الملابس والحُليّ. وتقوم صونيا بتمسيد

الأشياء التي أهديت إليها وإلى ابنتها الصغيرة. فقليلاً ما يقوم سلطان بتقديم الهـدايا إلى زوجته الصغيرة. لهذا، فإن عودة شريفة إلى البيت هي حدث يلقـى ترحيبها لأنه يقطع الرتابة من حياتها هنا. لهذا، فهي تُلبِس لطيفة الفستان القصير زهري اللون الذي يجعل تلك الطفلة تبدو كأنها لعبة.

وتتبادل النسوة الأخبار. فهنَّ لم يكنَّ قد رأين بعضهن بعضاً منذ أكثر من سنة. وليس هنالك من هاتف في الشقة، لذلك فإنهن لم يتبادلن الحـديث أيضاً. والحدث الكبير في كابول هو زواج شاكيلا، الزواج الـذي يـشرحن تفاصـيله بدقة: من الهدايا التي حصلت عليها، إلى الفـساتين التي لبسنها، إلى ملابس بنات الأقارب الأخريات، إلى أخبار الخطوبات، والزيجات، والوفيات.

وتروي شريفة الأنباء العائدة إلى حياة اللاجئين. من الذي عاد منهم إلى البلاد، ومن هو الذي لا يزال باقياً هناك. "لقد عُقدت خطوبة سليقة"، تقـول لهنَّ. "كان لا بدّ من أن تنتهي المسألة على هذه الشاكلة، حتى وإن كانـت العائلة تعارض هذه الخطوبة. فالولد مُعدَم لا يملك شيئاً؛ كما أنه كـسول أيـضاً ولا نفع له"، تقول. ويوافق الجميع معها. فالجميع يتذكر سـليقة، التي تلبس دائماً على آخر طراز، لكنهن يشعرن بالحزن من أجلها لأنها ستقدم على الزواج من رجل متبطل شديد الفقر.

"بعـد أن التقـيا في الحديقة العامة، أقفل عليها أهلها مدة شهر كامل"، تقول شريفة. "ثم في يوم من الأيام جاءت أم الصبـي وعمته تطلبان يدها. وقد وافق أهلها؛ فلا خيار آخر أمامهم؛ فالتلف الحاصل قد حصل. أما حفلة الخطوبة فلم تكن سوى فضيحة!".

وتُصغي النساء إلى الحديث بأعين مندهشة. خاصة صونيا. فهذه قـصص تُلامـس جميع جوارحها. فروايات شريفة هي قصص الأوبرا الأحب إلى قلبها.

"إنها فضيحة"، تكرر شريفة قولها لتأكيد الحقيقة. فلقد جرت العادة أن تقوم عائلة زوج المستقبل بدفع نفقات الوليمة والفستان والمصاغ عندما تُخطَب فتاة لشاب. وعندما كانوا يخططون للحفلة، فإن والد الصبي دفع بضعة آلاف من الروبيات إلى يد والد سليقة. لكن والد سليقة الذي كان قد عاد من أوروبا ليساعد في حلّ مأساة عائلته، ولدى رؤيته للمبلغ، فإنه لم يتورع عن رميه إلى الأرض. "أتعتقد أنك تستطيع أن تقيم وليمة خطوبة بهذا المبلغ الذي لا يكاد يغطي ثمن وجبة تقدم لبعض طيور الدجاج؟". قال صائحاً. وكانت شريفة تجلس على سفرة الدرج تستمع إلى كل شيء، لهذا فإن الرواية دقيقة جداً ولا شك في صحتها. "رُدَّ أموالك إليك وسنتكفل نحن بدفع الفاتورة"، قال له.

ولم يكن والد سليقة كثير المال أيضاً. فهو في انتظار أن يُمنح له حق اللجوء إلى بلجيكا، وأن يتمكّن من استقدام أفراد عائلته إليه هناك. وقد كانت هولندا قد رفضت استقباله من قبل، وهو الآن يعتاش على النقود التي تمنحه إياها الحكومة البلجيكية. لكن حفلة الخطوبة هي احتفال رمزي بالغ الأهمية، والخطوبة في واقع الأمر تكون غير قابلة للفسخ. فإذا فُسخت، فسيكون أمام الفتاة مشاكل جدية في أن تتمكن من الزواج من جديد، وذلك كائناً ما كانت أسباب الفسخ تلك. وحفلة الخطوبة هي في الوقت نفسه تعبير عن المكانة التي تحتلها العائلة، وعن مدى بحبوحة عيشها. ما هو نوع الديكورات؟ ما هي تكلفتها؟ ما هو نوع الطعام؟ ما هي تكلفة الوليمة؟ ما هو نوع الفستان؟ ما هو مبلغ تكلفته؟ ما هي الأوركسترا، ما هو مبلغ تكلفتها؟ فمثل هذه الحفلة من المفترض بها أن تُظهر للناس مبلغ تقدير عائلة الصبي للابنة التي ستصبح عضواً جديداً في عائلتهم. فإذا كانت المأدبة دون المستوى،

فإن هذا يعني أنهم لا يُقدِّرون الفتاة كثيراً، كما أنهم لا يُقدِّرون عائلتها. كما يدلّ ذلك أن والدها سيرزح تحت وطأة الدين الذي ستكلفه إياه حفلة الخطوبة التي لم يفرح بها أحد سوى سليقة وخطيبها، ولكن ذلك لا يعني شيئاً بالمقارنة مع العار الذي تجلبه حفلة رخيصة تقام كيفما اتفق الأمر.

"إنها قد بدأت تعضُّ أصابعها ندماً"، تكشف شريفة النقاب عن تلك الحقيقة. "لأنه ليس لديه مال. فلقد رأت سريعاً كم أنه شخص قليل النفع. ولكن الأمر قد تأخر الآن كثيراً. ذلك أنها لو أقدمت على فسخ الخطوبة، فإن أحداً بعد ذلك لن يريدها. لذلك فهي تتحوّل مخشخشة بست أساور كان قد أهداها إياها. وهي تزعم أنها أساور ذهبية، لكنني أعرف، كما هي تعرف، أنها أساور معدنية مطلية بالذهب فقط. وهي لم تحصل حتى على فستان جديد من أجل احتفالات رأس السنة. هل سمعتم في حياتكم بفتاة لا تحصل على فستان جديد من خطيبها لمناسبة ليلة رأس السنة؟".

"وهو رائع في بيتهم طيلة كل يوم الآن. وأمها لا تملك أي سيطرة على ما يفعلانه معاً. إنه أمر محزن ومُخزٍ، لقد قلتُ لها ذلك"، تقول شريفة أمام النسوة الثلاث الأخريات اللواتي أمطرنها بعد ذلك بأسئلتهن.

وماذا عن تلك، وعن تلك، وعن هاتيك. فإنهنَّ لا يزال عندهن الكثير من القريبات في باكستان، لتسقُّط أخبارهن، من عمّات إلى خالات، إلى بنات عمّ من اللواتي ما زلن يعتقدن أن الأوضاع لا تزال غير آمنة تماماً للعودة إلى أفغانستان. أو أنهن لا يُردن العودة أبداً: حيث يكون البيت مدمراً، أو الحقل مزروعاً بالألغام، أو الدكان محترقاً ومنهوباً. ولكن الجميع يتوق للعودة إلى الوطن، مثله في ذلك مثل شريفة. فقد مضى عليها سنة تقريباً منذ أن رأت أولادها آخر مرة.

وتذهب ليلى إلى المطبخ لتحضير العشاء. وتكون مسرورة بعودة شريفة، الأمر قد عاد إلى وضعه الصحيح، لكنها تخشى الخصامات التي ستلي تلك العودة، والتي ستنشب بين زوجة أخيها، وبين أمها. فهي لا تـزال تتذكر كيف أن شريفة اعتادت أن تطلب منهم جميعاً أن يحزموا أمتعتهم وأن يغادروا البيت.

"خذي بناتك وغادري هذا البيت"، اعتادت أن تقول لأم زوجها بيبـــي غول. "ليس لكم من مكان هنا. ونحن نريد هذا البيت لراحتنا فقـــط"، صرخت مرة عندما كان زوجها سلطان غائباً. كان ذلك في الزمن الذي كانت فيه شريفة لا تزال تحكم البيت وتحكم قلب سلطان. ولكـــن فقـــط خلال السنوات الأخيرة القليلة، وبعد أن جلب سلطان لنفسه زوجة أخرى، فإن لهجتها قد اعتدلت تجاه أقرباء زوجها.

"لكن الآن ستكون لدينا مساحة أقل لتأوينا"، تقول ليلى متنهدة؛ فـــنحن الآن لم نعـــد أحد عشر نفراً بل أصبحنا ثلاثة عشر إنساناً في الغـــرف القليلة الصغيرة. وهي تقوم بتقشير البصل، وتسيل من عينيها دمـــوع غزيرة جرّاء رائحته القوية. بل هي تبكي دموعاً حقيقية؛ فهي تكـــبت في نفـــسها الشوق، والتوق، وخيبات الأمل. فرائحة الصابون النظـــيفة الـــتي اكتسبتها في الحمام قد ذهبت الآن عنها وانتهى أمرها. ورذاذ الزيت المقليّ يتناثر من المقلاة على شعرها ويعطيها رائحة دهنية شـــديدة. أما يداها الخشنتان فتؤلمانها بسبب لذع صلصة الفلفل الحارّة التي تخترق الجلد المنهك الرقيق.

وهـــي الآن تطبخ عشاءً بسيطاً، فلا شيء مميز رغم عودة شريفة. فلـــيس من عادات عائلة خان الاحتفال بالمناسبات التي تختص بالنساء. ومع كل هذا، فإن عليها أن تطهو ما يشتهيه سلطان ويرغبه. من لحم، وأرز، وسبانخ، ولوبياء، وكلها تُطبخ بدهن الخروف.

وفي كــل مساء يعود سلطان إلى البيت ومعه رزم من النقود التي يجنيها من مكتباته. وفي كل مساء يقوم بإيداعها في داخل الخزانة ويقفل عليها. وهو في العادة يجلب معه إلى البيت أكياساً كبيرة تحتوي على أكواز رُمّان ناضرة، وموز حلو المذاق، وحبات مندرين وتفاح. لكن الفواكه هي أيــضاً من الأشياء التي يُقفل عليها في الخزانة. بحيث لا يأكلها إلاّ سلطان وزوجته صونيا اللذان يضعان أيديهما على مفتاح الخزانة دون سواهما. فــسلطان يعــتقد أنه عبءٌ ثقيل عليه أن يقوم بإطعام عائلته الكبيرة، والطعام مكلف جداً خاصة عندما تكون الثمار في غير موسمها.

وتنظر ليلى إلى بعض حبات البرتقال الصغيرة القاسية الملقاة فوق حاجــب الشبّاك. لقد بدأت تلك الحبات تجفّ. ومن أجل ذلك فإن صونيا قد أخرجتها إلى المطبخ؛ لتوضع بتصرف الجميع. لكن نفس ليلى تأبى حتى أن تتذوّقها. فإذا كان قدرها المحتوم أن تكتفي بالتقوّت على الحــبوب، فإنها لن تأكل سوى الحبوب. أما البرتقالات فيمكن لها أن تبقــى ملقــاة في مكانها إلى أن تجفّ أو أن تتعفن. وترفع ليلى رأسها بقــوة، وتــضع القِــدر الثقيلة المليئة بالأرز فوق موقد الــ: بريموس. وتــسكب البــصلَ المقطّع في وسط مقلاة الزيت، ثم تضيف البندورة، والبهارات والبطاطا. فليلى طاهية ماهرة. وهي تتقن كل شيء تقريباً. ومن أجل هذا، فإنهم يجعلونها تقوم بعمل كل شيء. وخلال الوجبات فإنهــا تجلس عادة عند الزاوية المحاذية للباب. وتقفز واقفة كلما احتاج أحــدهم لأي شــيء، كأن يحتاج إلى إعادة ملء صحنه مثلاً. وعندما تنتهي من تلبية حاجات كل أحد، تملأ صحنها مما تبقى، وهو لا يعدو أحياناً أن يكون بعض الأرز الدسم والحبوب المطبوخة.

لقد نُشّئت منذ صغرها على الخدمة، فآل أمرها إلى أن تكون مجرّد خادمة يُوجَّه الأوامر إليها كل من يشاء من أفراد العائلة. ومع كل أمر

جديـــد تتلقاه، يتناقص احترامها ومركزها في العائلة. وإذا صادف أن كان أحدهم في مزاج سيئ، فإن الواقعة تقع على رأس ليلى. ولن يعدم مـــن يريد أن يصرِّف غضبه فوق رأسها أن يجد سبباً لانتقادها، كأن تكـــون بقعةٌ لم تنظَّف تماماً عن كنـــزة، أو كأن يكون اللحم غير تام النضج، إلى ما هنالك من أشياء يمكن أن تخطر في بال من يريد أن يجد سبباً للتنفيس عن طبعه المحتقن.

وعـــندما تقوم العائلة بدعوة الأقارب إلى الطعام، فإن ليلى تنهض في الـــصباح الباكر، وبعد أن تكون قد حضّرت طعام الفطور لعائلتها الخاصـــة بهـــا، فإنهـــا تنبري إلى تقشير البطاطا، وجمع الحطب وتقطيع الخـــضار. وعندما يصل الضيوف، فلا يكاد يبقى لديها الوقت الكافي لإبدال ملابسها قبل أن تتابع عملها في الخدمة، ثم لصرف ما تبقى من الـــوقت الـــذي تـــستغرقه المناسبة، وهي منكبّة على غسيل الصحون والأواني في المطبخ. فهي أشبه ما تكون بـــ: سندريلاّ، إلاّ وما عدا، أن لا أميراً يوجد في حياة ليلى.

ويعـــود ســـلطان إلى البيت مع منصور، وإقبال، وإيمال. ويقوم بتقبيل صونيا في القاعة، بينما يكتفي بتحية شريفة تحية مقتضبة في غرفة الجلوس. لقد أمضى معها نهاراً كاملاً في السيارة من بيشاور إلى كابول ولم يعد هنالك من حاجة إلى المزيد من الحديث معها. ويجلس سلطان وأولاده. وتحـــضر ليلى وعاءً فخارياً للاغتسال مع مِغرفة. تضع الوعاء أمـــام كـــل واحـــد منهم بدوره، فيغسلون أيديهم ثم تناولهم المنشفة. وتكـــون قطعة القماش المشمّعة المخصصة قد مُدَّت فوق الأرض حيث يمكن أن تُقدَّم عليها وجبة الطعام.

ويعـــود يـــونس، الأخ الأصغر لسلطان، إلى البيت، فيسلّم على شـــريفة بحـــرارة. ويـــسألها عن آخر أخبار الأقارب، ثم ومثل عادته،

يُمسك عن الكلام. فهو قلّما تكلم أثناء الوجبات. وهو هادئ ورابط الجأش، ونادراً ما يتدخل في النقاشات العائلية. ويبدو الأمر كما لو أنه لا يبالي بشيء، ويرغب في حفظ شعوره بالتعاسة لنفسه فقط. فهذا الشاب البالغ الثامنة والعشرين من عمره، لا يشعر باكتفاء في حياته ولا بسعادة.

"إنها حياة أشبه بحياة الكلاب"، يقول. فهو يعمل كل يوم من الفجر حتى المساء، ولا يحصل سوى على الفُتات من طاولة أخيه.

ويونس هو الشخص الوحيد الذي تسعد ليلى في خدمته. فهي تحب هذا الأخ لأنه يأتيها في بعض الأحيان بهدايا صغيرة كمِشبَك بلاستيكي، أو مشط.

أما في هذا المساء فإن شيئاً ما، يُقلق يونس. لكنه يتأنى قبل أن يسأل. وتستشرف شريفة ما يُؤرِّقه فتقول بمجاهرة: "هنالك قليل من عدم تيسّر الأمور فيما يختص ببلقيسة. فوالدها ميَّال إلى الموافقة، لكن أمها لا تزال ترفض. وكانت الأم قد وافقت في البداية، لكنها ما لبثت أن تكلمت مع إحدى قريباتها التي لها ابن أصغر سناً، وهو راغب في الزواج من بلقيسة. ولقد عرض أهله فلوساً، الأمر الذي جعل الأم في موقف متذبذب. وإن هذه القريبة كانت قد نشرت بعض الإشاعات عن عائلتنا. هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لك".

ويعبق وجه يونس، ويحملق بعينيه في صمت. فالموقف بكامله محرج. ويقول منصور بلهجة الهازئ المتهكم: "الحفيدة لا تتزوج جَدًّا"، لكنه يقول ذلك في سرّه متمتماً، وهكذا يسمع يونس كلمة منصور، ولا يسمعها سلطان. فالأمل الأخير ليونس يكون قد انتكس، وحُوبه بالرفض. ويشعر بالتعب، فهو تَعِبٌ من الانتظار، وتَعِبٌ من البحث، وتَعِبٌ من السكنى في صندوق كرتون.

"هـــل لنا بالشاي!" يقول بلهجة آمرة علّه يقطع استرسال شريفة في الكـــلام حول الأسباب التي تجعل عائلة بلقيسة غير راغبة في تزويج ابنـــتها منه. وتنهض ليلى. وتكون في يأس من أمرها بأن خطوبة يونس تتجرجـــر. فهي تأمل بأن يقوم يونس بعد زواجه بأخذها وأخذ أمها لكي تعيشا معه في بيته الجديد. فهم يستطيعون العيش معاً جميعاً؛ فليلى سوف تكون جيدة معهم، جيدة إلى نحو كبير. فهي سوف تقوم بتعليم بلقيسة، وستريحها من جميع الشؤون والأعمال الصعبة. حتى إن بلقيسة تـــستطيع أن تـــستمر في مـــتابعة تعلمها إذا شاءت ذلك. وكل شيء سيجري على ما يرام. وهي مستعدة لتفعل أي شيء من أجل الخروج من بيت سلطان، هذا البيت الذي لا يُقدِّر أحد جهودها فيه. فسلطان يتذمّـــر قـــائلاً إن طبخها لا يوافق مشتهاه، كما يتذمّر من أنها تأكل كـــثيراً، وأنها لا تطيع زوجته صونيا بشيء. ومنصور لا يتركها مرة في حالها بل يداوم على انتقادها وتعنيفها وتوجيه الأوامر إليها. وهو كثيراً مـــا يقـــول لها أن تذهب إلى الجحيم. "لست لأبالي بشأن أي شخص ليس له أي شأن في مستقبلي"، يقول لها. "وأنتِ لا تعنين شيئاً بالنسبة إليّ. فأنـــتِ طفيلـــية، والحياة بدونك أحلى"، يقول لها وهو يضحك باحتقار. ذلك لأنه يعرف جيداً أن لا مكان آخر لها تلجأ إليه. وتجلب ليلـــى الـــشاي؛ شاياً أخضر خفيفاً. وتقوم بسؤال يونس عما إذا كان يريدها أن تكوي له بنطاله من أجل أن يرتديه في اليوم التالي. فهي قد انـــتهت لتوّها من غسيل البنطال. ويونس ليس له سوى بنطالين اثنين، وهكـــذا فإنهـــا تحتاج إلى أن تعرف ما إذا كان يريد أن يلبس البنطال النظيف غداً. ويومئ لها يونس برأسه إيجاباً وسط صمته وهدوئه.

"إن عمتي شديدة الغباء"، يصرّ منصور على القول. "وعندما هي تريد أن تقول شيئاً، فإنني أعرف ما تريد قوله. إنها أكثر شخص مضجر

قد عرفته في حياتي"، ويضحك بازدراء، ويقوم بتقليدها. لقد كبر ليس كابن أخ لعمّته التي لا تكبره سوى بثلاث سنوات، بل كسيّد لها.

وصحيح أن ليلى تعيد تكراراً ما تقوله عادة، لأنها تخشى ألاّ يكون كلامها قد سُمِع. وهي على وجه العموم تتكلم عن أشياء الحياة الصغيرة لأن هذه الأشياء الصغيرة هي كل حياتها. لكنها تستطيع أيضاً أن تضحك وأن تكون مشرقة، مع بنات عمّها، وأخواتها، أو مع أولاد أخواتها. فهي تستطيع أن تُدهِش كل واحد بقصصها ونوادرها. ووجهها يستطيع أن يتحوّل بكامله إلى كتلة من المرح والدعابة. ولكن ليس أثناء عشوات العائلة؛ حيث تكون في الغالب ملازمة الصمت. وأحياناً قد تضحك ليلى استجابة للنكات السخيفة التي يطلقها أبناء أخيها، ولكن مثلما كانت قد أخبرت بنات عمّها في الحمام: "إنني أضحك من فمي، وليس من قلبي".

ولم يقل أحد أشياء كثيرة خلال العشاء الأول الذي صاحب عودة شريفة من السفر بعد إفشاء الأخبار المخيبة للأمل، والتي تتعلق ببلقيسة. فإيمال يلعب مع لطيفة، وشابنام تلهو بعرائسها، وإقبال يتكلم بصوت مزعج مع منصور، وسلطان يغازل صونيا ويدلّلها. والباقون يأكلون في صمت، ثم تأوي العائلة إلى النوم. فشريفة وشابنام لهما مكانان مخصصان في الغرفة التي تنام فيها بيبي غول، وليلى، وبلبلة، وإقبال، وإيمال وفاضل؛ كانوا قد ناموا فعلاً. أما سلطان وصونيا فيحتفظان بغرفتهما. وعند منتصف الليل يكون كل منهم متمدداً على بساطه، ما عدا فرد واحد من العائلة فقط.

فليلى تطبخ في ضوء الشمعة لأن سلطان يحب الطعام البيتي أثناء نهار العمل. وها هي تحمّر دجاجة بالزيت، وتحضّر أرزاً مطهواً، ومرقة الخضار. وبينما هي تنتظر اكتمال نضوج الطعام، فهي تقوم بأعمال

الجلـــي. ويشرق نور الشمعة فوق وجهها. فهنالك دوائر كبيرة سوداء حـــول عينـــيها. وعندما تنتهي من إعداد الطعام ترفع المقلاة من فوق الـــصاج الحامي، ثم تلفُّ قطعاً من القماش فوق المقلاة وتربطها بعناية لتمـــنع وقوع الغطاء عندما يحملها سلطان وأولاده معهم إلى العمل في الصباح. ثم تقوم بتنظيف الزيت عن أصابعها وتذهب إلى فراشها بينما هي لا تزال ترتدي الثياب نفسها طيلة اليوم. تقوم بإفراد البساط الذي تنام عليه، وتسحب البطانية فوقها، وتستغرق في النوم إلى أن يُصحِّيها صـــوت المؤذّن بعد ذلك بساعات قليلة. ويبدأ يوم جديد على صوت "الله أكبر".

يـــوم جديد له الطعم ذاته، والرائحة ذاتها، مثل اليوم الذي سبقه: إنه طعم الغبار ورائحته.

المحاولة

بعد ظهر يوم من الأيام تضع ليلى بوركتها عليها من رأسها نزولاً، وتنتعل حذاء عالي الكعبين مخصصاً للخروج، وتتسلل إلى خارج البيت مارّة ببوابة المدخل المحطمة، وبمحاذاة الغسيل المعلق في الباحة الخلفية. وتلتقط لمرافقتها ولداً من أولاد الجيران. يعبران الجسر المقام فوق نهر كابول المجفف، ويختفيان تحت الأشجار على واحدة من الطرقات المشجرة القليلة في كابول. يمران بمحاذاة ماسحي أحذية، وبائعي بطيخ، وبقّالين، ورجال لا يفعلون شيئاً سوى التسكع في الجوار. وهؤلاء هم الذين تكرههم ليلى. فهم القوم المتبطلون الفاتحون أفواههم من أجل لا شيء.

وتكون الأوراق على الأشجار خضراء للمرة الأولى منذ عدة سنوات. فالسماء قلما جادت بالمطر في كابول خلال السنوات الثلاث الماضية، وكانت الشمس قد أحرقت براعم الأشجار إلى ما يشبه الرماد. والآن، وخلال هذا الربيع الأول الذي أعقب فرار طالبان، فإن السماء قد أمطرت كثيراً، لقد كان مطراً رائعاً. وبالرغم من أنه لم يكن كافياً ليملأ نهر كابول إلى ضفتيه، إلاّ أنه كان كافياً لجعل القليل من الأشجار التي ما زالت على قيد الحياة تفرّخ وتُخرج أوراقاً خضراء.

كمـــا كان كافياً لجعل الغبار ينجلي بين مرة وأخرى، هذا الغبار الذي هو اللعنة المسلّطة على كابول. وعندما تمطر السماء، فإن الغبار يتحول إلى أوحـــال؛ وعـــندما تجفّ الأوحال فإنها تتحول إلى غبائر تدوّم في الأجـــواء وتـــدخل الأنوف، وتسبّب الالتهابات في الأعين، وتغطُّ في الحلوق، وتعلق في الرئتين جاعلة إياهما موحلتين. وخلال بعد ظهر هذا الـــيوم، كانـــت السماء قد أمطرت فصارت الريح منعشة. لكن الهواء الـــرطب لا يقـــوى على اختراق البوركا. وكانت ليلى لا تزال تحسّ برائحة أنفاسها الخاصة المتوترة، كما تحسّ بنبض صدغيها.

وعلـــى العمـــارة رقـــم 4 متعددة الشقق في كابول، والمبنية بالكونكـــريت، ثمة إشارات كبيرة معلقة وقد كتبت عليها الكلمة التالية: "دورات". وطوابير الناس في الخارج تمتد في صفوف طويلة. فهـــنالك صفوف لمحو الأمية، ودورات للكومبيوتر، ودورات لتعلُّم الكتابة، وليلى تريد أن تسجّل في دورة لتعلُّم اللغة الإنكليزية. وفي خارج المدخل ثمة رجلان يجلسان إلى طاولة لتسجيل الطلبة الجدد. تدفـــع ليلى رسم التسجيل وتنضم إلى الطابور مع مئات آخرين من الـــذين يحاولـــون إيجـــاد الصفوف الدراسية. يهبطون بعض سلالم الـــدرج، ويدخلـــون إلى داخـــل قاعة تبدو أشبه بملجأ محصّن ضد القذائف. وتكون لآثار الرصاص والقذائف آثار وأنماط مرتسمة على الجدران. فهذه المواقع كانت تستخدم لخزن الأسلحة خلال الحرب الأهلية. وهي تقع تحت الشقق السكنية مباشرة. وثمة ألواح خشبية تفـــصل كـــل "غرفة تدريس" عن سواها. وفي كل حجرة ثمة لوح أسود، ومؤشّر، وبضعة مقاعد طويلة. حتى إنه توجد مقاعد خشبية في بعـــض الغـــرف. وهنالك طنين خفيض من الأصوات؛ فالحرارة بدأت تدبُّ في المكان.

وتمتدي ليلى إلى قسمها، "الإنكليزية المتقدمة قليلاً". لقد وصلت مبكراً. وهكذا، فإن في الصف زمرة من الشبان الأجلاف.

أيعقل هذا؟ شبان في الصف؟ تعجب لنفسها. إنها تغالب رغبة في أن تستدير وتغادر المكان، لكنها تسرق نفسها وتذهب للجلوس في الخلف. وثمة بنتان أخريان تجلسان في الزاوية الأخرى. والأصوات الآتية من الغرف الأخرى تمتزج في طنين خفيض. وأصوات المدرّسين الصارفة تخترق الجدران. ويمرّ بعض الوقت قبل دخول الأستاذ. ويبدأ الشبان بالخربشة على اللوح الأسود، ويكتبون كلمات وعبارات جنسية غير محتشمة باللغة الإنكليزية. وتتطلع ليلى إلى الكلمات باهتمام. وتفتح قاموسها الإنكليزي - الفارسي لتبحث عن معانيها، تبحث تحت الطاولة بحيث لا ينتبه الشبان إليها. لكنها لا تتمكّن من العثور على تلك الكلمات. وتشعر بنفور كبير من هذا الموقف بجملته: فهي وحيدة، أو شبه وحيدة، مع عصبة من الشبان الذين هم في مثل عمرها، حتى إن بعضهم أكبر منها سناً بقليل. كان عليها ألاّ تأتي إلى هذا المكان أبداً. إنها تشعر بالندم. ماذا إذا شرع أحد الشبان بالتحدث إليها؟ يا للفضيحة. وكانت قد نزعت البوركا عنها. إذ لا يمكن لفتاة أن تلبس البوركا وتغطّي وجهها في غرفة صف، هذا ما كانت تعتقده. والآن ها هي قد كشفت النقاب عن وجهها.

ويصل المدرّس فيقوم الشبان بسرعة بمحو الكلمات التي كانوا قد كتبوها على اللوح. وكانت ساعة الدرس عذاباً. فقد كان على جميع التلاميذ التعريف عن أنفسهم، وأن يصرّح عن عمره، وأن يقول شيئاً ما باللغة الإنكليزية. ويشير الأستاذ الذي هو شاب نحيل إليها بمسطرته ويطلب منها أن تقدّم نفسها. تشعر أنها تفضح كل دخيلتها في حضور هؤلاء الشبان. كما تشعر بالتقذر، والفضيحة،

وبالمساس بالشرف. ما هذا الأمر الذي أقدمت عليه؟ لم يدر بخلدها مرة أنها ستصادف شباناً في الصف نفسه. هذا أمر لم تتصوّره أبداً، والخطأ ليس خطأها.

لكنها لا تجرؤ على المغادرة. فلا بدّ من أن المدرّس سوف يسألها عـن الـسبب. ولكـن عندما تنتهي الحصة الأولى، فإنها تسارع إلى الخروج. فترمي البوركا فوق رأسها وتندفع. وعندما تبلغ سلامة بيتها تقوم بتعليق البوركا فوق المسمار على الجدار.

"أمر رهيب، هنالك صبيان في الصف!".

فـتحت الأخريات أفواههن دهشة. "شيء عاطل"، تقول أمها. "عليك ألاّ تعودي إلى هناك مرة ثانية".

ولم تكـن العودة واردة في ذهن ليلى أصلاً. فالطالبان قد يكونوا رحلـوا عن البلاد، إلاّ أنهم لم يرحلوا بعد من ذهن ليلى، كما أنهم لم يـرحلوا بعـد من أذهان بيبـي غول، وشريفة، وصونيا. فالنساء في مايكـروريان مـسرورات لانقضاء زمن طالبان، فهنّ يستطعن الآن الاسـتماع إلى الموسـيقى، بل يستطعن الغناء، والرقص، وطلاء أظافر أقدامهن؛ ما دام أن لا أحد يراهن، وهنّ يستطعن الاحتماء دائماً خلف غطـاء الـبوركا. وليلى طفلة من أطفال الحرب الأهلية، حيث كانت السيادة كلها للملالي، ولمنظمة طالبان. فهي طفلة الخوف. وهي تبكي مـن داخلـها. وكـل محاولاتها للانفلات، أو للقيام بأي شيء يكون مـستقلاً بهـا أو نابعاً منها، قد باء بالفشل. فخلال خمس سنوات من حكـم طالـبان، كان تعليم البنات ممنوعاً. وها هو تعليمهن عاد أمراً مباحاً. إلاّ أنها تقصي نفسها عنه بنفسها. ولو كان سلطان قد سمح لها بإكمـال تعلّمهـا في المرحلة الثانوية لما كان عندها الآن من مشكلة. فالصفوف في باكستان كانت غير مختلطة.

تجلس على أرضية المطبخ لتقطيع البصل والبطاطا. بينما تنهمك صونيا بتناول بيضة، وبإرضاع لطيفة. وليلى لا تطيق أن تتكلم معها. الفتاة الحمقاء التي لم تتعلّم حتى الألفباء. بل التي لم تكلّف نفسها حتى جهد المحاولة للتعلّم. وكان سلطان قد أحضر لها مدرِّسة خصوصية لتعلّمها القراءة والكتابة. لكن لم يعلق شيءٌ في ذهنها، فكل ساعة درس جديدة لم تكن لتتجاوز تلك التي سلفتها، وبعد أن اقتصر اكتسابها على خمسة أحرف في بضعة أشهر، فإنها تخلّت عن متابعة الدراسة أخيراً سائلة سلطان إذا كانت تستطيع إعفاء نفسها من هذه الدروس. وكان منصور قد ضحك ساخراً من فكرة تعلُّم صونيا، منذ ابتداء تلك الدروس الخاصة بقوله: "عندما يملك الإنسان كل شيء يريده، ولا يعود يعرف أي شيء عليه أن يفعل، فإنه يبدأ بمحاولة تعليم الحمار فن النطق"، وحتى ليلى التي لا تطيق شيئاً يصدر عن منصور، وجدت نفسها تضحك لهذه النكتة.

وتحاول ليلى أن تتعالى على صونيا، فتقوم بتعنيفها كلما سمعتها تقول قولاً سخيفاً، أو كلما وجدتها عاجزة عن إدارة موقف، لكن ذلك لم يكن ليحدث سوى أثناء غياب سلطان. فبالنسبة إلى ليلى لا تمثّل صونيا سوى فتاة ريفية ساذجة لم ترتفع إلى رتبة غنى عائلة سلطان سوى بسبب جمالها. وليلى تكرهها بسبب العديد من المزايا التي خصّها سلطان بها، ولأن هاتين الفتاتين، رغم تساويهما في العمر، قد أعطيتا أعمالاً بيتية غير متناسبة. فهي لا تحقد على صونيا بسبب مآخذ شخصية عليها، فصونيا تلازم البيت مظهرة أقلّ درجات الحضور والمبادرة، مكتفية بمراقبة ما يدور من حولها، وهي مع كل ذلك ليست كسولة بطبعها؛ إذ لطالما كانت عاملة نشيطة في بيت أهلها، فلقد كانت تهتم بشأنهم في القرية. لكن سلطان لا يسمح لها الآن بأن تتعب.

وعندما يكون غائباً فإنها في العادة تقدّم يد المساعدة. ورغم ذلك، فإنها تثير أعصاب ليلى. فهي تبقى طيلة نهارها جالسة في انتظار سلطان، ولا تـــنهض مـــن مكانها سوى لدى عودته. أما طيلة غيابه في العمل، فإنها تكتفي بارتداء الملابس غير المرتبة. وعندما يحضر إلى البيت، فإنها تعالج بالـــبودرة وجهها القـــاتم، وتكحّل عينيها، وتضع أحمر الشفاه على شفتيها.

وكانـــت صـــونيا قد خبرت الانتقال من حياة الطفلة إلى حياة الـــزوجة بينما هي في السادسة عشرة من عمرها. لقد بكت قبل حفلة الـــزواج، لكنها ومثل كل فتاة مهذبة، سرعان ما صارت معتادة على الفكـــرة. لقد كبرت ونمت دون أن يكون لديها أي توقعات في هذه الحياة، وقد استخدم سلطان فترة خطوبته عليها، التي استمرت شهرين، لمـــصلحته الخاصة. لقد قام برشوة والديها من أجل تمكينه من الاختلاء بها قبل الزواج. والخطيبان لا يفترض بهما أن ينظر أحدهما إلى الآخر في الفتـــرة الواقعة بين حفلة الخطوبة وحفلة الزواج، وهي عادةٌ قلّما تجري مـــراعاتها. لكـــن الذهاب إلى التسوق معاً هو شيء يختلف عن قضاء اللـــيالي معاً. فهذه مسألة لم يكن من المسموح بها. فأخوها الأكبر أراد أن يدافع عن شرفها مستعملاً سكيناً، عندما عرف أن سلطان قد دفع نقوداً لوالديها من أجل السماح له أن يبيت معها في الليلة السابقة لليلة الزواج. لكن أخاها العنيد كان أيضاً قد أُسكت بمبلغ نقديٍّ. وبقيت خطـــط ســـلطان سالكة طريقها. فهو من وجهة نظره، يسدي لها خدمة.

"إن علـــيَّ أن أقوم بتحضيرها من أجل ليلة الزفاف، فهي شديدة الـــصغر، وأنـــا صاحب خبرة"، قال للوالدين. "فإذا تيسّر لنا أن نمضي الآن بعـــض الـــوقت معـــاً، فلن تشكل لها ليلة الزفاف صدمة. لكنني

أعـــدكما بـــألاّ أدخل بما". وهكذا، وبالتدريج، فإنه هيّأ فتاة السادسة عشرة لليلة العمر.

فمـــنذ ســـنتين خلتا وصونيا لا تزال مكتفية بوجودها الهامشي الرتيب. فهي الآن لم تكن لتبتغي شيئاً أكثر من الجلوس في البيت، وأن تقـــوم بزيارات قليلة تتبادلها مع الأقارب، وفستان جديد بين كل وقت وآخر، وإسوارة ذهبية كل خمس سنوات.

وكـــان سلطان قد اصطحبها مرة في رحلة عمل إلى طهران. لقد بقيا خارج البيت مدة شهر، وكانت النساء في مايكروورايون شديدات الفضول والحرص على سماع ما اكتسبته صونيا هناك منها. لكنها عندما عـــادت، فإنها لم يكن لديها الكثير مما يمكنها روايته. لقد بقيا هناك في منـــــزل بعض الأقارب. وقد قامت هي بملاعبة لطيفة على الأرض، مثل عادتها. وإذا بها لم تشاهد طهران سوى مشاهدة عارضة. ولم تجد في نفسها رغبة في البحث والاكتشاف. والشيء الوحيد الذي أشارت إلى وجـــوده هناك هو البازارات؛ إذ إنها وجدت فيها أشياء أجمل من تلك التي تعرضها بازارات كابول.

والـــشيء الأهم في ذهن صونيا هو إنجاب الأطفال، أو بالأحرى، الأطفـــال الذكور. وها هي الآن حبلى من جديد، وتخشى أن تولد لها ابـــنة أخرى. وعندما تقوم لطيفة بجذب لفّاعها واللهوِ به، فإن صونيا تصفعها وتعيد ربطه حول رأسها. فالاعتقادُ السائد: هو أنه عندما يقوم الوليد الأخير باللعب بلفاع أمه فإن هذا يعني أن المولود القادم سيكون أنثى.

"إذا كنتُ حاملاً بطفلة، فإن سلطان سيتزوج امرأة ثالثة"، تقول عندما تقوم أختا زوجها بالجثوم قليلاً على أرضية المطبخ في صمت.

"هل قال هو لكِ ذلك؟" تقول ليلى في دهشة.

"لقد قال ذلك بالأمس".

"إنه لا يقول ذلك سوى ليرعبك".

لكــن صونيا لا تصغي. "لا بدّ من أن يكون هذا الجنين أنثى، لا بدّ من أن تكون أنثى". تقول مهمهمة. والطفلة البالغة سنة واحدة من عمــرها والــتي تقوم بإرضاعها، تستسلم للنوم بفضل صوت والدقا الرتيب.

وتشعر ليلى أنها في مزاج لا يسمح لها بالتحدث. فهي في حاجة إلى الخــروج. وهي تعرف أنها لا تطيق الجلوس طيلة النهار في صحبة صونيا، وشريفة، وبلبلة، ووالدقا. 'إنني سوف أجنّ، إنني لا أتحمل هذا الوضع أكثر من ذلك'. تقول لنفسها. 'أنا لا أنتمي إلى هذا المكان'.

وتفكّر في فاضل وفي الطريقة التي يعامله سلطان بها. كان هذا هو مــا جعلــها متأكدة أن الوقت قد حان للوقوف على قدميها، ولمحاولة الانضمام إلى بعض دورات تدريس اللغة الإنكليزية.

فهذا الولد البالغ إحدى عشرة سنة من عمره، ما فتئ يعمل كل يــوم في حمل صناديق الكرتون في المكتبة، وهو يتناول عشاءه معهم في المساء، وينام على بساطه متكوماً في كل ليلة إلى جانب ليلى. وفاضل هذا، هو الابن الأكبر لمريم أخت سلطان وليلى.

ومريم وزوجها لا يستطيعان إطعام جميع أولادهما. وعندما احتاج سلطان إلى مساعدة في المكتبة، فإنهما قبلا عرضه بأن يعمل فاضل معه في مقابــل إطعامــه وإيوائه مع أطفاله. هذا هو كل ما يقدّمه سلطان مقابل اثنتي عشرة ساعة من العمل. وكان فاضل يُترك يوم الجمعة دون عمل ليزور والديه في القرية.

وقــد نجــح فاضل. فكان يقوم بترتيب المكتبة، وحمل الصناديق خلال النهار، ويتعارك مع إيمال أثناء الليل. أما الشخص الوحيد الذي

لم يكن ليتآلف معه، فهو منصور. منصور الذي اعتاد أن يصفعه أو يضربه على ظهره بقبضة يده كلما ارتكب خطأ. ومنصور هذا قد يكون لطيفاً معه أيضاً في بعض الأحيان. ففجأة قد يصطحبه إلى دكان، ويشتري له ثياباً جديدة، أو حتى قد يأخذه إلى المطعم ويشتري له طعاماً طيباً. وعلى العموم، فإن فاضلاً استساغ الحياة، حيث كان بعيداً عن الشوارع الموحلة في قريته.

ولكن في أحد الأيام، قال سلطان: "لقد ضقت ذرعاً بك. اذهب إلى بيت أهلك ولا تُرِني وجهك في المكتبة بعد الآن".

ولقد أصيبت العائلة بالذهول. ألم يكن قد قطع وعداً لمريم بأن يتعهد شأن الصبي لمدة سنة؟ ولم يقل أحد شيئاً، ولا قال فاضل شيئاً. ولكنه وبينما كان يضطجع على بساطه تلك الليلة بكى. ولقد حاولت ليلى تعزيته، لكنها لم تفلح؛ لقد كانت كلمة سلطان هي القانون بذاته.

وفي الصباح التالي، قامت بحزم أشيائه القليلة وأرسلته إلى والديه. وقد تُرك له أمر شرح أسباب إعادته إلى البيت لوالدته.

لقد هتت ليلى. كيف يمكن لسلطان أن يعامل فاضل بمثل هذه الطريقة؟ ربما سيكون الدور التالي هو دورها. لقد آن الأوان لها للتفكير في شيء ما.

* * *

وكانت ليلى قد حاكت خطة جديدة. ففي صباح أحد الأيام، وبعد أن غادر سلطان وأولاده البيت، تقوم بوضع البوركا فوق رأسها وتختفي خارج الباب. وفي هذه المرة أيضاً تلتقط أحد أبناء الجيران لتصطحبه معها. وفي هذا اليوم تختار لنفسها طريقاً آخر غير الذي اختارته سابقاً، طريقاً يؤدّي إلى خارج مايكرورايون، إلى خارج غابة

الإسمنت المرعبة. وعند تخوم المدينة ثمة بيوت لحق بها الدمار إلى درجة أنه جعلها لا تزال خراباً خالياً. ومع كل ذلك فإن بعض العائلات اتخذت لها ملاذاً في تلك الخرائب. وعاش أفرادها على التسوّل من جيرانهم الذين ليسوا في وضع أفضل من وضعهم بكثير، لكنهم على الأقل، يملكون سقفاً فوق رؤوسهم يحميهم. وتقطع ليلى حقلاً صغيراً فيه قطيع من الماعز يرعى بينما الراعي يغطّ في ظل الشجرة الباقية الوحيدة التي لا تزال تستطيع أن تطرح ظلاً. هذه هي منطقة الحدود بين المدينة وبين إحدى القرى. وعلى الجانب الآخر من الحقل، ثمة قرية ديه خودايداد. لكنها أولاً تعرّج على منزل أختها الأكبر منها شاكيلا.

يقوم سعيد بفتح البوابة، وسعيد هو الابن البكر لـ "وكيل"، الرجل الذي تزوجته شاكيلا منذ مدة قصيرة. وسعيد هذا كان قد فقد إصبعين من إحدى يديه عندما انفجرت به بطارية سيارة كان يقوم بإصلاحها. لكنه يقول لكل من يستفسره عن السبب بأنه قد تعثر بلغم؛ وبذلك قد يتبادر إلى ذهن السائل أنه كان يحارب في إحدى المعارك. وليلى لا تألف هذا الشاب، فهي تجده ساذجاً وجلفاً. فهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ويتكلم كأنه مجرد فلاح صغير، مثله في ذلك مثل والده وكيل. وهي ترتعب لدى التفكير فيه. يعطيها ابتسامة ملتوية ويمسح بعينيه مساحة البوركا التي ترتديها بينما هي تمرّ به. وهنا تعتريها رجفة أخرى. فهي ترتعب من فكرة أن يربطها قدرها إلى نير واحد معه. فكثيرون من أفراد العائلة بذلوا جهوداً لتحقيق ذلك. فإن كلاً من شاكيلا ووكيل كانا قد طلبا هذا الطلب من بيبي غول.

"لا يزال الوقت مبكراً على تزويجها"، كانت بيبي غول قد أجابتهما.

"لم يعد أوان تزويجها بعيداً جداً"، يجيب سلطان. لكن لا أحد كان قد سأل ليلى نفسها. وما كانت ليلى لتجيب لو سُئلت. فالابنة المهذبة لا تجيب عن أسئلة حول عما إذا كانت تحب فلاناً من الناس أو لا تحبه. لكنها كانت تأمل ألاّ تتجرع هذه الكأس.

وتصل شاكيلا إلى ملاقاتها، بأرداف متمايلة، وابتسامات ضافية، وإطلالة حاضرة. لقد تبيّن أن جميع المخاوف من زواجها من وكيل لا أساس لها. إذ لقد عادت إلى مزاولة عملها كمدرِّسة لعلم الأحياء. أما أطفاله فيحبونها ويقدرونها، فهي تمسح أنوفهم وتغسل ثيابهم. وقد جعلت زوجها يقوم بإجراء إصلاحات في البيت. كما أعطاها مالاً اشترت به ستائر جديدة، وفرشاً ليّنة. وهي ترسل الأطفال إلى المدرسة؛ أما وكيل وزوجته السابقة فلم يكن أمر تعليم الأولاد أحد اهتماماتهما. أما ما قاله أكبر الأبناء متذمراً من الجلوس في غرفة الصف مع أطفال صغار، فقد ردّت عليه شاكيلا بالقول: "سيكون الأمر أكثر مدعاة للحرج لك في المستقبل إذا اخترت عدم الذهاب إلى المدرسة".

وها هي شاكيلا تجد نفسها الآن فوق الكواكب. إذ أخيراً صار لها رجل. فعيناها تلتمعان. وهي تبدو مغرمة. فبعد خمس وثلاثين سنة تحولت فتاةٌ عذراء عانس، وبطريقة ذكية، إلى دور صاحبة البيت.

تقبّل كلٌّ من الأختين أختها على خديها، وترفع البرقع عن وجهها، وتبتعدان عن المدخل. ليلى تنتعل حذاءً عالي الكعبين، وشاكيلا تنتعل خفين مرتفعين لهما بُكَلٌ ذات لون مذهّب، إنهما خفّا الزواج. فالأحذية تتخذ لها أهمية خاصة عندما يتعذر إبداء محاسن الجسد، أو مفاتن الثياب، أو جمال الشعر والوجه.

وتقفزان فوق برك المياه، وتجتنبان الخوض في الوحول المتخثرة أو في الأخاديد العميقة، بينما الحصى تنتثر تحت النعال الرقيقة. إنه الطريق

إلى المدرسة. فليلى هي الآن في طريقها للتقدُّم إلى وظيفة مدرِّسة. وهذه هي خطتها السرِّية الآن.

لقـــد عملت شاكيلا تحرياتها في مدرسة القرية حيث تعمل هي، فوجدت أن لا مدرِّسة للغة الإنكليزية متوفرة هناك. ورغم أن ليلى لم تكن قد أكملت سوى تسع سنوات دراسية فقط، فإنها تشعر بالثقة أنها تـــستطيع تـــدريس المبتدئين. إذ إنها كانت قد حضرت بعض دورات مسائية لتدريس اللغة الإنكليزية أثناء فترة وجودها في باكستان.

* * *

وكانت المدرسة واقعة خلف حصار الأوحال هذا. والجدار الذي يـــسوِّرها هو من الارتفاع إلى درجة لا تسمح بالنظر إلى خلفه. وثمة رجـــل عجوز يربض عند المدخل. ومهمته هي التأكد من عدم دخول مَـــن لـــيس له شغل يستدعي دخوله، خاصة إذا كان رجلاً، حيث إن هـــذه المدرســـة هي مدرسة للإناث، وإن جميع طاقم التدريس هو من الإناث أيضاً. أما ملعب المدرسة فقد كان يوماً باحة مزروعة بالعشب، أمـــا الآن فهـــو عبارة عن قطعة أرض مزروعة بالبطاطا. وحول قطعة الأرض المذكورة بُنيت غرف ملاصقة للسور الخارجي. وبذلك يكون لغـــرفة الصف ثلاثة جدران: الجدار الخلفي الذي هو قطعة من السور وجداران جانبيان. أما الجانب المواجه لحقل البطاطا فقد بقي مفتوحاً. وهكـــذا، فـــإن مديرة المدرسة تستطيع مراقبة كل ما يجري في جميع الـــصفوف. وقد وضعت في كل صف بعض المقاعد الخشبية الطويلة، وبعـــض الطاولات والكراسي التي لا ظهر لها، ولوحاً أسود. والفتيات الكـــبيرات هـــنَّ وحـــدهن مَن يحق لهنَّ الجلوس على الكراسي خلف الطاولات، وعلى المقاعد. أما الفتيات الصغيرات فيجلسن على الأرض ويـــتابعن النظـــر إلى مـــا يُكـــتب على اللوح الأسود. وكثيرات من

التلميذات لا يستطيع أهلهنّ دفع أثمان الدفاتر، لكنهن يكتبن على ألواح صغيرة سوداء، أو على قصاصات من الورق تتوفّر لهنّ.

والفوضى والتشويش يسودان المكان. وفي كل يوم تحضر طالبات جديدات لتطلب الانتساب إلى المدرسة؛ لذلك فإن الصفوف لا تنفك تتنامى أعدادها أكثر فأكثر. لقد كانت الحملة التي قامت بها السلطات لإعادة فتح المدارس جليّة. ففي طول البلاد وعرضها رفعت يافطات كبيرة تحمل رسومات لأطفال في طريقهم إلى المدارس، أما العبارة الوحيدة التي تكفي بحدّ ذاتها فهي: "العودة إلى المدرسة". والصور تقوم بالإخبار عن البقية.

وعندما وصلت شاكيلا وليلى، كانت المديرة منشغلة مع فتاة شابة تريد الانضمام إلى المدرسة كتلميذة. وهي تقول إنها قد أنهت دراسة ثلاث سنوات دراسية، وتريد أن تتابع الدراسة من السنة الرابعة.

"إنني لا أستطيع العثور على اسمك في لوائحنا". تقول لها المديرة بينما هي تتصفّح دفتراً للوائح الأسماء كان قد بقي بفعل الصدفة فقط، في خزانة، إلى ما بعد انقضاء فترة حكم الطالبان. وتبقى الشابة صامتة.

"هل تحسنين القراءة والكتابة؟" تسألها المديرة.

تتردّد الشابة. وفي نهاية الأمر تعترف أنها لم تدخل المدرسة مرة من قبل.

"لكنني أرغب الابتداء من السنة الرابعة" تقول هامسة. "إذ من المحرج لي أن أوضع في صف الصغار جداً".

وتجيبها المديرة بأنها إذا كانت تريد أن تتعلّم أي شيء فإن عليها بالابتداء من القاعدة، أي من الصف الأول. وهو صف يضم الفتيات اللواتي هنّ في أعمار تتراوح بين الخامسة وبين سنوات المراهقة. وهذه

الشابة سوف تكون هي الأكبر بينهن. لذلك، فهي تشكر المديرة وتنصرف.

ثم يأتي دور ليلى. وتتذكرها المديرة منذ فترة ما قبل الطالبان. فلطالما كانت ليلى تلميذة في هذه المدرسة، والمديرة ترحّب بها الآن كمدرّسة.

"لكن عليك أولاً أن تتسجّلي"، تقول لها. "عليك أن تذهبي إلى الوزارة، وزارة التعليم، وأن تأخذي معك أوراقك من أجل التقدم إلى الوظيفة هنا".

"ولكن، لا يوجد لديكم معلمة للغة الإنكليزية، ألا تستطيعين تولّي مسألة الأوراق بدلاً عني؟ أو، ألا أستطيع مباشرة عملي الآن، ومتابعة مسألة الأوراق في وقت لاحق؟" تسألها ليلى.

"هذا مستحيل. عليك أن تحصلي أولاً على موافقة شخصية من السلطات، هذه هي القواعد".

وتصل الصرخات العائدة للفتيات الصاخبات إلى المكتب المفتوح. وتقوم مدرّسة بضربهن بعنف بقضيب لتهدئتهن بينما هنّ يدخلن إلى غرف التدريس. وتذهب شاكيلا لشرح درسها.

وتخرج ليلى إلى خارج بوابة المدرسة وهي تشعر بالإحباط. وتتضاءل جلبة التلميذات في سمعها. وتخوض طريقها عائدة في الأوحال إلى بيتها ناسية أنها تعود بمفردها فوق كعبين مرتفعين. كيف يمكنها الوصول إلى وزارة التعليم دون أن تقع الأنظار عليها وينكشف أمرها؟ فالخطة كانت تقضي بأن تحصل أولاً على الوظيفة، ثم تقوم بإعلام سلطان بالأمر. إذ لو أنه عرف عن هذه الخطة مسبقاً، فإنه لا بدّ من أن يدسّ إصبعه فيها. لكن إذا كان قد تيسّر لها الحصول على الوظيفة وقُضي الأمر، فإنه قد يسمح لها الاستمرار فيها. والتعليم في كل حال

كـــان يقتصر على تدريس ساعات قليلة كل يوم؛ وكل ما في الأمر أنه سـيكون عليها أن تنهض من نومها حتى في وقت هو أبكر من المعتاد، وأن تضاعف جهدها في العمل أكثر من ذي قبل.

فـــشهادتها المدرسية لا تزال في باكستان. وهي تشعر وكأنها على حافـــة الـــيأس من الأمر كله. لكنها لا تلبث أن تتذكّر الشقة الكالحة والأرضيات التي لا يفارقها الغبار، في مايكروريون، لذلك فهي تذهب إلى أقرب مكتب تلغراف حيث تقوم بمخابرة أحد الأقارب في بيشاور وتسألهم القيام باستخراج أوراقها. ويَعِدونها ببذل ما يقدرون عليه من جهـــد لاســـتخراج الأوراق وإرســـالها إليها مع أي شخص عائد إلى كابول. فالخدمات البريدية في أفغانستان كانت لا تزال معطلة، ومعظم الأشياء ترسل مع الأشخاص المسافرين.

وتـــصلها الأوراق في غضون أسابيع قليلة. وتبقى الخطوة التالية، وهـــي الذهاب إلى وزارة التعليم. لكن كيف لها بالوصول إلى هناك؟ فهي لا تستطيع الذهاب بمفردها. وتطلب من يونس مرافقتها، لكنه لا يصدِّق أن بإمكان من هو مثلها أن يعمل. "إنك لا تعرفين ما هو نوع الوظـــيفة الـــتي قد يعطونك إياها"، يقول لها. "ابقي في البيت واهتمّي بشؤون والدتك العجوز".

أما أخوها المفضّل فلا أمل فيه يرجى. وأما منصور، ابن أخيها، فإنه لن يستجيب لسؤالها سوى بالشخير والازدراء. وها هي تدور في حلقة مفرغة. ولقد بدأت السنة الدراسية منذ وقت ليس باليسير. "لقـــد تأخـــرت المسألة جداً"، تقول لها أمها. "انتظري حتى السنة القادمة".

وتمتلئ ليلى يأساً. 'ربما أنا لست جادّة في رغبتي بالتعليم'، تقول لجعل دفنِ هذه الفكرة أمراً أسهل عليها.

وها هي الآن تراوح مكانها، تراوح مكانها في وحول المجتمع وفي غبائر التقاليد. لقد وصلت إلى طريق مسدود في نظام راسخ في تقاليد البلد القديمة التي تشلّ نشاط نصف سكانه. ووزارة التعليم لا تبعد سوى مسافة مسار نصف ساعة في الحافلة، لكنها نصف ساعة مستحيلة. وليلى غير معتادة على الصراع للحصول على شيء ما؛ بل على العكس، فإنها معتادة على الاستسلام والخضوع للأمر الواقع. لكن لا بدّ من إيجاد طريقة للخروج من المأزق. وكل ما عليها هو البحث عن المخرج.

لأنّ الله خالد

إنّ الضجر والاحتباس اللذين لا ينتهيان، جرّاء الواجب الكتابي الذي أعطي له على سبيل القصاص يكادان يخنقان فاضل. فهو يريد أن يقفز من مكانه ويصرخ احتجاجاً، لكنه يلجم نفسه كولد في الحادية عشرة من عمره يُعاقَب لعدم إتمامه لواجب مدرسي. وتتحرك يداه بغير هداية فوق الصفحة. ويكتب بأحرف صغيرة حتى لا يستهلك الكثير من مساحة الورقة، فإن الدفاتر المدرسية بالغة التكلفة. والضوء الآتي من قنديل الكاز يطرح نوراً شاحباً على الورق، فكأنما هو يكتب على اللهبات المتراقصة، هكذا خُيِّل إليه.

وفي الزاوية تجلس جدته مُحملقة به بعين واحدة. فالعين الأخرى كانت قد فُقِدت عندما وقعت مرة في التنور. والأفران الأفغانية التقليدية هي تجاويف في داخل الأرض. وأمه مريم تقوم بإرضاع صغيرها عسيب البالغ السنة الثانية من عمره. وفاضل منهك، ويصبح خطه عَكِشاً. وعليه أن ينتهي من كتابة الفرض حتى وإن استغرقه ذلك الليلة بكاملها. فهو لا يستطيع تحمُّل ضربات مسطرة المعلم فوق عُقَد أصابعه. وهو لا يستطيع احتمال العار الناتج عن ذلك.

إذ عليه أن يكتب العبارة التالية عشر مرات: إن الله هو الخالق، إن الله هو الخالد، إن الله هو القدير، إن الله هو الجميل، إن الله هو الحق، إن الله هو الحي، إن الله يرى الجميع، إن الله يسمع الجميع، إن الله هو الذي يحيط بكل شيء، إن الله هو الذي يقدر على الجميع، إن الله...

وسبب هذا القصاص هو عدم قدرة فاضل على إعطاء الإجابة الصحيحة خلال درس عن الإسلام. "إنني لا أحسن الإجابة الصحيحة مرة"، يقول لأمه متذمراً. "لأنني عندما أشاهد المعلم أصبح مرتبكاً وأنسى كل شيء. فهو دائم العبوس، ويصبُّ غضبه عليَّ حتى وإن أخطأت خطأً صغيراً في إجابتي، إنه يكرهني". فمن البداية إلى النهاية، سار كل شيء سيراً غير صحيح عندما طُلب إلى فاضل أن يتقدم إلى اللوح الأسود ليعطي إجابات عن أسئلة حول الله. وكان قد قام بتحضير دروسه، لكنه عندما نهض إلى قرب اللوح فإنه ما عاد يتذكر شيئاً مما حفظه. ولا بدّ من أن عقله يكون منشغلاً بشيء ما، بعيد عن الدرس بينما يكون جالساً للمذاكرة. ومدرِّس الدين رجل ذو لحية طويلة، وعِمَّة، وجلباب تحته بنطال فضفاض.

"إذا كنتَ لا تستطيع أن تتعلم هذه الأشياء، فإنك لن تستطيع الاستمرار في هذا الصف"، يستنتج المعلّم جازماً. وبعد أن أنهى فاضل كتابة الإجابات عشر مرات، فإنه لا بدّ من أن يكون قد حفظ الإجابة عن ظهر قلب. وهنا فإنه يتمتم في سرِّه ثم يكرِّر الإجابة على مسمع أمه. وأخيراً ترسخ الإجابة في ذهنه وتُشفق الجدَّة على حفيدها. فهي لم تدخل مدرسة قطُّ، وتعتقد أن هذه الأمثولة لا بدّ من أنها مرهقة بالنسبة إلى طفل صغير. وهي ترفع كوباً

مستعملة ما تبقّى لها من يديها مرتشفةً الشاي فيُسمع لارتشافها له شرخٌ ومرخ.

"عـــندما كـــان النبـــي محمد (ص) يشرب، فإنه لم يكن يحدث صـــوتاً"، يقـــول لها فاضل بتجهُّم. "وكان كلما ارتشف رشفة أزال الكأس عن شفتيه، وبعد كل ثلاث رشفات يحمد الله"، روى لها.

وتسترق الجدة العوراء نظرة إليه وتقول: "أحقاً هكذا؟".

أمـــا القـــسم الثاني من الواجب فهو عن حياة النبـــي محمد (ص). وقـــد وصـــل فاضل إلى الفصل الذي يتحدث عن عادات النبـــي (ص) وها هو يقرأ مُمرِّراً سبّابته تحت الكلمات، من اليمين إلى اليسار.

"كان النبـــي محمد (ص) لا يجلس سوى على الأرض، ولا يقعد ســـوى متربعاً. ولم يكن هنالك أي مفروشات في بيته. فحياة الإنسان يجـــب أن تكـــون شـــبيهة بحياة المسافر الذي يرتاح في الظل، ثم يتابع الطريق. والمنـــزل يجب ألاّ يكون أكثر من مكان للاستراحة، وللوقاية من القرّ والحرّ، والاحتماء من الحيوانات المفترسة، وأن يكون فيه مكان تُحفَظ فيه خصوصية الإنسان.

"وكـــان مـــن عادة النبـــي محمد (ص) أن يستلقي على ذراعه اليسرى. وعندما يجلس للتأمل فإنه كان يحب أن يسوّي الأرض بماسحة أو بعصا، وإلاّ فإنه يجلس على الأرض محيطاً ساقيه بذراعيه. أما عندما يـــنام، فإنه يستلقي على جانبه الأيمن، بينما يضع كفّ يده اليمنى تحت وجهه. وفي بعض الأحيان يستلقي على ظهره؛ وفي بعض المرات يضع ســـاقاً فـــوق أخرى، لكنه كان يحرص دائماً على أن تبقى كل أعضاء جـــسده مـــستورة. وكـــان يكره النوم على البطن متجهاً بوجهه إلى الأســـفل كما كان ينهي الناس عن فعل ذلك. ولم يكن يحب النوم في

غرفة مظلمة، أو على سطح منـــزل. وكان يغتسل دائماً قبل الذهاب إلى الفـــراش، ويتلو أدعية إلى أن يدخل في النوم. فإذا نام أرسل غطيطاً هادئـــاً. أما إذا استيقظ أثناء الليل ليتبول، فإنه يغسل يديه ووجهه بعد ذلـــك. وكان يرتدي مئزراً يستر به عورته قبل اللجوء إلى النوم لكنه كان في العادة ينـزع عنه القميص. وحيث إن البيوت كانت تخلو من مـــراحيض في تلك الأيام فإن النبـــي (ص) قد يمشي بضعة أميال إلى خـــارج نطـــاق المنازل ليضمن أن يكون محتجباً عن الأبصار. ويختار لنفسه أرضاً سهلة ليجتنب الرشاش. وكان يحرص على الاحتجاب عن الأنظار وراء صخرة أو مُرتفع. وكان يستحمّ خلف ستارة، أو محتفظاً بمئـــزره، إذا اســـتحمّ تحـــت ماء المطر. وكلما نظف أنفه استعمل خرقة".

ويـــستمر فاضـــل في القراءة بصوت عالٍ عن عادات النبـــي (ص) في الطعـــام. فهو يحب التمور، ويفضلها ممزوجة بالحليب أو بالزبدة، كما كان يفضل رقبة الحيوان الذبيح وجانبه، وهو لم يأكل بصلاً ولا ثوماً، لأنه كان يكره النَّفس غير الطيِّب؛ وقبل أن يجلس لتـــناول طعامه فإنه يخلع نعليه، ويغسل يديه؛ ويستعمل يده اليمنى لتـــناول الطعام، ولا يأكل سوى من الجانب المقابل له من القصعة، ولا يمـــد يـــده أبـــداً إلى منتصفها. وهو لم يستعمل السكاكين بل يستعمل أصابعه الثلاثة لتناول الطعام. وكلما دخلت مُضغة لحم إلى فمه شكر الله.

ويُقفِل الكتاب.

"اذهب إلى فراشك يا فاضل".

كانـــت مريم قد رتبت فراشه في الغرفة التي تناولوا فيها طعامهم. وكـــان ثلاثة من إخوته يغطون هناك في نومهم من قبل. ولكن كان لا

يزال على فاضل أن يتعلم الصلاة. فهو يكرّر ويكرّر كلمات عربية لا يفقـه معـناها من القرآن الكريم، ثم يتهالك على بساطه بكامل ثيابه. فعليه أن يكون في مدرسته عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي. وهـو يـرتعد خـشية. ذلك أن درسه الأول سيكون عن الإسلام. ويستـسلم للـنوم مـنهكاً، لكنه ينام في غير راحة، ويحلم بأنه يخضع لامتحان ويجيب إجابات غير صحيحة. وهو يعرف الإجابات لكنها لا تخطر في باله.

وتتجمّع غيوم ثقيلة فوق رأسه في سماء القرية. وبعد أن ينام تُمطر الـسماء، وتقـع حـبات المطر فوق السقف الترابـي وتقرقع فوق المساحات المبلّطة بالحجارة. وتتجمّع النقاط فوق أغطية البلاستيك التي تغلـف الـشبابيك. ويـدخل تيار من الهواء البارد إلى داخل الغرفة؛ تـستيقظ جدّته وتنقلب إلى جانبها. "تبارك الله"، تقول عندما تلاحظ غـزارة المطـر. ثم تستدير إلى جانبها من جديد، وتعود إلى النوم. أما حولها فتتصاعد أنفاس الأطفال الأربعة في وداعة وهدوء.

وعـندما يـتمّ إيقـاظ فاضل من نومه عند الساعة الخامسة والنـصف مـن صباح اليوم التالي، يكون المطر قد توقف، وتكون الـشمس قد أرسلت أشعتها الأولى فوق المرتفعات المحيطة بكابول. وبعـدما يغتـسل بالماء الذي تحضره له أمه، ويلبس ثيابه، ويحمل حقيبـته علـى ظهره، تكون الشمس منشغلة بتجفيف نُقع المطر. ويصبح حانقاً ونكِدَ الطبع، ويعتقد أن أمه لا تسرع بما فيه الكفاية عندما يطلب منها تلبية شيء له. أما هاجسه الوحيد فهو درسه عن الإسلام.

ومـريم تـدلّل ولدها الأكبر. فهي تخصه بأفضل الطعام وأعظم العـناية. وتهـتم بمسألة تزويده بما يكفي من الطعام لعمل دماغه. وفي

مناسـبات نادرة، عندما تستطيع أن تدّخر بعض النقود، فإنه هو الذي يكــون أول من يحصل على قطعة ثياب جديدة. فهي تعلّق عليه آمالاً كبيرة، وهي تتذكّر كم كانت قانعة منذ أحد عشر عاماً؛ فزواجها من كريم الله كان سعيداً. وهي تتذكّر مولد فاضل، وتتذكّر فرحها عندما أيقـنت أنهـا رُزقت بصبــي. لقد أُقيمت مأدبة كبيرة، وتلقّى ولدها هــدايا رائعة. وكان هنالك تبادل زيارات وكثير من الفرح. وبعد ذلــك بــسنتين وُلدت لها ابنة؛ ولكن لم يكن هنالك لا مأدبة ولا هدايا.

وقــد استمر زواجها من كريم الله لبضع سنوات فقط. وكان فاضل في الثالثة من عمره عندما قُتِل أبوه. وصارت مريم أرملة، واعتقدت أن الحياة قد أُقفلت في وجهها. وقامت والدة زوجها العوراء، بالتعاون مع والــدها، هي، بيبــي غول باتخاذ قرار بأن عليها أن تتزوج من حازم، الأخ الأصغر لكريم الله. ولكن حازماً لم يكن يشبه أخاه الكبير، فهو لم يكــن في مــثل ذكائــه، ولا فِي مثل قوته. وقد دمّرت الحرب الأهلية حانوت كريم الله، وصار عليهم أن يتدبروا معيشتهم براتب حازم الذي يعمل مأموراً في الجمارك.

أما فاضل، فلا بدّ له من أن يدرس ويتعلّم ويصبح مشهوراً، هذا مــا تأمله أمه. وكانت في بداية الأمر قد فكّرت بأنه يجب أن يعمل في مكتــبة شقيقها سلطان. فقد تراءى لها أن المكتبة قد تكون بيئة تجارية مناســبة. وسلطان قد أخذ على عاتقه مسؤولية إطعامه، وفاضل يأكل عــند خاله أفضل مما يأكل في البيت. لقد أمضت النهار الذي أعاد فيه ســلطان ولدها إليها وهي تبكي. فقد أخذها قلقٌ بأن يكون فاضل قد أساء السلوك، ولكنها تعرف أيضاً تقلّب مزاج أخيها سلطان، فأيقنت أن فاضلاً لم يعد في حاجة إلى هذه المهنة التي قوامها حمل الصناديق.

ثم قـــال لها أخوها الأصغر يونس بأنه سيحاول إدخال فاضل إلى مدرســـة الاســـتقلال التي هي إحدى أفضل المدارس في كابول. وكان فاضـــل محظوظاً، إذ بدأ الدراسة فيها من الصف الرابع. وتقدّمت جميع الأمور نحو الأفضل، هذا ما أيقنته مريم. وهي عندما تفكر في أمر إيمال، ولـــد سلطان، الذي يكاد لا يرى أشعة الشمس أثناء عمله من الصباح الباكـــر حتى ساعة متأخرة من الليل في أحد محالّ والده، فإنها تصاب بالذعر.

فهي تداعب شعر فاضل بينما هو يسرع إلى خارج البيت، لينطلق في الطـــريق المـــوحل. وهـــو يحاول أن يتجنّب البُرَك قافزاً من جزيرة لأخـــرى. إذ علـــى فاضـــل أن يجتاز تخوم القرية كي يصل إلى محطة الأوتوبـــيس. ويركب في مقدمة الحافلة، وهي المكان المخصص لجلوس الرجال، ويتحمل وعورة الرحلة إلى كابول في الحافلة التي لا تنفك أن تكون في نـــزول وصعود في الحُفر الكثيرة التي تعتور الطريق.

ويكون فاضل هو أحد أوائل الواصلين إلى غرفة الصف. ويجلس في مقعده في الصف الثالث من المقاعد. ويتوالى وصول الصبيان واحداً تلـــو الآخر. فمعظمهم هزيلو الأجساد، وشاحبو الهيئة. بعضهم يرتدي ثـــياباً واسعة جداً بالنسبة إليه، ولعلها ثياب قد مُرِّرت إلى صاحبها بعد أن ضاقت على أخ يكون أكبر منه. وهنالك خليط طريف من الأزياء في الـــصف. فالـــبعض ما زال يرتدي الزي الذي فرضته طالبان على الصبيان. فالجهة الخلفية من البنطلونات جرى توسيعها بإضافة رُقَع من القماش خيطت في الوسط بما يناسب ازدياد نمو الأولاد. والبعض منهم يلبس بنطلونات يعود تاريخها إلى السبعينيات، وأقمشة استخرجت من أرضـــيات "المُتخَّثات"، ثياب ربما قد لبسها إخوتهم الكبار قبل وصول طالـــبان إلى السلطة. وأحد الأولاد يرتدي بنطلوناً من الجينـــز. لكن

بـنطلونه بدا أشبه بالبالون المربوط ربطاً محكماً حول الخصر. والبعض يلبس "شراويل" ذات "بحور" واسعة (bell-bottoms). فالثياب الخارجية لأحـد الأولاد قصيرة وشديدة الضيق بحيث برز من فوق خط خصر بـنطاله، سرواله الداخلي. وأحد الأولاد قد نسي رفع سحاب بنطاله. فحيث إنهم قد اعتادوا على ارتداء اللباس التقليدي منذ الصغر، فإنهم لم يـتعودوا بعد على الملابس الإفرنجية التي تقتضي وجود سحّاب، مع ما للـسحّاب من آليات خاصة. وبعضهم يلبس القمصان القطنية المخرّمة الـتي تُلـبس في دور الأيـتام الروسـية، إلاّ أن جميع هؤلاء الأطفال يشتركون معاً في النظرة الجائعة المستوحشة قليلاً. وأحد الأطفال يلبس سترة رسمية مهلهلة تتغضّن بين كتفيه.

ويلعـب الأطفـال، ويتصايحون، ويتقاذفون بعض الأشياء حول الغرفة. ويتعالى الصرير بينما تنـزاح المقاعد عن أمكنتها. وعندما يُقرع الجـرس ويـدخل المدرّس، يكون الأطفال الخمسون كلٌّ على مقعده. وهـم يجلسون على مقاعد خشبية عالية مثبتة إلى مناضد أمامها. وكل مقعـد هو في الأصل، مصمم لجلوس تلميذين فقط، ولكن، ومن أجل اسـتيعاب الجمـيع، فإنه يتمّ إجلاس كل ثلاثة منهم على مقعد واحد أحياناً.

وعندما يدخل الأستاذ ينتصب جميع التلاميذ وقوفاً في لمح البصر احتراماً له.

"الـسلام عليكم"، يقول الأستاذ ماشياً بتؤدة بين المقاعد، وملقياً نظرة للتأكد من أن الجميع قد أفردوا الكتب المناسبة، وأنجزوا الفروض المطلوبة. كما يقوم بالتفتيش على الأظافر، والثياب، والأحذية. فإذا لم تكـن هذه الأشياء نظيفة بالكامل، أو على الأقل ليست مُتسخة، فإن هذا يعني الإخراج من الصف.

وبعـــد أن ينتهي الأستاذ من كشفه، ويتأكد أن الجميع قد أدّوا فروضهم لهذا الصباح، فإنه يقول: "سوف نتابع درسنا".

"الحرام"، وهنا يرفع صوته ويقوم بتدوين هذه الكلمة غير المألوفة على السّبورة. "هل يعرف أحدكم ماذا تعني هذه الكلمة؟".

ويرفع أحد الأولاد يده "السلوك الرديء هو الحرام".

"إنـــه مُـــصيب. السلوك الرديء الذي لا يتفق مع الإسلام، هو الحرام"، يقول الأستاذ. "فعلى سبيل المثال قتلُ شخص ما، دون سبب. أو إنـــــزال العقاب بشخص ما، دون سبب. وشرب الكحول حرام، وكذلك تعاطي المخدرات هو خطيئة. وأكل لحم الخنـــزير حرام. أما الكفّار فلا يهتمون بشأن الحرام. فأكثر ما يراه المسلمون حراماً يعتبرونه هم جيداً. وهذا شيء عاطل".

وينظـــر الأستاذ حول الصف. ويرسم جدولاً على اللوح يكتب فيه ثلاث كلمات: حرام، وحلال، ومباح. فالحرام هو كل شيء سيئ وممـــنوع، والحلال هو كل شيء جيد ومسموح به، أما المباح فهو ما يقع تحت الظن وليس له وجه واضح.

"فالمـــباح هـــو كل ما ليس جيداً ولكنه لا يعتبر خطيئة معروفة أيضاً. على سبيل المثال أن يأكل المرء لحم الخنـــزير بدلاً من أن يتعرّض للجـــوع حـــتى الموت؛ أو القيام بالقنص؛ أو القيام بالقتل حفاظاً على البقاء".

ويكتب الأولاد ويكتبون. وفي النهاية يقوم المدرّس بطرح أسئلته الاعتيادية ليتأكد من أنهم قد فهموا الأمثولة.

"إذا كـــان رجـــل يستحلّ الحرام، ماذا نسمّيه عندئذ؟" لا أحد يجيب.

"نسمّيه كافراً"، يجيب أستاذ الدين عن السؤال الذي طرحه بنفسه.

"وهل الحرام جيد أم سيئ؟".

ترتفع جميع الأيدي تقريباً في الهواء. لكن فاضل شديد الارتباك؛ فهو يخشى أن يعطي إجابة غير صحيحة. لذلك فهو يقلّص نفسه إلى أصغر حجم ممكن في صف المقاعد الثالث. ويشير المدرّس إلى أحد الصبيان فيقف منتصباً بجانب منضدته ويجيب قائلاً: "سيّئا".

وكان ذلك هو الجواب الذي يريد فاضل قوله. فالكافر شخص رهيب.

الغرفة الرهيبة

إيمال هو أصغر أبناء سلطان. فهو في الثانية عشرة من عمره، ويعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وهو يعمل كل يوم، أي سبعة أيام في الأسبوع، ويجري إيقاظه من نومه كل فجر. لكنه يتكوّم على نفسه من جديد إلى أن تجبره ليلى أو أمه على النهوض. يغسل وجهه الشاحب، ويلبس ثيابه، ويتناول بيضة مقلية مستعملاً أصابعه في غمسِ الخبز في صفار البيضة، ويشرب الشاي.

وعند الثامنة صباحاً يفتح إيمال باب كشكه الصغير في الـ "لوبي" المظلم في أحد فنادق كابول. فهو يقوم هنا ببيع الشوكولا، والبسكويت، والمشروبات الغازية والمذّاغات. يعدّ النقود في سأم. فهو يُطلق على محله لقب "الغرفة الرهيبة". فقلبه يدمى، ومعدته تنقبض، في كل مرة يقوم فيها بفتح باب محله. فهذا هو المكان الذي يجب عليه أن يجلس فيه إلى أن يحضر أحد لاصطحابه إلى البيت في السيارة عند الساعة الثامنة من المساء، ذلك عندما يكون الظلام قد خيّم تماماً في الخارج. عندها يذهب مباشرة إلى بيته ليتناول عشاءه ويندسّ في فراشه.

وخارج باب محله مباشرة يوجد هنالك ثلاثة أحواض. ويحاول

موظف الاستقبال جاهداً أن يلتقط بواسطتها كل الماء المتسرِّب من السقف. ولكن، وبصرف النظر عن عدد الأحواض التي توضع، فإن هنالك نُقعاً كبيرة من الماء تبقى دائماً خارج باب إيمال. وعليه، يصبح على المارّين إلى دكانه تحاشي الأحواض والنُقع معاً. والـ: "لوبي" يكون في الغالب مُعتماً. فخلال النهار تُزاح الستائر الثقيلة عن الواجهات، ولكن ضوء النهار لا يمكنه الوصول إلى الزوايا المُعتمة. وفي المساء، إذا كان هناك من تيار كهربائي فإن المصابيح تُضاء. أما إذا انقطع التيار الكهربائي، فيُستعاض عن مصابيح الكهرباء بمصابيح زيت كبيرة توضع على نُضُد الاستقبال.

وعندما بُني هذا الفندق في الستينيات، فإنه كان أحدث فندق في كابول. فرُدهتُه كانت حافلة بالرجال الذين يلبسون بذلات أنيقة، وبالنساء اللابسات تنانير قصيرة، واللواتي هنَّ من ذوات تصفيفات الشعر الحديثة. وكانت المشروبات تُقدَّم على أنواعها مثلما تُعزَف الموسيقى الغربية. حتى إن الملك بنفسه كان يأتي إلى هذا المكان أحياناً ليتناول العشاء وليشارك في بعض المناسبات.

ففترة الستينيات والسبعينيات كانت تمثل أكثر فترات الحكم في كابول ليبرالية: فقد جاءت أولاً فترة حكم زاهر شاه، ثم ابن عمه داود، الذي حدَّ من الحريات السياسية، وملأ السجون بالمساجين السياسيين، ولكنه أبقى على المستوى الظاهري، على الحفلات، وعلى أساليب الحياة الغربية الحديثة. والمبنى يحتوي على مقاصف، وعلى نوادٍ ليلية. وعندما بدأت البلاد تتلاشى فإن الفندق تبعها في ذلك. أما أثناء الحرب الأهلية، فكاد يصيبه الدمار الكامل. فالغرف التي تواجه المدينة باتت منخورة بالرصاص، والقذائف التي تتساقط على الشرفات، والصواريخ التي تخترق السقوف.

وبعـد الحرب الأهلية، عندما استتبّ الأمر لطالبان، فإن أعمال تـرميم وتحديث الفندق قد استطال أمرها كثيراً. لقد كان هناك نُدرة في النـزلاء. وهكذا فإنه لم تكن هنالك من حاجة إلى الغرف المحطّمة. ولم يأبـه الملالي الحاكمون لأمر تطوير السياحة؛ بل على العكس من ذلك، فإنهم كانوا لا يرغبون سوى في أقل عدد ممكن من الأجانب في الـبلاد. لقد سقط السقف والتوَتِ الممرات تحت هيكل البناء الذي لم يعد وطيداً.

والآن، ولأن نظامـاً جديـداً يريد أن يترك بصمات سلطته فوق كابـول، فإن العمل قد بدأ على سد ثغرات المبنى، وعلى إبدال زجاج الـنوافذ المحطـم. ويقوم إيمال بمراقبة أعمال الترميم، أو يتابع باهتمام صـراع الكهـربائيين المحمـوم مع المولّد عندما يكون الإمداد بالطاقة الكهـربائية ضرورياً من أجل تشغيل الميكروفونات ومكبرات الصوت أثناء الاجتماعات. فالـ "لوبـي" هو الميدان الحيوي لإيمال فهو يخوض في مـياهه، ويتجوّل في أنحائه. ولكن، وعلى وجه العموم، فإن الأمر لا يعدو أن يكون مضجراً بالكامل، وموحشاً تماماً.

وفي بعـض الأحـيان يقوم إيمال بالتحدث مع الناس في هذه القاعـة الموحشة: يتكلم مع الرجال الذين يقومون بأعمال النظافة والكنس، مع موظفي الاستقبال، مع البواب، مع رجال الحراسة، مع نـزيل أو اثنين من النـزلاء، ومع سواهم من أصحاب الأكشاك. وهـم مـثله، نادراً ما يكون لديهم زبائن. فأحدهم يبيع مجوهرات أفغانـية تقلـيدية من وراء نضد. وهو الآخر يقضي نهاره ضَجِراً. فالطلـب علـى المجوهرات بين زبائن هذا الفندق ليس كبيراً. وثمة صـاحب محل آخر يبيع التذكارات بأسعار لا يقبلها أحد ولا يعود إلى المحل بسببها مرة أخرى.

وكثير من واجهات المحال يغطيها الغبار، أو تكون هذه الواجهات محجوبة بستائر من ألواح الكرتون. "الخطوط الجوية الأفغانية، آيريانا"، عبارة مكتوبة فوق لوح زجاج مكسور. ففي يوم من الأيام كان لأفغانستان شركة خطوط جوية تمتلك العديد من الطائرات. وكان يخدم المسافرين على متنها مجموعةٌ من الموظفين رفيعي المستوى؛ وكانت جميع المشروبات متوفرة على لائحة الطعام. وقد دُمِّر عدد من الطائرات خلال الحرب الأهلية، أما ما تبقّى منها فقد مُزِّق إلى شظايا على يد الأميركيين خلال مطاردهم لأسامة بن لادن، وللملاّ عمر. طائرة واحدة نجت من القنابل؛ نجت لأنها كانت جاثمة في مطار نيودلهي في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وهذه هي الطائرة التي ستعيد بعث آيريانا؛ فهي لا تزال تطير من كابول إلى نيودلهي ذهاباً وإياباً. لكن طائرة واحدة ليست بكافية لإعادة فتح مكتب آيريانا في الفندق.

وفي طرف معيّن من الرواق يقع مطعم يقدم أسوأ طعام في كابول رغم أنه يوظف أفضل النُدل. ويبدو الأمر وكأن إدارة المطعم تريد تعويض زبائنها عن الأرز الذي لا طعم له، وعن قطع الدجاج الجافة، وعن الجزر السَّبِخ.

وفي وسط الرواق ثمة حجيرة صغيرة تبلغ مساحتها بضع ياردات مربعة. وهناك سياج خشبي يحدِّد الحدود بين أرض اللوبي وبين السجادة الخضراء المبسوطة في داخله. ويُرى الضيوف، والوزراء، والمسؤولون الحكوميون، والخدم هناك جنباً إلى جنب، جاثمين على السجاجيد الصغيرة الممدودة فوق السجادة الخضراء. ففي الصلاة يتساوى الجميع. كما أن هنالك أيضاً قاعة أكبر مخصصة للصلاة في القبو، لكن معظم الناس يؤدون صلاتهم في

دقائق قليلة على هذه السجادة الممدودة بين مجموعتين من الكراسي والأرائك.

وعلـى امـتداد النهار، فإن جهاز التلفاز المنصوب فوق طاولة مـتقلقلة في اللوبـي، تُبثّ منه البرامج اللّجبة. فالتلفاز المذكور يقع مقابـل كشك إيمال لبيع الشوكولا، لكنه نادراً ما يُبالي به. وتلفزيون كابـول - القنال الأفغاني الأول والأخير - ليس فيه الكثير من البرامج الممـتعة. فهـنالك البرامج الدينية، والنقاشات الطويلة، وبعض أشرطة الأنـباء القليلة، والكثير من الموسيقى التقليدية على خلفية صور ساكنة تمـثل المناظر الطبيعية لأفغانستان. وهذا القنال يوظف مذيعات أخبار لكـنه لا يعرض صوراً لمغنيات أو راقصات. "ليس الناس جاهزين لمثل ذلك بعد"، تقول الإدارة. وفي بعض الأحيان يجري عرض بعض أفلام الكرتون البولندية أو التشيكوسلوفاكية. ويخرج إيمال كالعادة لمشاهدة هـذه الأفـلام لكنه يُصاب بالخيبة عادة. عندما يكتشف أنه كان قد شاهدها سابقاً.

وفي خـارج الفندق يقع ما كان يوماً يعتبر مصدر فخرٍ له، إنها بركة الـسباحة، لقد تمّ افتتاحها على وقع الطبول وخفق الأعلام في يوم صيفي صـافٍ، وكل مواطن في كابول، أو بالأحرى أي ذكَر فيها، كان يُرحَّب بـه في ذلك الصيف. لكن بركة السباحة لقيت نهاية تعيسة. فالمياه تتحوّل فـيها بـسرعة إلى لون بني فاتح؛ إذ لم يكن أحد قد فكّر في أمر تركيب جهاز تنقية. وحيث إن البركة صارت تتّسخ أكثر فأكثر، فإن الأمر قد آل إلى إغلاقها. فبعض الناس ادّعى بأنه قد أصيب بطفح جلدي، وبسواه من الأمـراض الجلديـة الـتي انتقلت إليه من بركة السباحة هذه. وانتشرت إشـاعات تقول إن عدداً من الناس قد توفي بسبب هذه الإصابات، لذلك فإن البركة قد أُفرغت مرة ولم يجرِ ملؤها، ولا استعمالها من جديد.

والآن، ثمـــة طبقة سميكة من الغبار تغطي أرضيتها الزرقاء السماوية. وشـــجيرات الزهور العجفاء المغروسة عند حوافّها لا تشكّل سوى محاولة عقيمة لتغطية قُبح منظرها. وبجوار البركة هنالك قاعة لكرة المضرب. وهي ليـــست قـــيد الاســـتعمال أيضاً. وما زال دليل هاتف الفندق يُدرج رقم مـــدرّب التنس. لكنه الآن محظوظ بالعثور على مهنة أخرى. فخدماته لم تكن مطلوبة كثيراً في هذا الربيع الأول من حياة كابول الجديدة.

* * *

وتتألف أيام إيمال من جولات مضطربة بين دكانه، وبين المطعم، وبين أثاث الردهة الشاحبة. وضميره يأبى عليه سوى أن يُبقي عينه على المحـــل، إذ لربما جاءه زبون. فمرة كان هنالك طلب شديد على المحل وكانـــت المـــواد تطـــير عن الرفوف بسرعة. كان ذلك عندما هربت طالـــبان، فقد باتت ممرات الفندق إذّاك تعجُّ بالصحافيين الذين عاشوا لعـــدة أشـــهر، مع جنود تحالف الشمال، يحافظون على بقائهم بتناول الأرز المـــتعفن والشاي الأخضر، وها هم الآن يملأون أجوافهم ببضائع إيمـــال مـــن أمـــثال "سنيكرز" و"باونتي" المهربة إلى داخل البلاد، من باكـــستان. كـــان الصحافيون يشترون قارورة الماء بما يعادل الخمسة دولارات للقـــارورة الواحدة. وعلبة الجبن الطري المستديرة بمبلغ أربعة عشر دولاراً للعلبة الواحدة، وباقول الزيتون بما يعادل ثروة مقابل كل حبة فيه.

فالـــصحافيون لم يكونوا آبهين لأمر الأسعار لقد فتحوا كابول، وهـــزموا الطالـــبان. كانـــوا متّسخين، وذوي لحى طويلة مثل الجنود الفدائـــيين أنفسهم، أما النساء منهم فكنَّ يلبسنَ أزياء الرجال، وينتعلن الأحذيـــة الوسخة. فالعديد من هؤلاء كانوا من ذوي الشعر الأصفر، والبشرة الشقراء الزهرية.

وفي بعض الأحيان كان إيمال ينسرق إلى سطح الفندق حيث يرى المراسلين يتكلمون عبر ميكروفونات ضخمة في مواجهة الكاميرات. ولم يعد هؤلاء يشبهون الجنود الفدائيين. بل إنهم الآن قد اغتسلوا، وسرّحوا شعورهم. وصارت القاعة مليئة بأنواع غريبة من البشر، وجلّهم خفيف الدم، يمزح ويتكلم مع إيمال. وكان إيمال قد تعلّم شيئاً من اللغة الإنكليزية في باكستان حيث إنه قد عاش معظم سنوات عمره كلاجئ هناك.

ولم يسأله أحد عن سبب وجوده خارج المدرسة. إذ لم تكن أي من المدارس مفتوحة في تلك الأيام. وهو يحسن عدَّ الدولارات واستعمال الآلة الحاسبة، ويحلم بأن يصير تاجراً كبيراً. وكان فاضل معه. وكان الصبيّان يراقبان العالم اللااعتيادي الذي غزا الفندق فجأة، بكل عناية، وبعينين مشدوهتين، بينما كانا يغرقان المال غرقاً. ولكن، وبعد مرور بضعة أسابيع، فإن رجال الصحافة ما لبثوا أن غادروا الفندق، ذلك الفندق الذي ينام العديد منهم في غرفه الخالية من الماء والكهرباء والشبابيك. لقد انتهت الحرب، وتمّ تنصيب قائد جديد، ولم تعد أفغانستان مكاناً مثيراً.

وعندما غادر الصحافيون، فإن الوزراء الأفغانيين الجدد المنتخبين، وسكرتاريهم، ومساعديهم، قد انتقلوا إلى الفندق: فمن رجال البشتون السمر القادمين من قندهار، إلى المنفيين العائدين من المهاجر في بذلاتهم المخيّطة خصيصاً لهم، إلى أمراء الحرب الذين حلقوا ذقونهم حديثاً، وقد ملأوا جميعاً آرائك بهو الفندق. ولم يُلقِ أحدهم أيَّ بالٍ نحو إيمال، ولا اشترى شيئاً من الأشياء المعروضة في دكانه. فلم يشترِ واحد منهم قطعة من الـ "باونتي" مرة، وكانوا يشربون من الصنابير. ولم يكن أحدهم يسمح بتبديد أمواله لشراء بضائع إيمال المستوردة:

زيـتون إيطالي، وجبنة فرنسية طرية تدعى "كيري". فكل طعام يتعدّى الثّمر، لم يكن ليغريهم بالشراء.

ومن وقت لآخر، كان صحافي أو سواه يجد نفسه في هذا الفندق من أفغانستان فيدخل إلى محل إيمال.

"ألا تــزال هنا؟ لِمَ لم تعد إلى مدرستك؟" هذا ما يسأله الصحافيون إياه.

"إنــي أذهب إليها بعد الظهر"، هذا هو الجواب الذي يجيب به إيمال عن هذا السؤال، عندما يسأله إياه زائر من زوّار الصباح.

"إنــي أذهب إليها في الصباح"، يكون الجواب إلى من يسأله هذا السؤال في المساء.

لم يكــن ليجــرؤ علــى الاعتراف أنه، أشبه في ذلك بمتشرّدي الــشوارع، لا يذهب إلى المدرسة. ولأن إيمال ولد صغير غني؛ ووالده تاجر كتب، وأب شغوف بالأدب وبالتاريخ، وأب يحلم أحلاماً كبيرة، وعــنده خطط كبيرة لإمبراطوريته القائمة على تجارة الكتب، لكنه أب لا يـثق بأحد سوى بأولاده للقيام بالإشراف على محلاته، والد لم يأبه لأمر تسجيل أولاده في المدارس بعدما أُعيد فتح أبواب تلك المدارس في كابــول عقــب احتفالات عيد النوروز، في الاعتدال الربيعي الأول. وكان إيمال قد التمس من أبيه أن يعيده إلى المدرسة، لكن سلطان بقي مــصراً علــى مــوقفه: "إنك ستصبح تاجراً. وإن أفضل مكان لتعلُّم التجارة إنما هو في الدكان".

وصار إيمال على الدوام سيئ الصحة، قليل المرح أكثر فأكثر. لقد اســتحال وجهه شاحباً وجلده باهتاً. واحدودَبَ جسمه الصغير وفَقَد مــرونته. كانــوا يطلقون عليه لقب "الولد الكئيب". وعند عودته إلى البيت كان يتقاتل ويتجادل مع أخويه، إذ إن هذه هي طريقته الوحيدة

للتنفيس عن طاقته الحبيسة. وكان ينظر إلى ابن عمته فاضل بعين الغيرة والحسد. فقد دخل الأخير مدرسة الاستقلال، وهي مدرسة تلقى دعماً مـــن الحكـــومة الفرنسية. فها هو فاضل يرجع إلى بيته ومعه الدفاتر، وأقـــلام الرصـــاص، ومسطرة، وفنجار، ومبراة، ويكون الوحل يغطي بنطاله، وفي جعبته أحمال من القصص الطريفة.

"الـــولد الفقير اليتيم فاضل يستطيع الذهاب إلى المدرسة"، كان إيمـــال يشكو أمره لمنصور أخيه الأكبر. "لكن أنا الذي لي أب قد قرأ جميع الكتب في العالم، عليّ أن أعمل اثنتي عشرة ساعة في النهار. كان ينبغـــي عليّ أن ألعب كرة القدم، وأن يكون لي رفاق وأصدقاء يأتون إليّ"، يتابع شكواه.

وكان منصور يوافقه. فهو لم يحب أن يرى إيمالَ واقفاً في الدكان المعـــتم طـــيلة النهار. وهو أيضاً رجا سلطان أن يسمح لأصغر أبنائه بالـــذهاب إلى المدرسة. "سنرسله في وقت لاحق"، قال الأب. "لاحقاً نرسله؛ أما الآن، فإن علينا أن نتعاون. فهذا هو الوقت الذي نضع فيه الأساس لإمبراطوريتنا".

ومـــاذا يستطيع إيمال أن يصنع؟ هل يهرب؟ هل يرفض النهوض من فراشه في الصباح؟

وعندما يكون والده مسافراً، فإن إيمال يغامر بالخروج إلى خارج اللوبـــي؛ فهو يغلق باب دكانه، ويتمشّى إلى مواقف السيارات لعل وعـــسى أن يجد أحداً يتحدث معه، أو رفيقاً يقذف وإياه حصاة. وفي أحـــد الأيام جاءه عامل إغاثة بريطاني. فهو كان قد وقعت عينه على سيارته فجأة، سيارته التي كانت جماعة الطالبان قد سرقتها منه. ولقد ذهب إلى الفندق باحثاً عنها. فثمة وزير، يدّعي أنه قد اشتراها بطريقة قانونية، يملك الآن هذه السيارة. ومنذ ذلك الحين صار عامل الإغاثة يمر

على دكان إيمال. وصار إيمال يسائله على كيفية تقدُّم الأمور بخصوص سيارته.

"حسناً، هل تصدق؟ لقد ذهبت السيارة ولن تعود إليَّ"، قال الرجل. "سارقون جدد حلُّوا محل السارقين القدامى".

ونادراً ما كان يحصل أيُّ شيء يكسر الرتابة، فيمتلئ اللوبي بالناس، بحيث يختفي صدى وقعِ الأقدام فيه عندما يتخذ إيمال طريقه نحو المراحيض. مثلما حصلَ مرة عندما قُتل وزير الطيران. فمثله في ذلك مثل سواه من الوزراء الآتين من خارج المدينة، جعل عبدَ الرحمن إقامته في الفندق. وخلال مؤتمر الأمم المتحدة في بون، المؤتمر الذي عُقد إثر فرار طالبان، وعندما صار لأفغانستان الآن حكومة جديدة جرى تشكيلها على عجل، فإن عبد الرحمن كان له ما يكفي من الدعم لتتمّ تسميته وزيراً. وكان أخصامه ينعتونه بأنه مستهتر ومحتال.

وقد حصلت تلك المأساة عندما تُرك ألوف من الحجاج واقفين ينتظرون في مطار كابول بعد أن احتالت عليهم مؤسسة سفريات. لقد باعت تلك المؤسسة تذاكر سفر على متن طائرة وهمية. وكانت آيريانا قد استأجرت طائرة شارتر مكوكية إلى مكة، لكن لم يكن هنالك على متن رحلاتها ما يكفي من المقاعد لإركاب الجميع تقريباً.

ولقد شاهد الحجاج فجأة طائرة الآيريانا تدرج على مدرج المطار فقاموا باقتحامها. لكن الطائرة لم تكن ذاهبة إلى مكة، بل كانت تقلُّ وزير الطيران إلى نيودلهي. أما الحجاج المتشحون بثياب الحج البيضاء فقد مُنعوا من الدخول إلى الطائرة. وعندما صاروا في حالة غضب، فإنهم ضربوا الطيار واندفعوا إلى داخل الطائرة حيث وجدوا الوزير

الــذي كان في أوج راحته مع لفيف من مساعديه. و لم يتورّع الحجاج عن سحبه إلى الممر بين المقاعد وأوسعوه ضرباً حتى الموت.

وكـــان إيمـــال بين أوائل الذين عرفوا هذا الخبر. لقد باتت ردهة الفــندق تغــصُّ بالناس الذين يريدون معرفة التفاصيل. "وزير يضربه الحجاج حتى الموت؟ مَن الذي يكون وراء هذه الحادثة؟".

وحــيكت نظرية عن المؤامرة تلو الأخرى. وكلها روايات كانت تصل إلى أسماع إيمال. "أتكون هذه بداية انتفاضة مسلحة؟ أيكون هذا عصياناً قبلياً؟ أيريد الطاجيك القضاء على البشتون؟ هل هو حادث ثأر شخصي؟ أم أن الأمر يتعلق بحجاج يائسين؟".

وفجــأة صارت الردهة أكثر فظاعة من المعتاد. أصوات هادرة، وجوه قلِقة، أناس مهتاجون، لقد انتابت إيمال رغبة في البكاء.

عـــاد إلى "الغرفة الرهيبة"، وجلس وراء نضده، وأكل قطعة من الـــ "سنيكرز". إذ لا يزال أمامه أكثر من أربع ساعات قبل أن يحين أوان انصرافه.

قـــام عامـــل التنظيفات بكنس الأرض وانتهى من إفراغ سلال المهملات.

"تبدو لي شديد الحزن يا إيمال".

"جيكار خون"، قال إيمال. أي: إن قلبـــي يعتصر ألماً.

"هل كنت تعرفه؟" سأله عامل التنظيفات.

"مَن؟".

"الوزير".

"لا"، قال إيمال. "أو بالأحرى نعم. أعرفه معرفة بسيطة".

بدا من الأفضل أن يكون قلبه يعتصر ألماً بسبب موت الوزير بدلاً من أن يكون ذلك بسبب طفولته الضائعة.

النجار

يـــركض منـــصور لاهـــثاً إلى مكتبة والده. وهو يحمل طرداً صغيراً.

"مئـتا بطاقـــة بريدية"، يقول نافخاً. "لقد حاول أن يسرق مئتي بطاقة بريدية منا".

حبّات من العرق تنسكب عن وجهه. لقد قطع القسم الأخير من المسافة جرياً.

"ومَـــن هـــو؟" سأله أبوه. يضع آلته الحاسبة فوق النُّضد، يدخل رقماً في دفتر الحسابات، وينظر نحو ولده.

"إنه النجار".

"النجار؟" يسأل سلطان، ذاهلاً. "أنت متأكد؟".

وبعجـــرفة، كما لو أنه قد أنقذه من عصابة مافيا خطيرة، يسلّم الابن المغلف الأسمر إلى والده. "مئتا بطاقة بريدية"، يكرِّر. "عندما كان علـــى وشك المغادرة بدا وكأنه خجلٌ مرتبك. لكن بما أن نهاره ذاك، كـــان هو الأخير، فإنني لم أفكِّر أن الأمر يتعدّى ذلك. وسألني عمّا إذا كـــان هـــنالك أي شيء آخر يمكن له أن يعمله من أجلنا. قال إنه في حاجة إلى العمل، فأجبته أنني سوف أسألك. فبعد كل شيء لقد انتهى

العمـل بتـركيب الـرفوف. ثم وقع نظري على شيء ما، في جيب صدريته. 'ما هذا؟' سألته. 'ماذا؟' قال. وقد بدا عليه الارتباك. 'الذي في جيبك'، قلت له. 'هو شيء جلبته لنفسي'، قال. 'أرني إياه'، قلت لـه. رفـض. وفي نهاية الأمر قمت بسحب المغلّف من جيبه بنفسي. وهاكـه أمامك لقد جرّب أن يسرق منا بطاقات بريدية. لكن خطته باءت بالفشل، فلقد كنت أراقبه جيداً".

ومنـصور قـد زخـرف القصة إلى حدٍّ كبير. لقد كان يجلس وهـو يغـطّ في نـومه كالمعتاد عندما كان جلال الدين على وشك المغـادرة. فالحقـيقة أن عبدور، الولد الذي يقوم بالتنظيف، هو الذي أمـسك بالـنجار. لقد رآه عبدور يأخذ البطاقات. "ألا تريد أن تري منـصور مـا يوجد في جيبك؟" قال. لكن جلال الدين اكتفى بمتابعة سيره.

وهـذا الولد الذي يقوم بالتنظيف فقير من عشيرة هزارة التي هي مـن أقـلّ الإثنيات درجة في السلم الاجتماعي في كابول. وهو قلما تكلـم. "أرِ منـصور ما يوجد في داخل جيبك"، نادى في أثر النجار. وعـند ذلك فقط تفاعل منصور بسحب البطاقات البريدية من جيب جلال الدين، وها هو ذا الآن يصبو إلى نيل الاستحسان من أبيه.

لكـن سـلطان يستمر في تصفّح رزمة الورق التي أمامه بهدوء، ويقول: "وأين هو الآن؟".

"أرسـلته إلى منـزله لكنني قلت له إنه لن يخرج من هذه الفعلة بسهولة".

* * *

ويبقـى سـلطان صـامتاً، ويتذكر عندما جاء إليه النجار في مكتبـته. فلقد كانا من القرية نفسها، وكانا عملياً جارين. وجلال

الدين لم يتغيّر منذ تلك الأيام؛ فهو لا يزال نحيلاً كالعصا، وله عينان كبيرتان خائفتان بارزتان. بل لعله الآن قد صار أكثر نحولاً من ذي قبل. ومع أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره فإن عموده الفقري قد بدأ بالانحناء. وعائلة جلال الدين فقيرة لكنها جيدة الاحترام. وكان والده أيضاً نجاراً، لكن نظره قد خبا منذ سنوات قليلة فلم يعد قادراً على العمل.

ووجد سلطان أن من دواعي سروره أن يقوم باستخدام جلال الدين؛ فهو حاذق في عمله، وسلطان بحاجة إلى الرفوف الجديدة. فحتى الآن كانت الكتب لديه لا تزال ضمن منسوب التنوع العادي حيث يمكن ترتيبها بشكل مستقيم صعوداً ونزولاً مع جعل اسمها مقروءاً على عمودها الفقري. فهي على رفوف تحاذي الجدران، بالإضافة إلى خزانات الكتب المستقلة بذاتها، الموجودة على الأرض. لكنه الآن يحتاج إلى رفوف يمكنه أن يعرض عليها الكتب بطريقة صحيحة. أراد أن تكون لديه رفوف مائلة لها حافة رفيعة بحيث يمكن عرض غلاف الكتاب بكامله عليها أمام الناظر. وستبدو مكتبته أشبه بالمكتبات الغربية. لقد اتفقا على أجرة تبلغ خمسة دولارات أميركية في اليوم، وقد عاد جلال الدين في اليوم التالي ومعه شاكوش، ومنشار، ومسطرة، ومسامير، وبعض ألواح الخشب. وتحوّلت غرفة التخزين التي هي في آخر المكتبة، إلى ورشة نجارة لجلال الدين الذي يستعمل القدُّوم، ويعالج المسامير، طيلة النهار، تحيط به رفوف وبطاقات بريدية. والبطاقات البريدية مصدر مهم لدخل سلطان. فهو يقوم بطباعتها في باكستان، ليبيعها بربح كبير. وفي العادة، فإن سلطان يختار الصور التي يحبها، دون أن يفكّر مرة في أي تعويض على المصوِّر، أو على الرسام. فإذا وجد صورة، حملها إلى باكستان وقام بإعادة إنتاجها. وبعض المصورين

مــنحوه صوراً دون أن يطالبوه بأي نقود. لقد كانت البطاقات تباع جيداً. وأفضل زبائنه هم الجنود التابعون لقوات حفظ السلام الدولية. فعــندما يكونــون في دورية لهم في كابول، فإنهم يعرّجون على مكتبة ســلطان لــشراء البطاقات البريدية: بطاقات تحمل صور نساء يلبسن البوركا؛ وأطفال يلهون فوق الدبابات؛ ملكات من الأيام السالفة وهنّ لابــسات الفساتين الجريئة؛ تماثيل بوذا في باميان قبل، وبعد، أن تقوم طالــبان بنسفها؛ خيول بوزكاشي؛ أطفال في الأزياء الوطنية التقليدية؛ مــشاهد طبيعية برية، كابول في الماضي، وكابول اليوم. وكان سلطان حاذقــاً في اختــيار الصور. والجنود عادة لا يغادرون مكتبته إلاّ وكل واحد منهم قد اشترى دزينة من البطاقات.

والأجــر اليومــي الــذي يتقاضاه جلال الدين يساوي في قيمته بالضبط قيمة خمس عشرة بطاقة بريدية. وفي الغرفة الخلفية كانت تلك البطاقات مخزّنة. مئات البطاقات من كل صورة مخزّنة في داخل الحقائب وفي خارجها، مع أربطة بلاستيكية، وبدون أربطة، في صناديق كرتون، وعلى الرفوف.

"تقول مئتي بطاقة"، قال سلطان مفتكراً. "أتعتقد أن هذه هي المرة الأولى؟".

"لست أدري. لقد قال إنه كان عازماً على دفع ثمنها، لكنه نسي أن يفعل ذلك".

"أجل، إنه يستطيع أن يحاول جعلنا نصدّق ذلك".

"لا بــدّ مــن أن شخــصاً ما، كان قد طلب منه الإقدام على سرقتها"، يقول منصور. "فهو ليس من الذكاء إلى درجة تسمح له ببيع هــذه البطاقات ثانية. وهو بالتأكيد لم يقدم على سرقتها ليقوم بتعليقها على الجدار".

تـــنطلق شتائم من فم سلطان. فوقته ضيّق ولا يتسع لهذه الأمور. ففـــي غضون يومين عليه أن يسافر إلى إيران، وذلك للمرة الأولى منذ مـــدة طويلة. وهنالك أشياء كثيرة ينبغي عملها، لكن عليه التعامل مع هذه المسألة قبل سواها. لا أحد أبداً يسرق من سلطان وينجو بجلده.

"أبــقِ عينك على المكتبة وسأقوم بالذهاب إلى منـــزله. علينا أن نستقـــصي عـــن هـــذه المـــسألة حتى قعرها"، يقول سلطان. ويقوم باصـــطحاب رســـول معه، رسول الذي يعرف النجار معرفة جيدة. وهكذا، ينطلق إلى قرية ديه خودايداد.

وتـــشقّ الـــسيارة طريقها في القرية متبوعة بسحابة من الغبار. ثم يصلان إلى الممر الذي يقود إلى منـــزل جلال الدين. "تذكّر، لا لزوم لأحـــد أن يعـــرف عـــن هذا الأمر شيئاً؛ ليس من الضروري للأسرة بكاملها أن يعلق العار بها". يقول سلطان مخاطباً رسول.

وفي دكـــان القـــرية الواقـــع عند زاوية، حيث الممر يقود إلى منـــزل جلال الدين، تقف مجموعة من الرجال، ويكون في جملتهم فايـــز، والد جلال الدين. يبشُّ لهما ويشدُّ على يد سلطان، ويقوم بمعانقـــته. "تفـــضّلا واشربا فنجاناً من الشاي"، يقول لهما بمحبة. إذ من الواضـــح أنه لا يعرف شيئاً عن البطاقات البريدية. والرجال الآخرون أيضاً يرغبون بالتحدث ببعض الكلام مع سلطان؛ فبعد كل شيء لقد نهض هذا الرجل بشؤون نفسه من لا شيء. وقد نجح في تحقيق شيء ما، في هذه الحياة.

"إننا لا نريد سوى مقابلة ولدك"، يقول سلطان. "أتستطيع العثور عليه؟".

ينـــصرف الرجل العجوز، ويعود ومعه ابنه في إثره. وينظر جلال الدين إلى سلطان نظرة الخائف المرتعد.

"إننا في حاجة إليك في المحل؛ هل تستطيع مرافقتنا إلى هناك لفترة وجيزة؟" يقول سلطان. ويومئ جلال الدين بالموافقة.

"يجــب أن تمــرّا مرة ثانية لتشربا الشاي عندنا"، ينادي الأب في إثرهم.

* * *

"أنت تعرف سبب زيارتنا"، يقول سلطان بجفاف عندما يجلسان معــاً في المقعــد الخلفي من السيارة التي يقودها رسول. وهم الآن في طريقهم إلى منــزل مردزجان شقيق وكيل، الذي هو شرطي.

"لقــد أردت أن أشــاهد تلــك البطاقات فقط. وكنت أنوي إرجاعها. لقد أردت فقط أن أريها لأطفالي، إنها صور جميلة".

يجبن النجار في الزاوية، وتكون كتفاه مترنحتين، وهو يحاول أن يجعل حجمه منكمشاً إلى أصغر قدر ممكن. ويجعل قبضتي يديه معقودتين معاً بــين ساقيه، ومن وقت لآخر يغرز أظافره في براجم أصابعه. وعندما يــتكلم ينظر في سرعة وعصبية إلى سلطان، وهو أشبه ما يكون بفرخ دجــاج أشعث مذعور. ويستلقي سلطان في مقعده، ويقوم باستجوابه في هدوء.

"أريد أن أعرف عدد البطاقات البريدية التي أخذتها".

"لم آخذ سوى البطاقات التي رأيتموها".

"لا أصدّقك".

"إنني أقول لك الحقيقة".

"إذا لم تعترف أنك أخذت المزيد من البطاقات، فسأخبر البوليس عنك".

يلــتقط النجار يد سلطان ويمطرها بالقبلات. يستعيد سلطان يده في سرعة.

"توقــف عن هذا السلوك السخيف؛ ولا تتصرف معي تصرف المعتوهين".

"أقــسم لك بالله وبشرفي، إنني لم آخذ أي بطاقات سواها. لا تــرمني في السجن، أرجوك، سأدفع لك الثمن، إنني رجل شريف، سامحني، لقد كنت أحمق، سامحني، لديّ سبعة أطفال؛ اثنتان من بناتي تشكوان من شلل الأطفال، وزوجتي حامل لمرة جديدة، وليس لدينا أي شيء نأكله. إن أطفالي يتضوّرون جوعاً، وزوجتي تبكي كل يوم لأنــني لا أكــسب من الرزق ما يكفي لإطعامنا جميعاً. إننا نقتات علــى البطاطا والخضار المسلوقة لأننا لا نملك حتى ثمن الأرزّ. أمي تقــوم باستعطاء الفضلات من المستشفيات والمطاعم. أحياناً يكون هــنالك بعض الأرز المسلوق الذي يمكن توفيره. وأحياناً يتبيّن أن المطاعم قد قامت ببيع الفضلات للسوق. وفي الأيام الأخيرة الماضية لم يتوفّــر لــنا حتى الخبز. وإنني أيضاً أطعم أطفال أختي الخمسة، فزوجها عاطل عن العمل، وإنني أعيش مع والديّ العجوزين، ومع حدتي".

"إن الخــيار متروك لك. اعترف أنك قد أخذت المزيد توفّر على نفسك دخول السجن"، يقول سلطان.

لكــن النقاش يظل يراوح في حلقات تدور على نفسها. النجار ينعــي فقره، وسلطان يريد منه الاعتراف بسرقة المزيد من البطاقات. كما أنه يريد أن يعرف لمن كان يقوم ببيعها.

عبروا كل مدينة كابول، حتى خرجوا منها إلى الريف مرة ثانية. ورســول يقــود الــسيارة بهمــا خلال طرقات موحلة، وبين الأناس المستعجلين للوصول إلى منازلهم قبل هبوط الظلام. وثمة بعض الكلاب الشاردة التي تتقاتل على عظمة. ويتراكض الأطفال بأقدام حافية. وثمة

امرأة متلفعة بالبوركا توازن نفسها فوق جسر دراجة هوائية يقودها زوجها، وثمة رجل عجوز يناضل لدفع عربة محمّلة بالبرتقال؛ وتغرق قدماه في الأخاديد الطينية التي تسبّب بها المطر خلال الأيام الأخيرة. لقد تحوّل الطريق الترابي الجاف إلى شريان للبراز، والقمامة، وفضلات الحيوانات؛ وكلها دَفع بها المطر الغزير دفعاً إلى الطريق، آتياً بها من الأزقة.

ويتوقف رسول أمام بوابة. ويسأله سلطان أن يذهب ويقرع الباب. ويخرج مردزجان لتحيتهم جميعاً، ويدعوهم إلى الدخول.

وعندما يطأ الرجال الدرج صعوداً، فإنهم يسمعون الخشخشة الهادئة لتنانير النساء. فنساء البيت يختبئن. بعضهن يقفن وراء باب نصف مفتوح، وبعضهن يختبئن خلف الستائر. وثمة طفلة صغيرة تنظر خلسة من خلال شق في الباب لترى مَن يمكن أن يكون هذا الزائر في ساعة متأخرة من النهار. فخلا عن أفراد العائلة لا يجوز لأحد أن يلقي نظره عليهن. فالصبية الكبار يقومون بإحضار الشاي الذي تقوم بإعداده الأم والأخوات في المطبخ.

"حسناً"، يقول مردزجان الذي يجلس متربعاً، لابساً زي التونيك التقليدي فوق سروال منفّخ الساقين، وهو اللباس الذي ألزمت طالبان جميع الرجال بلبسه. ومردزجان يحب هذا الزي. فهو قصير القامة وسمين، ويجد راحة في الثياب الفضفاضة. والآن عليه أن يلبس لغاية العمل زياً لا يحبه كثيراً، إنه اللباس الرسمي القديم للبوليس الأفغاني، قبل مجيء طالبان. فبعد تعليقه في خزانة الثياب لعدة سنوات، بات هذا اللباس ضيقاً على صاحبه نوعاً ما. كما أنه أيضاً ثقيل جداً، كما لو أنه لباس مخصّص للشتاء فقط، فهو مصنوع من المخزونات الباقية المنسوجة محلياً. فهذه الأزياء مصنوعة قياساً على نموذج روسي، وهي تصلح

لسيبيريا أكثر مما تصلح لكابول. ومردزجان يتعرّق في طريقه إلى عمله خلال أيام الربيع عندما تصل الحرارة إلى خمس وثمانين درجة (فهرنهايت).

ويقوم سلطان بشرح سبب الزيارة في سرعة. ويدعهم مردزجان يتكلمون كل بدوره. كما لو أن كلامهم يُعرض للمطابقة. يجلس سلطان إلى جانبه، ويجلس جلال الدين في مقابله. ويومئ مردزجان برأسه متابعاً، فاهماً، محافظاً على سلوك سهل غير متشدّد. ويقدم الشاي إلى سلطان وجلال الدين، كما يقدم لهما حلوى الطوفي المصنوعة بالقشدة، بينما هما يتحدثان أحدهما إلى الآخر.

"لمصلحتك أنت بالذات، ومن الأفضل لك، حلُّ هذه المسألة برمتها، بدلاً من الذهاب إلى البوليس الحقيقي". يقول مردزجان.

يُطرق جلال الدين في الأرض معتصراً يديه، ويتأتئ باعتراف، ليس لسلطان، بل لمردزجان. "ربما أكون قد أخذتُ خمسمئة بطاقة. لكنها كلها موجودة في البيت. وسوف أقوم بردّها جميعاً. لأنني لم ألمسها".

"حسناً، فأنا ما كنت لألمسها لو كنت مكانك"، يقول الشرطي.

لكن سلطان لا يكفيه ذلك. "إنني متأكد أنك قد أخذت أكثر من ذلك بكثير. قل لنا الآن! إلى مَن قمتَ ببيعها؟".

"إن من مصلحتك أن تعترف بكل شيء الآن"، يقول مردزجان. "إذ لو وصل الأمر إلى الاستجواب أمام البوليس، فلن يكون الحال هادئاً كما هو الآن، ولن يقدَّم لك هناك لا الحلوى، ولا الشاي"، يقول بطريقة مبهمة وهو ينظر إلى جلال الدين.

"لكــن هذه هي الحقيقة الكاملة. إنني لم أقم ببيعها، أقسم بالله. وأؤكــد لكما"، يقول هذا منقّلاً نظره من واحد لآخر. لكن سلطان يبقى على إصراره، ويكرّر كلماته نفسها؛ لقد حان الوقت للذهاب إلى البــيت. فكــل مَن تجري مصادفته خلال ساعات منع التجول يُلقى القــبض علــيه. حتى إن بعض الأشخاص قد قُتلوا لأن الجنود شعروا بالخطر بسبب السيارات المارّة.

ركبوا السيارة بصمت. ويطلب رسول من النجار قول الحقيقة "وإلاّ فإن هذه المسألة ستتوسّع وتمتد يا جلال الدين"، يقول له. وعندما يصلون إلى منـــزل الـــنجار يدخل ليحضر لهما البطاقات البريدية. يعود بسرعة ومعــه رزمــة صــغيرة من البطاقات الملفوفة في شال عليه نقوش صفراء وبــرتقالية. يفتح سلطان الرزمة وينظر إلى صوره بإعجاب بعد أن عادت إلى مالكهــا الصحيح الذي سيعيدها إلى رفوفها. لكنها يجب أن تُستعمل أولاً كدلــيل على حصول السرقة. يوصل رسول سلطان إلى بيته. ويبقى النجار واقفاً بوجه ذليل عند المنعطف الذي يقود إلى بيته.

* * *

أربعمــئة وثمانون بطاقة. يجلس إقبال وإيمال على البساط يعدّان. وســلطان يحاول أن يقدّر كم هو عدد البطاقات التي قد يكون النجار اختلسها. والبطاقات تصوّر مناظر مختلفة. "ففي الغرفة الخلفية ثمة مئات فــوق مــئات منها. فلو اختفت رزمة بكاملها، سيكون من الصعب الانتــباه إلى اختفائها. ولكن إذا اختفى فقط دزينة تقريباً من عدد من الرزم فإنه من المحتمل أن يكون قد فتح قليلاً من الرزم وأخذ القليل من الــبطاقات من كل منها"، يعلّل سلطان ويخمّن. "علينا أن نتابع العدّ في الصباح".

* * *

وفي صباح اليوم التالي يقومون بمتابعة العد، ويتبدّى لهم النجار واقفاً بطريقة مفاجئة عند الباب. ويبقى ملازماً العتبة ويبدو منكّس الرأس أكثر من ذي قبل. ثم يندفع فجأة إلى سلطان ويبدأ بتقبيل قدميه. يسحبه سلطان عن الأرض ويقول له بصوت صافر بطيء، "لملم شتات نفسك أيها الرجل. فإن مسكنتك لا تفيدني بشيء".

"سامحني، سامحني، سأعوّض عليك، سأعوّض عليك، لديّ أطفال جياع في بيتي"، يقول النجار.

"إنني ما زلت على كلامي الذي قلته لك بالأمس. لا أريد منك نقوداً، لكنني أريد أن أعرف لمن قمت ببيع البطاقات. وكم هو عدد البطاقات التي أخذها؟".

ويكون فايز، والد جلال الدين، العجوز، حاضراً هنا كذلك هذه المرة، وهو أيضاً يحاول أن يخرّ إلى الأرض لتقبيل قدمي سلطان، لكن سلطان يمسك به قبل أن يصل إليهما؛ فهو لا يرغب بأن يرى أحداً يقبّل حذاءه خاصة عندما يكون هذا الإنسان جاراً عجوزاً.

"يجب أن تعلم أنني قد أمضيت الليل كله وأنا أضربه. إنني شديد الخجل. لقد ربّيته ليصبح عاملاً أميناً شريفاً، والآن... ها هو ولدي اللص". يقول فايز هذا الكلام ويجدُج ابنه الذي يجبن متراجعاً إلى الزاوية. النجار المحدودب يبدو كطفل صغير سرق وكذب وهو على وشك أن يُضرب على قفاه.

ويخبر سلطان فايز بهدوء عمّا حدث، وأن جلال الدين قد أخذ البطاقات معه إلى منزله، وأنه يريد منه الآن أن يخبره كم هو عدد البطاقات التي أخذها وإلى مَن قام ببيعها.

"أمهلـــني يوماً واحداً وسوف أجعله يعترف بكل شيء. إذا كان هناك المزيد مما لم يقله بعد"، يقول فايز راجياً، يبدو الحذاء الذي ينتعله فايز بالياً، وليس في قدميه جوربان، أما بنطاله فمثبت إلى خصره بقطعة من الشريط. أما كمّا السترة فلمّاعتان. وهو له هيئة ابنه نفسها ما خلا أنه أكثر سُمرة وأصغر حجماً، وأكثر تحدّباً. فكلاهما نحيلان وهشّان، ويقـــف الأب أمام سلطان ساكناً. وسلطان نفسه لا يعلم ماذا عليه أن يفعـــل أيضاً. فهو يشعر بالارتباك في حضور هذا الرجل العجوز الذي قد يكون في مقام والده.

أخـــيراً يتحرك فايز. فيمشي بإذعان إلى خزانة الكتب التي يقف قـــربها ولده. ومثل لمح البصر ترتفع ذراعه في الهواء، وهناك وفي داخل المحـــل يقوم بصفع ولده. "أيها النذل الحقير الذي لا يساوي شيئاً، إنك عار على عائلتك، ليتك لم تولد، أيها الخاسر المحتال"، يبكي الوالد فيما هـــو يرفس ولده ويضربه. فهو يغرز ركبته في بطن ابنه ويرفس بقدمه خـــصيتيه ويـــضرب بقبضتيه ظهر جلال الدين الذي يكتفي بالوقوف حانيَ الظهر، يحمي صدره بذراعيه، بينما ينحني أبوه فوقه. لكنه يُفلت فجأة ويهرب إلى خارج المحل. يصبح في الخارج بثلاث خطوات طويلة فقط، ويختفي في أسفل الدرجات مندفعاً إلى الشارع.

تبقى قبّعة فايز المصنوعة من جلد الخروف ملقاة على الأرض. لقد ســـقطت منه في وطيس المعركة. يلتقطها، يثبتها من جديد فوق رأسه. يقف. يودّع سلطان. وينصرف. ومن خلال الزجاج، ينظر إليه سلطان كيف هو يترنّح نحو دراجته الهوائية القديمة، فينظر يمنة ويسرة ويركب دراجته وينطلق بها بهدوء قافلاً نحو قريته.

وبعـــدما ينجلي غبار هذا المشهد المربك، يعود سلطان إلى متابعة العـــدّ. فهو لم يرفّ له جفن. "لقد عمل هنا مدة أربعين يوماً. لنفترض

أنـــه كـــان يأخذ مني بطاقة في كل يوم؛ هذا يجعل الرقم ثمانية آلاف بطاقـــة. إنني متأكد أنه قد سرق ثمانية آلاف بطاقة على الأقل"، يقول بيـــنما هو ينظر إلى منصور الذي يكتفي بتحريك كتفيه. لقد كان أمراً مـــوجعاً مـــراقبة النجار المسكين وهو يتعرّض للضرب على يد والده. ومنـــصور لا يهمّـــه كثيراً أمر هذه البطاقات البريدية، وهو يعتقد أن علـــيهم نسيان هذا الموضوع اللعين بكامله بعد أن تمكنوا من استرجاع الـــبطاقات. "إنه لا يملك الجرأة الكافية ليقوم ببيع البطاقات؛ انسَ هذا الموضوع"، يقول لأبيه برجاء.

"ربمـــا يكـــون قد فعل كل ذلك بناء على طلب أحدهم. فأنت تعرف أصحاب تلك الأكشاك الذين درجوا على بيع البطاقات البريدية لـــصلحتنا. وبعـــض هؤلاء لم يشترِ منا أي شيء، منذ بعض الوقت. وكنت أظن أنهم قد اشتروا كميات كافية منها، ولكن من الممكن إنهم قـــد اشتروا بطاقات بريدية رخيصة من النجار. وهو غبـــي بما يكفي لبيعها لهم مقابل أغنية. ماذا تعتقد؟".

يهزّ منصور كتفيه مرة ثانية. فهو يعرف والده ويعرف أنه لا يقبل ســـوى أن يلاحـــق كل الأمور حتى النهاية. كما أنه يعرف أن والده سيحيل هذه المهمة إليه هو. فوالده مسافر إلى إيران، وسيبقى هناك لمدة شهر.

"مـــاذا لـــو قمتَ أنت ومردزجان بإجراء بعض التقصّيات بينما أكـــون أنا ما زلت غائباً؟ فالحقيقة ستظهر. لا أحد يمكنه أن يسرقني"، يقـــول مركّزاً النظر نحو منصور. "كان بإمكانه أن يدمّر كل تجارتي"، يقول. "تصوّر فقط أنه يسرق آلاف البطاقات البريدية ويقوم ببيعها إلى الأكـــشاك والمكتبات في جميع أنحاء كابول. فيقومون هم ببيعها بسعر مـــنافس جـــداً لأسعاري فيبدأ الناس بالتحول إليهم بدلاً مني. وبذلك

ســأفقد جميع زبائني من الجنود الذين يشترون البطاقات؛ كما سأفقد جميع الزبائن الذين يشترون الكتب أيضاً. وسأكتسب سمعة رديئة بأني أبـيع بأسـعار هي أغلى من أسعار أي شخص آخر. وفي نهاية الأمر سوف أشرف على الإفلاس".

يُـصغي منصور إلى توقّعات والده بالخراب بنُصف سمعه. فهو غاضــب ومهتاج لأنه قد أُعطي مهمة أخرى ليقوم بها أثناءَ غياب أبـيه. فبالإضافة إلى ضرورة قيامه بتسجيل جميع الكتب، وباستلام طـرود الكـتب الجديـدة المرسـلة إليهم من أصحاب المطابع في باكستان، وبتصريف جميع الأعمال الروتينية التي تترتب على كون المرء مالكاً لمكتبة في كابول، والعمل كسائق، بالإضافة إلى فتح محل بيع الكتب الذي يختص به، وها هو الآن يأخذ دور مفتش الشرطة أيضاً.

"ســوف أهتم بذلك الأمر"، يقول فوراً. فهو لا يحسن أن يقول شيئاً سوى ذلك.

"لا تكـن ليّـناً، لا تكـن متساهلاً"، كانت هذه آخر كلمات سلطان قبل توجهه إلى طائرة المساء المسافرة إلى طهران.

* * *

وفــور مغــادرة والده، نسي منصور الأمر كله. ففترة الورع المـنافق الــتي أعقبت زيارته إلى المزار الشريف قد انقضت حقيقة وفعــلاً. فهي لم تدُم سوى لمدة أسبوع واحد بالضبط. ولم يتحسّن فــيه شــيء بعد قيامه بالصلاة خمس مرات في اليوم. أما لحيته التي أطلقهــا فإنها بدأت تشعره بالحكاك، وكان كل مَن ينظر إليه يخبره بأنه يبدو أشعث. وهو لم يُعجبه منظر نفسه في ثوب الـــ "تونيك" التقليدي الفضفاض. "إذا كنت لا أستطيع التفكير بالأفكار المباحة،

فـــإنني أستطيع أيضاً نسيان الأمر كله". قال لنفسه مُعفياً إياها من التقوى والورع بالسرعة التي كان قد ابتدأ معه الأمر كله. فالزيارة لم تكن سوى رحلة استجمام.

ففي المساء الأول الذي أعقب غياب والده، تلقّى منصور دعوة مـــن رفيقين له إلى خارج المنـــزل. وعدهما بالذهاب، غير عارف بأنهما قد اشتريا بعض المشروبات الأوزبكية والأرمنية بأسعار باهظة مـــن الـــسوق السوداء. "هذه هي أفضل المشروبات التي يمكن أن تتوفّـــر"، قال لهما البائع المتجول، فدفع الصَبيّان مبلغ أربعين دولاراً أميركياً مقابل كل زجاجة. فمعظم زبائنه كانوا من الصبية الصغار الهـــاربين من رقابة أهلهم الصارمة إلى أحضان الشراب حتى فقدان الـــتوازن. ولم يكن منصور قد ذاق شراباً من قبل، فالشراب مادة شـــديدة التحريم في الإسلام. وفي وقت مبكر من المساء يبدأ رفيقا منصور بالشراب. ويقومان بخلط أشربة مختلفة معاً، وبعد وقت قصير تـــدور بهمـــا الأرض في غـــرفة الفندق مقفلة الستائر التي كانا قد اســـتأجراها تحاشياً لغضب الأهل. وكان منصور لم يأتِ للانضمام إلـــيهما بعد، إذ عليه أولاً أن يوصل أخويه إلى البيت. وعندما أتى منصور إلى رفيقيه إذ به يجدهما في هرج ومرج وصياح وكل منهما يريد القفز عن الشرفة.

بعد أن شهد منصور هذا المشهد أخذ على نفسه عهداً ألاّ يقارب الـــشراب. فإذا كان هذا ما يفعله الشراب برفيقيه، فلا بدّ من أن يلقى هو المصير نفسه إن لم يرتدع.

* * *

لا أحـــد يـــستطيع الـــنوم في منـــزل جلال الدين فالأطفال يـــضطجعون على الأرض وينتحبون بصمت. لقد كانت الساعات

الأربـع والعـشرون الماضـية من أسوأ ما مرّ عليهم من قبل: فهم يشهدون والدهم وهو يتعرّض للضرب من جدهم الذي يناديه بـ: اللص. وكل أشياء البيت قد انقلبت رأساً على عقب، وفي فناء الدار يتمشى والد جلال الدين في دوائر لا تنتهي. "كيف يمكن أن يكون لي ولـد مثل هذا، يجلب العار لعائلته كلها؟ ماذا جنيت ليحدث لي ذلك؟".

والابـن البكر، المنكود، يجلس على الحصيرة في البيت المكون من غرفة واحدة. وهو لا يستطيع أن يستلقي على الأرض لأن ظهره مغطى بالـندوب الدامـية بعد تعرّضه على يد والده للضرب بواسطة هراوة غلـيظة. لقد عاد الاثنان إلى البيت بعد الضربات التي تلقاها الابن في دكـان الكـتب. وصل الأب أولاً راكباً دراجته، ثم تلاه الابن ماشياً مجـتازاً الطريق الذي يخترق المدينة بكاملها. وقد تابع الأب ما كان قد بـدأه مع ابنه في المحل، ولم يبدِ الابن أي مقاومة. فبينما كان الضرب يـنهال على ظهره، والشتائم تنصبّ فوق رأسه وكتفيه، فإن بقية أفراد العائلـة كانـوا يكتفون بالمراقبة في ذعر. ولقد حاولت النساء إخراج الأطفال بعيداً ولكن لم يكن ثمة مكان آخر للذهاب إليه.

فالبـيت مبني حول باحة مكشوفة، وأحد جدرانه يحاذي الشارع وعلـى طـول الجدارين الآخرين توجد مصاطب تقع خلفها غرف لها شـبابيك كـبيرة مغطاة بمشمّعات تقابل الباحة؛ غرفة للنجار وزوجته وأطفالـه الـسبعة؛ وغرفة لأبيه وأمه وجدته؛ وغرفة لأخته وزوجها وأطفالهمـا الخمسة؛ وغرفة للطعام؛ ومطبخ فيه تنّور في جوف الأرض وموقد بريموس وبعض الرفوف.

ويـنام أطفال النجار، كلٌّ على وطاءٍ مصنوع من خليط من الخِرَق وفضلات القماش، حتى إن بعض أجزائه مُرمَّم بقطع الكرتون

والبعض الآخر مُرمَّم بقطع البلاستيك أو الخيش. والابنتان المصابتان بشلل الأطفال تضع كل واحدة منهما جبيرة معدنية على ساقها الكسيحة وتستعمل عكازاً يُسنَد إلى تحت الإبط. أما بقية الأطفال فيعانون من طفرة أكزيما من النوع الخبيث؛ فهم يحكّون البثور الدامية على الدوام.

وبينما تركب العفاريت رأسَي رفيقَي سلطان في جولة جديدة، يكون أطفال السنجار، على المقلب الثاني من المدينة، قد استسلموا للرقاد.

* * *

وعندما يستفيق منصور في صباح اليوم الأول الذي تلا سفر والده، فإن ثمة شعور غامر بالحرية يجتاحه. فها هو الآن حرّاً يضع نظارته الشمسية التي كان قد اشتراها إبان زيارته إلى المزار الشريف، ويمزق شوارع كابول تمزيقاً بسيارته في سرعة 60 ميلاً في الساعة، ماراً بمحاذاة حمير محملة، وقطعان ماعز متّسخة، ومتسولين، وجنود ألمان انضباطيين. ويمدّ إصبعاً في الهواء باتجاه الألمان بينما سيارته تقع وتقوم في الحفر الموجودة على الطريق. لذلك فهو يلعن ويسب، وينطلق لسانه بالشتائم بينما المشاة يتقافزون أمام سيارته. ويترك وراءه كل حي من أحياء كابول المكونة من موزاييك محيِّر من الخرائب المنخورة بالقذائف والقنابل، والمليئة بالبيوت المنهارة، ليدخل في حي آخر شبيه به.

"إن عليه أن يتحمل عواقب عمله، هذا هو تقويم الأخلاق"، كان سلطان قد قال. يُقلّب منصور بوجهه في سيارته متهكماً. من الآن فصاعداً، يستطيع رسول أن يحمل الحقائب، وأن يُسلّم الرسائل؛ ومن الآن فصاعداً على منصور أن يدلّل نفسه إلى أن يعود والده. فخلا عن

نقـلِ أخـويه إلى عملهما في كل صباح حتى لا يشيا به، فإنه لن يقوم بعمـل أي شيء. فالشخص الوحيد الذي يخشاه منصور هو أبوه. ففي حضوره لا يجرؤ حتى على الاحتجاج؛ فهو الشخص الوحيد الذي يحترم ويوقّر، ما دام حاضراً على الأقل.

وهـدف منـصور هو التعرف على فتيات. فهذه مسألة ليست يسيرة في كابول، حيث تقوم معظم العائلات بحراسة بناتها كما يُحرس الكنـز. وتأتيه فكرة بارعة مفاجئة، فينضمّ إلى دورة طارئة لتدريس اللغة الإنكليزية للمبتدئين. فلغة منصور الإنكليزية جيدة نتيجة للدراسة الـتي تلقاهـا في باكستان، لكنه يحلّل بأنه لا بدّ له من أن يجد أصغر وأجمل الفتيات في صف المبتدئين. ولم يكن مخطئاً في ذلك، فبعد انقضاء الـدرس الأول كان نظره قد وقع على الفتاة التي فضّلها على سواها. وهـو يحـاول بحذر أن يتحدث إليها. ومرة فإنها حتى سمحت له بأن يوصـلها في سيارته إلى بيتها. ويطلب منها المجيء إلى مكتبته لكنها لا تفعـل ذلك أبداً. وفي أحد الأيام تتوقف الفتاة عن حضور صف اللغة الإنكليزية. ولا يستطيع منصور الاتصال بها. ويفتقدها. لكنه يشعر أولاً وقبل كل شيء، بالأسف عليها لأنها توقفت عن المجيء؛ إذ إنها كانت شديدة الرغبة بتعلم اللغة.

وتُنتـسى طالبة اللغة الإنكليزية بسرعة. إذ لا شيء حقيقي، ولا شـيء دائم في حياة منصور، في هذا الربيع. ومرة يُدعى إلى حفلة عند أطـراف كابول. إذ إن بعض معارفه قد استأجروا بيتاً. ومالك البيت يقف حارساً لهم أمامه في الحديقة.

"لقـد دخّنوا عقرباً مجففاً"، يخبر منصور صديقاً له في اليوم التالي بحمـاس. "لقد سحنوه ليصبح مسحوقاً ناعماً ثم مزجوه بالتبغ وصاروا في مزاج عالٍ، لكنه مزاج غضوب قليلاً"، يتابع منصور الكلام مباهياً.

ثم وفي أحـــد الأيام يرسل سلطان رسالة تقول بأنه سيكون في البيت في اليوم التالي. وينتزع منصور نفسه فوراً من حياة التسمم. فهـــو لم ينجـــز أي شـــيء من الأشياء التي طلبها منه أبوه. فهو لم يفهـــرس الكـــتب، ولم يـــرتّب الغرفة الخلفية، ولم يجهّز الطلبات الجديـــدة، ولم يستلم صناديق الكتب التي تكوّمت الآن في مستودع الـــنقل. حـــتى إنـــه لم يصرف دقيقة في التفكير في مسألة النجار والتحريات حوله.

وشـــريفة لا تـــنفك تتـــشاجر معـــه. "ما خطبك يا بني، أأنت مريض؟".

"لا ليس بـــي شيء"، يقول لها متفاخراً.

لكنها تتابع مناكدته. "أغلقي فمكِ الذي يشبه المرحاض وعودي إلى باكـــستان". يصرخ منصور في وجهها. "منذ أن رجعتِ إلى هنا، تحول كل شيء إلى خراب".

تـــبدأ شريفة بالبكاء. "كيف يمكن أن يكون أولادي هكذا؟ ماذا جنيت حتى صاروا لا يطيقون وجود أمهم معهم؟".

تـــصيح شـــريفة وتولـــول في وجه أبنائها؛ وتبدأ لطيفة بالبكاء. وتـــتمايل بيبـــي غـــول من جانب لآخر؛ وتحملق بلبلة في الفضاء. وتحاول صونيا تهدئة لطيفة، وتتابع ليلى أعمال الغسيل. ويَصفِق منصور الباب ويدخل إلى الغرفة التي يشترك فيها مع يونس. ويكون يونس في سريره يشخّر. فهو مصاب بالتهاب الكبد الوبائي، ويلازم السرير طيلة يومه مبتلعاً العقاقير. فعيناه صفراوان، وهو يبدو شاحباً وحزيناً أكثر من أي وقت مضى.

وعـــندما يعـــود سلطان في اليوم التالي، فإن منصور يصبح شديد التوتـــر، ويجتنب النظر إلى عيني والده النفاذتين. لكنه لا يحتاج إلى أن

يكون شديد القلق في كل حال، لأن سلطان يصبّ الآن معظم اهتمامه على صونيا. وفي اليوم التالي فقط، وعندما كانا في المكتبة، فإن سلطان سأل ولده عما إذا كان قد فعل كل ما طلب منه فعله. وقبل أن يتسنّى لمنصور الوقت الكافي للجواب، كان والده قد شرع في إصدار تعليمات جديـــدة لـــه. فرحلة سلطان إلى إيران كانت بالغة النجاح. فقد أعاد وصـــل ارتـــباطاته مع عملائه التجاريين القدامى، وقريباً جداً ستصل الكرتونة تلو الأخرى من الكتب الفارسية إلى كابول. لكن شيئاً واحداً لم يَنسه: قضية النجار.

"ألم تكتـــشف شيئاً بعد". يحملق سلطان في ابنه مندهشاً. "أتقوم بإحـــباط سعيي؟ غداً عليك أن تذهب إلى الشرطة وتبلغ عنه. لقد قال أبوه إنه سيسلمني اعترافه في غضون يوم واحد، وها هو الآن قد انقضى شـــهر على ذلك! وإذا وجدتُ أنه لم يودَع بعد في السجن عند عودتي من باكستان، فلن تكون ابني"، يقول مهدِّداً. "فكل مَن يسرق أشيائي لن يعرف السعادة بعد ذلك أبداً"، يقول بلهجة منذرة بالسوء.

* * *

وفي الـــصباح الـــتالي، وقبل انجلاء العتمة، تأتي امرأتان تحملان طفلين، وتقرعان باب عائلة خان. وتفتح ليلى الباب متكاسلة. وتصرخ المـــرأتان وتعولان، وبعد برهة تدرك ليلى أنهما جدة النجار وعمته وقد جاءتا بطفليه.

"نرجوكم سامحوه، سامحوه نرجوكم"، تقولان. "نرجوكم سامحوه بحق الله"، تبكيان. والجدّة العجوز تناهز التسعين من عمرها وهي ضئيلة الحجم، ذابلة، ولها وجه يشبه وجه الفأر. إذ لها ذقن حادّ شعراني. إنها جدة النجار لأبيه، وهي التي كانت تحاول استنباط الحقيقة من حفيدها خلال الأسابيع الماضية.

"ليس عندنا شيء نقتات به؛ إننا نتضوّر جوعاً، انظروا إلى هذين الطفلين. إننا سنعوّض عليكم ثمن البطاقات البريدية".

وتسألهما ليلى الدخول. وترمي الجدة العجوز جرذونية الشكل نفسها على أقدام نساء العائلة اللواتي كنّ قد استفقن على العويل، فـدخلن إلى الغرفة. وهنّ يظهرن في ارتباك شديد أمام هذا البؤس الذي تسلل إلى هذا البيت مثل هبّة من الهواء البارد. وقد أحضرت المرأتان معهما طفلاً ذكراً في عامه الثاني، كما أحضرتا إحدى البنتين المصابتين بشلل الأطفال. وتجلس الطفلة الشلاّء على الأرض بصعوبة كـبيرة. فساقها المتيبّسة، المصابة بالشلل، والتي تنطبق عليها قضبان الجبيرة المعدنية، تعلق تحتها، وهي تجلس بسكينة ووقار، وتستمع إلى النقاش من حولها.

لم يكـن جـلال الدين في البيت عندما داهمه البوليس، لذلك فـإنهم أخـذوا والده وعمه بدلاً منه. وقد قالوا بأنهم سيعودون في الـصباح الـتالي لأخذ جلال الدين. ولم ينم أحد طيلة الليل. وفي الـصباح الباكـر، وقبل أن يعود رجال البوليس، شرعت المرأتان المسنّتان في طريقهما لاستجداء رحمة سلطان، وعفوه، وذلك بالنيابة عن بقية أفراد العائلة.

"إذا كان قد سرق أي شيء، فإن ما دفعه إلى فعل ذلك هو إنقاذ عائلته. انظرن إليهما، انظرن إلى الطفلين، إنهما نحيلان كعصوين. ليس لديهما ثياب مناسبة، وليس لديهما ما يأكلانه".

والقلوب في مايكرورايون تذوب شفقة، لكن الزيارة لا تؤدي إلى أي نتـيجة سوى استدرار الشفقة. فعندما يكون سلطان قد قرّر أمراً، فـلا يعود بوسع نساء عائلة خان القيام حيال ذلك بأي شيء. خاصة عندما تتعلق المسألة بشؤون المكتبة.

كـــان بودّنا "أن نساعدكما، لكن ليس بوسعنا عمل أي شيء. فسلطان هو الذي يقرِّر"، تقول النسوة للمرأتين. "وسلطان غائب عن البيت".

وتستمر المرأتان في العويل والنحيب. فهما تعرفان أن هذا الكلام صـــحيح، لكنهما لا تستطيعان إسقاط الأمل. تدخل ليلى وهي تحمل البـــيض المقلي والخبز الطازج وتقدّمهما للمرأتين. وتحضر أيضاً الحليب المغلـــي للطفلين. وعندما يأتي منصور إلى الغرفة تندفع المرأتان وتقبلان قدمـــيه، لكـــنه يركلهما بعيداً عنه. وهما تعرفان أنه بوصفه بكر أبيه، يمسك بزمام السيطرة أثناء غيابه. ولكن منصوراً كان قد قرّر أن يفعل ما طلب منه أبوه أن يفعل.

"مـــنذ أن صادر سلطان عدته فإن جلال الدين لم يعد قادراً على العمل. وإننا لم نأكل منذ عدة أسابيع. لقد نسينا طعم السكر"، تصرخ الجدة باكية. "والأرز الذي نشتريه يكاد يكون متعفناً. وأطفاله يزدادون هـــزالاً يوماً بعد آخر؛ انظروا إن هذين الطفلين. إنهما مجرد جلد على عظم. إن والد جلال الدين يوسِعُه ضرباً في كل يوم. وأنا لم أفكر مرة أنني سأربـــي لصاً". تقول الجدةَ. وتعدُها النسوة في مايكرورايون ببذل كـــل جهـــد ممكـــن لإقناع سلطان مع علمهن المسبق بأن لا شيء سينفع.

وفي الـــوقت الذي اتخذت فيه الجدة والعمّة طريقهما للعودة إلى قريتهما برفقة الطفلين، فإن البوليس كان قد حضر وألقى القبض على جلال الدين.

وبعد الظهر تمّ استدعاء منصور كشاهد. جلس على كرسي محاذ لطاولـــة الحاكم، واضعاً رجلاً فوق أخرى. وكان سبعة رجال يصغون إلى الاســـتجواب. ولم يكن هنالك ما يكفي من الكراسي. لذلك فقد

تشارك اثنان منهما الجلوس على كرسي واحد. أما النجار فكان يُقعي علـى الأرض. فهـم مجمـوعة مختلطة؛ بعض رجال البوليس يلبسون سـترات رسـمـية شتوية ثقيلة رمادية اللون، وبعضهم يلبسون ملابس تقلـيدية، وبعضهم يلبسون زيّ البوليس الحربـي الأخضر. ولا تُحلّ أشياء كثيرة في هذه الدائرة. وعليه، فإن سرقة بطاقات البريد هي مسألة بالغـة الخطورة. وأحد رجال البوليس يقف إلى جانب الباب دون أن يقرر تماماً ما إذا كان ينتمي إلى داخل الغرفة أم إلى خارجها.

"علـيك أن تخبرنا لمن قمت ببيع البطاقات؛ وإلاّ فإنه سينتهي بـك الأمـر في الـسجن المركزي"، قال له كبير الحكام. وكلمتا "الـسجن المركزي" ترسلان قشعريرة في جوانب الغرفة. فالسجن المركزي هو المكان الذي يذهب إليه المجرمون الحقيقيون. ويتراخى النجار على الأرض، ويبدو فاقداً كل أمل وهو يقوم باعتصار يديه اللتين تشتغلان في النجارة؛ لذلك تغطيهما ألوف الندوب الصغيرة، وآثـار الجراح تتقاطع فيهما. وتحت أشعة الشمس التي تُشرق من خـلال الـشبّاك يمكـن رؤيـة الندوب والجروح التي تسبّبت بها الـسكاكين، والمناشير، والمثاقب ليدَي النجار، بكل وضوح. وبدا كما لو أن يدي النجار، وليس وجهه، هما اللتان تمثّلانه، وهما الآن ما يقوم الرجال السبعة في الغرفة بتركيز المراقبة عليهما، كما لو أن المسألة تختص بيديه ولا تختص بشخصه. وبعد برهة قاموا باقتياده إلى زنـزانة صغيرة تبلغ مساحتها عشر أقدام مربعة. حيث لا يستطيع أن يقف فيها، بل جُلّ ما يستطيعه: هو أن ينحني، وأن يقعي، وأن ينام متكوّماً على نفسه فقط.

ومـصير جلال الدين بات الآن في يد عائلة منصور. فهم الذين يستطيعون سحب شكواهم أو الإبقاء عليها. فإذا اختاروا الإبقاء على

الشكوى، فسيجري إرساله تسلسلاً على امتداد الجهاز؛ وسيكون من المتأخـر جـداً إخـلاء سبيله. ثم يقرِّر البوليس في أمره. "إننا نستطيع احتجازه هنا لمدة اثنتين وسبعين ساعة، بعدها يكون عليكم أن تحسموا قـراركم"، يقول رئيس الحكام. وبرأيه أن جلال الدين يجب أن ينال جزاءه؛ فالفقر ليس سبباً يبرِّر السرقة.

"هـنالك أناس فقراء كثيرون. وإذا لم نقم بإيقاع العقاب بسبب الجـريمة، فـإن المجتمع سيصبح منحلاً تماماً. إنه من المهم جداً أن نضع الأمـثلة عندما تُكسَر القواعد". يناقش الحاكم حسن السمعة الأمر مع منـصور الذي بدأ يتساءل عن جدوى هذا العمل برمته. فعندما يتأكد أن جـلال الـدين قد يواجه عقوبة سجن قد تصل إلى ست سنوات بسبب سرقته للبطاقات البريدية، فإنه يبدأ بالتفكير حول أطفال جلال الـدين، وحـول نظراتهم الجائعة، وملابسهم الرثّة. ويفكر في حياته الخاصـة، كم هي سهلة، فهو الذي يستطيع أن يُنفق من المال في يوم واحد ما تُنفقه عائلة هذا النجار في شهر بكامله.

وتحتل باقة ضخمة من الزهور الاصطناعية نصف مساحة الطاولة. وتلـك الأزهـار قـد علقت بها طبقة كثيفة من الغبار منذ أمد بعيد، ولكـنها مع ذلك تضفي إشراقة على الغرفة. فرجال البوليس في مركز ديـه خودايداد يحبون الألوان حسبما يبدو؛ فالجدران مطلية بالأخضر الحشيـشي، والمصباح أحمر؛ بل أحمر جداً. وعلى الجدار عُلقت صورة لـبطل الحـرب مسعود، مثلما هو الحال في سوى ذلك من المكاتب الرسمية في كابول.

"لا تنسَ أنه تحت حكم الطالبان كانت ستُقطع يده"، يقول كبير الحكـام مؤكداً. "لقد حصل مثل ذلك لأناس قد ارتكبوا جرائم أصغر مـن هذه الجريمة". ويروي الحاكم قصة امرأة أصبحت أماً أرملة عندما

تـوفي زوجها. "كان فقيراً جداً، وكان أصغر أبنائه بارد القدمين لعدم وجـود حـذاء لديه. وكان الطقس شتاءً وهو لا يستطيع الخروج إلى خـارج الباب. والولد الأكبر الذي لم يكد يصبح في سن المراهقة قام بـسرقة حذاء من أجل أخيه الصغير. وعندما أُلقي القبض عليه بالجرم المـشهود، فقـد تمّ قطع يده اليمنى. لقد كان في ذلك مبالغة شديدة" يعتقد الحاكم. "لكن هذا النجار قد أثبت عن نفسه أنه شخص رديء جـداً. لقـد ارتكـب السرقة عدة مرات. وإذا كنت تسرق لتطعم أطفالك، فإنك تسرق مرة واحدة"، يقول مبرراً.

ويقـوم الحـاكم الكـبير بإطلاع منصور على جميع الأشياء المصادرة المخزّنة في خزانة واقعة خلفه؛ فمن المطاوي، إلى سكاكين المطـبخ، إلى سكاكين الجيب، إلى السكاكين التي لها مقابض كبيرة للطعن، إلى المسدسات، إلى الكشافات الكهربائية، وحتى إلى مجموعة من ورق اللعب التي كانت قد صودرت. فالمقامرة من أجل كسب الفلوس يمكن أن تدينك بستة أشهر سجناً. "لقد تمّت مصادرة هذه المجموعة من ورق اللعب لأن اللاعب الخاسر كان قد طرح اللاعب الرابح أرضاً وقام بطعنه بهذه السكين. لقد كانا يشربان، ولهذا فإنه عوقب من أجل الطعن والشرب والمقامرة"، يتضاحك. "أما اللاعب الآخـر فقد أُطلق سراحه لأنه صار الآن معوّقاً بالكامل وله في تلك العقوبة ما يكفيه!".

"مـا هـي عقـوبة الشرب؟" يسأل منصور. وهو يعلم أنه وفقاً للـشريعة، فإن الشرب هو جريمة كبيرة ويعاقب عليها بعقوبة قاسية. فالقرآن الكريم يوصي بثمانين جلدة.

"كي أكون صادقاً معك، فإنني عادة ما أغض النظر عن مثل هذه الأشـياء. فعندما يكون هناك زواج، فإنني أقول لهم إن هذا بمثابة يوم

إجـازة، ولكـن يجب أن يتم كل شيء باعتدال، وأن يبقى في داخل النطاق العائلي"، يقول كبير الحكام.

"ولكن ماذا عن الزنى؟".

"إذا كانـا متـزوجين، فإنهمـا يُقـتلان رجماً. أما إذا كانا غير متـزوجين، فإن العقوبة هي مئة جلدة، ويجب عليهما أن يتزوجا. وإذا كـان أحدهما متزوجاً، وهو الرجل، والمرأة غير متزوجة، فإنه يتوجب عليه أن يتخذها لنفسه كزوجة ثانية. فإذا كانت هي متزوجة وهو غير متـزوج، فإنـه يـتوجب قتل المرأة ويجب جَلد الرجل وسجنه"، قال الحاكم. "ولكنني أنظر إلى هذه المسألة في بعض الأحيان بطريقة أخرى أيـضاً. فقـد تكون المرأة أرملة، وهي بحاجة إلى مال. عند ذلك فإنني أحاول مساعدتها فأقوم بوضعها على الطريق القويم من جديد".

"إنك تتكلم عن الساقطات، ولكن ماذا عن الأناس العاديين؟".

"مـرة كنا قد باغتنا رجلاً وامرأة في سيارة. وعند ذلك فإننا، أو بالأحـرى فـإن أهلهما، أجبروهما على الزواج"، يقول. "وكان ذلك تـصرفاً رحـوماً، ألا تـوافقني؟ فبعد كل شيء نحن لسنا مثل جماعة الطالـبان"، قال الحاكم. "علينا أن نتجنّب رجم الناس بالحجارة. فلقد عانى الأفغانيون بما فيه الكفاية".

* * *

ويغـادر منصور مركز الشرطة وهو في تفكير عميق. فلقد أعطاه الحـاكم ثلاثة أيام كحدّ أقصى. فهو لا يزال يستطيع فيها أن يسامح المـذنب، لكـن إذا تطاول الوقت أكثر من ذلك، فإنه يكون قد تأخر جداً. ولا يسمح مزاج منصور له بالعودة إلى المكتبة، لذلك فإنه يذهب إلى البـيت لتناول الغداء، وهذه حادثة نادرة جداً. ويرمي نفسه على البساط، ومن حسن حظ الجميع، يكون الطعام جاهزاً.

"اخلع حذاءك من قدميك"، تقول أمه.

"اغربـــي عن وجهي"، يجيب منصور.

"يا منصور، يجب عليك إطاعة أمك"، تتابع شريفة.

لكـــن منصوراً لا يجيبها بل يستلقي على الأرض ويرفع رجلاً في الهـــواء فـــوق أخـــرى ويبقي نعليه في قدميه. وتقفل أمه فمها وتسكت.

"عليـــنا أن نقرِّر ماذا سنفعل بشأن النجار"، يقول منصور. ثم يـــشعل سيجارة، فتبدأ أمه بالبكاء. ومنصور لا يشعل سيجارة مرة بحـــضور والده. ولكن ما إن يصبح والده خارج البيت حتى يأخذ راحـــته لـــيس بمجرد التدخين فقط، بل بإزعاج أمه بالتدخين قبل، وأثناء، وبعد الطعام. وتصبح الغرفة الصغيرة عابقة بالدخان. وتكون بيبـــي غول تشكو منذ مدة طويلة بسبب قلة تهذيبه مع أمه. ولكن في هذه المرة تغلبها شهوة التدخين، فتمدّ يدها إليه متمتمة، "أتعطيني سيجارة؟".

ويرين الصمت لثوانٍ قليلة. هل بدأت هذه الجدة بالتدخين؟

"ماما"، تنادي ليلى منتزعة السيجارة من يدها. لكن منصوراً يـــناولها سيجارة أخرى، فتغادر ليلى الغرفة محتجة. وتجلس بيبـــي غـــول تدخن في سعادة، وتضحك بهدوء. حتى إنها تتوقف عن هزّ جـــذعها إلى الأمـــام وإلى الوراء، وترفع سيجارتها عالياً في الهواء، مستنـــشقة دخانهـــا بعمق. "هكذا يمكنني أن أقلّل طعامي"، تقول بيبـــي غول مبررة.

"أطلق سراحه"، تقول بعد أن استمتعت بسيجارتها. "لقد نال ما يكفيه من العقوبة، ضربُ أبيه له، العار الذي لحقه، وفي كل حال، فإنه أرجع البطاقات البريدية".

"هـل رأيـتِ أطفالــه؟ كـيف سيتمكنون من تدبُّر أمرهم إذا حُـرموا مــن دخل والدهم؟" تقول شريفة داعمة رأي بيبــي غول.

"قـد نصبح مسؤولين عن موت هؤلاء الأطفال" تقول ليلى التي كانـت قـد عادت بعدما أطفأت والدها السيجارة. "ماذا إذا سقطوا مرضى و لم يتمكنوا من دفع أجرة الطبيب، عندها سوف يموتون بسببنا أو أنهـم قد يموتون من الجوع"، قالت. "وفي كل حال، فإن النجار قد يمـوت هـو الآخر في السجن. فكثيرون لا يستطيعون البقاء على قيد الحـياة مـدة ست سنوات في السجن، فهو مكان مليء بمرض السل، وبالكثير من الأمراض الأخرى".

"أظهرِ الرحمة"، قالت بيبـي غول.

ويهاتــف منـصور سلطان في باكستان مستخدماً هاتفه الخلوي الذي امتلكه حديثاً. ويسأل والده أن يسمح له بإطلاق سراح النجار. ويخيّم الصمت على الغرفة ويصغي الجميع إلى المحادثة.

ويـسمعون صـوت سلطان وهو يصيح من باكستان: "إنه يريد تـدمير تجارتي، وتدمير أسعاري، لقد أعطيته أجراً جيداً. و لم تكن من حاجة لديه إلى السرقة. إنه محتال منحرف. إنه مذنب ويجب استخراج الحقـيقة مـنه. لا أحد، بل أحد أبداً ينجو بفعلته بعدما يحاول تدمير تجارتي".

"لكنه قد يواجه حكماً يقضي بسجنه لستّ سنوات! وأطفاله قد يموتون عندما يكون قد خرج من السجن"، يصيح منصور من الجانب الثاني من الخط.

"إذا حُكم عليه بستين سنة، فإن ذلك لا يهمّني. إن عليه أن يعاني ويتعذب إلى أن يقول لنا إلى مَن قام ببيع تلك البطاقات".

"هذا شيء تستطيع قوله لأن معدتك مليئة"، يصرخ منصور. "إنني أشعر برغبة في البكاء عندما أفكر بهؤلاء الأطفال الهزيلين الذين هو والدهم. إن عائلته قد دُمِّرت".

"كيف تجرؤ على مناقضة أبيك!" يصيح سلطان عبر الهاتف. وكل واحد في الغرفة يعرف صوته، ويعرف أن وجهه عابق بالغضب، وأن جسمه بكامله لا بدّ من أن يكون الآن يرتجف. "أي نوع من الأبناء أنت؟ عليك أن تطيعني في كل شيء. كل شيء. ماذا دهاك؟ لماذا صرتَ وقحاً مع والدك؟".

ويفصح وجه منصور عن المعركة الداخلية التي يعانيها. فهو لم يفعل مرة أي شيء سوى ما يأمره به والده. وذلك في ما يتعلق بالأشياء التي يدري والده بها. ولم يكن مرة قد جابه والده جهراً؛ فهو بكل بساطة لا يجرؤ على استثارة غضب أبيه.

"حسناً"، يقول مُغلقاً الخط. ويرين الصمت فوق الرؤوس. وينطلق لسان منصور بالشتيمة.

"إن قلبه أقسى من الحجر"، تتنهّد شريفة. وتبقى صونيا ساكتة.

* * *

وفي كل صباح، كما في كل مساء، تأتي عائلة النجار. أحياناً تأتي جدته، وفي أحيان أخرى تأتي أمه، أو عمته، أو زوجته. ويكون واحد أو اثنان من الأطفال معهم دائماً. ويحصلون على الإجابة نفسها في كل مرة. سلطان هو الذي يقرِّر. وعندما يعود إلى البيت فإن كل شيء سيجد له حلاً. لكنهم يعرفون أن هذا الكلام ليس بصحيح؛ فسلطان كان قد أصدر حكمه بالإدانة.

وفي نهاية الأمر لم يعودوا يتحملون المزيد. ولم يعودوا يفتحون الباب، بل يجلسون بهدوء مدّعين أنهم غير موجودين في البيت. ويذهب

منــصور إلى مركـــز البوليس كي يطلب تمديد المهلة؛ فهو يريد انتظار عــودة أبــيه؛ وإنه سيتولى إقناعه بعد عودته. ولكن رئيس الحكام لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك. فالحُجرة التي تبلغ مساحتها عشر أقدام لا تــستطيع أن تــأوي المساجين لمدة تزيد عن أيام قليلة. ومرة ثانية يقومـــون بمطالبة النجار بالاعتراف بأنه قد أخذ من البطاقات أكثر مما صرح به من قبل، وبأن يخبرهم لمن قام ببيعها؛ لكنه يرفض. وعليه، فإن الأصــفاد توضـــع حول معصمي جلال الدين، ويتمّ اقتياده إلى خارج الكوخ الطيني.

وحــيث إن المركز المحلّي للشرطة ليس فيه سيارة، فيقع على عاتــق منــصور مهمة القيادة بالنجار إلى محطة البوليس المركزية في كابول.

وفي خــارج المحطة يكون والد النجار وابنه وجدته. وعندما يصل منصور يقتربون منه في تردد. ومنصور يكره كل لحظة من هذا اللقاء. ففي غياب سلطان عليه أن يتصرف كقاضٍ متحجر الفؤاد.

"إنــي لا أفعــل سوى ما طلبه والدي مني". ينسحب من بينهم ويــضع الــنظارة الشمسية فوق أنفه ويجلس في السيارة. تعود الجدة والابن الصغير إلى البيت. ويركب الأب دراجته المحطمة ويلحق بسيارة منــصور. إنه لن يستسلم ويريد أن يلحق بابنه قدر ما يستطيع ذلك. ويــرى مَن في السيارة شكل الرجل العجوز الذي يقود الدراجة وهو يختفي وراءهم عن الأنظار شيئاً فشيئاً.

ويقــود منــصور سيارته بسرعة أبطأ من المعتاد. فقد تمر سنوات كثيرة قبل أن يرى النجار تلك الشوارع مرة أخرى.

ويــصلون إلى محطـــة البولـــيس المركزية. وخلال فترة حكم الطالبان كانت هذه الأبنية هي أكثر المباني مدعاة للمقت في كابول.

فهـــنا عند وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المعروفة بوزارة الأخلاق، كان البوليس الديني يتخذ مركزاً رئيسياً له. كان الرجال حلـيقو الذقون أو الذين تكون لحاهم وسراويلهم شديدة القِصَر، وكـذلك النساء اللواتي يخرجن إلى الشوارع مع الرجال من سوى أقـارهن، كذلك النسوة اللواتي يخرجن بمفردهن، أو النساء اللواتي يتـبرجن تحت البوركا، كانوا جميعاً يؤتى بهم إلى هذا المكان. ولمدة قـد تطول أسابيع، يتعرضون للإهانة في الأقبية قبل أن يجري نقلهم إلى سـجون أخـرى، أو قـبل أن يخلى سبيلهم. وعندما غادرت الطالـبان، فإن غرف الاعتقال فُتحت وجرى تحرير السجناء. وقد وُجـدت في المكان كابلات وخيزرانات كانت تستعمل كأدوات تعذيب. كان يجري جلد الرجال وهم عراة؛ أما النساء فيسمح لهنَّ بطرح وشاح حول أجسادهن أثناء تعذيبهن. وقبل الطالبان جاءت الاسـتخبارات السوفياتية الظالمة، ثمْ جاءت قوة البوليس الفوضوية الـتابعة للمجاهدين لتحتل المبنى. ويرتقي النجار الأدراج الهائلة إلى الطابـق الخامس. ويحاول أن يسير إلى جانب منصور وأن ينظر إليه باسـتعطاف. ويبدو وكأن عينيه قد باتتا أكثر كِبراً وجحوظاً أثناء فتـرة احـتجازه في الأسـبوع الماضي. فعيناه المسترحمتان تبدوان وكأنهمـا علـى وشك الخروج من وجهه. سامحني، سامحني. سوف أخدمك بالمجان طيلة حياتي. سامحني.

لكن منصوراً يُبقي نظره متجهاً إلى الأمام. وعليه ألاّ يتراجع الآن. فلسلطان قد أصدر حكمه وهو لا يقوى على مناقضة سلطان. فهو قد يُحـرم من الميراث ويُطرد من البيت. وهو بات يشعر من ذي قبل أن أخـاه قـد أصبـح هو المفضّل عند سلطان. فإقبال يستطيع أن يتعلم المحاسـبة، وإقبال تلقّى وعداً بدراجة هوائية. فإذا عارضه منصور الآن

فـإن سلطان قد يحلّ جميع الأواصر. ومهما يكن شعوره تجاه النجار، فإنه لا يستطيع الخوض في هذه المجازفة.

وينتظرون حصول الاستنطاق وتدوين المحضر. فالنظام يقضي بأن المـشكو منه يُسجن إلى أن يتبين ذنبه أو براءته. وكل شخص يستطيع أن يشكو أيَّ شخص آخر وأن يتسبب له بالسجن.

ويعـرض منصور قضيته أمام المحقق، ويُقعي النجار على الأرض، وتـبدو إبهاما قدميه الطويلتان المعوجتان، وأظافره المنتهية بحوافّ سميكة سوداء. أما صُدَيرته وثوبه فهما عبارة عن مِزقٍ تتدلّى فوق ظهره. وأما سرواله فيتدلى من وركيه.

ويكتب المحقق الجالس خلف طاولته الإفادتين بعناية. وهو يكتب بخط أنيق ويستعمل ورق الكربون لاستخراج نسخة.

"مـا الـذي يجعلـك شديد الحرص على البطاقات البريدية من أفغانـستان؟" يضحك الشرطي ويجد المسألة مثيرة للاستغراب. ولكن قـبل أن يتمكن النجار من الإجابة عن السؤال فإنه يتابع قوله: "قل لي الآن لمن قمت ببيعها؛ إننا جميعاً نعرف أنك لم تقم بسرقتها من أجل أن تقوم بإرسالها إلى أقاربك".

"لقد أخذت مئتين فقط، وكان رسول قط أعطاني بعضها"، يبدأ النجار بالكلام بتردّد.

"إن رسـول لم يُعطك أي بطاقات بريدية، أنت تكذب"، يقول منصور.

"لـن تنسى أن هذه الغرفة كانت مكاناً أعطيت لك فيه الفرصة كي تقـول الحقـيقة"، يقول الشرطي، ويتراجع جلال الدين ويفرقع براجم أصابعه ويزفر بتنهيدة راحة عندما يستمر الشرطي في الاستماع إلى منـصور حول متى، وأين، وكيف، حصلت المسألة برمتها. وخلف

ظهـــر المـــستنطق، ومن خلال زجاج الشباك، بدا أحد المرتفعات المـــشرفة علـــى كابول واضحاً. بيوت صغيرة متشبثة بحافة الجبل. ممـــرات تتلوى من أعلى الجبل إلى أسفله. ومن خلال الشباك نفسه يستطيع النجار أن يرى الناس؛ إنهم يبدون له أشبه بالنمال في سعي إلى الأعلى والأسفل. والبيوت مبنية من مواد مفكّكة مما تقع عليه يد الإنسان في كابول التي مزقتها الحرب: فمن ألواح الحديد المثلّمة، إلى قطع الخيش، إلى بعض البلاستيك، إلى بعض قطع القرميد، إلى قطع متناثرة من الخرائب.

وفجـــأة يقـــوم المحقق ويُقعي بجانبه. "أعرف أن لديك أطفالاً جـــائعين، كمـــا أعـــرف أنك لست مجرماً. وإنني أعطيك الفرصة الأخيرة، فخذها. إذا أخبرتني لمن قمت ببيع البطاقات، فإنني سوف أخلي سبيلك. فإذا لم تقل لي، فسوف أصدر عليك حكماً بالسجن لبضع سنوات".

ويفقـــد منصور اهتمامه بالموضوع. إذ إن هذه ربما هي المرة المئة التي يطرح فيها هذا السؤال على النجار طالباً منه الاعتراف لمن قام ببيع هـــذه البطاقات. فلربما إنه يقول الحقيقة. ولربما إنه لم يبع أيًا منها لأي كان. وينظر منصور إلى ساعته ويتثاءب.

وفجأة يخرج الاسم من بين شفتي جلال الدين فيقول بهدوء يكاد لا يكون مسموعاً.

ويثب منصور.

فالاســـم الذي سمّاه جلال الدين يملك كشكاً في السوق يبيع فيه روزنامات، وأفلاماً، وبطاقات؛ بطاقات للاحتفالات الدينية، ولمناسبات الـــزواج، والخطـــوبة، والميلاد، وبطاقات بريدية تحمل شعارات حول أفغانـــستان. ولقد كان الرجل دائماً يشتري تلك البطاقات من متجر

سلطان، لكنه لم يعد إلى شراء مثلها منذ بعض الوقت. ويتذكره منصور جيداً لأنه كان دائم التشكّي حول أسعارها.

فيبدو الأمر كما لو أن فلّينة كانت قد انفلتت؛ لكن جلال الدين كان يرتجف بينما هو يتكلم.

"لقد جاءني بعد ظهر أحد الأيام فيما كنت أغادر عملي. فتكلم معـي وسألني عمّا إذا كنت في حاجة إلى المال. وبالطبع، فإنني كنت بحاجـة إلى المـال. ثم سألني عمّا إذا كنت أستطيع أن أحصل له على بعـض البطاقات البريدية. وفي بداية الأمر رفضت، لكنه عاد وأخبرني عن النقود التي يمكن لي أن أحصل عليها إذا ما جلبتها إليه. وفكرت في أمـر أطفـالي وبـيتي. فأنا لست قادراً على إطعام الأطفال من راتب الـنجار. وفكرت في أمر زوجتي التي بدأت بفقدان أسنانها رغم أنها لا تـزال في الثلاثين من عمرها. وفكرت في النظرات المعنفة التي تتجه إليّ في البيت لأنني لست قادراً على كسب ما يكفي من المال. وفكرت في الملابس والأحذية التي لا يمكن لي شراؤها لأطفالي، وفي الطبيب الذي لا نـستطيع تـأمين أجرته، وفي الطعام الرديء الذي نتناوله. وهكذا، فـإنني قلـت لنفسي إذا استطعت أن أحصل على القليل منها بينما أنا أعمـل في المكتبة، فإنني قد أستطيع حلّ بعض مشاكلي. فسلطان لن ينتـبه إلى ذلـك. فهو لديه الكثير من البطاقات البريدية وكذلك لديه الكثير من النقود. ثم أخذت بعض البطاقات".

"علينـا أن نذهب إلى هناك لمصادرة الدليل"، يقول الشرطي. يـنهض ويأمر النجار، ومنصوراً ورجل البوليس الآخر بأن يذهبوا معـه. ويقـودون الـسيارة إلى السوق، وإلى الكشك الذي يبيع البطاقات البريدية. ويكون هنالك ولد صغير يقوم بالعمل من خلف فتحة صغيرة.

"أيـن هـو محمود؟" يسأله رجل البوليس. محمود يتناول غداءه. يكـون البولـيس في ثياب مدنية، فيكشف للصبـي عن البطاقة التي يعـرّف بها عن نفسه ويقول له إنه يريد أن ينظر إلى البطاقات البريدية. ويسمح لهم الولد بالدخول إلى داخل الكشك، وفي منطقة ضيقة واقعة بـين الجـدار، والرفوف المتراصة، وبين النضد. يقوم منصور ورجل البوليس بنـزع البطاقات البريدية عن الرفوف؛ وهي البطاقات نفسها الـتي كان سلطان قد قام بطباعتها وبحشوها في كيس. وهي قد يصل عـددها إلى عـدة آلاف. ولكن أيها هي التي اشتراها محمود بصورة قانونـية وأيها التي اشتراها من جلال الدين، يبقى هذا من الأمور التي يـصعب الجـزم بهـا. ويأخذون الولد والبطاقات البريدية إلى مركز البوليس.

ويُترك شرطي قرب الكشك بانتظار وصول محمود. أما الكشك نفـسه فيتمّ إقفاله ووضع الأختام عليه. ولن يكون باستطاعة محمود أن يـبيع المزيد من بطاقات الشكر خلال هذا اليوم، كما لن يستطيع أن يبيع صور الأبطال والمحاربين أيضاً للسبب نفسه.

وعندما يصل محمود في نهاية الأمر إلى مركز البوليس ورائحته لا تـزال عابقة بالكباب، فإن الاستنطاقات تتجدّد من جديد. وفي بداية الأمـر ينكر محمود أي معرفة له بالنجار. ويدّعي أنه اشترى كل شيء بطريقة مشروعة من سلطان ويونس وإقبال ومنصور. ثم يبدل تكتيكاته ويقول: نعم، في أحد الأيام كان النجار قد اتصل به لكنه لم يشترِ منه أي شيء أبداً.

ويكـون على صاحب الكشك هو الآخر أن يمضي ليلته موقوفاً. أمـا منصور فيُسمح له بالخروج. وفي الممشى يكون والد النجار وعمه وابن أخته وابنه منتظرين. يقتربون منه، ويسيرون خلفه ويراقبون خوفه

وارتعابه عندما يحث خطاه إلى الخارج. فهو لم يعد يتحمّل المزيد. لقد اعتـرف جلال الدين، وهذا أمر لا بدّ له من أن يسرّ سلطان، فالمسألة قـد تمّ حلها. والآن بعد أن تمّ البرهان على إعادة البيع، فإن إجراءات الدعوى الجزائية صار يمكنها أن تبدأ.

ويتذكّر ما قاله المستنطق العسكري: "هذه هي فرصتك الأخيرة. فإذا اعترفت سمحتُ لك بالعودة إلى أسرتك".

ويشعر منصور بعدم الارتياح. فيندفع إلى الخارج. وتكون أفكاره متوقفة عند كلمات سلطان الأخيرة قبل أن يغادر. "لقد جازفتُ بحياتي فيما أنا أبني تجارتي. لقد تعرّضت للسجن والضرب. لقد أضنيت نفسي لأعمل شيئاً ما لأفغانستان، فيأتي تجار حقير ويحاول تخريب كل تعبـي في الحـياة. لا بدّ له من أن ينال عقابه. لا تكن متساهلاً يا منصور، لا تبدأ بالتراخي".

وفي كـوخ ترابـي متهدّم في ديه خودايداد تجلس امرأة لتحدّق إلى الهـواء. فأطفالهـا الصغار يبكون لأن ليس لديها ما تطعمهم إياه، وهـي في انـتظار عودة جدهم من المدينة. فلعله يحضر معه شيئاً لهم. ويـندفع الصغار إليه لدى دخوله من البوابة فوق دراجته. لكنه يدخل بـيدين فارغـتين. أما البيت ففارغ أيضاً. ويتوقفون عندما يشاهدون وجهـه القاتم. وينصتون قليلاً قبل أن يشرعوا بالبكاء والتعلق به. "أين هو البابا، متى يعود البابا إلينا؟".

والدي أسامة

يرفع تجمير المصحف أمام جبهته، يقبّله، ويقرأ آيات منه عشوائياً. ثم يقبّل المصحف مرة أخرى، يضعه في جيبه، ويحدّق من الشباك. فالسيارة على الطريق منطلقة إلى خارج كابول. إن وجهتها هي نحو الشرق، نحو الحدود المضطربة أبداً بين أفغانستان وباكستان، حيث لا يزال هناك من يؤيد الطالبان والقاعدة، وحيث هنالك، وفقاً لرواية الأميركيين، إرهابيون يختبئون في المنحدرات الجبلية الصخرية التي يصعب الوصول إليها. فهنا يقوم الأميركيون بتمشيط المنحدر الجبلي، وباستجواب السكان المحليين، وبنسف الكهوف، وبالتفتيش عن مخابئ الأسلحة، وباكتشاف أماكن الاختباء، وبقصف وقتل القليل من المدنيين، وذلك كله خلال مطاردتهم للإرهابيين. أما الغنيمة الكبرى التي يحلمون بها فهي: أسامة بن لادن.

هذه هي المنطقة التي تجري فيها الآن العملية العسكرية التي أطلق عليها تسمية عملية "أناكوندا"، وهي هجوم الربيع الرئيسي ضد القاعدة، كان ذلك عندما قامت القوات الخاصة الدولية تحت قيادة الولايات المتحدة بشن معارك شرسة ضد ما تبقّى من أتباع أسامة بن لادن في أفغانستان. إذ يشاع أن العديد من جنود القاعدة لا يزالون

مختبئين في تلك المناطق الحدودية، حيث لا يزال أمراء الحرب لا يقرون بالسلطة المركزية في كابول، ولا يزالون يحكمون مناطقهم وفقاً لشريعة القبائل. إذ من الصعب على السلطات المركزية أن تدخل إلى القرى التي تقـع في الحـزام الحدودي الذي تقطنه غالبية من البشتون، على ضفتي الحـدود، وكـذلك يـصعب الأمر على الأميركيين. ويعتقد خبراء الاستخبارات بأن أسامة بن لادن، وقائد الطالبان الملاّ عمر، لا يزالان على قيد الحياة في أفغانستان، وأن هذا الإقليم هو المكان الذي يختبئان فيه.

وتجمـير يحاول العثور عليهما. أو على الأقل يحاول العثور على شـخص ما، يعرف أحداً كان قد رآهما، أو يعتقد أنه قد رأى شخصاً ما، يشبه أحدهما. فبالمقارنة مع رفيقه الذي يسافر معه، فإن تجمير يأمل ألاّ يعثـرا على شيء. فتجمير يكره المخاطر. ويكره السفر إلى مناطق القبائل، حيث يمكن للشر أن ينشب في أي لحظة. وفي صندوق السيارة ثمة سترتان مضادتان للرصاص، وخوذتان جاهزتان للعمل.

"ما الذي تقوم بقراءته يا تجمير؟".

"إنه القرآن الكريم".

"نعـم أعرف ذلك، لكن أتقرأ شيئاً معيناً بالذات؟ أعني هل تقرأ آية تتعلق بالسفر، أو ما شابه ذلك؟".

"لا، إنني لا أفتش فيه مرة عن شيء محدد بعينه؛ إنني أكتفي بفتح الكـتاب عشوائياً. أما الآن فإنني وقعت على آية تتحدث عن أن من يُطع الله ورسوله، فسيثيبه الله تعالى بإدخاله الجنة، حيث هناك جداول رقـراقة، بينما من أدار ظهره، فسيعاقبه الله عقاباً أليماً. وإنني ألجأ إلى قراءة القرآن الكريم عندما أكون حزيناً أو خائفاً".

"آه، حـسناً"، يقـول بوب ويسند رأسه إلى زجاج الشباك. إنه ينظـر إلى شوارع كابول القذرة، من خلال عينين نصف مغمضتين.

ويقـــودان ســـيارتهما بعكس الشمس، فيضطر بوب إلى إغلاق عينيه تحاشياً لوهج الأشعة.

* * *

ويفكر تجمير في هذه المهمة. لقد أعطيت له وظيفة ترجمان في مجلة أميركية كبيرة. وفي السابق وتحت حكم الطالبان، فإنه كان يعمل لدى مـــنظمة خيريـــة. فلقد كان مسؤولاً عن توزيع الأرز والطحين على الفقراء، وعندما غادر الأجانب في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فإن المسؤولية قد بقيت له وحده. ولكن الطالبان سدّوا عليه جميع جهوده، فـــتوقفت أعمـــال التوزيع. وفي يوم من الأيام فجرت قنبلة مستودع الـــتوزيع. وشكر تجمير الله لأنه كان قد أوقف أعمال التسليم، إذ ما الـــذي كان سيحصل لو كان المكان مليئاً بالنساء والأطفال المستميتين في طابور الطعام؟

لكنه يشعر الآن وكان أجيالاً مضت منذ أن كان يعمل في أعمال الإغاثـــة الطارئـــة. فعـــندما رجع الصحافيون إلى كابول، فإن المجلة الأميركـــية قـــد وقع اختيارها عليه. وقد عرضوا عليه راتباً يساوي في الـــيوم ما يساويه راتبه المعتاد في أسبوعين. وفكّر في أمر عائلته الفقيرة، فتـــرك العمل في حقل الإعانة الاجتماعية، وبدأ العمل في الترجمة الفنية والإنشائية إلى اللغة الإنكليزية.

وتجمـــير هو المعيل الوحيد لعائلته التي هي عائلة صغيرة إذا قيست بقـــياس العـــائلات الأفغانية. وهو يعيش مع أمه، وأخته غير الشقيقة، وزوجـــته، وابنته باهار التي هي في السنة الأولى من عمرها. وهم يعيشون في شقة صغيرة في مايكروريون، بالقرب من سلطان وعائلته. وأمه هي فيروزة التي هي أكبر أخوات سلطان، وهي التي كانت قد زُوِّجت من أجل تأمين مال من مهرها لتعليم الأخير.

وفيروزة هي إحدى أكثر الأمهات صرامة وتشدداً. فمنذ أن كان تحمير ولداً صغيراً، فإنه قلّما سُمح له باللعب خارج البيت مع غيره من الأطفال. فكان عليه أن يلعب بهدوء، ومن دون ضجة في الشقة الصغيرة تحت العين الرقيبة لأمه فيروزة. وعندما كبر قليلاً كانت تلزمه بأداء واجباته المدرسية. ولا تسمح له بالتأخر في العودة من مدرسته، بل إن عليه أن يعود منها إلى البيت مباشرة، وألاّ يزور بيت أحد من أصحابه، أو أن يُحضر أحداً من أصحابه إلى البيت للعب. ولم يحدث لتحمير أن احتجّ على ذلك مرة؛ إذ كانت مجادلة أمه أمراً مستحيلاً، عاقبته الضرب. وضربات فيروزة موجعة.

"إنها أسوأ من أسامة بن لادن"، كان تحمير يقول لبوب: كلما أراد أن يختلق أعذاراً لتأخره في الوصول إلى العمل، أو للخروج منه في وقت مبكر. وأصدقاؤه الأميركيون الجدد يسمعون روايات رهيبة عن أمه "أسامة" هذه. فهم يتخيّلونها وكأنها نوع من النساء السُّليطات، تختبئ وراء بوركتها. لكنهم عندما يلتقون بها لدى قيامهم بزيارة تحمير فإنهم يجدون امرأة صغيرة الحجم، داكنة الوجه، ذات عينين باحثتين، نصف مفتوحتين. وثمة قلادة ذهبية كبيرة عليها آيات قرآنية تتدلّى حول عنقها. كانت قد اشترت تلك القلادة من راتب تحمير الأول الذي تقاضاه من الأميركيين. وفيروزة تعرف بالضبط مقدار راتب ولدها، وهو يقوم بتسليم كل شيء إليها. وهي تعطيه شيئاً من الخرجية في المقابل. ويقوم تحمير بإطلاع ضيوفه على جميع الآثار الباقية على الجدران من الأحذية وسواها من الأشياء التي تقوم أمه برميه بها. وهو يضحك الآن؛ فالطاغية فيروزة قد صارت الآن رواية هزلية.

أما الرغبة الكاوية عند فيروزة فقد كانت تتمثل في رغبتها بأن يصبح تحمير شخصاً ما، له أهميته. وفي كل يوم تستطيع فيه أن توفر

بعض النقود، كانت تقوم بتسجيله في دورة دراسية أو في أخرى: فمن دورات اللغة الإنكليزية، إلى دورات الرياضيات الاستثنائية، إلى دورات استخدام الكمبيوتر. فالمرأة الأمية التي أرغمت على الزواج لتأمين النقود لأهلها، يجب أن تتحوّل إلى أم جليلة محترمة من خلال ولدها.

ولم يكن تجمير ليرى سوى القليل من اهتمام والده. فلقد كان رجلاً لطيفاً لكنه ضعيف الشخصية ويعاني من صحة سيئة. وفي أيامه القديمة الجيدة، كان يرتحل كرجل مبيعات ما بين الهند وباكستان. وكان يعود من رحلاته غانماً بالمال أحياناً، وخاسراً في مرات أخرى.

وفيروزة قد تضرب ولدها تجمير، لكنها لم تضرب زوجها مرة، رغم عدم الشك في مقدرتها عليه. ومع مرور السنين تحولت فيروزة إلى امرأة ثدياء، عامرة الصدر، مستديرة الجسم كأنها كرة تمشي، وتضع نظارة سميكة، تتوازن فوق أرنبة أنفها أو تتدلى من خيط حول رقبتها. أما زوجها بالمقابل، فلقد كان رمادي اللون، هزيلاً، كما كان ضعيفاً ومُنهكاً وكأنه غصن يابس. وفيما الزوج يذوي ويتضاءل، فإن فيروزة تسلمت دوره في رئاسة العائلة.

ولم تُرزق فيروزة بعد تجمير بأي طفل جديد، لكنها لم تفقد الأمل مرة بإنجاب المزيد من الأطفال. وبعد أن يئست من تكرار تجربة الأمومة، فإنها ذهبت إلى أحد المياتم في كابول. وهناك وجدت كِشمِش التي كانت عائلتها قد تخلّت عنها قرب عتبة الميتم، وقد وُجدت ملفوفة بغطاء وسادة قذر. لكن فيروزة تبنّتها، وقامت بتربيتها وكأنها أخت لولدها تجمير. وفي الوقت الذي هو فيه تجمير على شبه شديد بأمه فيروزة - فالوجه المستدير نفسه، وكذلك الكرش المكوّرة، بالإضافة إلى المشية التي تشبه الكَرج - فإن كشمش كانت مختلفة.

فكشمش فتاة صغيرة متوترة، صعبة المراس، وهي نحيلة كالعصا. وجلـدها أكثـر سمرة بكثير عن سمرة بقية أفراد العائلة. فكشمش لها ملامـح جامحة، ثائرة تحيط بها، كما لو أن الحياة في داخل رأسها هي أكثر إثارة من العالم الحقيقي الخارجي. فعند اللقاءات العائلية الكبيرة، ولخيـبة أمل فيروزة، فإن كشمش تجري وتركض في الجوار مثل مهرة مرحة. وبينما اعتاد تجمير إطاعة رغبات والدته عندما كان لا يزال ولداً صغيراً، فإن كشمش توسّخ نفسها دائماً، وتكون دائماً شعثاء، ويغطي جلـدها البثور، والخدوش. لكنها عندما تكون في مزاج هادئ فإن لا أحـد يمكنه أن يكون متفانياً وباراً أكثر منها. فلا أحد يعطي أمه مثل تلك القبلات الحنونة، والعناقات القوية. وأينما شرّقت فيروزة أو غرّبت تكون كشمش في أثرها، مثل ظل نحيل في أثر أمها المتينة.

ومـثل كل الأطفال، تعلمت كشمش بسرعة الأشياء عن طالبان. ومرة تعرضت كشمش وصديقة لها، للضرب على يد عنصر من الطالبان، علـى بـيت درج. فلقد كانتا تلعبان مع ابنه الذي سقط وتسبّب لنفسه بكـثير مـن الأذى. فما كان من الأب سوى أن أمسك بهما معاً وانهال عليهما ضرباً بالعصا. ولم تلعبا بعد ذلك مع صبـي. فالطالبان هم أولئك الـناس الـذين لا يـسمحون لهـا بالذهاب إلى المدرسة مع الصبيان في مايكـرورايون؛ وهم أيضاً الناس الذين حرّموا الغناء والتصفيق، وهم الذين مـنعوا الـناس من الرقص. والطالبان هم الناس الذين منعوها من اللعب خـارج البـيت بعرائسها. فالعرائس، ودمى الحيوانات المكسوة بالفرو، ممـنوعة لأنهـا تشبه المخلوقات الحية. وعندما يقوم البوليس الديني بتفتيش بيوت الناس، فإنه كان يحطم أجهزة التلفزة وآلات التسجيل، وعناصره قد يـصادرون أيضاً دمى الأطفال إذا وجدوها. فهم ينـزعون اذرع الدمى ورؤوسها ويحطمونها تحت نعالهم أمام أعين الأطفال الذاهلة.

وعـــندما أخبرت فيروزة كشمش أن الطالبان قد هربوا، فإن أول شـــيء قامت بعمله هو حملُ دميتها المفضلة لديها إلى خارج البيت كي تجعلـــها تـــرى الدنيا. أما تجمير فقد تخلّص من لحيته. وأما فيروزة فقد نبـــشت آلة تسجيل قديمة علاها الغبار وبدأت تلفُّ حول الشقة وهي ترقص وتغني قائلة: "يحق لنا الآن أن نعوِّض عن خمس سنوات ضائعة".

ومـــا عـــادت فيروزة تأخذ على نفسها أمر الاهتمام بأي أطفال آخرين. إذ لم تكد تتبنّى كشمش حتى اشتعلت الحرب الأهلية، فهربت إلى باكستان مع عائلة أخيها سلطان. وعندما عادت من حياة اللجوء، كـــان الـــوقت قد حان للتفتيش عن زوجة لابنها تجمير، لا لكي تهتم بالمزيد من الأطفال؛ البنات اللواتي تخلّى عنهن الأهل في المستشفيات.

ومـــثل كل شيء آخر في حياة تجمير، فإن العثور على زوجة له كـــان أيضاً امتيازاً من امتيازات أمه. وكان تجمير على علاقة حب مع فـــتاة ســـبق له أن لقيها في صف من صفوف تعلّم اللغة الإنكليزية في باكـــستان. لقد كانا أشبه بحبيبين رغم أنهما لم يتلامسا. فقلما انفردا لوحدهما معاً، لكنهما كانا حبيبين مع كل ذلك. وقد كتب كل منهما إلى الآخر رسائل حب. ولم يتجرأ تجمير مرة على إطلاع والدته فيروزة علـــى أمر هذه الفتاة. لكنه كان يحلم بالزواج منها. لقد كانت قريبة لـــسعود، بطل الحرب، وقد عرف تجمير أن أمه قد تخشى المتاعب التي قد تنتج عن هذه القرابة. ولكن كائناً من كانت فتاة قلبه، فإن تجمير لم يكـــن ليجرؤ على الإفضاء لأمه عن افتتانه بها. لقد رُبـــي على قاعدة عدم السؤال عن أي شيء؛ فهو لم يتحدث مرة مع فيروزة عن المشاعر. فلقد شعر أن خضوعه لأمه هو تعبير عن احترامه لها.

"لقد وجدتُ الفتاة التي أريدكَ أن تتزوجها"، قالت له فيروزة في أحد الأيام.

"أوه"، قال تجمير بحلقٍ منقبض، لكن كلمة احتجاج واحدة لم تفلت من لسانه. لقد عرف أنه قد بات عليه أن يكتب رسالة إلى فتاة أحلامه يقول لها فيها إن كل شيء قد انتهى.

"ومن هي؟" سألها.

"إنها ابنة عم لكَ من الدرجة البعيدة، إنها خديجة التي لم ترها منذ كنت لا تزال شديد الصغر. وهي فتاة ذكية ونشيطة وتنتمي إلى عائلة جيدة".

ولقد اكتفى تجمير بالإيماء برأسه بالموافقة. وبعد شهرين من ذلك تقابل مع خديجة للمرة الأولى، في حفلة خطوبة. لقد جلس كلٌ منهما بقرب الآخر طيلة مدة الحفلة دون أن يكلم أحدهما الآخر بكلمة. 'قد أتمكن يوماً من محبتها'، قال لنفسه.

وخديجة تبدو أشبه بمغنية جاز فرنسية آتية من عشرينيات القرن العشرين. إذ لها شعر أسود موّاج، مفروق عند أحد الجانبين ومجموم جمّة مستقيمة عند مستوى الكتفين، كما أن لها بشرة بيضاء ناعمة، وتضع ماكياجاً مناسباً للأعين السوداء، وتلوّن شفتيها بلون أحمر. وخداها أسيلان، وشفتاها منفرجتان، وهي تبدو كما لو أنها في جلسة دائمة أمام رسام. لكن وفقاً لمقاييس الجمال الأفغانية، فإنها لا تحسب من بين ذوات الجمال الفائق؛ فهي نحيفة جداً. أما الفتاة الأفغانية مثالية الجمال، فهي الفتاة الكاعب المستديرة في كل شيء: الخدان، والردفان، والبطن.

"إنني أحبها الآن"، قال تجمير. كانا يقاربان غارديس، عندما انتهى تجمير من رواية قصة حياته كلها للصحافي الأميركي.

"واو"، يقول له بوب. "يا لها من حكاية؛ وهكذا، فإنك تحب الآن زوجتك حقاً؟ وماذا عن الفتاة الأخرى؟".

لم يكن بجمير على أدنى علم بما قد حصل مع الفتاة الأخرى. وهو ما عاد فكّر في أمرها حتى. فإنه الآن يعيش من أجل عائلته الخاصة الصغيرة. فمنذ عام مضى كان قد رزق هو وخديجة بابنة.

"كان أكثر ما تخشاه خديجة هو أن تلد مولوداً أنثى"، يقول مخاطباً بوب. "فخديجة هي دائماً في خوف من أمرها من حدوث حدث ما. وقد تجسّد خوفها هذه المرة بإنجابها لطفلة. وكنتُ قد قلتُ لها، كما قلت للجميع، بأنني أريد ابنة. فلا يستطيع أحد أن يقول كم أنا حزين، لأنني بعد كل شيء قد حصلت على ما كنت قد تمنيت، أما إذا جاءنا صبي، فلن يقول لي أحد شيئاً لأن كل واحد سيكون مسروراً في كل حال".

"هـم م م م"، يقول بوب وهو يحاول أن يفهم المنطق الذي يقع خلف كل ذلك.

"إن خديجة تقلق الآن من ألاّ تستطيع أن تحبل مرة أخرى، لأننا نحاول الإنجاب لكن لا شيء يحدث. وهكذا، فإنني أتابع القول لها إن طفلاً واحداً يكفينا. وإن الاكتفاء بطفل واحد أمر جيد. ففي الغرب يكتفي أناس كثيرون بطفل واحد. وهكذا، فإننا إذا لم نرزق بأي طفل جديد، فإننا سنقول إننا لم نرد إنجاب المزيد من الأطفال، وإذا رزقنا بالمزيد، فعندها سيكون كل شخص مسروراً سعيداً في كل حال".

"هم م م م".

يتوقفان في غارديس لشراء ما يأكلانه. فيشتريان علبة من سجائر هاي لايت بسعر خمسة عشر سنتاً لكل باكيت، ورطلين من الخيار، وعشرين بيضة، وبعض الخبز. وكانا يقومان بتقشير الخيار وكسر البيض عندما نادى بوب فجأة "توقف!".

فـــإلى جانب الطريق، جلس عشرون رجلاً في دائرة، فيما بنادق الكلاشينكوف العائدة لهم ملقاة على الأرض، كل بندقية أمام صاحبها الذي يتمنطق بأحزمة الرصاص على صدره.

"هؤلاء هم رجال بادشا خان"، يصرخ بوب. "أوقف السيارة".

يمـــسك بوب بتحمير ويمشيان نحو الرجال. ويكون بادشا خان جالـــساً في وســـط رجاله: إنه أكبر أمراء الحرب في المناطق الشرقية، وأكثر المجاهرين بالعداوة لحامد كارضاي.

فـــبعد هروب طالبان، تمّ تعيين بادشا خان حاكماً على مقاطعة باكتـــيا، المعروفة بأنها إحدى أكثر مناطق أفغانستان عناداً واستعصاء. وكحـــاكم لمنطقة لا يزال فيها تأييد لشبكة القاعدة، فإن بادشا خان صـــار رجلاً شديد الأهمية بالنسبة إلى الاستخبارات الأميركية. كانوا يعـــتمدون على التعاون الميداني، ولم يكن أحد أمراء الحرب في نظرهم أفضل من الآخر أو أسوأ منه. وكانت مهمة بادشا خان إخراج جنود القاعدة، واستدراجهم من مكامنهم. ثم لا يكون عليه بعد ذلك سوى إعلام الأميركيين. ومن أجل هذه الغاية، فإنهم قد جهّزوه بهاتف يعمل عـــبر الأقمـــار الصناعية، هاتف كان يقوم باستعماله على نحو متكرر. ولقـــد استمر في الاتصال وإخبار الأميركيين عن تحركات القاعدة في المنطقة. أما الأميركيون فلا يكون منهم سوى استعمال قوة النيران ضد قـــرية هنا وقرية هناك، وضد زعماء القبائل الذين هم حتى في طريقهم إلى حـــضور حفل تنصيب حامد كارضاي، وعلى القليل من حفلات الـــزفاف، وعلـــى مجموعة من الرجال الذين يجتمعون في بيت، وعلى حلفـــاء أميركا بالذات. ولم يكن أحد هؤلاء على أي علاقة مع تنظيم القاعـــدة، لكنهم جميعاً يشتركون في شيء واحد؛ عداوتهم مع بادشا خان. وهكذا ثارت الاحتجاجات المحلية ضد هذا الحاكم الجموح الذي

صارت قاذفات الـ B-52، ومقاتلات الـ F-16، فجأة موضوعة في خدمته لتسوية ضغائنه القبلية المحلية، وقد زادت الاحتجاجات على هذا الوضع إلى درجة جعلت حامد كارضاي يقتنع أنه لم يعد هنالك من طريقة أخرى سوى إزالته عن منصبه.

عند ذلك ما كان من بادشا خان سوى إشعال حربه الصغيرة الخاصة به: لذلك بدأ بإطلاق الصواريخ إلى القرى التي كان يختبئ فيها خصومه، وبذلك اشتعلت نيران الحرب بين الزمر والجماعات المختلفة. وقد قتل الكثير من الأبرياء بينما كان يحاول استعادة سلطته الضائعة. وفي النهاية، كان عليه أن يتخلّى عن نضاله، في الوقت الحاضر. وكان بوب يسعى للقاء به منذ وقت طويل، وها هو الآن يجلس على الرمال محاطاً بزمرة من الرجال الذين أطلقوا لحاهم.

يقف بادشا خان عندما يقع نظره عليهما. يحيّي بوب بشيء من البرود، لكنه يعانق تجمير بحرارة، ويدفع به إلى جانبه. "كيف حالك يا صديقي؟ هل أنت بخير؟".

كانوا قد التقوا مرات خلال عملية 'أناكوندا'. وكل ما كان يفعله تجمير هو القيام بترجمة الكلام فقط.

لقد اعتاد بادشا خان حكمَ هذه المقاطعة بالاشتراك مع إخوانه الثلاثة، كما لو أنها فناء منزله الخلفي. فمنذ ستة أسابيع فقط كان قد جعل الصواريخ تنهمر فوق بلدة غارديس. والآن جاء دور بلدة خوست. لقد تمّ تعيين حاكم جديد، وهو اشتراكي عاش العقد الأخير كله في أستراليا. كان قد ذهب إليها تخفياً جرّاء خوفه من بطش بادشا خان ورجاله.

"رجالي مستعدون"، يصرّح بادشا خان لتجمير الذي يترجم الكلام فيخربشه بوب على دفتره. "إننا الآن نخطّط لما يجب علينا

عمله"، يتابع كلامه ناظراً في اتجاه رجاله. "هل نحسم الأمر معه الآن أم نتروّى؟" يتابع بادشا خان. "هل أنتما ذاهبان إلى خوست؟ إذاً، عليكما أن تخبرا أخي أن يتخلّص من الحاكم بسرعة خاطفة. أن يقول له بأن عليه أن يحزم أمتعته ويغادر كي يلتحق بكارضاي.

هنا يستعمل بادشا خان يديه لتمثيل عملية حزم الأمتعة وعملية الطرد. وينظر الرجال إليه، ثم إلى تجمير، ثم إلى بوب الأشقر المنهمك بشكل محموم بتدوين كل شيء.

"انتبه"، يقول بادشا خان بلهجة ليس فيها من شك حول مَن الذي يعتقد أنه الحاكم الشرعي للمقاطعات الثلاث، المقاطعات التي يراقبها الأميركيون بعيني باشق. ويقوم أمير الحرب باستعمال ساق تجمير وسيلة إيضاح على ما يقصده ويعنيه. فيقوم برسم خرائط، وطرقات، وحدود على فخذه. ويتلقّى تجمير صفعة على فخذه مع نطق كل كلمة؛ وهو يقوم بالترجمة آلياً. وتقوم أكبر أنملة كان قد رآها في حياته بالسعي فوق قدمه.

"كارضاي يهدِّد بإرسال الجيش في الأسبوع القادم. فما الذي ستفعله حول ذلك؟" يسأله بوب.

"أيُّ جيش هذا؟ كارضاي لا يملك أيَّ جيش. ليس لديه سوى بضع مئات من الحراس الشخصيين الذين قام البريطانيون بتدريبهم. لا أحد يستطيع أن يهزمني في منطقتي"، يقول بادشا خان ناظراً إلى رجاله، وهم ينتعلون صنادل عتيقة ويلبسون ثياباً رثّة. أما الجزء اللامع والمصقول منهم فهو أسلحتهم. فبعض المقابض تغطيها صفوف ملونة من الجمان، وبعضها الآخر لها حوافُّ مزخرفة بكل عناية. والعديد من الجنود الشبان زيّنوا كلاشينكوفاتهم ببعض الرسومات والملصقات. وأحد تلك الملصقات زهرية اللون تحمل عبارة "Kiss me".

والعديـــد من هؤلاء الرجال كانوا قد حاربوا في صفوف الطالبان منذ سنة واحدة فقط. "لا أحد يستطيع امتلاكنا، كل ما يستطيعونه هو استئجار خدماتنا"، يقول الأفغان عن أنفسهم، وعن تفسيرهم لتحولهم الـــسريع من جانب لآخر في الحرب. اليوم هم ينتمون إلى بادشا خان؛ وغـــداً قد يقوم الأميركيون باستئجار خدماتهم. وأهم شيء عندهم في الوقت الحاضر هو القيام بقتال كل من يعتبره بادشا خان عدواً له. أما مطاردة الأميركيين لرجال القاعدة فأمر عليه أن ينتظر.

"إنـــه مجـــنون"، يقـــول تجمـــير عندما يعودان إلى السيارة. "إن الأشخاص الذين هم من أشباهه هم المسؤولون عن واقع استحالة عودة الأمـــن والسلام إلى أفغانستان. فبالنسبة إليه إن القوة أهم من السلام. فهو من الجنون بما يكفي لتعريض حياة الألوف من الناس للخطر لمجرد أن يبقى هو في موقع القوة والسيطرة. إنني لا أستطيع أن أتخيَّل الداعي الذي يدعو الأميركيين للتعاون مع رجل مثل هذا الرجل"، يقول.

"إذا كـــان عليهم أن يعملوا مع الأناس الذين أياديهم نظيفة، فإنهم لن يجدوا منهم الكثير في هذه المقاطعة"، يقول بوب. "لا خيار لديهم".

"لكن الناس الآن لم يعودوا مهتمين لأمر مطاردة الطالبان لمصلحة الأميركـــيين، فـــإن أسلحتهم كلها غدت مصوّبة إلى صدور بعضهم بعضاً"، يقول تجمير محتجاً.

"هــــم م م م"، يتمتم بوب. "أعجب أن يكون هنالك أي معارك جدّية"، يقول مخاطباً نفسه أكثر مما هو يتوجه بالكلام إلى تجمير.

فـــتجمير وبوب مختلفان جوهرياً حول مقوّمات الجولة الناجحة. بوب يريد أن يرى أحداثاً تحدث؛ وكلما كانت حامية، كان ذلك هو الأفـــضل. أما تجمير فيريد العودة إلى عائلته في أكبر سرعة ممكنة. فبعد

أيــام قليلة يحتفل هو وخديجة بالذكرى الثانية لزواجهما، وهو يأمل أن يكون عند ذلك الوقت في بيته. فهو يريد أن يفاجئها بهدية رائعة.

أمــا بوب فيريد أحداثاً عنيفة يروي عنها في المجلة؛ أحداثاً تشبه أحــداث الأسبوع الماضي عندما كاد أن يُقتل هو وتحمير بسبب قنبلة يدوية. قنبلة لم تصبهما لكنها أصابت السيارة التي هي خلف سيارتهما. أو كالــشيء الذي حصل لهما عندما اتخذا ملاذاً في الظلام لأن نيراناً صــديقة لم تميّــزهما بينما هما في الطريق إلى غارديس، فكان أن أزّت الرصاصــات بالقرب منهما أزًّا. ومع أنه كان في غاية الخوف والذعر، إلاّ أن تلك الأشياء تجعل بوب يشعر بأنه يؤدّي وظيفة هامة، بينما يقوم تحمير بلعنِ الساعة التي أقدم فيها على تغيير مهنته. فالميزة الوحيدة لمثل تلــك الــرحلات هي الأموال التي تُدفع له كبدل مخاطرة؛ وفيروزة لا تعرف شيئاً عن ذلك، لذلك فهو يحتفظ بهذه الأجور الإضافية لنفسه.

فبالنسبة إلى تحمير، وإلى غالبية سكان كابول، فإن هذا الجزء من أفغانــستان هــو الجزء الذي أقلّ ما يتماثلون معه. فتلك المناطق تعتبر ريفــية وعنــيفة. والأنــاس الذين يعيشون فيها لا يتآلفون مع السلطة الوطنية. فقد تغدو مناطق بكاملها تحت سيطرة بادشا خان وأخيه. لقد كان الحال دائماً هكذا، إنها شرعة الغاب.

يقطعــان أراضــيَ صحراوية عارية. ومن وقت لآخر يشاهدان جماعات من البدو، ومن الجمال، تتهادى متخذة طرقاتها ببطء واعتزاز عبر الرمال والكثبان. وفي أماكن قليلة نصب البدو خيامهم الكبيرة التي هي غبراء بلون الرمال. والنساء في تنانيرهن الملونة الفضفاضة يمشين بين الخيام. ونساء قبيلة كوشي يُنظر إليهن على أساس أنهن الأكثر تحرراً في أفغانستان. فما دمن بعيدات عن المدن، فإن الطالبان لم تكن حتى قادرة على إجبارهن على ارتداء البوركا. لكن تلك القبائل البدوية كانت هي

بــدورها قــد عانت الكثير خلال السنوات الماضية. فبسبب الحروب والألغــام صار على تلك القبائل تعديل الطرقات التي طرقتها منذ مئات الــسنين، وأفرادها الآن يرتحلون ضمن مساحات هي أضيق بكثير من ذي قــبل. كمــا أن الجفاف الذي حلّ في السنوات الماضية قد تسبّب بهلاك الكثير من المواشي والماعز والدواب والجمال.

فالمجــال الطبيعــي يغدو خالياً أكثر فأكثر: فتحتهما الصحراء، وفــوقهما الجبل؛ وكلها ذات ألوان لا تعدو أن تكون تدرُّجات للّون الــبني. وبلمحان، فوق الجبل أنماطاً متعرجة، يتكشّف الأمر بعد ذلك عن أنها شياه، ترعى جنباً لجنب باحثة عن الكلأ في أفاريز الجبل.

ويقتربان من بلدة خوست. وتجمير يكره هذه البلدة، ففيها وجد زعــيم الطالبان المُلاّ عمر أكثر مناصريه ولاءً. وقلما لاحظ السكان في خوست وجوارها أن البلاد قد صارت كلها واقعة تحت حكم طالبان. إذ بالنــسبة إليهم، لم تتغيّر أشياء كثيرة. فالنسوة في خوست لم يخرجن مرة إلى العمل أو إلى المدارس. والبوركا كانت تُلبس منذ عهد بعيد، لا يتذكرونه. وهي لم تكن قد فرضتها السلطات، بل العائلات.

وخوســت بلدة خالية من النساء، على الأقل في الحياة الظاهرة. فبينما كانت النساء في كابول في الربيع الذي أعقب هزيمة الطالبان، قد بدأن بطرح البوركا جانباً، وصار بإمكان المرء أن يرى نساءً في المطاعم مــن وقــت لآخر، فإن النساء في خوست نادراً ما تقع الأنظار عليهن حــتى وهنّ مختبئات وراء البوركا. فهنّ يعشن حياتهن مقفلاً عليهن في الأحواش الخلفية لبيوتهن، لا يغادرنها للتبضع ولا حتى للزيارة. ففي ظل قانون التحجب، يقتضي الفصل التام بين الرجال والنساء.

ويــشق تجمــير وبوب طريقهما إلى كمال خان، الأخ الأصغر لبادشا خان. وكان قد احتلّ مسكن الحاكم، فيما وضع الحاكم المعين

حديثاً نفسه في الإقامة الجبرية تحت حماية كبير المسؤولين الأمنيين. وحديقة الحاكم مليئة بالرجال الموالين لعشيرة خان. فالجنود من جميع الأعمار، ابتداءً من الشبان الصغار النحفاء وصولاً إلى الرجال الكبار الشيّب، بين جالس، ومضطجع، ومتجوّل في الجوار. والجو متوتر ومتلف للأعصاب.

"كمال خان؟" يسأل تجمير.

ويقوم جنديان بإرشادهما إلى القائد الذي يحيط به الرجال. ويوافق كمال خان على إجراء مقابلة صحفية معه فيجلسون. ويصل ولد صغير محضراً الشاي.

"نحن جاهزون للمعركة. وقبل أن يغادر هذا الحاكم المزيف، ويعاد أخي إلى منصبه، فلن يكون هنالك أي هدوء أو سلام". يقول هذا القائد الشاب. ويومئ رجاله بالتصديق على كلامه. بينما يومئ أحدهم بحميّة بارزة. فهو الرجل الثاني في سلّم القيادة بعد كمال خان. وهو يجلس على الأرض متربّعاً، يشرب الشاي ويصغي.

وكمال خان رجل وسيم في العقد الثاني من عمره، ويناضل بما يتفق مع ثقته بنفسه أن حكم هذه المنطقة هو حق من حقوق عشيرة خان.

"إن الناس يقفون في صفّنا. وسنحارب حتى آخر رجل. وليست المسألة بالنسبة إلينا مسألة رغبة في السلطة"، يقول كمال خان بلهجة ملطّفة. "فالمسألة تتعلق بالناس، الناس الذين لا يريدون سوانا. الناس الذين يستحقوننا. وإننا لا نفعل شيئاً سوى القيام بتلبية رغبات الناس".

يتسلق الجدار خلفه عنكبوتان طويلا الأرجل. يأخذ كمال خان جراباً صغيراً من صدريته، ويستخرج منه بعض الحبوب التي يبتلعها. "إنني لست في صحة جيدة"، يقول بعينين تستجديان التعاطف.

هــؤلاء هــم الرجال الذين يناهضون حامد كارضاي. وهؤلاء هم الــرجال الذين يستمرون في الحكم وفقاً لقانون أمراء الحرب. وهم الذين يرفــضون تقبل الأوامر من كابول. فإذا انعدمت الحياة المدنية، فليس للأمر أهمــية كبيرة لديهم. فالسلطة هي الشيء المهم. والسلطة تعني شيئين اثنين: الــشرف - أي أن تحافظ عشيرة خان على مركزها في المنطقة - والمال. وهــذا يعني السيطرة على تجارة التهريب المزدهرة للبضائع الممنوعة، وأخذ الأتاوى للسماح بتمرير البضائع المسموح بها جمركياً.

* * *

والــسبب الذي يجعل المجلة الأميركية شديدة الاهتمام بالنــزاع المحلي في خوست لا يعود أساساً إلى تهديدات كارضاي بإرسال الجيش لمحاربــة زعماء الحرب. فذلك أمر من المحتمل ألاّ يحدث لأنه وكما قال بادشــا خــان: "إذا أرسل الجيش، فإن الناس سوف يقتلون وسوف يتحمل هو الملامة بسبب ذلك".

كلا، بل إن المجلة مهتمة بهذه الصراعات بسبب القوات الأميركية في هذه المنطقة، القوات الأميركية الخاصة السرية التي يصعب الاتصال بهــا. كمــا بسبب العملاء الأميركيين السريين الذين يتحركون حول الجــبال في التفتــيش عن القاعدة. ومجلة بوب تريد مقالاً، مقالاً يتّجه بالــذات إلى موضوع "مطاردة القاعدة". وأكثر ما يرغب هذا المراسل الــشاب الوصــول إليه هو أسامة بن لادن، أو على الأقل، الملاّ عمر. والأميركــيون يــراهنون على هذه الصراعات، ويعملون مع كل من الفــريقين المتصارعين. إذ إنهم يصرفون الأموال إلى الطرفين ويقومون بمــرافقة كــل فريق في مهماته العسكرية، ويمدون الفريقين بالسلاح، وبوســائل الاتصال، وبالدعم الاستخباراتي. ويحافظون على اتصالات وثيقة مع كلا الطرفين، وفي كلا الجانبين ثمة مؤيدون سابقون للقاعدة.

والعــدو اللدود لعشيرة خان يدعى مصطفى. فهو الحاكم الأكبر في خوســت، وهو يتعاون مع كل من كارضاي والأميركيين. وعندما قَـتَل أحد رجاله أربعة من عشيرة خان خلال اشتباك بالنيران مؤخراً، صـار علـى مصطفى الاحتماء في مركز البوليس لعدة أيام. فالرجال الأربعــة الذين يخرجون أولاً من مركز البوليس كانوا مرشحين للقتل، حسب التحذير الصادر عن عشيرة خان. وعندما نفد الطعام والماء من مقاتلـي العشيرة، فإنهم وافقوا على التفاوض. لكنهم اكتفوا بالتفاوض على التأجيل. وهذا لا يعني سوى القليل. إذ بقي أربعة (مجهولون) من جـنود مصطفى تحت وطأة حكم بالإعدام معلق فوق رؤوسهم. حكم يمكـن القـيام بتنفـيذه في أي وقـت. فالدم لا يُثأر له سوى بالدم. والاكتفاء بالتلويح بالثأر فقط، ليس سوى خطة لإطالة التعذيب.

فبعد أن قام كمال خان، وأخوه وزير خان، بوصف مصطفى بأنه مجـرم يقتل النساء والأطفال، ويجب تصفيته، فإن تجمير وبوب يقومان بالانصراف، ويتلقيان مواكبة وداعية إلى البوابة من قِبَل غلامين وسيمين يـبدوان كفـتاتين مـن فتيات جزيرة البحر الجنوبـي. وهما يحدّقان باهتمام نحو تجمير وبوب.

"احــذروا رجال مصطفى"، يقول الغلامان. "لا يمكنكما الأمان مــن شرورهم. وهم سيغدرون بكما حالما تديران ظهريكما. وعليكما ألاّ تخرجا بعد حلول الظلام، إذ سيقومون بسلبكما!".

ويتجه المسافران نحو العدو مباشرة. فمركز البوليس لا يبعد سوى عمـارات قلـيلة عـن المنــزل العائد للحاكم، والواقع الآن تحت الاحــتلال. وهذا المركز هو الآن يضارع السجن. فهو قلعة حصينة، وتبلغ سماكة جدرانه عدة ياردات. ويقوم رجال مصطفى بفتح البوابات الحديديــة الثقيلة ويدخل تجمير وبوب إلى الباحة الخلفية؛ وهناك أيضاً

تفـــوح الرائحة العطرية للأزهار لتحيتهما، لكنها ليست رائحة الأزهار الـــتي يتزيّن بها الغلمان هذه المرة، بل هي رائحة الشتول والشجيرات. ويمكـــن التمييز بسهولة بين جنود مصطفى وبين رجال عشيرة خان. فهـــؤلاء الجنود يلبسون ملابس عسكرية رسمية بنية غامقة، ويعتمرون قـــبعات صغيرة مربعة، وينتعلون أحذية ثقيلة عالية الساق. وعدد منهم يضع نظارات غامقة اللون ومنديلاً يتخرطم به إلى ما فوق أنفه وفمه. فوجوههم المقنّعة تجعلهم يبدون أكثر تهديداً.

ويجـــري اقتياد تجمير وبوب إلى درج ضيّق، وإلى ممرات في تلك القلعة. ويجلس مصطفى في غرفة واقعة في أقصى هذا الحصن. وكما هو الحال مع عدوه كمال خان، يكون هو أيضاً محاطاً بالرجال والسلاح. والأســـلحة هـــي نفسها، واللحى هي نفسها، والنظرات والهيئات هي نفسها أيضاً. وتتدلّى صورة لمكة المكرمة عن جدار الغرفة التي يتخذها الحاكم مقراً له، كما هو الحال في مقر كمال خان. أما الفارق الوحيد: فهـــو أن الحـــاكم يجلس هنا على كرسي خلف طاولة، ولا يقعد على الأرض، هـــذا بالإضافة إلى عدم وجود غلمان حوله متزينين بالأزهار والورود. والأزهار الوحيدة الموجودة في هذا المكتب هي باقة من أزهار الدفلـــى الاصطناعية ذات ألوان صفراء وحمراء وخضراء فاتحة. وقرب المزهـــرية وُضع مصحف من القرآن الكريم، ملفوف بقطعة من القماش الأخضر، كما وُضع على الطاولة نموذج مصغّر عن العلم الأفغاني.

"إن كارضـــاي يقف إلى جانبنا وسوف نحارب"، يقول مصطفى. "لقـــد أفـــسدت عشيرة خان في هذه المنطقة بما يكفي؛ والآن فإننا سنضع حداً لهذه البربرية!" ويقوم الرجال المحيطون به بالإيماء موافقة على كلامه.

ويتـــرجم تجمير، ويترجم. الكلمات نفسها، والتهديدات نفسها. لمـــاذا مصطفى هو أفضل من بادشا خان، وكيف أن مصطفى سيقوم

بـإحلال السلام. وهو في الحقيقة، مثله مثل عدوّه، يوجز السبب الذي يجعل السلام الحقيقي أبعد ما يكون عن أفغانستان.

فمـصطفى انـضمّ إلى جانب الأميركيين في عمليات استطلاع عديـدة حسب الروايات التي يسمعالها هنا، وهو يروي - مصطفى - كـيف أنهم قاموا بمراقبة منـزل كانوا على ثقة من أنه يأوي أسامة بن لادن والملاّ عمـر، لكنهم لم يعثروا فيه على شيء. وأعمال التحري والاستطلاع الأميركية تستمر، لكنها محاطة بالكتمان الشديد، ولا تقدّم أي معلومات أخرى إلى تجمير وبوب. ويسأله بوب إذا كان بوسعهما الانـضمام إلى حملة استطلاع في ليلة ما. لكن مصطفى يضحك. "لا، هـذا أمر بالغ السرية، هذه هي الكيفية التي يريدها الأميركيون. ولن تؤثر في الأمر درجة حرارة رجائك أيها الشاب"، يقول لهما.

"لا تخـرجا بعـد الغسق"، يقول لهما مصطفى آمراً بشدة عند مغادرتهما. "فرجال خان سيصطادونكما".

وبعـد أن يكونا قد أشبعا تحذيراً متبادلاً من كلا الطرفين، يتجه تجمـير وبـوب إلى مطعم الكباب المحلي، وهو كناية عن غرفة كبيرة تفـرش فيها الوُثُر (جمع وثار، وهو الفراش الوطيء الليّن) فوق مقاعد خشبية طويلة. ويطلب تجمير طبقاً من الكباب وآخر من البيلاف، أما بـوب فيطلب خبزاً وبيضاً مسلوقاً. فهو يخشى الطفيليات والجراثيم. يـأكلان في عجل، ويسرعان عائدين إلى الفندق قبل المغيب. ففي هذه البلدة يمكن لأي شيء أن يحدث، ويحسن بالمرء أن يتوقّى حسبما يحذّره كثيرون.

وثمـة حاجـز ثقيل من قضبان الحديد المتصالبة أمام بوابة الفندق الوحـيد في البلدة، ويجري فتحها لهما وإقفالها بعدهما. ويقومان بالنظر نحـو خوسـت حيث المحالّ مغلقة، ورجال البوليس مقنّعون، والناس

متعاطفون مع القاعدة. فنظرة محملقة من أحد المارة في اتجاه بوب كافية لجعل تجمير يشعر بالقلق. وفي هذه المنطقة ثمة جوائز سخية على اصطياد الأميركيين. فكل من يقتل أميركياً يحصل على مكافأة قدرها خمسون ألف دولار.

ويمضيان إلى السطح لنصب الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية الذي يحمله بوب. وتحوم طوافة فوقهما. ويحاول بوب أن يحزر إلى أين يمكن لهذه الطوافة أن تكون متجهة. ويتجمّع أكثر من دزينة من جنود الفندق حولهما، وينظرون في دهشة إلى الهاتف اللاسلكي الذي يتحدث منه بوب.

"أهو يتكلم مع أميركا؟" يسأل رجل طويل نحيل يضع عمّة، ويرتدي ثوب تونيك، وينتعل صندلاً. وتبدو على هذا الرجل ملامح القائد. فيومئ تجمير بالإيجاب، ويتابع الجنود مراقبة بوب. ويتحدث تجمير معهم بأحاديث عارضة؛ فهم مهتمون فقط بالهاتف وبكيفية عمله. فإنهم قلما شاهدوا هاتفاً من قبل. ويهتف أحدهم بصوت حزين قائلاً: "هل تعرفون ما هي مشكلتنا؟ إننا نعرف كل شيء عن أسلحتنا، لكننا لا نعرف شيئاً عن استعمال الهاتف".

وبعد انتهاء حديثه مع أميركا، يهبط بوب وتجمير الدرج، ويتبعهما الجنود.

"هل هؤلاء هم الرجال الذين سوف يقتلوننا عندما يدير كل منا ظهره؟" يقول بوب هامساً.

وكل جندي يحمل بندقية كلاشينكوف، وبعضهم قد ركّز حربة كبيرة على أستون بندقيته. يجلس بوب وتجمير فوق أريكة في ردهة الفندق. وتتدلّى صورة غير عادية فوق رأسيهما. إنها صورة ضخمة مؤطرة لمدينة نيويورك وتبدو فيها صورة البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي،

وهما لا يزالان قائمين، لكن خط الأفق ليس خط الأفق الحقيقي لنيويورك، إذ تقع خلف البنايات جبال عالية محيطة. وفي مقدمة الصورة بدت حديقة كبيرة خضراء ذات أزهار حمراء. ويظهر أن هذه الصورة قد أُلصقت فوق الـــصورة الأصـــلية. فإذا بمدينة نيويورك تبدو أشبه ببلدة صغيرة ذات أبنية خشبية تحت سلسلة الجبال الضخمة.

وتـــبدو هـــذه الصورة كما لو أنها لا تزال معلقة هناك منذ زمن بعـــيد، فهي باهتة الألوان ومتجعدة قليلاً. إذ لا بدّ من أن هذه اللوحة كانت معلقة في مكانها منذ وقت طويل قبل أن يتيقّن أي أحد أن هذه الصورة بالضبط سوف يجري الربط المضحك البشع بينها من جهة وبين أفغانـــستان وهذه البلدة المغبرّة التي هي خوست، من جهة أخرى. وأن هـــذه الـــصورة ستؤدّي إلى تلقّي هذه البلاد المزيد مما هي لم تكن في حاجة إليه من القصف والقنابل.

"أتعرفون اسم هذه المدينة؟" يسألهم بوب.

يهـــزّ الجنود رؤوسهم بالنفي. فهم لم يكد أحدهم أن يكون قد رأى صورة ما هو يتعدّى مبنى طينيًّا مؤلفاً من طابق واحد أو طابقين. ولا بـــدّ مـــن أن يكون من الصعب عليهم أن يفهموا أن هذه الصورة تشير إلى المدينة الحقيقية.

"هذه هي نيويورك"، يقول بوب. "إنها أميركا. وهذان المبنيان هما اللذان أقحم رجال بن لادن الطائرتين فيهما".

يقفـــز الجـــنود واقفـــين. كانوا قد سمعوا بهذين المبنيين. يشيرون ويومـــئون. أهـــذا هـــو شكلهما! يتساءلون لدى انتباههم إلى حقيقة مرورهم قرب هذه الصورة مراراً من قبل دون أن يتيقّنوا لها ولما تعنيه!

وتكـــون إحدى أعداد مجلة بوب معه فيريهم صورة رجل يعرفها كل أميركي.

"هــل تعــرفون مَن هو هذا الرجل؟" يسألهم، فيهزون رؤوسهم بالنفي.

"إنها صورة أسامة بن لادن".

يفتح الجنود أعينهم دهشة وينتزعون المجلة من يديه. ويتجمهرون حولها. وكل واحد منهم يريد النظر إليها.

"هل هذه هي الصورة التي تشبهه؟".

يُؤخذون بكل من الرجل والمجلة.

"إرهابــي"، يقولون عنه ويشيرون إليه مطلقين أصواتاً مستنكرة فــيما هــم يضحكون. فليس ثمة صحف ولا مجلات في خوست ولم يكونــوا قد شاهدوا من قبل صورة أسامة بن لادن، الرجل الذي هو سبب وجود تجمير وبوب في خوست.

يجلــس الجنود، ويستخرجون قطعة كبيرة من الحشيش، يقدمونها إلى بــوب وتجمير. يشمّها تجمير ويعتذر عن قبولها. "قوية جداً"، يقول مبتسماً لهم.

يــذهب المسافران إلى النوم. وتبقى قرقعة البنادق الآلية مسموعة طــيلة الليــل. وفي اليوم التالي يتساءلان عن القصص التي يجب عليهما تتبعها، وكيف يمكنهما الحصول عليها.

يــتجولان في شوارع خوست ويحملقان، لا أحد يقوم بدعوتهما لمرافقة مهامّ عسكرية مهمة أو لمواكبة عملية تفتيش للكهوف بحثاً عن رجــال القاعدة. وفي كل يوم يمران على العدوين اللدودين مصطفى، وكمال خان ليتقصيا عما إذا كان هنالك من أخبار جديدة.

"علــيكما الانــتظار إلى أن تتحسن صحة كمال خان". تكون الرسالة التي يتلقيانها في مسكن الحاكم، الواقع تحت الاحتلال.

"لا شيء جديد اليوم"، يكون رجع الصدى في مركز البوليس.

بادشـــا خـــان اختفى دون أن يترك أثراً وراءه. ومصطفى يقبع مـــرعوباً وراء مكتبه الذي تعلوه باقة الأزهار الاصطناعية. ليس هنالك من إشارات لقرب وصول القوات الأميركية الخاصة. لا شيء يحدث. لا شـــيء ســـوى قرقعة البنادق في كل ليلة، وطائرات الهليوكوبتر التي تحوّم في سماء البلدة. فهما في مكان هو الأكثر عصياناً للقانون في العالم، وهمـــا يـــشعران بالضجر. وفي النهاية يقرّر بوب أن يعود إلى كابول. فيفرح تجمير لهذا القرار في سرِّه: أخيراً سيخرج من خوست ليعود إلى مايكـــرورايون. ســـوف يـــشتري كعكة كبيرة للاحتفال مع زوجته بالذكرى الثانية لزواجهما.

القلب المكسور

انقضت عدة أيام وما زالت ليلى تستقبل الرسائل. رسائل جعلتها تتجمّد لشدة خوفها، فقلبها يخفق في صدرها زيادة عن المألوف، وذهنها ينشغل عن أي شيء آخر. فبعد قراءتها لكل رسالة، تقوم بتمزيقها إلى مزق صغيرة ثم ترميها في الموقد.

والرسائل تجعلها تحلم. تحلم بحياة أخرى. فهذه الكلمات تعطي أفكارها انطلاقة، وتبعث في حياتها السعادة. والمسألتان جديدتان على ليلى. ففجأة، صار في داخل رأسها عالم لم تكن مرة لتدري بوجوده من قبل.

"أريد أن أهرب! أريد أن أطير!" تنادي في أحد الأيام بينما هي تكنس الأرض وراء مكنستها. "أريد أن أخرج من هنا!" يُفلت منها صوتها بينما هي تهوي بمكنستها.

"ماذا تقولين؟" تسألها صونيا التي تنظر إليها من جلستها على الأرض، حيث كانت تحدّق إلى الفضاء، وتحرّك أصابعها فوق نمط الرسومات على وجه السجادة.

"لا شيء"، تجيب ليلى. فهي لم تعد تطيق المزيد. فالبيت أشبه بسجن. "لماذا تحيط الصعوبة هنا بكل شيء؟" تقول متأوّهة. فهي عادة

تكره الخروج، لكنها تشعر الآن أنها لا تطيق البقاء في الداخل. تذهب إلى السوق. تعود بعد ربع ساعة مع كيس من البصل، فتستقبلها نظرات مليئة بالشك.

"أتخرجين من أجل شراء كيس من البصل فقط؟ هل أنتِ شديدة الحرص على استعراض نفسك بحيث تذهبين إلى البازار في الوقت الذي نحن لا نحتاج فيه إلى شراء أي شيء؟" تقول لها شريفة وهي في مزاج ناقدٍ صارم. "عليك في المرة القادمة أن ترسلي أحد الصبيان الصغار لأداء مثل هذه المهمة".

فالتسوّق في الحقيقة هو عمل من أعمال السيدات الكبيرات، فمن غير اللائق بالنساء الشابات أن يقفن من أجل المساومة مع أصحاب الدكاكين أو مع الرجال في السوق. فجميع الدكاكين والأكشاك تعود للرجال، وخلال فترة حكم الطالبان كانت السلطات قد منعت النساء من الذهاب إلى السوق بمفردهن؛ والآن، تقوم شريفة في مزاجها العكر بمنعها من ذلك هي أيضاً.

ولا تردّ ليلى بأي جواب. كما لو أنها مهتمة بالتحدث مع بائع بصل متجول! فهي تستعمل الكيس بكامله لمجرد أن تُري شريفة أن البصل لازم في المطبخ حقاً.

وتكون في المطبخ عندما يعود الأولاد. وتسمع إيمال يتنحنح خلفها وينكمش على نفسه. فتزداد سرعة ضربات قلبها. كانت قد طلبت منه ألاّ يُحضِر لها أي رسائل جديدة. لكن إيمال يدسُّ رسالة في يدها، كما يدسُّ صرة قاسية. تخبئهما تحت ثيابها، وتندفع إلى صندوقها، وتخبّئ كل شيء فيه تحت القفل. وبينما يكون الآخرون مشغولين بتناول طعامهم، فإنها تتسلّل إلى الغرفة حيث تحفظ كنوزها، وبيدين مرتجفتين تفتح الرسالة المطوية.

"عزيزتي ل. عليكِ بإجابتي الآن. قلبي يتحرّق شوقاً إليكِ. أنت رائعة الحسن؛ أتريدين أن تزيلي غمّي، أم أن عليَّ أن أعيش في الظلام إلى الأبد؟ إن حياتي هي بين يديكِ. أرجوكِ أن ترسلي لي علامة. أريد أن ألتقي بكِ؛ أجيبيني. أريد أن أتقاسم الحياة معك. المشتاق إليكِ ك."

أما الصُرّة فتحتوي على ساعة يد لها ميناء أزرق، تحيط به دائرة فضية. تجرّبها على معصمها، لكنها تنزعها ثانية، وبسرعة. فهي لا يمكنها أبداً أن تضعها حول معصمها. وما الذي تستطيع قوله، إذا سألها أحدهم عن الشخص الذي أعطاها هذه الساعة؟ ويحمرُّ وجهها خجلاً. ماذا لو علم إخوتها عن هذا الأمر، ماذا لو علمت أمها؟ وينتابها الخوف والقرف معاً، يا له من عار. فسلطان ويونس سوف يتفقان معاً على احتقارها وإهانتها. فهي بقبولها الرسائل تكون قد ارتكبت عملاً لاأخلاقياً.

"أتشاركينني الشعور نفسه؟" كان قد سألها. لكنها لا تشعر في الحقيقة بأي شيء. فهي يائسة فحسب. وها هي الآن تُفرض عليها حقيقة جديدة. فللمرة الأولى في حياتها يطلب منها شخص ما، أن تجيب، وأن تعبِّر عن رأيها. فهو يريد أن يعرف ما هو شعورها، وما هو رأيها وتفكيرها. لكنها لا تشعر بشيء؛ فهي غير معتادة على الشعور بأي شيء. وهي تُقنِع نفسها بأنها لا تشعر بشيء، لأنها تعرف أن من واجبها ألاّ تشعر بشيء. فالمشاعر ضربٌ من الخزي والعار، هذا ما كان قد أُدخِل في ذهن ليلى بحكم التربية.

لكن كريماً يشعر. وهو كان قد رآها مرة. كان ذلك عندما أوصلت هي وصونيا طعام الغداء إلى الأولاد في الفندق. وقد تمكّن كريم من التقاط لمحة سريعة لها، لكن كان ثمة شيء ما، يحيط بها، شيء

جعلـــه يتـــيقّن أنها هي الإنسانة المناسبة التي يتوق إليها قلبه! إنه الوجه الحنطيُّ المدوّر! والبشرة الجميلة! وتلك العينان!

وكـــريم يعـــيش لوحده في غرفة واحدة، ويعمل لمصلحة شركة تلفـــزيون يابانية. فهو مستوحد. إذ إنه كان قد فَقَد أمه بعدما أودت بحـــياتها شظية قنبلة، كانت قد سقطت في الباحة الخلفية لمنـــزلها أثناء الحرب الأهلية. وقد تزوج والده بعد ذلك بسرعة، من زوجة جديدة. زوجـــة لم يتفق معها كريم. وهي لم تحبه: فهي لا تهتم لأطفال زوجها الـــذين كان قد أنجبهم من زواجه الأول، ولا تنفك عن ضربهم عندما يكون والدهم غائباً. ولم يشتكِ منها كريم مرة. فوالده قد اختارها هي ولم يختر أولاده. فبعد أن انتهى من دراسته، عمل مع والده في صيدليته في جـــلال أبـــاد. ولكن في نهاية الأمر، لم يستطع أن يطيق العيش مع عائلته الجديدة. أما أخته الأصغر منه، فقد زُوِّجت من رجل في كابول، وقد تبعهما كريم ليسكن معهما. وكان قد درس أشياء مختلفة، وكثيرة، ومتبايـــنة في الجامعـــة. وعندما أخلت طالبان كابول، واندفعت إليها جماعات الصحافيين حتى ملأت فنادقها، ودور الضيافة فيها، فإن كريماً ظهـــر وعرض مهاراته في اللغة الإنكليزية على من يشتريها منه بأعلى ســـعر ممكـــن. وكان محظوظاً بحصوله عن وظيفة مع شركة كانت قد افتـــتحت مكتباً لها في كابول، وأعطت كريماً عقداً طويل الأمد براتب جـــيد. وكانت الشركة تدفع إيجار غرفته في الفندق، وهنالك، قُيِّض لكريم أن يتعرف على منصور، وعلى بقية أفراد عائلة خان. لقد أحبَّ هذه العائلة، كما أحبَّ المكتبة التي تمتلكها، كما أحبَّ مستواها المعرفي والاجتماعي. إنها عائلة مناسبة، هذا ما رآه.

فعـــندما وقع نظر كريم على ليلى انسحق قلبه. لكن ليلى لم تعُد إلى الفندق مرة ثانية؛ وفي الواقع فإنها كانت عازفة عن العودة إلى ذلك

الفندق لمرة جديدة، فإنه ليس بالمكان الجيد الذي يمكن أن تُشاهَد فيه فتاة شابة حسب اعتقادها.

ولم يستطع كريم أن يبوح بعشقه لأي كان. فمنصور قد يكتفي فقط بالضحك وتدمير كل شيء. لم يكن هنالك من شيء عظيم الأهمية بالنسبة إلى منصور، كما أنه لم يكن شديد الإعجاب بعمّته على وجه الخصوص.

لم يعرف بالأمر سوى إيمال، وقد أبقى إيمال فمه مُغلقاً. فقد كان إيمال هو مبعوث الغرام الذي اختاره كريم.

فلو كان باستطاعته التقرب أكثر من إيمال، اعتقد كريم، فإنه قد يستطيع أن يعرف المزيد عن العائلة من خلاله. ولقد حالفه الحظ؛ ففي أحد الأيام دعاه منصور إلى الغداء في بيته. وكان من الطبيعي أن يقوم المضيف بتقديم الأصدقاء إلى العائلة. فكريم هو أحد أكثر أصدقاء منصور احتراماً. وقد قام عند حضوره بجُلّ ما يستطيعه من أجل أن يحظى باستقبال جيد: لقد كان جذاباً، وحسن الإصغاء، ولم يُقصّر في امتداح الطعام والثناء عليه. وكان من المهم على نحو خاص أن يجعل الجدة تحبه لأنها صاحبة الكلمة الأخيرة فيما يختص بليلى. لكن الإنسانة التي جاء من أجلها - ليلى - لم تُرِه وجهها أبداً، لقد كانت في المطبخ تطبخ. وكانت شريفة وبلبلة هما من تحملان الطعام إلى السفرة. فشاب من خارج العائلة نادراً ما تتيسّر له رؤية النسوة العازبات. وعندما فرغ من تناول الطعام، ومن شرب الشاي، وصار الجميع على وشك الذهاب إلى النوم، تمكن من التقاط لمحة أخرى لها. فبسبب نظام منع التحول ليلاً، فإن ضيوف العشاء كان يجري استبقاؤهم عادة للمبيت، وكانت ليلى تُعِدّ غرفة الطعام كي تتحوّل إلى غرفة منامة.

لقد قامت بوضع الوُتُر على الأرض بعد أن أزالت عنها البُسط والوسائد. ورتّبت وثاراً إضافياً خاصاً من أجل كريم. والفكرة الوحيدة التي كانت تملأ رأسها هي أن كاتب الرسائل هو الليلة ضيف في شقتهم. وقد ملأه اعتقاد بأنها موافقة، وتابع صلاته قبل أن يذهب الآخرون إلى مضاجعهم. وكانت هي لا تزال هناك حانية فوق الوثاء، وشعرها الطويل مضفور ومغطى بمنديل بسيط. عاد قافلاً من الممر وهو مندهش ومضطرب العواطف. لكن ليلى لم يبدُ أنها قد شعرت بوجوده. وطوال تلك الليلة بقيت تراود ذاكرة كريم صورتها وهي حانية فوق الوثار. وفي صباح اليوم التالي لم تتسنَّ له رؤيتها، رغم أنها هي التي كانت قد أحضرت الماء له كي يغتسل، وهي التي قامت بقلي البيض له، وهي التي أعدّت الشاي الذي شربه. بل هي التي قامت حتى بتلميع حذائه بينما هو راقد.

وفي اليوم التالي قام بإرسال أخته إلى نساء عائلة خان. فعندما يعثر أحدهم على صديق جديد، فلا يكون هو وحده الذي يُقدّم إلى العائلة بل يُقدّم إليها أيضاً أقاربه. وأخت كريم هي أقرب الأقرباء إليه. وهي تعلم بأمر افتتان كريم بليلى، وتريد الآن أن تتعرف إلى العائلة معرفة وثيقة. وعندما عادت إلى بيتها أخبرت كريماً بكل ما كان يعرفه من قبل. "إنها ذكية ونشيطة. إنها جميلة وفي صحة جيدة. والعائلة عائلة راقية تماماً. وهذا الزواج سيكون زواجاً متكافئاً مناسباً".

"ولكن ماذا قالت لكِ؟ وكيف هي؟ وكيف تبدو لكِ؟" أصغى كريم إلى الإجابات مرة بعد أخرى، بما في ذلك الجواب الباهت الذي يتعلق بوصف ليلى. "إنها فتاة كريمة، مُرضية، كما سبق وأن قلت لكَ"، قالت له في النهاية. ولأن كريماً لم يعد له أم، فإنه كان يترتب على أخته الأصغر منه أن تتولّى دور الخاطبة لمصلحته. لكن الوقت كان لا يزال

مبكراً جداً؛ إذ إن الأمر يحتاج أولاً إلى أن تقوم أخته بالتعرف إلى هذه العائلة بشكل أعمق، حيث لم تكن قرابة ما تربطهم بها. وما دام أن لا قـرابة عائلـية سابقة موجودة، فإن أغلب الظن أن جواب أهل البنت سيكون أولاً بالنفي.

وبعـدما قامت الأخت بزيارتهم، فإن كل واحد في العائلة ابتدأ يضايق ليلى بخصوص كريم. ولكن ليلى ادّعت أنها لم تفهم شيئاً. كما ادّعـت عـدم المبالاة، مع أنها كانت تشتعل في الداخل. إن عليهم ألاّ يعـرفوا شـيئاً عن الرسائل. لقد كانت غاضبة لأن كريماً قد عرّضها للخطر. وكانت قد قامت بسحق الساعة بحجر، وبرميها بعيداً.

فقـبل كـل شيء كانت في خشية من أمرها أن يكتشف يونس شـيئاً عـن ذلـك. فبين جميع أفراد العائلة، فإن يونس كان هو أكثر المتمسكين بالطريقة الإسلامية في الحياة، مع أنه لم يكن حتى يتّبعها هو نفسه بطريقة كاملة. فكان هو أيضاً الشخص الذي تخصّه بأكثر حبها. وقد خشيت أن يظن بها ظن السوء إذا عرف أنها قد تقبّلت أي رسائل. وعـندما عُـرض عليها وظيفة بدوام جزئي بسبب قوة معرفتها باللغة الإنكليـزية، فإنه كان قد منعها من تسلُّم تلك الوظيفة. فهو لم يستطع تقبُّل فكرة قيام أخته بالعمل جنباً إلى جنب مع الرجال.

ولا تـزال ليلى تتذكر حديثها معه حول جميلة. إذ كانت شريفة قد أخبرتها عن موت تلك الفتاة اختناقاً.

"مـاذا عـنها؟" تساءل يونس. "أتعنين الفتاة التي ماتت بسبب تعرضها لصدمة كهربائية من مروحة كهربائية معطّلة؟".

فـيونس لا يدري شيئاً عن أن رواية المروحة الكهربائية هي مجرّد كذبة مركبة، وأن جميلة إنما كانت قد ماتت بسبب أن عشيقها قد قام بزيارة غرفة نومها في الليل. هنا أطلعته ليلى على الرواية كاملة.

"شـــيء رهيب، شيء رهيب"، قال معقباً. فأومأت ليلى برأسها إيجاباً.

"كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟" أضاف قائلاً.

"كيف استطاعت هي؟" قالت ليلى متعجبة. إذ كانت قد أساءت فهم التعبير الذي بدا على وجهه، حتى إنها حسبت أنها استجابة غاضبة حـــزينة منه للمصير الذي آلت إليه جميلة، بعد أن تمّ خنقها على أيدي أخويها بالذات، لكنها كانت في الحقيقة صدمة الغضب، غضبُه لأنها قد سمحت لنفسها بأن يكون لها عشيق.

"لقـــد كـــان زوجها موسراً ووسيماً"، قال وهو لا يزال يرتعد من الغـــضب بعد أن انكشفت له تلك الحقيقة: "يا له من عار"، استمر قائلاً. "وهي تفعلها مع رجل باكستاني. إن هذا يجعلني أكثر إصراراً من ذي قبل، على الزواج من فتاة صغيرة، صغيرة بحيث لا يكون أحد قد قبّلها من قبل. كما أن عليَّ أن أجعل رسنها قصيراً في يدي" قال بكل شدة.

"ولكن ماذا عن عملية القتل؟" سألته ليلى.

"لقد كانت جريمتها هي الأسبق".

وليلـــى أيضاً تريد أن تكون صغيرة، وأن لا يكون أحدٌ قد قبَّلها قـــبل الزواج. فهي في خشية من اكتشاف أمرها. وهي لا تفهم الفرق بـــين أن تكـــون الفتاة خائنة لزوجها، وبين أن تتقبّل رسائل من فتى. فالأمـــران ممـــنوعان، كلاهما أمران سيئان بما يكافئ الآخر، وكلاهما يـــورثان العار إذا ما اكتُشفا. والآن ولأنها بدأت ترى في كريم مخلّصاً ومُـــنقذاً، وطـــريقاً لها للهرب من العائلة، فهي تخشى ألاّ يقوم يونس بدعمه إذا تقدّم لخطبتها.

فمـــن ناحيتها، لم تتحدث مرة عن وقوعها في الغرام. فهي تكاد تكون لم تَرَه إذ لقد اكتفت باستراق النظر إليه من خلف الستارة، كما

أنها رأته من الشباك عندما كان قادماً مع منصور. فهذا الشيء القليل الذي رأته منه إنما هو أمر يمكن تمريره بشكل أو بآخر.

"إنه لا يزال صغيراً"، قالت لصونيا بعد ذلك بوقت قصير. "وهو صغير الحجم، ونحيل، وله ملامح أشبه بملامح الأطفال".

لكنه مثقف، ويبدو لطيفاً؛ وقد يستطيع انتشالها من الحياة التي يجب أن تكون مختلفة بالنسبة إليها. ولكن أفضل ما فيه، هو عدم امتلاكه لأسرة كبيرة، فهي لن تجازف من جديد بأن تصبح خادمة. كما أنه يسمح لها بمتابعة دراستها، وبالحصول على وظيفة. ولن يكون في العائلة سواهما؛ كما أنهما قد يستطيعان السفر معاً، ربما إلى الخارج.

ولم تكن المسألة مسألة نقص في عدد الخاطبين الذين يتقدمون لخطبة ليلى؛ فهي كانت قد تلقّت ثلاثة عروض للخطبة حتى الآن. وجميع العروض من الأقارب، أقارب لم تكن لتريدهم. أحدهم كان ابن عمّة لها، وهو أمّي، وعاطل عن العمل، بل كسول، وخامل، ولا نفع فيه.

أما الخاطب الثاني، فكان ابن وكيل. وهو ابن ضخم أخرق. وهو الآن عاطل عن العمل، ويساعد والده في قيادة سيارة الأجرة.

"كم أنتِ محظوظة، ستحصلين على رجل له ثلاث أصابع"، اعتاد منصور أن يناكدها قائلاً: "إنه ابن وكيل، الابن الذي فَقَدَ إصبعين من يده بينما كان يجوس بأصابعه في محرك سيارة، وهو شخص لم تكن ليلى لتريده ولا لتتمناه. لكن شاكيلا، أختها الأكبر منها، تضغط لإتمام هذا الزواج. فهي تريد أن تبقى ليلى حولها، في الفناء الخلفي لبيتها. لكن ليلى عرفت أن معنى هذا، هو أن تستمر في كونها خادمة. إذ إنها ستكون دائماً تحت إمرة أختها، وسيبقى ابن وكيل دائماً تحت إمرة والده.

وهذا سيعني القيام بغسل ثياب عشرين شخصاً وليس ثلاثة عشر فقــط، كمــا هــو الحال الآن، هذا ما دار في فكرها، وسوف تكون شاكيلا هي سيدة البيت المحترمة؛ بينما ستبقى ليلى هي البنت الخادمة. ومهما حصل، فإنها لن تستطيع الإفلات؛ ومرة جديدة سوف تكون قد وقعت في مصيدة عائلة كبيرة، مثلما هو حال شاكيلا، فراخ، دجاج، وأطفال يدورون طيلة النهار حول تنورها.

أما الخاطب الثالث فهو خالد. وخالد لم يكن أحد أقربائها؛ وهو شاب لطيف. ولدٌ كانت قد نشأت معه، وهي تألفه على وجه العموم. فهو مهذب، وله عينان دافئتان جميلتان. لكن المشكلة تكمن في عائلته. إذ إن لــه عائلــة رهيبة. عائلة كبيرة يصل عدد أفرادها إلى الثلاثين. ووالــده رجل عجوز متشدِّد، كان قد أُفرج عنه لتوِّه من السجن، بعد اعــتقاله على خلفية تهمة له بأنه متعاون مع الطالبان. أما منــزل تلك العائلــة فكان مثل معظم البيوت الأخرى في كابول، قد تعرّض للنهب خلال الحرب الأهلية. وعندما وصل الطالبان، وفرضوا النظام والقانون، فإن والد خالد تقدّم بشكوى تناول بها بعض المجاهدين من أبناء قريته. وقــد تمّ اعــتقالهم وسجنهم لمدة طويلة. وعندما هربت الطالبان فإن هــؤلاء الرجال استعادوا نفوذهم في القرية وانتقموا لأنفسهم من والد خالد عن طريق التسبب بإرساله إلى السجن. "لعله بذلك يتربّى"، قال الكثيرون. "لقد كان أحمق عندما تقدّم بشكواه".

وكــان والــد خالد معروفاً بطباعه الحادة التي لا يمكنه السيطرة عليها. أكثر من هذا، لقد كان له زوجتان لا تنقطعان عن الشجار ولا تكــادان تلتقيان في غرفة واحدة. وهو الآن يفكر في اتخاذ زوجة ثالثة. "إنهمــا تــصبحان كبيرتين بالنسبة إليّ، وعليَّ أن أحصل على زوجة تستطيع أن تجعلني باقياً على شبابــي"، كان العجوز السبعيني قد قال.

وليلـى لا تستطيع احتمال فكرة الانضمام إلى هذه العائلة الفوضوية؛ وخالد ليس بذي مالٍ، وهكذا فإنهما لن يستطيعا أن يبدأا حياة عائلية منفصلة.

أمـا الآن، فإن القدر قد جاد بكريم عليها. فنواياه تعطيها الدفع الـذي تحـتاج إلـيه، كمـا تعطيها سبباً للتعلق بالأمل. فهي ترفض الاستـسلام، وتستمر في النظر إلى الفرص التي تسمح لها بالوصول إلى وزارة التعلـيم؛ وبالتـسجل فيها كمعلمة. وعندما اتضح الأمر أن لا رجـلاً مـن رجال العائلة مستعد لمساعدتها، فإن شريفة تُشفق عليها. وهـي تعـد بالذهاب مع ليلى إلى الوزارة. لكن الأيام تجري دون أن تذهـبا، وهما ليس لديهما موعد. وليلى تفقد أملها، ولكن الأشياء لا تلبث أن تُزهر فجأة. وبطريقة غير اعتيادية.

فقـد كانت شقيقة كريم قد ذكرت له الصعوبات التي تصادفها ليلى في رغبتها بالتسجل كمعلمة. وبعد أسابيع عديدة من الجهد، ولأنه يعـرف الرجل الذي هو الذراع اليمنى لوزير التعليم، فإنه يتمكّن من ترتيب لقاء بين ليلى وبين الوزير الجديد للتعليم، رسول أمين. وتسمح والـدة ليلـى لهـا بالذهاب لأنها قد تتمكّن من الحصول على وظيفة الـتدريس التي طالما تمنّتها منذ وقت طويل. ومن حسن الحظ أن يكون سلطان مسافراً، وحتى يونس لم يفعل شيئاً لتعطيل هذه المساعي. فكل شـيء يسير وفق مشتهاها، فهي تضطجع صاحية طيلة الليل تشكر الله وتدعـوه بـأن يسهّل جميع الأمور معها، من لقائها بكريم، إلى لقائها بالوزير.

فكـان مـن المفترض أن يأتي كريم لمرافقتها عند الساعة التاسعة صباحاً، وليلى تُجرّب، وتنبذ، جميع ملابسها. ثم تُجرّب ملابس صونيا، ثم ملابـس شريفة، لتعود إلى ملابسها الخاصة. وبعد أن يغادر الرجال

البـيت، تستريح النسوة على الأرض، بينما ليلى تدخل عليهن وتخرج كل مرة في زي جديد.

"ضيّق جداً!".

"كثير الزركشة!".

"كثير اللمعان!".

"كثير الشفافية!".

"متّسخ!".

كـــان هنالك شيء ما، سيئ في كل ثوب جرّبته. وليلى لا تملك ســـوى القليل من الملابس تتدرّج بين القديم، والبالي، والمجعّد؛ إن من الكنـــــزات، أو من السترات المزركشة بخيوط الذهب المقلّدة. فهي لا تملك أي ثياب ذات طبيعة مقبولة. ففي المرات النادرة التي تشتري فيها ثياباً لنفسها، يكون ذلك لمناسبة حفلة خطوبة أو عرس. وعندما تكون تلـبس لإحدى المناسبات، فإنها تبدأ عادة بتجريب أكثر الملابس بريقاً لينتهـــي بهـــا الأمر إلى ارتداء قميص أبيض وتنورة سوداء، من ثياب صـــونيا. ولا يؤثـــر ذلك في واقع الأمر كثيراً، لأنها ترمي فوقها شالها الطـــويل الـــذي يغطي رأسها والجزء الأعلى من جسدها إلى ما دون وركيها. لكنها تترك وجهها مكشوفاً. فليلى قد تركت عنها البوركا. فقـــد وعـــدت نفـــسها أنها لن تلبس الحجاب أبداً بعد عودة الملك؛ وأفغانستان يجب أن تصبح عندئذ بلداً حديثاً. ففي صباح يوم من أيام نيـــسان/أبـــريل عندما وضع الملك السابق زاهر شاه قدميه على تراب أفغانستان بعد ثلاثين سنة من المنفى، فإنها قامت بتعليق بوركتها نهائياً، ووعـــدت نفـــسها بألاّ تعود إلى ارتداء ذلك اللباس الدّبق المقرف من جديـــد. أمـــا صونيا وشريفة فقد تبعتا لبس ارتداء الأطقم. ولقد كان الأمـــر ســـهلاً بالنسبة إلى شريفة فهي قد عاشت معظم حياتها البالغة

كاشفة عن وجهها، لكن الأمر كان أصعب بالنسبة إلى صونيا. فهي قد عاشت طيلة حياتها تحت البوركا، لذلك فإنها تردّدت. وفي نهاية الأمر فإن سلطان هو الذي قام بمنعها من متابعة لبس البوركا. "لا أريد زوجة تكون من عصر ما قبل التاريخ؛ فأنتِ زوجة رجل ليبرالي، ولستِ زوجة رجل أصولي".

ففي وجوه عديدة كان سلطان ليبرالياً. فعندما كان في إيران فإنه اشترى لصونيا ملابس غربية. وهو يشير عادة إلى البوركا بأنها قفص ظلامي، وقد كان مسروراً لأن الحكومة الجديدة قد أدخلت بين أعضائها وزيرات. وفي داخلته، كان يريد لأفغانستان أن تكون بلداً حديثاً متمدناً، وكان يتكلّم بحرارة عن تحرير النساء. لكنه بقي في البيت أبوياً سلطوياً. فعندما يأتي الأمر إلى حكم عائلته يكون لسلطان نموذج واحد قديم: إنه والده.

وعندما يصل كريم في نهاية الأمر، فإن ليلى تكون واقفة أمام المرآة متلفعة بشالها، مع بريق في عينيها لم يكن موجوداً من قبل. وتمشي شريفة أمامها. وتكون ليلى متوترة حانية الرأس. تجلس شريفة في المقعد الأمامي وتجلس ليلى في الخلف. تلقي عليه تحية سريعة. وكل شيء يسير سيراً حسناً؛ فهي قلقة ولكن بعض الاضطراب قد ذهب عنها. وهو يبدو وادعاً بالكامل، بل يبدو لطيفاً ومرحاً إلى حدٍّ ما.

ويتحدث كريم مع شريفة عن هذا وذاك من الشؤون: عن أبنائها، وعن الوظيفة، وعن الطقس؛ وهي تسأله عن عائلته وعن عمله. فشريفة ترغب أيضاً في استعادة وظيفتها القديمة كمدرِّسة. ومقارنة مع ليلى، فإن أوراق شريفة مرتبة، وهي لا تحتاج إلى إعادة تسجيل نفسها. أما ليلى فتملك مجموعة متعددة الألوان والأشكال من الأوراق، بعضها آتٍ من مدارس باكستانية، وبعضها آتٍ من دورات لتعليم اللغة

الإنكليزية كانت قد تابعتها في بعض الصفوف، وليس لها خبرة سابقة كمدرِّسة. حتى إنها لم تكمل دراستها الرسمية لنيل شهادة الثانوية العامة. لكن، لا توجد مرشحات أخريات ينافسنها؛ فإذا لم تقم ليلى بالتعليم، فإن المدرسة ستبقى دون معلمة للغة الإنكليزية.

وعندما وصلوا إلى الوزارة كان عليهم الانتظار عدة ساعات لحلول لحظة لقائهم مع الوزير. أما من حولهم فكان هنالك عدد كبير من النساء. فهنَّ يجلسن في الزوايا، وإلى جوانب الجدران، لابسات البوركات، وبدون بوركات. وهن يصطففن أمام العديد من النُّضد. فالاستمارات تلقى إليهن، فيعدن إلقاءها إلى الموظف بعد تعبئتها بالبيانات. والموظفون يعاملوهن بخشونة عندما لا يتحركن بسرعة كافية. فهم يصرخون في وجوه النسوة من وراء المناضد، ويتلقون منهن صرخات مقابلة. ويسود المكان نوع من التكافؤ: الرجال يتجهّمون على النساء، والنساء يصرخن في وجه الرجال. فبعض الرجال، ويبدو من الواضح أنهم موظفون في الوزارة، يدورون حول أكداس من الورق. فيبدو الأمر كما لو أنهم يدورون في حلقات مفرغة، وكل واحد منهم لا ينفك عن الصراخ.

وتجول امرأة مسنّة بدت عليها الحكمة والوقار؛ ومن الواضح أنها لم تجد أحداً يساعدها أو يأخذ بيدها. وعندما تعبت، فإنها جلست على الأرض في إحدى الزوايا، وذهبت تغطّ في نوم عميق. وثمة امرأة أخرى تبكي.

ويستغل كريم فترة الانتظار لمصلحته. فعند مرحلة معينة تغيب شريفة للتحرّي عن بعض الأمور إزاء منضدة ذات خط انتظار طويل. وهنا استطاع الانفراد بليلى للمرة الأولى.

"ما هو جوابك لي؟" يسألها.

"أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أجيبك"، تقول له.

"ولكن ماذا تريدين أن تفعلي؟".

"أنت تعلم أنه لا يمكن أن تكون لي إرادة".

"ولكن أترغبين بـــي؟".

"أنت تعرف أنني لا أستطيع الإجابة عن سؤالك هذا".

"أتقولين نعم إذا تقدّمت لخطبتك؟".

"أنت تعلم من هو الذي يعطيك الجواب".

"هل توافقين على الالتقاء بـــي ثانية؟".

"لا أستطيع ذلك".

"لِمَ لا تكونين أكثر لطفاً معي؟ ألا ترغبين بـــي؟".

"إن عائلتي هي التي تقرِّر ما إذا كنت أرغب بك أم لا".

وليلـــى تـــصبح حانقـــة. كيف يجرؤ على سؤالها عن مثل تلك الأشـياء. ففـــي كل حال، فإن سلطان هو من يقرِّر، أو أمها. ولكنها بالطـــبع راغـــبة به. فهي تحبه لأنه سيكون منقذها. لكنها لا تملك أي مشاعر نحو كريم، فكيف تستطيع الإجابة عن أسئلته؟

وينتظرون مدة ساعات. وأخيراً يُنادى عليهم. يجلس الوزير خلف ســتارة، ويقوم بتحيتهم باقتضاب. يأخذ أوراق ليلى التي تسلمها إليه ويــضع توقيعه عليها دون أن ينظر إليها نظرة واحدة. فهو يوقّع سبعة أوراق، ثم يخرجون بسرعة.

هكذا يعمل المجتمع الأفغاني. عليك معرفة شخصٍ ما، كي تتحرك أمـــورك في الحـــياة: إنـــه نظام يدعو إلى الشلل. لا شيء يحدث دون التواقيع الصحيحة، ودون الأذون الخاصة. لقد وصلت ليلى إلى الوزير، والبعض من سواها قد تتيسر أموره بتوقيع شخص يكون أقل شأناً من الوزيـــر. ولكن بما أن الوزراء يصرفون معظم أوقات نهارهم في توقيع

أوراق لأنـــاس من الذين دفعوا رشوات قبل الوصول إليهم، فإن تواقيع هؤلاء الوزراء تصبح أكثر فأكثر، أقل قيمة.

وليلى تعتقد أنها بسبب حصولها على توقيع وزير، فإن الطريق إلى عـــالم التعلـــيم قد بات سهلاً عليها. لكن يتبيّن لاحقاً أنه ينبغي عليها القيام بطيف من الزيارات الأخرى إلى مكاتب جديدة وإلى كونتوارات وشبابيك أخرى. وعلى وجه العموم، تقوم شريفة بالكلام بينما تجلس ليلى مُطرِقة إلى الأرض، لِمَ يجب أن يكون الأمر على هذه الدرجة من الـــصعوبة عـــندما تكون أفغانستان في حاجة ماسّة إلى معلمات؟ "وفي أمـــاكن كثيرة هنالك مبانٍ للمدارس، وكتب، ولكن لا يتوفّر من يقوم بالتدريس"، قال الوزير. وعندما تصل ليلى إلى المكتب الذي يجري فيه امـــتحان المعلمـــات الجديدات، فإن أوراقها تكون قد صارت مبعثرة وناقصة، فلقد تداولت بها أيدٍ كثيرة جداً.

والامتحان امتحان شفهي، امتحان لاختبار كفاءتها كمعلمة. وفي غـــرفة يجلـــس فيها رجلان وامرأتان خلف طاولة. وبعد الانتهاء من تسجيل العمر، والمستوى الثقافي، فإنه يبدأ طرح الأسئلة.

"هل أنت ضليعة في العقيدة الإسلامية؟".

"لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله" تجيب ليلى.

"كم مرة في اليوم يتوجب على المسلم أن يصلّي؟".

"خمس مرات".

"أليـــست ستّا؟" تسألها المرأة الجالسة وراء الطاولة. ولكن ليلى لا تسمح لنفسها في الوقوع في فخ السؤال.

"قـــد يكـــون ذلك صحيحاً بالنسبة إليك، لكنها خمس صلوات بالنسبة إليّ".

"وكم مرة تصلين في اليوم؟".

"خمس مرات"، تكذب ليلى.

ثم يأتي دور الأسئلة الحسابية التي تقوم ليلى بحلها. ثم يكون هناك معادلة فيزيائية لم تكن قد سمعت ليلى بها من قبل.

"ألا تمتحنونني في اللغة الإنكليزية؟".

يهـزّون رؤوسـهم نفـياً. "تستطيعين الإجابة مثل ما تشائين". يضحكون على نحو ساخر. فليس أحد من اللجنة الفاحصة يستطيع أن يـتكلم اللغة الإنكليزية. وتشعر ليلى أنه يجب ألاّ تعطى الوظيفة لا لها ولا لسواها من المرشحات الأخريات. وينتهي الاختبار بعد نقاش طويل بين أعضاء اللجنة، ثم يتيقنون بأن إحدى أوراقها ناقصة. "عودي ثانية عندما تحصلين على تلك الورقة"، يقولون لها.

وبعد مرور ثماني ساعات في الوزارة، تعود شريفة وليلى إلى البيت يائـستين، ففي مواجهة مثل هؤلاء الموظفين البيروقراطيين، فإن توقيع الوزير نفسه لا يكون كافياً.

"إنـني أتخلّى عن هذا المسعى، فإنني في الحقيقة لا أريد أن أكون معلمة"، تقول ليلى.

"سـوف أساعدك"، يقول كريم مبتسماً. "الآن، وبما أنني ابتدأتُ معك، فإنني سوف أكمل المهمة"، يَعدها. وهنا يلين قلب ليلى قليلاً.

* * *

وفي الـيوم التالي، يذهب كريم إلى جلال أباد ليتشاور مع عائلته. وهناك يخبرهم عن ليلى، وعن نوع العائلة التي تنتمي إليها، وعن رغبته في التقدم لخطبتها. يوافقون، وكل ما يبقى الآن هو أن يقوم بإيفاد أخته للقيام بهذه المهمة. لكن المسألة تتجرجر لوقت طويل. فكريم يخشى أن يُقابَـل طلبه بالرفض، وهو يحتاج إلى كثير من المال من أجل الزواج، والأثـاث، كما أنه يحتاج إلى بيت يسكن فيه. بالإضافة إلى أن علاقته

مـــع منصور قد بدأت تصبح فاترة. فمنصور ما فتئ يتجاهله في الأيام القلـــيلة الماضية، ويلقي عليه التحية باقتضاب أو بمجرد إيماءة من رأسه عـــندما يلتقـــيان. وفي أحد الأيام يسأله كريم إذا كان قد أساء إليه بشيء.

"عليَّ أن أقول لك شيئاً بخصوص ليلى"، يجيب منصور.

"ماذا؟" يسأله كريم.

"لا، إنـــني لا أســـتطيع أن أقول لك شيئاً في نهاية الأمر"، يقول منصور. "آسف".

"ولكن ما الأمر؟" يبقى كريم واقفاً وهو فاغر الفم. "أهي مريضة؟ هل من مكروه قد أصابها؟".

"لا أستطيع أن أفيدك عن هذا الأمر، ولكن لو أنك عرفته، فإنك لن ترغب بأن تتزوج منها بعد ذلك"، يقول منصور. "عليَّ أن أنصرف الآن".

وفي كـــل يـــوم يحاصر كريم منصوراً بالأسئلة حول العيب الذي يشين ليلى. لكن منصوراً يكتفي بالتملّص والانسحاب. فيترجّاه كريم ويصبح غاضباً ومتألماً، لكن منصوراً يأنف دائماً عن الإجابة.

لقـــد كان إيمال قد أخبر منصوراً بشأن الرسائل. وفي الحقيقة فإنه لم يكن ليأبه لأمر قيام كريم بالتزوج من ليلى، بل على العكس. ولكن وكيل كان قد عرف أيضاً بأن كريم يريد التقدم لخطبة ليلى فقام الأخير بالطلب إلى منصور بأن يُبعد كريماً عن ليلى. وعلى منصور أن يفعل ما يطلـــبه مـــنه زوج عمته. فوكيل في نهاية الأمر رحيم العائلة، أما كريم فغريب عنها.

حـــتى إن وكـــيلاً لجأ إلى تهديد كريم. "لقد وقع اختياري عليها لولدي"، قال له. "وليلى ابنة عائلتنا، وزوجتي تريد تزويجها لابني. وأنا

أريـــد ذلـــك أيضاً، وسلطان وأمها سيوافقان على طلبنا. لذلك ومن أجلك أنت بالذات، أطلب منك أن تبقى بعيداً عنها".

وكريم لا يستطيع أن يقول أشياء كثيرة إلى وكيل الأكبر منه سناً. وفرصته الوحيدة تبقى في أن تقاتل ليلى من أجل الحصول عليه. ولكن، هـــل هـــنالك شـــيء ما يعيب ليلى؟ وهل يكون ما ألمح إليه منصور صحيحاً؟

لقد بدأ كريم يشك في مشروع الخطوبة برمّته.

وفي الـــوقت نفـــسه، يقوم وكيل وشاكيلا بزيارة مايكرورايون. وتختفي ليلى في المطبخ كي تُعدّ الطعام. وبعد أن يغادر الثنائي المنـــزل، تقول بيبـــي غول: "لقد طلبا يدك من أجل سعيد".

تبقى ليلى واقفة كالمشلولة.

"لقد قلت إن لا مانع لديَّ شخصياً، لكن عليَّ أن أسألك"، تقول بيبـــي غول.

لقد اعتادت ليلى أن تفعل دائماً كل ما تريده والدها. والآن فإنها لا تقـــول شيئاً. فحياتها مع ابن وكيل ستكون كما هي الآن بالضبط، والفـــارق الوحـــيد هو أنه سيكون لديها المزيد من الأشخاص الذين يتوجب عليها خدمتهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها ستكتسب زوجاً له ثلاث أصابع. رجلاً لم يفتح كتاباً طيلة حياته.

وتغمـــس بيبـــــي غول كسرة من الخبز في الدسم الذي هو في صـــحنها، وتلقـــي بها إلى فمها. ثم تتناول عظمة من صحن شاكيلا، وتمصُّ نخاع العظام الذي بداخلها، بينما هي ترمق ابنتها.

تستـــشعر ليلـــى كيف أن حياتها، وشبابها، وأملها، تفلت منها جميعاً، فهي غير قادرة على استنقاذ نفسها. وتشعر أن قلبها ثقيل، وأنها وحيدة كحجر متروك، تشعر أنها مُدانة، ومنبوذة، ومسحوقة إلى الأبد.

تستدير ليلى، وتتخذ ثلاث خطوات إلى الباب، وتغلقه خلفها بهدوء وتخرج. أما قلبها المسحوق فتتركه وراءها. فقريباً سوف يمتزج بالغبائر التي تهبّ إلى الداخل من خلال الشباك، الغبائر التي تعشش في السجاجيد. في تلك الليلة سوف تكنس قلبها مع جميع الغبائر الأخرى، وتلقي بكل ما تكنسه في الباحة الخلفية للبيت.

خاتمة *

كـل العـائلات السعيدة تشبه بعضها بعضاً. وكل عائلة تعيسة تكون تعيسة بأسلوبها الخاص.

ليو تولستوي؛ آنا كارنينا

بعد أسابيع قليلة من مغادرتي لمدينة كابول، انقسمت العائلة. فثمة جـــدال أدّى إلى شـــجار عنيف. والكلمات التي تمّ تبادلها بين سلطان وزوجتـــيه مـــن جهة، وبين ليلى وبيبـــي غول من جهة ثانية، كانت كلمـــات قاسية قد تجاوزت إمكانية التسوية، بحيث بات من الصعب بعدها الاستمرار في الحياة تحت سقف واحد. ثم جاء يونس إلى البيت بعـــد انتهاء الخصام، فانتحى به سلطان جانباً، وقال له بأن عليه وعلى الأختين وأمهما واجب إظهار الاحترام والتوقير الذي يستحقه هو، لأن سلطان هو كبير البيت ولأنهم يأكلون على سفرته.

وفي الـــيوم الـــتالي، وقـــبل بزوغ النهار، غادرت بيبـــي غول، ويـــونس، وليلى، وبلبلة، الشقة مصطحبين معهم ما يلبسونه من ثياب فقـــط. ولم يعد أحد منهم إلى البيت منذ ذلك اليوم. انتقلوا للعيش مع فريد، شقيق سلطان المنبوذ من العائلة؛ ليعيشوا معه ومع زوجته التي هي حامل في شهرها التاسع؛ ومع أطفاله الثلاثة.

"الإخوان الأفغان ليسوا لطفاء بعضهم مع البعض الآخر"، يستنتج سلطان في مكالمة هاتفية من كابول. "لقد آن الأوان لكي نعيش حيوات مستقلة".

"عندما يكونون يعيشون في بيتي، فإن عليهم أن يحترموني، أليس كذلك؟" يسأل. "فإذا كانت العائلات لا تتقيّد بالقواعد، فكيف يمكننا تكوين مجتمع يحترم القواعد والقوانين، ولا يحترم فقط البنادق والصواريخ؟ إن هذا مجتمع فوضوي؛ إنه مجتمع خارج عن القانون، بعد خروجه مباشرة من حرب أهلية. فإذا لم تكن العائلات ستقودها سلطة، فإننا نستطيع أن نتوقع المزيد من الفوضى القادمة إلينا".

لم تسمع ليلى بأي جديد من كريم. فبعدما فترت علاقاته مع منصور، بات من الصعب عليه أن يقيم اتصالات مع العائلة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه بات على غير يقين من أمره، ومن رغباته. ولقد قُدِّمت له منحة دراسية من مصر كي يدرس عن الإسلام في جامعة الأزهر في القاهرة.

"إنه سيصبح مُلاًّ"، يقول منصور مقهقهاً من كابول عبر خط هاتف مقرقع.

ذهب النجار إلى السجن لتنفيذ حكم لمدة ثلاث سنوات. وكان سلطان عديم الرحمة. "فالمجرمون لا ينبغي تركهم طلقاء في المجتمع. إنني متأكد من أنه قد سرق ما لا يقل عن سبعة آلاف بطاقة بريدية. وكل ما رواه عن عائلته الفقيرة هو مجرد أكاذيب. فوفقاً لحساباتي يجب أن يكون قد جمع أكواماً من المال، لكنه ما زال يخفيها".

أما عقد سلطان لطباعة الكتب المدرسية فقد فشل بكامله بعدما تسرَّب من بين الشقوق؛ إلاّ أن آخر النكسات قد جاءت من جامعة أوكسفورد. وسلطان لم يبالِ بذلك حقاً. "كان يمكن لذلك أن يأتي على آخر رمق من طاقتي. فالطلبية هي بكل بساطة شديدة الضخامة".

عدا عن ذلك، فإن متاجر الكتب لدى سلطان بقيت مزدهرة، وجرى التعويض على سلطان بعقود مربحة عقدها مع إيران؛ وهو أيضاً يبيع الكتب إلى مكتبات السفارات الغربية. وهو الآن يحاول شراء إحدى دور السينما المهجورة في كابول، ليؤسس فيها مركزاً يحتوي على مكتبة لبيع الكتب، وقاعة محاضرات، ومكتبة للقراءة، ومكان يستطيع فيه البحّاثة الوصول إلى مجموعته الواسعة من الكتب. وهو في السنة القادمة يَعدُ بأن يرسل منصوراً في رحلة عمل إلى الهند. "إنه يحتاج إلى تعلُّم تَحَمُّل المسؤولية؛ وهذا سيكون ضرورياً لبناء شخصيته"، يقول. "وربما إنني سأرسل الولدين الآخرين إلى المدرسة". فبالإضافة إلى ذلك، فإن سلطان منح أولاده الثلاثة إجازات في أيام الجمعة من كل أسبوع. إجازات يستطيعون أن يفعلوا فيها ما يشاؤون.

أما الموقف السياسي فلا يزال يُقلق سلطان. "الوضع خطر. التحالف الشمالي قد أُعطي كثيراً من النفوذ على يد المجلس التشريعي "لويا جيرغا"؛ وليس هناك توازن في السلطة. كارضاي ضعيف جداً، وهو غير قادر على حكم البلاد. وإن أفضل شيء ممكن هو أن تكون لنا حكومة تكنوقراط يقوم الأوروبيون بتنصيبها. فعندما نقوم نحن الأفغان بتعيين الحكام، فإن كل شيء يجري بطريقة غير صحيحة. فبدون التعاون، سيعاني الشعب. هذا بالإضافة إلى أن مفكرينا لم يعودوا بعد. وهنالك ثغرة فارغة قد خلّفوها وراءهم".

وقد منع منصور والدته شريفة من أن تشتغل في التعليم. "شيء لا يليق"، هو كل ما يقوله. وسلطان ليس عنده مانع من عودتها إلى العمل من جديد، ولكن طالما أن ولدها الكبير منصور يمنعها، فلا شيء يمكن عمله. كما لم تنتُج أي نتيجة إيجابية في ما يختص بمحاولة ليلى الثانية للتسجُّل كمدرِّسة.

وبلبلة تزوجت من خطيبها رسول في نهاية الأمر. وبسبب انفصال أمه وأخوته عن بيته فإن سلطان قد اختار لنفسه مقاطعة حفل الزفاف، والبقاء في البيت، ومنَعَ زوجتيه، وأولاده من الحضور.

ومريم التي كانت شديدة الخوف من أن تلد ابنة ثانية، ما لبثت أن اتكلت على الله، وأنجبت طفلاً ذكراً. ولم يبقَ في بيت سلطان من النساء سوى صونيا وشريفة. وعندما يكون سلطان وأبناؤه في العمل، فإن الزوجتين تُتركان لوحدهما في الشقة، وهما تتصرفان في بعض الأحيان كأم وابنتها، وفي أحيان أخرى تتصرفان كعدوتين متنافستين. وبعد أشهر قليلة ستلد صونيا، وهي تدعو الله بأن يكون مولودها ذكراً. وقد طلبت مني أن أدعوَ من أجلها أيضاً.

"وماذا إذا جاء المولود طفلة!".

ستحدث كارثة أخرى في عائلة آل خان.